

١١

دراسات

# في الهجاء السياسي

## عند شعراء الشيعة

دعبل الخزاعي • السيد الحميري • ديك الجن


**الدكتور عبدالغنى إيرواني زاده**

**الدكتور جمال طالبي**







نشر مجمع الذخائر الاسلامية / ٢٠١٥ م

بمساعدة جامعة اصفهان

بمناسبة المؤتمر الدولي الأول للتراث المشترك بين ايران و العراق

٢٠١٥ م / ١٤٣٦ هـ




| | | |
|---|---|---|
| سرشناسه | : | طالبی، جمال، ۱۳۵۶ - |
| عنوان و نام پدیدآور | : | دراسات فی الهجاء السیاسی عند شعراء الشیعه (دعبل الخزاعی، السید الحمیری، دیک الجن)/ تالیف جمال طالبی. |
| مشخصات نشر | : | قم: مجمع ذخایر اسلامی، ۱۳۹۳. |
| مشخصات ظاهری | : | ۳۸۱ ص. |
| فروست | : | فی ظلال الموتمر؛ ۱۱. |
| شابک | : | ۹۷۸-۹٦٤-۹۸۸-۷۲٥-۸ |
| وضعیت فهرست نویسی | : | فیپا |
| یادداشت | : | عربی. |
| یادداشت | : | کتابنامه به صورت زیرنویس. |
| موضوع | : | دعبل‌خزائی، ۱۴۸ - ۲۴۶ق. -- نقد و تفسیر |
| موضوع | : | سید حمیری، اسماعیل‌بن محمد، ۱۰۵ - ۱۷۳؟ق. -- نقد و تفسیر |
| موضوع | : | دیک الجن، عبدالسلام‌بن رغبان، ۱۶۱ - ۲۳۵ق -- نقد و تفسیر |
| موضوع | : | شعر سیاسی عربی -- تاریخ و نقد |
| موضوع | : | شعر شیعی عربی -- ۱۳۲ - ۳۳۴ق -- تاریخ و نقد |
| موضوع | : | شعر عربی -- تاریخ و نقد -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. |
| رده بندی کنگره | : | PJA۲۳۴۹/س۹۳۹ ۱۳۹۳ط |
| رده بندی دیویی | : | ۷۱۳/۸۹۲۰۸ |
| شماره کتابشناسی ملی | : | ۳۷۱۳۰۲۳ |

# دراسات في الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة

# (دعبل الخزاعي، السيد الحميري، ديک الجن)

تأليف:

الدكتور عبدالغني ايرواني زاده

الدكتور جمال طالبي

---

في ظلال المؤتمر/١١



مجمع ذخائر اسلامی - قم، ایران
باهمکاری مؤسسه تاریخ علم و فرهنگ

---

**دراسات في الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة**
**(دعبل الخزاعي، السيد الحميري، ديک الجن)**
**تأليف:**
**الدكتور عبدالغني ايرواني زاده**
**الدكتور جمال طالبی**

---

صفحه آرا: روح الله فرهنگ
چاپ: ظهور / صحافی: نفیس
نشر: مجمع ذخائر اسلامی - قم
نوبت چاپ: اول ـ ۱۳۹۳ ش ( ۲۰۱۵م)

**شابك: ٣-٧٥٩-٩٨٨-٩٦٤-٩٧٨**



**ارتباط با ناشر**

قم: خیابان طالقانی ( آذر)- کوی ۲۳ - پلاک ۱ - مجمع ذخائر اسلامی
۷۷۱۳ ۷۶.. ۲۵۳ ۹۸+ دورنگار: ۱۱۱۹ ۷۷۰ ۲۵۳ ۹۸+ همراه: ۰۹۱۲ ۲۵۲ ٤۳۳۵

**نشانی پایگاههای اینترنتی:**

**www.zakhair.net** **www.mzı.ı**

info@zakhair.net info@mzı.ı

---

**قیمت: ۳۳۰۰۰ تومان / ۲۲ دلار**


بسم الله الرحمن الرحیم

# الفهرس

## المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وفضله، والصّلاة والسّلام على رسول الله (ص) البشير النذير المبعوث رحمةً للعالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريک له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله (ص) واستفتح بالذي هو خير.

وبعد...

إنّ أدب الشيعة وأعني به الأدب المعبّر عن عقيدة الشيعة ومناهجها وأصولها الدينية والسياسية مايزال يحتاج إلى من يدفع عنه الكثير من الاتّهامات التي روّجها أعداء هذه الفرقة حيث وصفوا هذا الأدب بالضعف والتقوقع في بوتقة الرثاء والبكاء. هذه اتّهامات باطلة لا أساس لها من الصّحة ولا تنطبق على أدب الشيعة في كثير من جوانبها.

ومن هذا المنطلق تدفع هذه الأطروحة" دراسة الهجاء السياسي في شعر شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول، دعبل الخزاعة والسيّد الحميري وديک الجنّ نموذجاً" ـ بجانب أهدافها والإجابة عن أسئلتها ـ القناع عن المغالطات التي أحاطها أعداء الشيعة بأدبه وشعراءه في هذا العصر وفي العصور الأدبية الأخرى وهي أنّه لم يكن غير مديح آل البيت عليهم السّلام ورثاء من استشهد منهم في جهادهم مع خصومهم. إذ توضّح أنّ شعراء الشيعة في هذا العصر قد استوعبوا المسائل السياسية في عصرهم وفي العصور الأخرى، وأحياناً كثيرة قاموا بنقد السلطة الحاكمة وهجاء الخلفاء والأمراء ووالولاة وأصحابهم، كما أنّهم ثاروا على الظلم والعدوان بقوّة، وتمرّدوا على النظم الفاسدة الجائرة ودعوا إلى الإصلاح والطريق السويّ.

لا شکّ أنّ شعراء الشيعة عبر قرون متمادية من تاريخ الشعر العربي قد لعبوا دوراً هامّاً في إغناءه وتطوّره، ويشهد على ذلک ما ألّفه الباحثون من كتب ورسائل جامعية كثيرة تدرس شعرهم في القرون الأولى من التاريخ الاسلامي وما لهم من تأثير في تطوّر الأغراض الشعرية. فقد حظي شعر الشيعة باهتمام العديد من الباحثين، فتناولوه بالدراسة والتحليل في عصوره المختلفة أذكر من بين هذه الدراسات أهمّها: الأولى كتاب" أثر التشيع في الأدب العربي"

تأليف محمد سيّد كيلاني، فهذا الكتاب وإن درس أثر التشيع في الأدب العربي إلّا أنّه ابتعد في كثير من جوانبه عن روح منهجية وسخر أحياناً كثيرة معتقدات الشيعة. والثانية كتاب"الأدب في ظلّ التشيع" لصاحبه عبدالله نعمة والثالثة "أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني" تأليف عبدالحسيب طه حميدة، والرابعة كتاب"مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها فى الحياة الأدبية"لطه محمد الحاجري.

والكتب الثلاثة الأخيرة أهمّ كتب على صعيد الأدب الشيعيّ، وفي قراءتنا لهذه الكتب وما كتب عن الشيعة اتّضح لنا أنّ جانباً هامّاً من أدب الشيعة أصبح مغفولاً وهو الهجاء السياسي. وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي قدّمت للأدب العربى فيما يرتبط بأدب الشيعة، إنّنا لم نظفر ببحوثٍ خاصّة في هذا العصر تدرس الهجاء السياسي وتجلّي نواحيه وتكشف غوامضه وتظهر للدّارسين مدى ما فيه من تشعّب وابهام، إذ ركّز هؤلاء الباحثون قسماً كبيراً من جهودهم على دراسة المديح والرثاء، وأغفلوا هذا الجانب الهامّ معتقدين أنّ أدب الشيعة أدب المديح والبكاء (انظر الكتب المذكورة آنفاً).

ومن هذا المنطلق أردت أن اجعل بحثي هذا سبيلاً إلى دراسة الهجو السياسي في شعر الشيعة محدداً ذلک في ثلاثة من شعرائها المشهورين في العصر العباسي الأول وهم دعبل الخزاعي والسيد الحميري وديک الجنّ الحمصي.

ولابدّ أن نشير إلى أنّ دواوين الشعراء الثلاث الذين تحدّثنا عنهم كانت لها نسخ مختلفة ذات شروح متباينة، فلذلک اعتمدنا في دراستنا إلى الشروح التالية:

أـ ديوان دعبل الخزاعي تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

ب ـ ديوان السيّد الحميري شرح ضياء حسين الأعلمي، منشورات النور للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

ج ـ ديوان ديک الجنّ تحقيق مظهر الحجّي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٧م.

وقد استعنا لشرح المفردات في هذه الرسالة بكتاب المعجم الوسيط واضطررنا في بعض الأحيان أن نراجع كتاب لسان العرب لابن المنظور وأشرنا إلى ذلك بعبارات جعلناها بين القوسين.

وإذا كانت العادة قد جرت بأن توصف البحوث العلمية ذات القيمة بأنّها مبتكرة فإنّي لست أدّعي أنّ هذا البحث قد استفتح مغاليق الأدب الشيعيّ، ولكنّي أزعم أنّه قد توصل إلى بعض النتائج التي كانت الوسيلة إليها دراسة النصوص الشعرية والأسانيد التاريخية.

وفي الختام أرجو أن أكون بهذا البحث قد أدّيت جزءاً من واجبي وأن أكون أخرجت من هذا الجهد المتواضع نتائج تفيد الأدب العربي عامّة وأدب الشيعة خاصّةً. فإن نجحت في تحقيق ما أردت، فذلك بتوفيق الله وفضله، وإن لم أحقق شيئاً فأطلب العون والتوفيق من الله. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل. والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطاهرين المعصومين.

# الفصل الأول: الحياة السياسية والاجتماعية في العصر العباسي الأول

## نظرة تاريخية إلى نشأة الدولة العباسية

إنّ الأمويين واجهوا طوال خلافتهم عدداً من الثورات قامت بها الفرق والأحزاب المعارضة وخاصّةً الشيعة الذين كانوا يدعون لأهل البيت بصفةٍ عامّةٍ وللإمام عليّ (ع) وأبنائه بصفةٍ خاصةٍ. إنّنا لم نر ولم نسمع لأبناء العباس وأحفاده ثورة في وجه الأمويين، وكلّ ما قاموا به هو إظهار تأييدهم للشيعة وتعاطفهم معهم. إن الانسان يفاجأ بعد هذا كلّه بنجاح العباسيين في الوصول إلى الخلافة دون بني عمومتهم العلويين إثر سقوط الدولة الأموية، فكيف تمّ لهم هذا الأمر؟ وبعبارة أخرى كيف انتقلت الدعوة من العلويين إلى العباسيين؟

إنّ القاعدة الأساسية التي تصدق على أغلبية الثورات السياسية هى أنّها تكون سرّيةً في بداية دعوتها، ولم تكن الثورة العباسية بمستثنىً عن ذلك. ومع أنّ الدولة العباسية قامت سنة ١٣٢ه فإنّها بدأت دعوتها قبل هذا التاريخ بأكثر من ثلاثين سنة، ولو بحثنا عن تاريخ صحيح لإبتداء الدعوة العباسية نستطيع أن نقول إنّها ظهرت سنة ١٠٠ه (٧١٨م) زمن خلافة عمر ابن عبدالعزيز، فاستفاد العباسيون «من التسامح الذي طبع به عهد هذا الخليفة للدعوة لهم»[١] واستفادوا من الأوضاع السائدة، ووفّروا لدعوتهم النجاح، واهتمّوا بالتنظيمات السريّة ووسائل الدعاية والإعلام، وبتأليف قوّة عسكرية. كذلك ينبئنا الطبري أنّ الدعوة العباسية بدأت نفس السنة حين وجّه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس من أرض الشراة ميسرة إلى العراق ووجّه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان، وعليها يومئذٍ الجراح بن عبدالله الحكمي من قبل عمر بن عبد العزيز،

---

١. بيطار، أمينة. تاريخ العصر العباسي، مطبعة جامعة دمشق، دون سنة طبع، ص ٢٠.

وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته[١] غير أنّ الغموض أحاط ببداية ظهور الدعوة العباسية والظروف التي بدأ فيها أوّل مطالب بالخلافة للعباسيين وهو محمد بن علي بن عبدالله بن العباس.

يسوق العباسيون هنا قصة هى إلى الأسطورة أقرب منها إلى الواقع، يفسّرون بها حقّهم الشرعي بالخلافة باعتقادهم، فهم يعتقدون «أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبي طالب إمام الشيعة الكيسانية والملقّب بالمهدي، زار الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وأن سليمان لمس فيه ذكاء ونشاطاً وعلماً وفصاحةً فتخوف منه لعلمه أن الشيعة هم الحزب المنافس لبني أمية، ودسّ من تعقبه وسقاه لبناً مسموماً، وشعر أبوهاشم بالسمّ يسري في بدنه فأدرك أنّه ميّت لا محالة، وكان بالقرب من بلدة الحميمة فعرج عليها، وهناك لقى علي بن عبدالله بن العباس، فأخبره بأنه هالك لا محالة ولا عقب له، وأنّه متنازل له عن حقه في الخلافة وسلّم له زمام الدعوة الكيسانية».[٢]

أوصى عليّ قبل وفاته بالخلافة من بعده لابنه محمد، وقد رأى محمد هذا «أنّ نقل السلطان من بيت إلى بيت لابدّ أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل، وأنّ كلّ محاولة فجائية لابدّ أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير الناس في المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم، فعهد إلى شيعته أن يؤلّفوا دعاة يدعون الناس إلى الرضا من آل البيت، دون أن يسمّوا أحداً خوفاً من بني أمية أن يقضوا على المدعوّ إليه إذا عرف، فرأوا أنّ أحسن منطقة يبثّون فيها الدعوة هى الكوفة وخراسان».[٣]

بدأ العباسيون[٤] حركةً نشطةً بالدّعوة إلى أنفسهم بالخلافة وانتزاعها من الأمويين، وكان

---

١. انظر: الطبري، جـ ٥ ص٣١٦.

٢. العبادي، أحمد مختار. في التاريخ العباسي و الفاطمي، دار النهضة العربية، ص١٩.

٣. الخضري، محمد بك. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، دار المعرفة للطباعة والنشر و التوزيع، الطبعة ٧، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٤.

٤ - ينتسب العباسيون إلى العبّاس عمّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهو العبّاس بن عبد المطّلب " ابن هاشم بن

ذلك أيّام خلافة عمر بن عبد العزيز في عام مائة للهجرة.

كان محمد بن علي بن عبدالله[١] مقيماً بالشّام، وهو الذي بدأ الدّعوة إلى البيت العباسي، وقد أشارت بعض المصادر التاريخية مثل الطبري وابن سعد إلى أنّ الدعوة كانت في الأصل للعلويين إلّا أنّ عبدالله بن محمد بن الحنفية قد سلّم أمر الدعوة إلى محمد بن علي بن عبدالله عندما قربت وفاته. فقد ذكر الطبري أنّ عبدالله بن محمد قال لمحمد بن علي: «يا ابن عمّ إنّ عندي علماً انبذه إليك فلا تطّلِعَنّ عليه أحداً، إنّ هذا الأمر الذي يرتجيه النّاس فيكم. قال: قد علمت فلا يسمعنّه منك أحد».[٢]

وذكر ابن سعد في الطبقات أنّ أبا هاشم بن محمد بن الحنفيّة لما قربت وفاته، أوصى إلى محمد بن عليّ وقال له: «أنت صاحب هذا الأمر وهو في ولدك».[٣]

وأورد ابن قتيبة هذا الأمر أيضاً فذكر أنّ عبدالله بن محمد بن الحنفية ذهب إلى محمد بن علي في الحميمة وقال له: «إليك الأمر».[٤] هناك مصادر أخرى تناولت هذا الأمر وأيّدت مسألة انتقال الخلافة من العلويين إلى العباسيين كالمسعودي في مروج الذهب واليعقوبي في

---

عبد مناف القرشيّ الهاشميّ أبوالفضل المكي عمّ رسول الله (ص) ووالد الخلفاء العباسيين، وكان أسنّ من رسول الله (ص) بسنتين أو ثلاث، أسر يوم بدر فافتدى نفسه بمالٍ، وافتدى ابنى أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث.. ولما أسر وشدّ في الوثاق وأمسى النّاس، أرق رسول الله (ص) فقيل يا رسول الله ما لك؟ فقال: "إنّي أسمع أنين العبّاس في وثاقه فلا أنام" فقام رجلٌ من المسلمين فحلّ من وثاق العبّاس حتى سكن أنينه، فنام رسول الله(ص). ثمّ أسلم عام الفتح وتلقّى رسول الله (ص) إلى الجحفة فرجع معه وشهد الفتح.. .وقد كان رسول الله يجلّه ويعظمه وينزله منزلة الوالد من الولد، ويقول: هذا بقية آبائي، وكان من أوصل النّاس لقريشٍ وأشفقهم عليهم، وكان ذا رأى وعقل تامّ وافٍ.. وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث، مات سنة ٣٢هـ (ابن كثير، جـ ٧ ص١٦٨).

١ – هو «أبو عبدالله محمد بن علي بن عبدالله بن العبّاس بن عبدالمطّلب الهاشمي، وهو والد السفّاح والمنصور الخليفتين الأول والثاني من خلفاء بني العبّاس. كان مولده سنة ٦٠هـ وكان من أجمل النّاس وأعظمهم قدراً. مات سنة ١٢٦هـ وقيل ١٢٢هـ ». (انظر: ابن خلكان، جـ ٤ ص١٨٦ ومابعدها).

٢. الطبري جـ ٦ ص ٧٨.

٣. ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد الهاشمي. الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م، ص ٢٢٨.

٤. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري. عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، جـ٢ ص١٠٩.

تاريخه.

على أيّة حالٍ فإنّ الذي بدأ الدعوة إلى العباسيين هو محمد بن علي الذي أوصى دعاته بأن يتّجهوا إلى خراسان، وقال في وصيّته لهم: «أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف [الحياد] تقول: كن عبدالله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلّا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهلاً متراكماً، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبوبكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم يتوزّعها الدّغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحىً وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فإنّي أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق».[1]

## لماذا خراسان؟

لاشكّ أنّ عوامل تاريخية وعقائدية ونفسية شكّلت من خراسان قاعدة للانطلاق في التحرك ضد الحكم الأموي؛ أمّا الذي ثبت لدى المؤرخين والباحثين هو أنّ منطقة خراسان أصبحت بعد استيلاء الأمويين على الحكم ملجأ لاتباع قيادة المعارضة المتمثلة في أهل البيت عليهم السلام. لقد كان سكان منطقة خراسان الأصليين مجانبين للحكم الأموي مبتعدين عنه، والسبب في ذلك واضح، وهو أن هذا الحكم كان يعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية في حين انهم كانوا يشعرون بعمق حضاري وتاريخي يفوق ما لدى الفاتحين من حضارة وثقافة ومدنيّة.

استعرض محمد بن علي المناطق المختلفة للخلافة الاسلامية حتى يختار مركزاً لبدء

---

١. الخضري، ص١٥.

دعوته، فرأى أهل الشام غارقين في حبّ بني أميّة وطاعتهم، وعرف بوضوحٍ أنّه لا يمكن الاعتماد عليهم في الدعوة، فلذلك رسم خطّة لأنصاره يدعوهم لبدء الدعوة من الكوفة وخراسان. ويمكن أن نلخّص الأسباب التي دفعت العباسيين إلى اختيار الكوفة وخراسان مركزين لدعوتهم فيما يلي:

أـ السبب الأول يعود إلى ما عرفه محمد بن علي من الشجاعة عند الخراسانيين وتذمّرهم من الدولة الأموية، وهذا الأمر يتّضح من كتابه إلى أنصاره حيث يقول: «عليكم بخراسان فإنّ هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدّغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ولحىً وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فإنّي اتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق».[1]

ب ـ كان العباسيون يرون بل يعتقدون ـ إن صحّ التعبير ـ أنّ الرايات السود المؤزارة لأهل البيت (ع) تخرج من خراسان.[2]

ج ـ كان الخراسانيون يُستذلّون ويضامون ويُمتَهنون، لذلك كانوا يشعرون باضطهاد الأمويين، فيطلبون التساوي في الحقوق وتحسين أحوالهم في المعيشة. و«قد عاملهم بنو أميّة معاملة السّادة للعبيد».[3] فكان من الطبيعي أن ينصروا أىّ دعوةٍ تريد أن تقوّض أركان حكومة الأمويين وتقيم حكومةً تمثّل العدالة والمساواة في الحقوق بينهم وبين العرب.

د ـ كانت خراسان بعيدةً عن دمشق مركز الخلافة الأموية، وهذا الأمر يجعل الرقابة عليها صعباً.

ه ـ كان انتشار التشيع في خراسان من الأسباب الهامة في توجيه دعوة العباسيين إليها،

---

١. السابق، ص١٥.

٢. انظر: ابن طباطبا، محمد بن علي. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ص١١٤.

٣. الخضري، ص١٥.

لأنّهم كانوا يؤيّدون خلافة أهل البيت عليهم السلام وكانوا يميلون إلى إعادة الحقّ الإلهيّ إلى أصحابه الحقيقيين، واستقرار حكومة عادلة شاملة تنقذهم من ظلم الأمويين وجورهم الذي أرهقهم وأثقل كواهلهم.

لقد فهم الدّعاة هذه الوصيّة فهماً جيّداً ومن ثمّ بدأوا ينتشرون في أنحاء خراسان والعراق، وقد بعث محمد بن عليّ بغلامه ميسرة إلى العراق ليتولّى أمر الدعوة هناك كما بعث بعدد من الدّعاة إلى خراسان وأمرهم بالدعوة إليه وإلى أهل بيته ووجدت الدعوة استجابةً من قبل بعض الأفراد فبعث ميسرة إلى محمد بن عليّ يعلمه بذلك.[١] كانت الحركة في غاية من السرية والدّقة خوفاً من اكتشاف الأمويين لها، ونظمت طريقة الدعوة بصورة جديدة واُختير عدد من النقباء[٢] بمهمة الدعوة وتنظيمها، كما اختار محمد بن عليّ سبعين رجلاً أيضاً وكتب إليهم كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون على نهجه.[٣] ظلّ الرجال المنتسبون إلى العباسيين يعملون بهذا الكتاب منذ بدء الدعوة إلى أن تمّ لهم النصر في عام ١٣٢ه و«هى السنة التي تمّ فيها النّجاح وبويع فيها لأبي العباس السفّاح».[٤]

## مراحل الدعوة العباسية

لقد مرّت الدعوة العباسية من بدايتها منذ سنة ١٠٠ه بمرحلتين متميّزتين:

**المرحلة الأولى:** كانت هذه المرحلة مرحلة الدعوة واتّباع الأساليب السلمية مع السّريّة التّامة لكسب الأنصار والمؤيّدين. امتدّت هذه الفترة من سنة ١٠٠ه إلى سنة ١٢٧ه.

---

١. انظر: الطبري، ج ٥ ص٣١٦.

٢- هؤلاء النقباء هم: سليمان بن كثير الخزاعي، مالك بن الهيثم الخزاعي، طلحة بن زريق الخزاعي، عمرو بن أعين الخزاعي، عيسى بن أعين الخزاعي، قحطبة بن شبيب الطائي، لاهز بن قريظ التميمي، موسى بن كعب التميمي، القاسم بن مجاشع التميمي، أبوداود خالد بن ابراهيم الشيباني، أبو عليّ الهروي شبل بن طهمان الحنفي، عمران بن اسماعيل المعيطي (انظر: الخضري، ص١٦).

٣. انظر: الخضري، ص١٦.

٤. السابق، ص١٧.

**المرحلة الثانية**: كانت هذه المرحلة مرحلة استخدام القوة المسلحة، كما أنّ الدعوة أصبحت علنيةً، وهي الفترة التي انضمّ فيها أبو مسلم الخراساني[١] إلى الدعوة.[٢] تمتدّ هذه المرحلة من سنة ١٢٧ه إلى ١٣٢ه. كان الدعاة في المرحلة الأولى يجوبون أنحاء خراسان يتمثّلون في لباس التّجار ويخفون الدعوة، إلّا أنّ أمرهم قد انكشف عندما وشى بهم إلى أمير خراسان من قبل الأمويين سعيد بن خذينة بن الحارث الملقب بسعيد خذينة.[٣]

يقول ابن الأثير في أحداث سنة ١٠٢ه: «وفي هذه السنة وَجّه ميسرةُ رسله من العراق إلى خراسان فظهر أمر الدّعاة بها، فجاء عمرو بن بحير بن ورقاء السعدي إلى سعيد بن خزينة فقال له: إنّ ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم، فبعث سعيد إليهم فأتى بهم فقال: من أنتم؟ قالوا أناس من التّجار. قال: فما الذي يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري. قال: جئتم دعاة؟ قالوا: إنّ لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا. فقال: من يعرف هؤلاء؟ فجاء ناسٌ من أهل خراسان أكثرهم من ربيعة. واليمن فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا، إن أتاك منهم شئ تكرهه. فخلّى سبيلهم».[٤] وفي سنة ١٠٥ه التقى بكير بن ماهان بمجموعة من دعاة بني العبّاس في الكوفة حيث ذكروا له أمر دعوة ابن هاشم، فقبل ذلك ورضيه، وأنفق ما معه عليهم، وذهب إلى محمد بن علي. ولمّا توفى ميسرة وجه محمد بن علي بكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة.[٥]

لقد تعرّضت الدعوة العباسية في خراسان إلى أخطار كثيرة رغم أنّها كانت سريّةً، وذلك في

---

١- هو أبو مسلم عبدالرحمن بن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدّعوة العباسية. كان قصيراً أسمر جميلاً نقيّ البشرة، أحور العين عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها، طويل الشّعر، طويل الظهر، قصير السّاق والفخذ، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق، راوية للشعر، عالماً بالأمور، لم يرَ مازحاً ولا ضاحكاً إلّا في وقته....وكانت ولادته سنة مائة للهجرة. قتله المنصور في سنة سبع وثلاثين ومائة (انظر: ابن خلكان، ج ٣ ص١٤٥ و ما بعدها).

٢. انظر: السابق، ص١٧.

٣. انظر: السابق، ص١٨.

٤. ابن الأثير، ابوالحسن علي بن عبدالواحد. الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٤ ص١٨٢.

٥. انظر: الطبري، ج ٥ ص٣٦٧،٣٧٧.

زمن أسد بن عبدالله القسري، الذي ظفر بعددٍ من الدّعاة سنة ١٠٧ه فقطع أيدي من ظفر به منهم وصلبهم.[١] فلمّا بلغ الخبر محمد بن علي، كتب إلى بكير بن ماهان قائلاً: «الحمد لله الذي صدق دعوتكم ومقالتكم وقد بقيت منكم قتلى ستُقتَل».[٢]

ولم يكن للدعوة العباسية في عهد أسد بن عبدالله القسري أثر كبير في خراسان إلى أن عزل منها في سنة ١٠٩ه ثمّ وليها مرّة أخرى فأعاد سيرته الأولى معهم، ولم يتنفّس الدعاة بخراسان إلّا بعد وفاته في سنة ١٢٠ه.[٣] وفي سنة ١٢٦ه وجّه إبراهيم الإمام بكير بن ماهان إلى خراسان حيث قدم إلى مرو وجمع النّقباء والدعاة وأخبرهم بموت محمد بن علي ودعاهم إلى إبراهيم فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بكير إلى إبراهيم الإمام.[٤]

انضمّ أبو مسلم الخراساني في هذه المرحلة إلى الدّعوة العباسية وقد تلقّى أصول التشيّع عن مولاه بكير بن ماهان، ثمّ اتّصل بمحمد بن علي ثمّ بابنه إبراهيم الإمام وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوّة الشخصيّة.[٥] أقام أبو مسلم عند الإمام إبراهيم يخدمه حضراً وسفراً. ثمّ أنّ النقباء عادوا إلى إبراهيم الإمام وسألوه عن رجلٍ أمين يقوم بأمر خراسان، فقال إنّي قد جرّبت هذا الأصبهاني[٦] وعرفت ظاهره وباطنه، فوجدته حجر الأرض، ثمّ دعا أبا مسلم وقلّده الأمر وأرسله إلى خراسان.[٧]

---

١. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٤ ص١٩٧.

٢. السابق، جـ ٤ ص١٩٧.

٣. انظر: الخضري، ص١٩.

٤. انظر: الطبري، جـ ٥ ص٥٩٢.٥٩٣.

٥. انظر: الخضري، ص٢٢.

٦- يبدو ممّا ذكره ابن خلّكان أنّ أبا مسلم كان أصفهانيّاً ولم يكن خراسانيّاً، ونحن لم نحصل على أيّ مصدر ومرجع جعله غير خراساني.

٧. انظر: ابن خلكان، محمد بن أحمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الطبعة ٤، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، جـ ٣ ص١٤٧.

وأوصى إبراهيم الإمام أبا مسلم الوصيّة المشهورة التي ذكرها كثيرٌ من المؤرخين حيث قال له: «يا عبد الرحمن إنّك رجل منّا أهل البيت فاحتفظ وصيّتي، وانظر هذا الحيّ من اليمن فأكرمهم وحلَّ بين أظهرهم فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلّا بهم، وانظر هذا الحيّ من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحيّ من مضر فإنّهم العدوّ القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شئ وإن استطعت ألّا تدعَ بخراسان لساناً عربيّاً فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ [سليمان بن كثير] ولا تعصِه وإن أشكل عليك أمرٌ فاكتف به منّي».[١] لكنّ النقباء الأوائل الذين قاموا بأمر الدعوة لمحمد بن علي كان أكثرهم من العناصر العربية الذين كانوا يسكنون في خراسان، ممّا يشك في مدى صحة هذه الوصية إذ لايمكن أن تقوم الدعوة على يد العناصر العربية ويوصي إبراهيم الإمام أبا مسلم بالقضاء على العرب في خراسان.

لقد تسلّم أبو مسلم الخراساني زمام الدعوة فبدأ مرحلة جديدة من مراحل الكفاح من أجل ترسيخ الدعوة والقضاء على الدولة الأموية في خراسان حيث ذكر الطبري في أحداث سنة ١٢٩هـ أنّه «لم يزل أبومسلم يختلف إلى خراسان حتى وقعت العصبية بها، فلمّا اضطرب الحبل كتب سليمان بن كثير إلى أبي سلمة الخلال يسأله أن يكتب إلى إبراهيم يسأله أن يوجّه رجلاً من أهل بيته فكتب أبو سلمة إلى إبراهيم فبعث أبا مسلم».[٢]

شعر العباسيون من خلال الأحداث التي وقعت أنّ الدعوة وصلت إلى مرحلة متقدمة وأنّه حان الوقت للإعلان بالثورة، كما أنّهم شعروا بأن الأحوال السياسية والاجتماعية في الأنحاء المختلفة تساعدهم على ذلك «فأرسل في سنة ١٢٩هـ كتاباً إلى أبي مسلم مع رايتين أحدهما سمّى اللواء والآخر الطلّ أو الظلّ في روايات أخرى».[٣] وأمره أن يظهر الدعوة أن يوجه إليه

---

١. الخضري، ص٢٢-٢٣.

٢. الطبري، جـ ٧ ص٣٥٣.

٣. السابق، جـ ٦ ص٢٦.

قحطبة بن شبيب بمن معه في الموسم، كما اتخذ العاملون في الدعوة اللون الأسود كشعارٍ لهم[١] بدأ أبومسلم بتنفيذ ما كلّف به فبثّ دعاته في الناس وأمرهم أنّه «قد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم وأن يظهروا السيوف ويجرّدوها من أغمادها ويجاهدوا أعداء الله ومن شغلهم عدوّهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت»[٢] ولمّا أدرك نصر بن سيار والي خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد وأحسّ بأنّه وأعوانه لايستطيعون الوقوف في وجه أصحاب الدعوة، أرسل رسالة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يخبره بما يجري حوله وينذره بالخطر، ويكشف له فيها عن قوّة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان، وصوّر الأوضاع السائدة في رسالة شعرية جاء فيها:

**أرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... ويُوشِكُ أنْ يَكُونَ لَهُ ضِرامُ[٣]**
**فَإنَّ النَّارَ بِالعُوْدَيْنِ تُذْكى ... وإنَّ الحَرْبَ أوَّلُها كَلامُ[٤]**
**فإنْ يَكُ قَوْمُنا أمْسَوْا رُقُوداً ... فَقُلْ هُبُّوا فَقَدْ حَانَ القِيامُ**
**أقُولُ مِنَ التَعُجّبِ لَيتَ شِعْري ... أأَيْقاظٌ أمَيَّةُ أَمْ نِيامُ[٥]**

حاول نصر أن يجمع شمل العرب المنقسمين تحت قيادته لمقاومة هذه الحركة، ووصف الدعوة الجديدة بأنّها لقوم لا دين لهم، وأن غاية الحركة قتل العرب، إلا أنّ خطة نصر هذه لم تنجح، وفشل في جمع العرب تحت لوائه، وازداد مركز نصر ضعفاً في حين كانت قوات أبي مسلم تتزايد، وخاصةً بعد أن انضمّ إليه علي الكرماني، وتوجه أبومسلم بمن تجمع له إلى نصر بن سيار فأخرجه من دار الإمارة في مرو ودخلها في ٩ جمادي الثانية ١٣٠ه وفرّ نصر بن سيار

---

١. انظر: ابن خلدون، أحمد بن محمد. مقدمة ابن خلدون، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١م، ص٢٣٨.

٢. الطبري، جـ ٦ ص٢٥.

٣. الرّماد: ما تخلّف من احتراق المواد. وميض: من ومض البرق إذا لمع خفيفاً وظهر. ضرام: اشتعال النّار.

٤. العودين: اسم ناحية. تذكى: من ذكت النّار إذا اشتدّ لهيبها واشتعلت.

٥. المسعودي، علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت، جـ ٣ ص٢٥٥.

منها.[١]

أدرك مروان بن محمد أن إبراهيم هو صاحب الدعوة العباسية فلذلك طلب من عامله على البلقاء أن يقبض بسرعة عليه، فأُلقِيَ القبضُ عليه و«لمّا علم إبراهيم بما سيؤول إليه مصيره نعى نفسه لأهل بيته، وأوصى إلى أخيه أبي العباس بالإمامة وأمر أهله بالرحيل من الحميمة إلى الكوفة».[٢] وطلب منهم أن يطيعوا أبا العباس، و«انتهت بعد ذلك حياة إبراهيم وهو في سجن بني أمية بحرّان سنة ١٣٠ه ».[٣]

توجه أبوالعباس إلى الكوفة ومعه كبار بني هاشم من ولد العباس، وفيهم أخوه أبوجعفر المنصور، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، وعمّه عبدالله بن عليّ. وفي أواخر سنة ١٣٢ه خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين، ولمّا آلت الخلافة إلى أبي العباس عهد إلى عمه عبدالله بن علي بقتال مروان بن محمد، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه. فرّ مروان إلى الموصل ومن ثمّ إلى حران ثم عبر الفرات نحو فلسطين والأردن فأحلّ به عبدالله الهزيمة ثمّ سار إلى دمشق فحاصرها. بعد ذلك سار مروان إلى مصر فتبعه جنود العباسيين وقتلوه سنة ١٣٢ه وبذلك انتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح.

كانت الدعوة العباسية منذ بداية دعوتها تعتمد اعتماداً كبيراً على العنصر غير العربي، وهي بذلك وضعت يدها على النقطة الحساسة التي يعاني منها غير العرب من الاضطهاد والجور أيام الدولة الأموية، وهذا ما جعل الناس يدعمون الدعوات الخارجة على الدولة الأموية ومنها الدعوة العباسية، فكانت خراسان مهد الدعوة العباسية ومنها انطلقت ثورتهم.

حدثت أمور مهمّة في السنوات السبع التي سبقت سقوط الدولة الأموية منها استقرار

---

١. انظر: الطبري، جـ ٦ ص٥٠٤٦.

٢. ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ ٢ ص١٣٩.

٣. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣ ص٢٥٤.

الأمور في خراسان لأبي مسلم الخراساني داعية العباسيين وقائد جيوشهم، ومنها اختلاف البيت الأموي وانشغاله بالصراعات فيما بينهم. يروي السيوطي أنه لما توفي يزيد بن عبدالملك، كان ابنه الوليد ما زال صغيراً فأوصى بالخلافة من بعده لأخيه هشام، على أن يكون الوليد ابن يزيد خليفة من بعده. ولما توفي هشام في عام ١٢٥ه تقلد الخلافة الوليد بن يزيد وكان فاسقاً ماجناً، وقد استغلّ العباسيون ذلك في دعوتهم ضدّ الأمويين. ثمّ ما لبث أن انقلب الأمويون على الوليد بن يزيد وقتلوه وتولّى الخلافة من بعده يزيد بن الوليد الملقب بالناقص[١] لأنّه نقص الجند من أعطياتهم ولم يتمتع بالخلافة أكثر من ستّة أشهر وأوصى من بعده إلى أخيه إبراهيم بن الوليد الذي لم تستمرّ خلافته أكثر من سبعين ليلة، إذ ثار عليه مروان بن محمد بن الحكم الملقب بمروان الحمار[٢] في عام ١٢٧ه وهكذا بلغ التفكك في الأسرة الأموية حدّاً بحيث تعاقب على الخلافة خلال سنتين فقط (١٢٧ـ١٢٥) أربعة خلفاء، واستمرت خلافة مروان بن محمد حتى أطاح به العباسيون سنة ١٣٢ه.

وقامت الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٢ه وظهر السواد شعار العباسيين ووقف أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس يوضح حق العباسيين في الخلافة ويصفهم بأنهم حماة الإسلام "وأهله وكهفه وحصنه، والقوّام به والذّابون عنه والناصرون له "ثمّ أشار إلى قرابة العباسيين من الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم وأن الله خصّهم «برحم رسول الله وقرابته». ثمّ تلا أبو العباس عدّة آيات قرآنية كريمة تشيد بذوي القربى من الرسول الأعظم (ص).[٣]

---

١. انظر: السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفا، حققه وقدّم له: الشيخ قاسم الشماعي والشيخ محمد العثماني، الطبعة ١، ١٩٨٦م، ص٢٨٥،٢٨٧.

٢. انظر: ابن كثير الدمشقي، أبوالفداء الحافظ. البداية والنهاية، دقق أصوله وحققه: دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون، الطبعة ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٦ ص٢٤٧.

٣. هذه الآيات القرانية الكريمة هي: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويُطهّركم تَطهيراً﴾ [الأحزاب ٣٣:٣٣] و﴿قُلْ لا أسألُكم عليه مِن أجْرٍ إلّا المودّةَ في القُربى﴾ [الشورى:٤٢:٢٣] و﴿وأنذِرْ عَشيرَتَكَ الأقرَبين﴾ [الشعراء

وقال أبو العباس عن الهاشميين: «زعمت السبائية الضلال أنّ غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منّا فشاهت وجوههم. بمَ ولمَ أيّها النّاس وبنا هدى الله النّاس بعد ضلالتهم وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحقّ، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم من كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتمّ بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد النّاس بعد العداوة أهل تعاطف وبرٍّ ومواساة في دينهم ودنياهم وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم».[1]

واعتبر العباسيون تولّيهم الخلافة ميراثاً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقد وقف داود بن عليّ عمّ الخليفة أبي العباس على منبر الكوفة يقول: «الحمد لله، شكراً شكراً شكراً، الذي أهلك عدوّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد».[2]

## توطيد دعائم الدولة العباسية

اتسمت الدولة العباسية منذ بداية نشأتها بتغلغل الصراعات والنزاعات فيها، ولم يكن هذا إلا نتيجة لتعدد مراكز القوى المتنافسة فيما بينها، وقد ظهرت هذه المنافسات في وقت مبكر حتى قبل قيامها في العام ١٣٢ه. ومن أهمّ الأقطاب التي تخلص منها العباسيون منذ بداية عهدهم:

## أبوسلمة الخلال

يعد أبوسلمة الخلال أحد أهمّ دعائم الدعوة العباسية، وكان يميل إلى جعل الخلافة في أبناء الامام علي (ع) ويروي الخضري في محاضراته أنّ أباسلمة قد كاتب بعض أعيان آل عليّ، وهم الإمام جعفر الصادق(ع) وعبدالله المحض وعمر الأشرف، وعرض عليهم البيعة

---

٢٣:٢٦] و﴿ما أفاءَ اللهُ على رَسولِهِ مِن أهلِ القُرى فلِلّهِ وللرّسولِ ولِذي القُربى واليَتامى﴾ [الحشر: ٧:٥٩] و﴿اعْلَمُوا إنّما غَنِمْتُم مِن شَئٍ فإنّ للهِ خُمسه وللرّسولِ ولِذي القُربى واليَتامى﴾ [الأنفال ٤١:٨].

١. الطبري، جـ ٦ ص٨٢.

٢. السابق، جـ ٦ ص٨٣.

للخلافة ولكنّهم رفضوا طلبه[1] وقد أحسّ أبو مسلم بذلك فحقد عليه منذ ذلك الحين، ويذكر ابن كثير أنّه لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد «أراد أبوسلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب فغلبه بقية النقباء والأمراء وأحضروا أبا العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة وذلك بالكوفة، وكان عمره إذ ذاك ستّ وعشرين سنة وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال».[2]

ولمّا تولى الخلافة أبوالعباس السفاح أراد أن يتخلّص من شرّ أبي سلمة الخلال، ولكنّه أراد إطلاع أبي مسلم الخراساني والوقوف على حقيقة موقفه من ذلك. فأرسل إليه أخاه أبا جعفر المنصور، فأخبره بخبر أبي سلمة، فقال أبومسلم: أكفيكموه، وبعث إليه برجل وطلب إليه قتله أينما وجده، ففعل[3] ولم يتمّ الاكتفاء بذلك بل أرسل أبومسلم الخراساني من يقتل عمال أبي سلمة كافة، فتمّ له ما أراد[4] وبذلك تمّ التخلص من أهمّ المنافسين للخليفة العباسي في عهد أبي العباس السفاح.

## عبدالله بن عليّ عمّ أبي العباس السفاح

كان عبد الله بن علي قد قدم الأنبار على ابن أخيه السفاح فأمره على الصائفة فسار في جيش عظيم إلى بلاد الروم، فلمّا كان في أثناء الطريق بلغه موت السفاح، فرجع إلى حرّان ودعا إلى نفسه وزعم أن السفاح كان قد عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون وليّ العهد من بعده.[5]

ولمّا علم عبدالله بن علي بأن المنصور أخذ البيعة بالخلافة لنفسه، أبى ذلك وتسمى

---

١. انظر: الخضري، ص٢٧.

٢. ابن كثير، جـ ١٠ ص ٤٢.

٣. انظر: الخضري، ص٤٩.

٤. انظر: ابن كثير، جـ ١٠ ص٥٦.

٥. انظر: السابق، جـ ١٠ ص٦٣،٦٤.

بالخلافة وهو في حرّان آنذاك[١] فما كان من المنصور إلا أن وجّه إليه أبا مسلم الخراساني في جيش كثيف، وقد التقى الطرفان في حران واقتتلوا خمسة أشهر، وعلى الرغم من أن جيش عبدالله كان أوفر عدداً وعدّةً، إلّا أن جيش الخراسان بقيادة أبي مسلم تمكن من الفتك به وإلحاق الهزيمة به وذلك سنة ١٣٧ه[٢] ولم يجد عبدالله بدّاً من الفرار ففرّ إلى البصرة واختفى عند أخيه سليمان بن علي. ولمّا علم المنصور به أرسل إلى أخيه سليمان بإشخاصه إليه، فجاءه به فحبسه حتى مات سنة ١٤٧ه.[٣]

## أبومسلم الخراساني

بعد هزيمة عبدالله بن علي أصبح أبو مسلم الخراساني صاحب الشوكة والسلطان في الدولة العباسية، فعلى يديه تمّ إخضاع خراسان وإدخالها تحت لواء العباسيين، وهو الذي هزم عبدالله بن عليّ كما ورد سابقاً، وقد تسرّب المنصور كثير من الشكوك حول نفوذ أبي مسلم، فصمّم على هدم هذا الصرح الذي يهدّد ملكه، ويروي الخضري أنه لما بلغ المنصور أن «أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها إذا وردت إليه فصمّم على الفتك بأبي مسلم»[٤] ويذكر الطبري كذلك أن أبا مسلم كان «يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثمّ يلوي شدقه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر فيقرأه ويضحكان استهزاءً»[٥] ومهما تكن الأسباب فإنّ أبا جعفر المنصور صمّم على التخلص من أبي مسلم ليسهل عليه سياسة الناس من دون منافسة. أما الحادثة التي جعلت المنصور يعجل بتنفيذ قرار التخلص من أبي مسلم فهي أنه لما جاء رسول من المنصور إلى أبي مسلم لإحصاء الغنائم التي كسبها بعد هزيمته لجيش عبدالله بن علي، غضب أبو مسلم وهمّ بقتل الرسول وقال: أأكون أميناً على الدماء ولا أكون أميناً على

---

١. انظر: الخضري، ص٥٢.

٢. انظر: الطبري، جـ ٦ ص١٢٥.١٢٦.

٣. انظر: السابق، جـ ٦ ص١٢٧.

٤. الخضري، ص٥٤.

٥. الطبري، جـ ٦ ص١٢٩.

الأموال. ولمّا علم المنصور بذلك اتّخذ قراراً بالتعجيل في حسم قضية أبي مسلم.[١]

فخشى المنصور أن يتوجه أبو مسلم إلى خراسان، ويصبح القضاء عليه أمراً صعباً، فكتب إليه أن يوليه مصر والشام ليكون قريباً من أمير المؤمنين، فغضب أبو مسلم وكتب إلى المنصور: «أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء»[٢] عند ذاك لجأ المنصور إلى الحيلة واتّخذ من الترغيب والترهيب وسيلةً لإحضار أبي مسلم إليه، فجاء إليه أبومسلم وكان المنصور قد أعدّ أربعة من الحرس خلف الرواق، وأمرهم بالخروج وقتل أبي مسلم فوراً بعد أن سمعوا تصفيق الخليفة[٣] وبهذه الطريقة تمّ التخلص من الرجل الذي وهب حياته لخدمة الدعوة العباسية والإطاحة بأعدائها.

وما إن قتل أبو مسلم حتى قام أنصاره وأعوانه بعدّة من الثورات والفتن التي أقضت مضاجع الدولة العباسية، بحيث أعرب أكثر الموالي عن استيائهم الشديد وخيبة أملهم في الحكم العباسي الجديد. عبّر عن ذلك أبو العطاء السندي في قوله:[٤]

**يا ليتَ جَورَ بَنِي مَروانَ عَادَ لَنَا ... يا لَيتَ عَدلَ بَني العَبّاسِ فِي النّارِ**

ثمّ هجاهم ساخراً من استنادهم إلى قرابة الرسول في إثبات حقّهم في الخلافة، فقال:[٥]

**بَنِي هاشِمٍ عُودُوا إلى نَخَلاتِكم ... فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمرِ صَاعَاً بِدِرْهَمِ**[٦]

**فإنْ قُلتُم رهطُ النبيّ وقومُهُ ... فَإنَّ النَّصارى رَهطُ عِيسى بنِ مريم**[٧]

محمدبن عبد الله من آل الحسن بن علي بن أبي طالب(ع)

---

١. انظر: الخضري، ص ٥٤.

٢. الطبري، جـ ٦ ص١٢٥.

٣. انظر: السابق، جـ ٦ ص١٢٧.

٤. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه: الأستاذ سمير جابر، الطبعة ١، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ ١٦ ص٨٤.

٥. السابق، جـ ١٦ ص٨٤.

٦. نخلات: جمع النخلة. يسخر من بني هاشم ويقول: راجعوا إلى النخيل واشتغلوا بإنتاج التمر لأنّ سعره ازداد كثيراً.

٧. الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة. رهط الرّجل: قومه وقبيلته الأقربون.

كان محمد بن عبدالله، وأخوه إبراهيم قد تخلّفا عن الحضور إلى أبي جعفر المنصور عام حَجَّ في عهد ولاية أخيه السفاح، ولم يكونا من بين الهاشميين الذين حضروا إليه، فأضمر المنصور ذلك بنفسه.[١]

وقد اختفى محمد وإبراهيم عن عيون أعوان المنصور الذين حاولوا أن يحصلوا على أخبارهما دون جدوى، فحبس آل عبد الله بن الحسن[٢] ويذكر الطبري أنه لما «ولى أبو جعفر رياح بن عثمان بن حيان المري المدينة، أمره بالجدّ في طلب محمد وإبراهيم ابنيْ عبدالله بن الحسن وقلّة الغفلة عنهما».[٣]

وقد لجأ المنصور إلى الحيلة لإخراج محمد، فكان يكتب له الكتب على ألسنة قوّاده يدعونه فيها إلى الخروج، وأنّ الناس والقواد معه، فوقع محمد في الفخ، فظهر في المدينة ونادى بنفسه خليفة، وكان قد اتفق مع أخيه إبراهيم بالظهور في البصرة على نحو متزامن، لكن إبراهيم تأخر لعلّةٍ أصابته. ومهما يكن من أمر فإن المنصور وجّه جيشاً لمحمد ثمّ لإبراهيم وقضى على ثورتهما، وكان ذلك في عام ١٤٥هـ[٤] وبقتلهما استتبّت سلطة العباسيين، وبذلك عُدَّ المنصورُ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

**الحياة الاجتماعية**

ونقصد بالحياة الاجتماعية دراسة الأوضاع الاجتماعية من ذكر طبقات المجتمع من حيث الجنس وعلاقة كلّ من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثمّ وصف بلاط الخلفاء والوزراء ومجالسهم والأعياد والمواسم والولائم والحفلات ووصف القصور وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

لابدع إذا قلنا إنّ تعدد الأعراق والأجناس هو الميزة الرئيسة للدولة العباسية، ومن جرّاء

---

١. انظر: الخضري، ص٥٧.

٢. انظر: السابق، ص٥٧.

٣. الطبري، جـ ٦ ص١٨٥.

٤. انظر: الخضري، ص٥٩.

ذلك تعقّدت الحياة الاجتماعية والسياسية بسبب تباين الشعوب المنضوية تحت لواء سلطتها، وحدث عقب هذا تغيير خطير في الأخلاق والعادات والمذاهب. من المعروف أنّ الدولة العباسية كانت تضمّ أجناساً مختلفة من الحضارات المعروفة آنذاك بحيث نلمس عناصر مختلفة نذكر أهمّها:

## العنصر العربي

كان العنصر الغالب في العصر الأموي في إدارة شؤون المجتمع حتّى بداية السلطة العباسية، وكان لهم النفوذ والسلطان، وكانوا يتعصّبون للعرب ويضعون الأعاجم في منزلةٍ دون منزلتهم، إلّا أنّ العباسيين والفرس أبعدوهم عن المناصب وقلّلوا نفوذهم في الدولة والخلافة.

## العنصر الفارسي

كان للعنصر الفارسي مكانة عالية عند العباسيين وكان لهم نصيب وافر في قصورهم وكانت مقاليد الخلافة بأيديهم. يكاد يجمع أكثر المؤرخين على أنّهم كانوا عماد النظام السياسي والإداري في الدولة حتّى أبعدهم الأتراك لأنّ العباسيين لم يطمئنوا بالعرب فأبعدوهم عن الحكم والسلطان ومنعوهم عن تسلّم المناصب في السلطة العباسية وأذلّوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدّماء. كان لنفوذ العنصر الفارسي في المجتمع مظاهر خاصّة، أحدها «نقل العاصمة إلى بغداد في العراق لقربها من خراسان موطن الدعوة ونقلهم نظام الفرس الكسروي في الدواوين والسياسة وأساليب الحرب، واقتباس العادات الفارسية في كلّ ناحية حتّى في العيش والطعام، واحتفاءهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان والنيروز وسواهما، ونشر ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم، وكثرة الفرس كذلك في قصور الخلفاء والأمراء والولاة، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة كالوزارة».[١]

## العنصر التركي

كان للأتراك نفوذ سياسي كبير في الدولة العباسية، وقضوا على سلطان الفرس والعرب

---

١. الخفاجي، عبدالمنعم. الآداب العربية في العصر العباسي الأول، الطبعة ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٤.

على حدٍّ سواء. كثرت الجواري من العنصر التركي في قصور الخلفاء ويذكر السيوطي أنّ المعتصم هو أول من استعان بالتّرك وأدخلهم في السّاحة السياسية والعسكرية، فيقول: إنّ المعتصم «اعتنى باقتناء الترك فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد، ويؤذون النّاس، وضاقت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد وقالوا: إن لم تخرج عنّا بجندك

ومع الأسف البالغ فإنّنا نرى أكثر الباحثين والمؤرخين يظلمون الأتراك حينما يصفونهم بأنّهم لم يكونوا أصحاب حضارةٍ وأنّهم كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم[٢] ولم يكتفوا بهذا بل وضعوا أحاديث منحولة على لسان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ليقلّلوا من شأن الأتراك مثل «الترك أوّل من يسلب أمّتي ما خولوا»[٣] والواقع أنّ الأمر لم يكن كما وصفه بيطار بل نرى هذا العنصر كانت له مشاركة ناشطة في شؤون الدولة، وقد ظهر منهم شعراء مطبوعون ووزراء حاذقون. يكفينا أن نرجع إلى رسالة الجاحظ التي كتبها عن فضائل الأتراك والتي عنونها بـ «مناقب الأتراك» حتّى نرى صورتهم الحقيقية.

## العنصر الرومي

كثر العنصر الرومي في المجتمع العباسي ودخلوا في بيوت السادة والمترفين، وكانت قصور الخلفاء تعجّ بغلمانهم وجواريهم، وكان الشعراء يعشقونهم.

## المغاربة

ويدخل فيه الزنوج الذين كانوا يجلبون من سواحل إفريقيا للعمل في الزراعة والصناعة وفي بيوت الطبقات المترفة.

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربي الذي كانت تتألّف غالبية الشعب منه.

---

١. السيوطي، ص٣٧٩.

٢. انظر: بيطار، ص٢٣٤.

٣. انظر: الحموي، ياقوت أبوعبدالله. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، جـ ٢ ص٢٣.

لمّا نشأت السلطة العباسية وانتقلت عاصمة الخلافة من الشّام إلى بغداد، نرى العنصر الفارسي يسود في المجتمع. من جانب آخر اعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس في إدارة شؤون الدولة وحوّلوا إليهم الأمور العسكرية، ومن هنا حدثت منافسة شديدة بين الفرس والعرب، وما إن نصل إلى عصر المعتصم حتّى يظهر العنصر التركي ويستولي على المناصب فيحقد عليهم الفرس والعرب جميعاً و«لم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك، بل تعدّاه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربي نفسه، فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضريين وعرب الجنوب اليمنيين حتّى إنَّ نقلَ المنصور جنده إلى الكرخ جنوبي بغداد كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض».[١]

أدّى الامتزاج بين العناصر المختلفة إلى شيوع العبث والمجون والفساد والالحاد في المجتمع العباسي فأقبل النّاس على مجالس اللّهو والشّراب والغزل بالمذكر ونرى فيما بينهم بعض الخلفاء، وانتشرت الرشوة والخلاعة بين كبار رجال الدولة، وكان للجواري والقيان اللّواتي كثرن في قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء أثر كبير في زيادة الامتزاج والاختلاط، فشاعت في المجتمع كثيرٌ من ضروب معاشرة الجواري للرجال واستخدام الألفاظ القبيحة دون حياء ولا خجل.

كان لهذا الامتزاج بين الأجناس المختلفة أثر عظيم في حياة السلطة العباسية، وقد ظهرت آثاره واضحةً جليّةً في الأخلاق والعادات والتقاليد والمناحي الفكرية ومختلف نواحي المعيشة والحياة المادية، فعلى سبيل المثال نرى العادات الفارسية تنتشر في المجتمع العباسي بسبب الاختلاط في الأطعمة والأشربة وبناء المدن والاحتفال بأعياد الفرس والألعاب الرياضية مثل الشطرنج والنّرد، ويقبل النّاس وحتّى الخلفاء على الألبسة الفارسية من قلنسوة وقباء وسواهما.

---

١. إبراهيم حسن، حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة ١٤، بيروت: دار الجيل، القاهرة: المكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦م، ص٣٢٣.

والواقع أنّ تطور المجتمع في منتصف القرن الثاني بعد قيام السلطة العباسية وإغراقه في المظاهر المادية يمكن أن نتصوره في حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم إذ بدأت حركة بناء القصور المجلّلة منذ خلافة المنصور خاصّةً بعدما بنى مدينة بغداد لأنّ الثروة تدفّقت إليها من كلّ جانب وامتلأت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنّين والموسيقيين و «كانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء، فيتّخذ الخليفة مكانه في صدر الإيوان في القصر، وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أثوابٍ زاهية، ويقف حوله يمنةً ويسرةً كبار رجال الدولة والأعيان»[١] وكان الخليفة الواثق يجيد الغناء إجادةً تامّة لم يسبقه خليفة، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة. يقول صاحب تاريخ الخلفاء: «كان [الواثق] أعلم الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود ورواية الأشعار والأخبار».[٢]

لا بِدْع إذا قلنا إنّ ظاهرة اللهو والترف كانت من ميزات العصر الهامّة حتّى أنّهم كانوا ينفقون الأموال الكثيرة في هذا السبيل، ولم يكن هذا إلّا لإشباع رغبات النّفس وإرضاء دواعي اللهو واللّذة. فلا عجب أن أفرطوا في طعامهم وحفلاتهم إفراطاً شديداً حتّى أنّ حفل الرشيد بزواج زبيدة بنت جعفر أصبح مضرب الأمثال لكثرة البذخ فيه.

في هذا العصر انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشاراً عظيماً على أثر الفتوحات الواسعة التي قام بها المسلمون في مختلف أقطار الدنيا، وهؤلاء كانوا «يكوّنون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع العباسي في العصر العباسي الأول، إذ كان اتّخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً، وكانت سمرقند التي كانت تعدّ من أكبر أسواق الرقيق بيئة صالحة جدّاً لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ماوراء النهر، إذ كان أهلها يتّخذون ذلك صناعةً لهم يعيشون منها».[٣]

---

١. أمير علي،سيد. مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة: رياض رأفت، مكتبة صقلية العربية، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٣٨٧.

٢. السيوطي، ص٣٨٧.

٣. إبراهيم حسن، ص٣٢٥.

كان أبو العباس السّفاح أوّل خليفة عباسي جعل الكوفة عاصمةً لملكه وظلّ أربعة أعوام في الخلافة، واشتهر بالبطش والاستبداد فـ «كانت حياته حياة سفك للدّماء وقضاء على المعارضين» [١] ويتّضح هذا من أوّل خطبة له ألقاها في الكوفة بعد جلوسه على أريكة الخلافة حيث قال: «أنا السّفاح المبيح والثائر المُبير» [٢] وكان قد بنى قصره الجديد في الهاشمية وأراد أن يخرج إليه لتفقده ورؤيته بعد إتمام بنائه، فدعا وفداً من العلويين إلى مرافقته، وتجوّل مع العلويين في حجرات القصر، ثمّ سأل عبدالله بن الحسن عن رأيه في القصر الجديد، فتمثّل عبدالله ببيتين من الشّعر: [٣]

**أَلَمْ تَرَ حَوشَباً قَدْ صَارَ يَبنِي قُصُوراً نَفْعُهَا لِبَنِي نَفِيلَة**
**يُؤَمِّلُ أَنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ فَأَمْرُ اللهِ يُحْدَثُ كُلَّ لَيلَة**

تولّى بعد السّفاح أخوه أبو جعفر المنصور وظلّ خليفةً أكثر من عشرين عاماً وطّد فيها سلطة العباسيين وبنى بغداد عام ١٤٥ه واتخذها عاصمةً له، كما بنى مدناً أخرى، وكان يتّصف بالجدّ. ولمّا مات «أخذ النّاس يشعرون بشيٍ من الرّاحة، وقد أجهدوا أنفسهم في عهده بما يتطلّبه تأسيس دولة من مشقّةٍ وتذليل صعوبات جمّة، وملّوا الإفراط في الجدّ والاقتصاد اللذين اتّصف بهما المنصور، وتطلّعوا إلى حياة فيها سعة في المال، وطرف من النّعيم، فوجدوا ذلك في الخليفة المهدي» [٤] ولا شك أنّ كثرة المال عند غالبية النّاس في كلّ عصر وفي كلّ جيل تدعو إلى التّرف والنّعيم واللّهو واللّعب، ويتلو ذلك فسادٌ وانحراف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. يقول أحمد أمين إنّ المنصور «خلف أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة

---

١. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، قدّم له و علّق عليه: أحمد السيد سيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، مصر، جـ ١ ص١٢٣.

٢. الطبري، جـ ٦ ص٨٣.

٣. ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: محمد عبدالقادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م، جـ ٥ ص٧٤.

٤. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ١ ص١٢٥.

مليون درهم، ففرقها المهدي بين الناس، سِوى ما جُبىَ في أيامه».[١]

كان المهدى يحبّ القيان ويستمتع الحديث عن النساء من غير دعارة، فنرى الجاحظ يقول: إنّ «المهدى كان يحبّ القيان وسماء الغناء، وكان معجباً بجاريةٍ يقال لها جوهر كان اشتراها من مروان الشامي وله فيها شعر».[٢]

وهنا نذكر روايةً تشهد أنّ اللهو واللعب والتهتّك بأوامر الدين كانت شائعةً إلى حدٍّ كبير في السلطة العباسية وأسرتها. روى عن إبراهيم الموصلي، الذي كان يشرب ويستهتر، أنّه قال: «إنّ المهدي دعاني يوماً فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذّل معهم، فقلت يا أمير المؤمنين إنّما تعلّمت هذه الصناعة للذّتي وعشرتي لإخواني، ولو أمكنني تركها لتركتُها وجميع ما أنا فيه لله، فغضب المهدي غضباً شديداً، وقال: لا تدخل على موسى وهارون ألبتّة، فو الله لئن دخلت عليهما لأفعلنّ ولأصنعنّ. فقلتُ نعم. ثمّ بلغه أنّي دخلتُ عليما وشربتُ معهما، وكانا مستهترين بالنّبيذ»[٣] والواقع الذي يجب أن نعترف عليه أنّ المهديّ كان أول خليفة فتح باب اللهو، وأنّه أراد أن يجعل له حدّاً يقف الناس عنده باستخدام القوّة والعقوبة على من تجاوز الحدّ فلم ينجح.

وصل الانحراف في السلطة العباسية إلى ذروته حتّى تورّطت فيه أسرة الخلفاء بحيث نجد عُلَيَّة بنت المهديّ تهوي خادمين يعملان في قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحةً.

تولّى بعد المهديّ ابنه الهادي الذى ظلّ في الخلافة سنةً واحدةً و«كان صاحب شراب ومجون»[٤] وخلفه أخوه هارون الرشيد. اتّخذت ولاية العهد بعد موت هارون الرشيد أبعاداً

---

١. السابق، جـ ١ ص١٢٦.

٢. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان و التبيين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م، جـ ٣ ص٢٠٨.

٣. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ١ ص١٢٩.

٤. الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي البغدادي. تاريخ بغداد أو مدينة دار السلام منذ تأسيسها حتّى سنة

سياسيةً أدّت إلى صراع دمويّ بين ولديه، إذ جعل ولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة «فجعل ابنه محمد الأمين في سنة ١٧٥ه وليّاً لعهده وجعل له ولاية العراق والشام حتّى أقصى المغرب، ثمّ ما لبث أن بايع لابنه عبدالله المأمون في سنة ١٨٢ه بعد أخيه الأمين على أن تكون له ولاية خراسان وما يتّصل بها من الولايات الشرقية، ثمّ استأنف وبايع في سنة ١٨٦ه لابنه القاسم بعد أخيه المأمون ودعاه المؤتمن وجعل له ولاية الجزيرة والثغور"».[١]

تولّى محمد الأمين سنة ١٩٣ه الخلافة بعد وفاة والده[٢] وأجمعت المصادر على أنّه كان كثير اللهو واللّعب منقطعاً إلى ذلك ومنشغلاً به عن تدبير مملكته[٣] حتى أنّ ابن الأثير قال: «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره».[٤] قيل: إنّ الأمين كان يطلب الخصيان ويبتاعهم ويغالب بهم ويصيِّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهم، ففي ذلك يقول أحد الشعراء:

**لَهم مِنْ عُمْرِه شَطْرٌ وشَطْرٌ ... يُعاقِرُ فيه شُرْبَ الخَنْدَريسِ**

**وَما لِلْغانِياتِ لَدَيْهِ حَظٌّ ... سِوى التَقطِيبِ بِالوجْهِ العَبُوسِ**[٥]

**إذا كانَ الرَّئيسُ كَذا سَقِيماً ... فَكَيْفَ صَلاحُنا بَعْدَ الرَّئِيسِ**[٦]

لمّا مات هارون الرشيد، وولى الأمين حدثت فتنةٌ عميقة بينه وبين المأمون للحصول على الخلافة، وكان النصر النهائي للمأمون. وبعد هذه الفتنة بلغ الفسق وضروب المجون

---

٤٦٣ه، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج ٥ ص٣٩٣.

١. بيطار، ص١٠٠.

٢. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء، تحقيق: الدكتور بشّار عوّاد معروف و الدكتور محيي هلال السرحان، الطبعة ٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٩ ص٣٣٤.

٣. انظر: ابن طباطبا، ص٢١٢.

٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص١٣١.

٥. عاقر الخمر: لازمها وداوَمَ عليها. الخندريس: الخمر. الغانيات: جمع الغانية، وهي المرأة الغنيّة بحسنها وجمالها عن الزينة.

٦. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، ج ١ ص١٣٥.

ذروته وظهرت طبقة من النّاس تقطع الطرق وتأخذ الغلمان والنساء والبنات من الطريق بصورةٍ علانيةٍ، وقد تورّط المجتمع العباسي في اللّهو والمجون وانحرف عن كلّ شعائر الدين، بحيث نرى الخليفة غارقاً في مستنقع الشذوذ الجنسي الذي أخذ ينتشر شيئاً فشيئاً. وقد ظلّ الرخاء فترة خلافته يغمر النّاس حيث أصبحت الحياة اغراقاً في اللهو وانحرافاً عن كلّ شعائر الدّين.

وبعد مقتل الأمين جلس المأمون على أريكة الخلافة سنة ١٩٨ه [1] وقد شهد عصره مجموعةً من الأحداث يمكن أن نقول إنّ أهمّها حدثان كان لهما أثر كبير في تطوّر الأمور على الدولة العباسية في عصره:

أوّل هذه الأحداث هى بيعة المأمون للإمام الرضا عليه السّلام بولاية العهد الذي تحدّثنا عنه في الفصل السابق وأغراضه منه، وثانيهما مبايعة أهل بغداد لابراهيم بن المهدي. لمّا تمّت البيعة للإمام الرضا عليه السلام، لم يُرضِ هذا الأمرُ العباسيين، ورفض أهل بغداد كذلك البيعة للإمام وقالوا: «لا نبايع ولانلبس الخضرة ولانخرج هذا الأمر من ولد العبّاس» [2] وجاء ردّ فعلهم عنيفاً إذ خلعوا المأمون الذي كانِ في مرو ولم يحضر في بغداد بعد، وبايعوا إبراهيم بن المهديّ بالخلافة.

وانتهت هذه الفتنة لمّا دخل المأمون بغداد واختفى ابراهيم بن المهديّ مع بعض أعوانه وتراجع المأمون عن موقفه ورجع إلى لبس السّواد.

أدّت الفتنة بين الأمين والمأمون إلى نشأة أزمةٍ في المجتمع العباسي تجرّع الشعب غصصها وخربت بغداد وأصيبت بالبؤس والشقاء، وأثناء هذه الفتنة ومحاصرة طاهر بن الحسين لها وانتشار الفوضى فيها استغلّ العيّارون هذه الفرصة فسرقوا التّجار ونهبوا أموالهم، ممّا اضطرّ بعضهم إلى الجلاء عنها. [3]

---

١. انظر: الذهبي، جـ ١٠ ص٢٧٤.

٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. تاريخ اليعقوبي، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠م، جـ ٢ ص٤٤٨، ٤٤٩.

٣. انظر: الطبري، جـ ٧ ص١٥٠، ١٥٧.

خلف المعتصم أخاه المأمون سنة ٢١٠ه [١] لقد بدأ الانحلال والفوضى يتسرّب في أركان السلطة العباسية منذ خلافته، إذ استخدم الأتراك في إدارة الشؤون الإدارية.

يصف أحدهم شيئاً من قصر الواثق فيقول: «لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلى خدم، حتى أفضيتُ إلى دار مفروشة الصّحن، مُلبَسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذّهب، ثمّ أفضيتُ إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك، وإذا الواثق في صدره على سرير مرصّع بالجوهر، وعليه ثياب منسوجة بالذّهب، وإلى جانبه فريدة جاريته، عليها مثلُ ثيابه وفي حجرها عود». [٢]

ولو قارنّا الحياة في العراق في العصرين الأموي والعباسي لرأينا أنّها كانت تعيش في العصر الأموي حياةً جادّةً في المقارنة بسائر الأقطار كالشّام والحجاز، لكنّ الأوضاع تغيّرت في العصر العباسي، فأصبحت تتمتّع بحياةٍ لاهيةٍ، والسبب في ذلك يعود ـ كما يرى أحمد أمين ـ إلى تدفّق أموالٍ هائلة إليها إثر الفتوحات وتعاقب أمم مختلفة ومدنيات متتابعة عليها. [٣]

والملاحظة الهامة هى أنّ النّاس في العراق وعاصمة الخلافة لم يكن كلّهم يعيشون في رغدٍ، بل نجد اختلافاً كبيراً في الحياة بين الطبقات، وبينما كان الخلفاء وحواشيهم يتمتّعون بنعيم الحياة، كانت عامّة الشّعب يعيشون في الفقر والجوع والبؤس والشقاء. كان أهل الورع والتّقوى يكرهون بغداد بما شاع فيها من الفجور والظلم والعسف، وكان يتمثّل بعضهم بالأبيات التالية: [٤]

| | |
|---|---|
| **قُلْ لِمَنْ أظْهَرَ التّنَسُّك في النّا** | **سِ وأمْسَى يُعَدّ فِي الزّهادِ** |
| **الْزَمِ الثَّغْرَ والتّواضُعَ فيهِ** | **لَيسَ بَغدادُ مَنْزِلَ العُبّادِ** [٥] |

---

١. انظر: ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن. النجوم الزاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، مؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة، ١٩٧٢م، جـ ٢ ص٢٥٠.٢٥١.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٣ ص١٨٤.

٣. انظر: أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ١ ص١٤٣.

٤. الحموي، ياقوت. معجم البلدان، جـ ٢ ص٤٦٤.

٥. الثغر: الفرجة في الجبل ونحوه، والموضع يخاف هجومُ العدوّ منه.

إنّ بَغــــدَادَ لِلْمُلُــــوك مَحَــــلٌّ ومُنَــــاخٌ لِلْقَــــارِئ الصَّــــيَّادِ

بلغ الفساد والفسق في بغداد ذروته، حيث لـم تقـدر السـلطة العباسـية أن تقلّـل مـن حدّتـه فأُرغم الشعب على تأليف فرقة المتطوعة للحدّ من الفساد والبغي. يقـول أحمـد أمـين: «إنّ فسّاق الحربية والشطّار الذين كانوا ببغداد والكـرخ آذوا النّـاس إيـذاءً شـديداً وأظهـروا الفسـق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنّساء من الطرق، لا سلطان يمنعهم ولايُقدَر على ذلـك مـنهم، لأنّ السّلطان كان يعتزّ بهم، وكانوا بطانته فلايقدر أن يمـنعهم مـن فسـق يركبونـه. فلمّـا رأى النّاس ذلك وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقطع الطريق وأنّ السلطان لا يغير عليهم، قام صلحاء كلّ ربَض وكلّ درب فمشى بعضهم إلى بعضٍ»[١] فألّفوا فرقـاً متطوّعـة لتدارك ما يجب أن تقوم به السلطة.

نخلص من ذلك كلّه إلى أنّ السلطة العباسية على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد انحرفت عن المثل العليا السامية التي تحلّت بها الأمة الاسلامية فـي أدوارهـا الأولى من تاريخها، إذ انغمست في المادية وتسابق كبار المسؤولين في الوصول على الدنيا وما فيها.

بهذا نأمل أن نكون قد صوّرنا مدى الانحراف الذي صـار إليـه المجتمـع الاسـلامي بتـأثير الحضارات الأجنبية والبواعث السياسـية والاقتصـادية المختلفـة، ولـم يكـن غرضـنا مـن هـذا العرض إلّا أن نقول إنّ المجتمع الاسلامي يجب أن يرتكز على أسس الـدين القـويم والتّقـوى والمساواة والعمل بكتاب الله وسنّة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى يصل إلى أهدافه المطلوبة السامية.

---

١. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، ج ١ ص١٤٩.

# الفصل الثاني : الهجاء السياسي وتطوّره إلى بداية العصر العباسي الأول

## الهجاء

الهجاء في اللّغة معناه الشّتم بالشعر وهو خلاف المدح، وقد أورد ابن منظور عدّة معانٍ لمادّة " هجو" منها: «هجو يومنا: اشتدّ حرّه، والهجاة: الضفدع، وهَجِئُ البيت هجياً: انكشف، وهُجيت عين البعير: غارت، وقال أبو زيد: الهجاء: القراءة، وقلتُ لرجل من بني قيس: أتقرأ من القرآن شيئاً؟ فقال: والله ما أهجو منه حرفاً، يريد ما أقرأ منه حرفاً».[١] وذكر ابن فارس: «هجاه: إذا وقع فيه بالشعر، وذلك الشعر الهجو. والهجاء: المهاجاة».[٢]

فالمعنى اللغوي للكلمة مَرِنٌ يزيد وينقص، ومدلولها واسع يمكن أن يشمل غيرها من المعاني القريبة لها، فينبغي أن يتطوّر مع تطوّر الفنون الأدبية الأخرى حسب مقتضى الحال.

كثرت المعاني التي وضعت لمصطلح الهجاء قديماً وحديثاً، وتضاربت آراء القدماء والمحدثين فيه، فعرّفه ابن قدامة بقوله: «الهجاء ضدّ المديح، فكلّما كثرت أضداد المديح في الشعر كانت أهجى له، ثمّ تنزل الطبقات على مقدار قلّة الأهاجي فيها وكثرتها»[٣] ويمكن أن نستنبط ممّا ذكرناه أنّ إبداع الهجّاء يتوقف على مقدار إجادته للهجاء كمّاً وكيفاً.

ونرى بعض الباحثين القدماء قد أطلقوا مصطلح الهجاء على الفنّ الأدبي القائم على قذف

---

١. ابن منظور، جمال الدين مكرّم. لسان العرب، نسق و علّق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٠٨م، ذيل مادة هجو.

٢. ابن فارس، أبوالحسين أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، جـ ٦ ص٣٨.

٣. قدامة، ابن جعفر. نقد الشّعر، تحقيق: عبدالمنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص١١٣.

الأشخاص، وبيان معايبهم ونواقصهم.[١]

وركز بعض القدماء في تعريف الهجاء على ما يحقّقه من فائدةٍ بقوله «فالقصد من الهجاء الوقوف على ملحه، وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفي بالأعراض والوقوع فيها، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجوّ، ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كلّ مذموم بذميمٍ، وقد يهجى الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً».[٢]

ونرى صاحب كتاب الهجاء والهجّاؤون عرّف الهجاء بأنّه «أدب غِنائي يصوّر عاطفةَ الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء والازدراء. وسواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب والأفكار».[٣] ونرى أنّ أحمد أمين أيضاً يذهب نفس المذهب في نشأة الهجاء من عاطفة الغضب والاحتقار.[٤] فيتّضح مما سبق أن كلا الباحثين يتّفقان في دوافع الهجاء وبواعثه، وما يحرّك مشاعر الهجّاء وأحاسيسه حيال مهجوّه.

وقد نرى إلى جانب ذلك أحداً من الباحثين المحدثين يرفض وصف الهجاء بأنّه سبٌّ وشتم، بل يعتقد أنّ الهجاء هو التعبير عمّا «يحمله الهجّاء في داخله من معاناةٍ إنسانيةٍ كبيرة، وما يعتريه من إحساس عميق بالظلم والقهر والاضطهاد».[٥]

وأياً كانت نظرة النقاد والباحثين لمصطلح الهجاء فإنّه يظلّ صورة تعكس مظاهر الحياة في كلّ زمان وكلّ مجتمع بجميع جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية. ومهما تعددت أهدافه فهو صورةٌ للمجتمع ليس شرّاً كلّه ولا خيراً كلّه «فظاهره هجاء ولكنّه في

---

١. انظر: ابن طباطبا، ص٥٠-٥١؛ وثعلب، أبوالعباس. قواعد الشعر، حققه و قدّم له و علّق عليه: رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٣٨؛ و الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص٣٦٤.

٢. الإبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح. المستطرف في كلّ فن مستظرف، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٦م، ص٥٤٥.

٣. محمد، محمد حسين. الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، الطبعة ٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٦.

٤. أمين، أحمد. النقد الأدبي، الطبعة ٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٨٨.

٥. جيدة، عبدالحميد. قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي وابن الرومي، منشورات دار الشّمال للطباعة والنشر، طرابلس، ١٩٨٥م، ص٧.

الحقيقة إصلاح وتهذيب وتقويم لكلّ اعوجاج في المجتمع، سواء ما اتّصل بالفرد أو ما اتّصل بالجماعة». [١]

إذا كانت العاطفة عنصراً رئيسياً يرسم من خلالها الهجّاء المساوئ الخلقية، وهي في الوقت نفسه عنصر رئيس يرسم من خلالها المدّاح الفضائل الخلقية، فأميل إلى ما ذهب إليه شوقي ضيف باعتباره الهجاء «الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد». [٢] لذلك أرى أنّ الهجاء كشف العيوب وعدُّ المثالب في الفرد والمجتمع وإبراز النقائص محاولاً الإصلاح والتوجيه وما عدا ذلك سبٌّ وشتمٌ لا يلتفت إليه.

## نشأة الهجاء

يحتلّ فنّ الهجاء مكانة ممتازة بين الأغراض الشعرية القديمة في الأدب العربي فقد قيل: «إنّ بيوت الشعر أربعةٌ: فخر ومديح وهجاء ونسيب» [٣] غير أنّنا نرى أحد القدماء قد حدّد الشعر في قسمين اثنين وهما «مدحٌ وهجاء». [٤]

عرفت الحضارات القديمة والآداب العالمية، الهجاء منذ القديم مع فروق في نشأته وتطوّره، فكان في المسرحيات الدينية عند بابل شئ يشبه الهجاء، كما نجد في القصائد المتبقية عن مصر القديمة ألواناً من الهجاء يلعنون فيها سارقي القبور والكنوز، ونرى الهنود والصينيين يترنّمون بقصائد الهجاء في ذمّ الشرّ والذين يهدّمون السِّلمَ ويعتدون على الأصنام، ونرى في المسرحيات اليونانية ألواناً من الهجاء تشتمل على ذمّ المرأة الفاجرة، أو الآلهة الغادرة، أو اللصّ الباغي، أو التاجر البخيل، وشهدت الملاحم عند اليونان والرومان أشكالاً

---

١. ضيف، شوقي. فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٠.

٢. ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) الطبعة ٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٦٧.

٣. ابن خلكان، ج ١ ص٣١١.

٤. ابن رشيق، أبو علي حسن القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، ٢٠٠٤م، ج ١ ص١٠٩.

مختلفة في الهجاء، كما نعثر على شئ منه كبير في شعر الهند والصين والفرس، إلّا أنّ قسماً كبيراً منه جاء على شكل قصص أو حكايات الحيوان أو حكم ساخرة.[١]

يرى بعض الباحثين أنّ المنافرات بين الأشخاص يمثّل أقدم صور الهجاء في الأدب العربي وهي الصورة البدائية الساذجة لفن الهجاء[٢] وعلى الرغم من ذلك لا نعرف نقطة بدء المنافرات فلذلك يرى الدّارس أنّ بدايات نشأة الهجاء في الأدب العربي تكاد تكون غامضة كما أنّ بداية الشعر غامضة فلا نعثر على نصٍ شعري يمثّل نقطة انطلاق هذا الغرض الشعري بصورةٍ واضحةٍ، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الموضوعات الشعرية لم تكن مستقلةً فالموضوعات المختلفة تتداخل في إطار قصيدةٍ واحدةٍ والشاعر يطير من غصنٍ إلى آخر دون أن تجمع وحدة معنوية أجزاء قصيدته تحت إطارٍ واحدٍ.

يعتقد بعض المستشرقين أنّ نشأة الهجاء كانت مصحوبةً بالممارسات والطقوس الدينية[٣] فنراه يربط الهجاء باعتقادات النّاس القديمة في السّحر والجنّ، فنراه يقول: «كأنّ في يد الشاعر شعراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحريّ».[٤] بينما يلمّح الدكتور سامي الدّهان إلى تأثير الكهانة فيه، في سياق حديثه عن الصورة التي كان الكهان يلعنون بها الكفّار بعد الانتصار عليهم في الحروب.[٥]

ونلمس واضحاً من الرأيين الأخيرين أثر السّحر والكهانة في الهجّائين، ونحن نميل إليهما رغم أنّنا نؤمن بوجود السّحر والجنّ، لأنّ القرآن الكريم تحدّث عنهما وهذا يدلّ على وجودهما، كما أنّ تأكيد تلك الأقوال يتطلّب جمع ما قيل في الهجاء عند الأمم السابقة

---

١. الدهان، محمد سامي. الهجاء (فنون الأدب العربي) الطبعة ٣، مطبعة المعارف، القاهرة، ص٧-٨.

٢. انظر: حسين، الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية ١٠٢. ١٠٤.

٣. انظر: بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي، ترجمة: محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، جـ ١ ص٤٦.

٤. السابق، جـ ١ ص ١٠٦

٥. انظر: الدهان، ص٥.

ودراسته وتحليله، وهو ما يصعب تحقيقه لضياع تلك الآثار مع الزمن.

ثمّ إنّنا نرى بعض المؤرخين العرب يردّدون نفس الآراء التي ترى علاقةً بين الهجاء والسّحر والكهانة في حين أنّها ليست إلّا افتراضات. يقول الدكتور شوقي ضيف من خلال بحثه عن موضوعات الشعر الجاهلي: «إنّ الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت في ثنايا الزمن وإن كنّا نستطيع أن نظنّ ظنّاً أنّها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتّجهون بها إلى آلهتهم، يستعينون بها على حياتهم فتارةً يطلبون منها القضاء على خصومهم وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثمّ نشأ هجاء أعدائهم».[1]

## أنواع الهجاء

لم تكن مضامين الهجاء عند الشّعراء تدور في اتّجاهٍ واحدٍ، بل تطوّرت عبر الزّمان متزامناً مع تطوّر الحياة في جهاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، واتّخذت أشكالاً مختلفة. فإذا درسنا مضامين الهجاء في تراث الشّعراء نواجه اتّجاهات عديدة يصعب جمعها في إطارٍ محدّد يشمل كلّها، إلّا أنّ ذلك لا يمنعنا من أن نقسم الهجاء إلى الأقسام التّالية، ونحن في هذا التّقسيم نقترب ممّا فعله النّقاد والباحثون:

### الهجاء الشخصي

إنّ الهجاء الشخصي كما يتّضح من تسميته «يعتمد أساساً على مهاجمة الأفراد وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي وهو في معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية بعيدٌ [في الغالب ] عن العدل والإنصاف لأنّه لايرتقي إلى مشكلات الحياة العامة إلّا في القليل من نواحيه، فهو أقرب للسباب وأدنى إلى أن يتورط في الفحش».[2] يبدو أنّ الأدب العربي في العصر الجاهلي لم يعرف من أنواع الهجاء إلّا هذا اللون، وهو أحطّ أنواعها. ونذهب مع أحد الباحثين إلى «أنّ الهجاء الشخصي أصل الهجاء ومنه نما وتطور إلى موضوعات أخرى؛ فالإنسان في علاقاته

---

١. انظر: ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) الطبعة ٣، دار المعارف، القاهرة، ص١٩٦.

٢. حسين، الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، ص٢٣.

اليومية يصادف أشخاصاً يزورّ عنهم وأشخاصاً يقبل عليهم».[١] ودوافع هذا اللون من الهجاء كثيرة منها: الحاجة والحقد والكراهية أو الخصومات بين الشعراء لما لهم من علاقات بأفراد المجتمع وما يدخل هذه العلاقات من منازعات شخصية تدفع الشعراء إلى ترجمتها بأشعارٍ ينظمونها.

## الهجاء الأخلاقي

أما الهجاء الأخلاقي فإن موضوعه يتمركز حول الجرائم الأخلاقية، والعادات القبيحة والأفعال الشنيعة، والعيوب الإنسانية على وجه العموم، والتي لايقبلها المجتمع من أفراده، وفي هذا النوع من الهجاء يجرّد الشاعر مهجوّه من الخصائل الانسانية التي تميّزه من البهائم.

## الهجاء السياسي

يتميز الهجاء السياسي عن القسمين السابقين بأنه ينال من الحكومات والأحزاب والشخصيات السياسية، و «صاحبُه يرى مُثُلَه الأعلى في حزبٍ من الأحزاب أو طائفةٍ من الطوائف، أو مذهب من المذاهب، فهو يهاجم كلَّ ما يتعارض مع هذه المُثُل من نقائصَ ومعايب تتمثّل في أنصار حزب آخر».[٢]

## الهجاء الديني

والهجاء الديني يستهدف الأديان المختلفة وعقائد النّاس ويريد أن يسخر من شعائر الدين ويستهزئ بالأحكام وينتقد الشرع. وجدير بالذكر أنّ بعض الباحثين حاول أن يُلحق الهجاء الديني في باب الهجاء السياسي.[٣] لكنّ هذا يبدو في البداية غير مقبولاً لاختلاف الدّين والسياسة في أصولهما وموضوعاتهما اختلافاً كبيراً، لكنّنا إذا دقّقنا لرأينا أن الفساد السياسي

---

١. عجلان، عباس بيومي. الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص١٦٢.

٢. حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص٢٧-٢٨.

٣. انظر: السابق، ص٢٨.

وانحطاطه وضعفه يسبّب أحياناً كثيرة انحطاط الشؤون الدينية وفسادها.

## الهجاء الاجتماعي

تدخل موضوعات متنوعة في إطار الهجاء الاجتماعي مثل أن يتناول الشاعر الحالة المعيشية والاقتصادية للشّعب في المجتمع، التضخّم الماليّ والانحرافات الاجتماعية و....

يرى الدّارس أنّ هذا التقسيم، وإن كان يضمّ كلّ ما قيل في الهجاء، ويصوّر إلى حدّ كبير تصويراً صادقاً قوالب الهجاء في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتّى يومنا هذا، إلّا أنّ بعض الأقسام تتداخل مصاديقها ويصبح من الصعب الفصل فيما بينها، فلذلك نقبل هذا التقسيم مع تعديلٍ يجمع الهجاء الاجتماعي وأحياناً الديني في إطار الهجاء السياسي، لأنّ كثيراً ما يسبّب فساد الحكام وضعفهم السياسي انتشار الأزمات الاجتماعية والحطّ من قيمة الشؤون الدينية؛ فعلى هذا الأساس جرينا في دراستنا هذه على التقسيم المذكور آنفاً.

## بين الهجاء والأدب الساخر

السخرية جزء من الأدب الفكاهي، ويصنّفها بعض الدارسين في مرتبة بعد الاحتقار والاستصغار والاستهزاء.[١] وتعلق بلفظ السخرية ألفاظ عديدة تختلف كثيراً أو قليلاً عنها في المدلول، إذ أنّ الدافع والنتيجة هما اللذان يحدّدان الذي ينطوي في نهايته تحت جناح الأدب الفكاهي، فهناك الفكاهة والتهكّم والهجاء والمزاح والهزل والمفارقة وغيرها.

يلاحظ الانسان من بين هذه الألفاظ المتعددة أنّ هناك تقارباً على درجة ما بين اثنين من المصطلحات الأدبية السابقة وهما: السخرية والهجاء. إذ غالباً ما تختلط عناصر هذين الفنّين في مقطوعة أدبية. فالعلاقي بينهما متبادلة ، وعلى الرغم من ذلك فإنّ لكلّ منهما تعريفه الخاص وملامحه التي تميّزه عن غيره وتجعله مستقلاً أحياناً.

يعود أصل كلمة السخرية إلى الفعل الثلاثي المكسور العين (سَخِرَ). وهو فعل لازم يتعدى

---

١. انظر: محمد، مفتاح، مدخل إلى قراءة النص الشعري، فصول، المجلد السادس عشر، العدد الأول، صيف ١٩٩٧م، ص٢٥٧.

إلى مفعوله بحرف الباء أو من، فيقال: «سخر بـه ومنـه، هَـزِئ، وسَـخَرَه سِـخرياً، كلّفـه مـا لا يطيق وقهرهف وسخّره تسخيراً: ذلّله، وسخرتُ به ومنه بمقـام ضـحكت بـه وضـحكت منـه، والإسم من الفعل هو السخرية والسُّخريّ».[١]

تتصل السخرية بالأدب اتّصالاً وثيقاً حتّى نظر بعض الباحثين إليها على أنّها «فنّ أدبـي لا يتقن قياده إلّا كلّ ذي مهارة لما يحتاج من ذكاء وخفّة ومكر، بل إنّ في اعتماد السخرية على الذهن والعقل يجعلها تتبوّأ مكانة رفيعة بين الآداب، فكلّ فكـاهي لابـدّ لـه مـن معيـار ذهنـي يصدر عنه فيما يكتب من شعر ونثر».[٢]

ويحتاج من يعالج السخرية إلـى قـدرات إضـافية فـي الموهبـة، فزيـادة علـى إتقـان المـرء للكتابة الأدبية بشكل عام فإنّ للأدب الساخر مقومات تضاف إلى جملـة المقومـات الأساسـية ممّا يجعل الفنّ الساخر من أعسر الفنون الأدبية.

ويحتلّ الساخر في المجتمع موقع القوّة والتحكّم، إذ أنّه يقف لأخطاء المجتمـع يترصـدها ويحاكمها، فهو «شـخص عميـق الإدراك بطبـائع النفـوس وحقـائق الوجـود والكون...محـبّ للإنسانية يمنحها كلّ اهتمامه».[٣]

والموضوعات الاجتماعية هـى أكثـر الموضـوعات التـي يهـتم بهـا الأدب السـاخر، ولكـنّ السخرية قد دخلت إلى ميـدان السياسـة بقـوّةٍ، وكانـت سـيفاً ناقـداً للحكّـام وسياسـتهم تجـاه الشعوب فباستطاعة السخرية «جذب الانتباه نحو الظواهر البارزة فـي نظـم الحكـم، وأخـلاق بعض الساسة وانحرافاتهم، وتسـتطيع أن تكـون رأيـاً عامـاً أو تحـرّك الـرأى العـام نحـو هـدف معيّن».[٤] ومع تقدّم الحياة وتطوّر أساليب الإنسان في مواجهة ما يعترضـه مـن عقبـات جعلـت من استخدام السخرية عاملاً قويّاً في الدفاع عن نفسه بدلاً من اللجوء إلى الأساليب الوحشية

---

١. ابن منظور، مادة سخر.

٢. شرف، عبدالعزيز. الأدب الفكاهي، مكتبة ليدن، ١٩٩٢م، ص٢٢.

٣. المعاملي، شوقي محمد. الاتجاه الساخر في أدب الشدياق، مكتبة النهضة العصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٣.

٤. الهوال، حامد عبده. السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٦٧.

«إذ بالإنسان المتحضر يجد في الضحك ومشتقاته سلاحاً ماضياً بتّاراً فيستخدمها للدفاع عن نفسه أو للاعتداء على غيره».[١]

وفي الأدب الساخر طاقة استنهاض وتحريض إذ أنّه يحمل بذور الثورة ويزرعها في النفوس، فلذلك نجد أنّ «أعدى أعداء الفكاهة إنّما هي السلطة الغاشمة التي تفرض على النّاس روح التعسّف والاستبداد».[٢]

يتشابك مفهوما السخرية والهجاء وتتداخل العناصر المكوّنة لكلّ منهما، ويصعب أحياناً التمييز بينهما، فالهجاء وهو «شكل من أشكال التنازع الاجتماعي»[٣] قد استخدم السخرية وأدواتها في التعبير. يتفق أحياناً المغزى العامّ من السخرية والهجاء «فهدف الهجاء الحقّ هو تقويم العيوب والإصلاح».[٤] وهذا لاينفي عن الهجاء مهمته التي عرف بها، وهي التشهير والانتقاص من الخصم. ويجد المتصفح لشعر الهجاء العربي شيئاً من هذا القبيل خاصّةً شعراء النقائض الذين وصلت أشعارهم إلى ذروة الهجاء المقذع.

وقد يؤدّى الهجاء في حالات معيّنة الوظيفة التي تؤدّيها السخرية، فكلّ منهما يسعى إلى الموازنة «بين واقع الأشياء وبين ما يجب أن تكون عليه»[٥] وعندما يكون الهجاء غير شخصي ويبتعد عن الطعن في شخصيّة معيّنة ويستخدم النماذج البشرية الركيكة لمحاربة الأخلاق الشاذة يلتقي هنا الهجاء مع السخرية بوصفها «أداة لتأنيب الخارجين على المجتمع حين يستهينون بتقاليده أو يستخفون بمعاييره».[٦]

وعلى الرغم من وجود مشابهات كثيرة بين الهجاء والسخرية تبقى الفروق قائمة بينهما،

---

١. عطيّة، أحمد. سيكولوجية الضحک، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، د.ت، ص١٧٨.

٢. إبراهيم،زكريا. سيكولوجية الفكاهة والضحک، دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ت. ص١٩٩.

٣. شرف، ص٧٠.

٤. بولارد، آرثر. موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة: د. عبدالواحد لؤلؤة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٩١.

٥. السابق، ص٢٩٢.

٦. شرف، ص٣٤.

فالهجاء هو أدب الغضب المباشر والثورة المكشوفة على حين أنّ السخرية أدب الضحك القاتل والهزء المبنى على شئ من الالتواء والغموض. وتختلف نظرة الساخر إلى الموضوع عن نظرة الهجّاء حيث أنّ «الساخر يستملي عقله، أمّا الهجّاء فإنّه يفعل ذلك جادّاً»[١] وتظهر عليه علامات الغضب والانفعال. أمّا الساخر يداريها خلف ضحكة تخفي وراءها مدلولات عميقة شتى.

## التعريف بالهجاء السياسي

إن الحديث عن الهجاء السياسي يتطلّب أن نمهّد الأرضية لذلك بتعريف السياسة وعلاقتها بالأدب والشعر السياسي.

## السياسة

أخذت هذه الكلمة عن مادة "سوس" فجاء في لسان العرب: ساس الأمر سياسةً: قام به. ويقال: سُوِّسَ فلانٌ أمرَ بني فلانٍ، أي: كلِّفَ سياستهم. سُستُ الرعية سياسةً، وسُوِّس الرجل أمور النّاس: مُلِّك أمرهم. ويروى صاحب لسان العرب استشهاداً لهذا المعنى قول الحطيئة:

**لَقَدْ سُوِّسْتُ أمرَ بَنِيك حتّى ... تَرَكْتُهم أدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ**

والسياسة القيام على الشئ بما يصلحه. والسياسة فعلُ السائس. يقال: هو يسوس الدوابّ إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيّته[٢] حين ندقّق النظر في المعنى اللغوي لهذه الكلمة نرى أنّه يرجع إلى «تدبير شؤون النّاس وتملك أمورهم والرياسة عليهم ونفاذ الأمر إليهم».[٣] هذا يتطلّب وجود قومٍ ذوي أمور اجتماعية وسياسية واقتصادية مشتركة يجتمعون في مكانٍ ما، ويتولّى تدبير أمورهم رئيس يتمتّع بنفاذ الأمر.

---

١. المعاملي، ص١٠.

٢. انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة سوس.

٣. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، الطبعة ٥، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م، ص١.

لو بحثنا عن المدلول الإصطلاحي لهذا المصطلح لرأيناه يكثر ويتنوع عند الباحثين الإسلاميين، فنرى جماعة إخوان الصّفا يعدّون علم السياسة من العلوم الإلهية ويقسّمونه إلى خمسة أنواع: السياسة النبويّة القائمة على تهذيب النفوس ونقلها من الغيّ إلى الرشاد رغبةً في النّجاة من العقاب والظفر بالثّواب يوم القيامة، ويختصّ بها الأنبياء والرسل. والسياسة الملوكية القائمة على إنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة أمراً و نهياً، ويختص بها الأنبياء والأئمة المهديّون الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون. والسياسة العامّة التي هى الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن، ورياسة الدهاقين على أهل القرى، ورياسة قادة الجيوش على العساكر وما شاكلها، فهى معرفة طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأخلاقهم وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم وتفقد أسبابهم وتأليف شملهم والتناصف بينهم وجمع شتاتهم واستخدامهم فيما يصلحون له من الأمور واستعمالهم فيما يشاكلهم من صناعاتهم وأعمالهم اللائقة بواحدٍ واحدٍ منهم. والسياسة الخاصة المتصلة بتدبير أمور الأسرة الداخلية والخارجية والصحبة والإخوان. والسياسة الذاتية ومردّها معرفة الإنسان نفسه وأخلاقه وسلوكه، والنظر في جميع أموره.[١]

إنّ القسمين الأخيرين لا يدخلان في الإطار الذي نريد أن نتحدّث عنه، لأنّهما يتّصلان بأمورٍ فرديّة لا ترتبط بالمجتمع الإنساني الذي يتابع أهدافاً إنسانيةً سامية، غير أنّ الأقسام الثلاثة الأولى تمُتُّ بصلةٍ وثيقةٍ إلى الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه. لأنّها في الواقع «تعود إلى أصلٍ واحدٍ هو تدبير شئون الأمّة حسب التعاليم الإسلامية، وهى تعاليم تتناول الأمور الدينية والدنيوية معاً يقوم بها الرّسول وخلفاؤه والولاة المعيّنون في الأقاليم».[٢]

وتطلق السياسة اليوم على فنٍّ يحكم الأمم، والمراد من علم السياسة هو البحث في حكم الأمم من حيث أشكاله ونظمه ومقدار ملاءمته لأحوال الشعوب.

---

١. انظر: رسائل إخوان الصفا، جـ ١، ٢٠٧.

٢. انظر: الشايب، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، ص٣.

## السياسة والأدب

لا شك أن السياسة والأدب كانت ـ ولا تزال ـ لهما علاقة وثيقة في المجتمع، ولا غرو إذا قلنا إنّ السياسة في المجتمعات البشرية كافّةً بحاجة ماسّة إلى الأدب والأدباء والشعراء؛ فلذلك نرى الحكام والسياسيين يميلون إلى استخدام الشعراء والأدباء لأغراضٍ مختلفة منها الإشادة بسياساتهم في المجتمع والتغلّب على خصومهم، ومنها الاحتراز من نقدهم وتجريحهم بإغداق الصلات والعطايا عليهم.

ولابدّ أن نتذكر أنّ الشعراء والأدباء لم يكونوا دوماً يشيدون بسياسة الحكام والخلفاء والأمراء، بل كانوا ـ ما دامت حرية البيان مكفولة لهم ـ يتناولون أعمال رجال السياسة بالنقد والدراسة، ويذكرونهم كلّما انحرفوا عن جادّة الصواب، ويرسمون مساوئهم وظلمهم وطغيانهم كلّما انكشف لهم.

## تعريف الهجاء السياسي

الهجاء السياسي هو ذلك النوع من الهجاء الذي يريد أن يهجو وينقد النظام السياسي السائد، وبطبيعة الحال يتعرّض للخلفاء والأمراء والولاة والكتّاب والقادة وغيرهم ممّن ينتمون إلى السلطة الحاكمة؛ بعبارة أخرى أنّ الهجاء السياسي انتقادٌ صريحٌ للواقع المشوّه ورفضٌ للقيَم التي تعيق سعادة الإنسان. ولا بدّ أن نتذكر أمرين اثنين: الأول: أنّ المعارضة لسياسة الحكام والوزراء والقادة لسببٍ أو آخر جزء من طبيعة البشر في كلّ زمان ومكان. فكلّ انسان يعلن معارضته بشكلٍ يختلف عن الآخر؛ فالشعراء والكتّاب بطبيعة أحاسيسهم المرهفة ومشاعرهم اللّطيفة يستخدمون شعرهم للإعراب عن مخالفتهم لسياسة الحكام وبيان مواقفهم حيال ما يجري في المجتمع. والثاني: يجب أن نفرّق بين الهجاء السياسي الذي ينشأ من انتماء الشاعر والكاتب إلى حزب خاص وعقيدة معيّنة يشعر صاحبه بنوع من الالتزام وبين نوع آخر من الهجاء السياسي الذي يكون دافعُهُ شخصياً يرجع إلى مساس منافع الشاعر مع السلطة الحاكمة.

## العلاقة بين الشعر السياسي والهجاء السياسي

إنّ الشعر السياسي مفهوم عامّ يشمل أغراضاً مختلفة منها: المديح السياسي والغزل السياسي والرثاء السياسي والهجاء السياسي. والأدب العربي عرف منذ بداية العصر الأموي وخاصة بعد الانقسامات السياسية ونشأة الفرق والأحزاب السياسية، هذه الأغراض الأربعة عند شعراءه السياسيين. هذا يعني أنّ الشاعر السياسي ربّما يختار إحدى تلك القوالب لتأدية أغراضه السياسية. وذلک أمر معروف في الشعر العربي إذ نتذكّر أنّ بعض الشعراء في العصر الأموي اختار الغزل في معارضته للسلطة الحاكمة وقام بتشبيب نساء بعض الخلفاء والولاة. كما أن الرثاء السياسي في العصر الأموي كان من الأغراض الشعرية التي طرقتها السياسة لدى الأحزاب المتصارعة على الحكم إذ عبر شعراء الأحزاب في مراثيهم عن كل ماله صلة بالسياسة في ذلك العصر. فالهجاء السياسي فرع من فروع الشعر السياسي حيث يقوم فيه الشاعر السياسي بهجاء الأحزاب والفرق والشخصيات السياسية وبنقد سياساتهم وكلّ ما يتعارض قضايا حزبه أو فرقته. وعلينا أن نشير إلى أنّ الشاعر السياسي يلجأ أحياناً كثيرة في هجائه السياسي إلى النقد والتهديد والاحتجاج والمجادلة، فلذلک لا نستطيع أن نحصر الهجاء السياسي في الشتم والسّباب والكشف عن العيوب.

## الهجاء السياسي قبل الإسلام

اضطربت أقوال النقّاد والباحثين فيما يتعلّق بوجود الهجاء السياسي قبل الإسلام، وتأرجحت بين النفی والإثبات. يرى أحدهم أنّ العرب لم يعرفوا قبل الإسلام من ألوان الهجاء إلّا الهجاء الشخصي.[١] ومن الطريف أنّ هذا الباحث عاد وحينما تحدّث عن الهجاء السياسي أضاف أشعاراً للجاهليين وعدّ شعر العصبية للقبائل كنماذج للهجاء السياسي.[٢] وقد عدّ بعض آخر قسماً من الأشعار الهجائية لطرفة بن العبد والمتلمس في هجو النعمان بن المنذر هجواً

---

١. انظر: محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص١٩.

٢. السابق، ص١٣٧.

سياسياً.[١]

لابدّ أن نعرف أنّ القبيلة قبل الإسلام كانت بمنزلة الوطن عند العربي، فهو يعيش في ظلّها ويدافع عن شرفها ومكارمها ويذود عن حياضها. ونرى القبيلة أحياناً كثيرة تتحالف مع قبيلة أو قبائل أخرى فيكوّنون من مجموعة القبائل جبهةً أو وطناً. غير أنّ المفهوم السياسي لهذه الجبهة وذاك الوطن لم يخرج من حدوده الضيّقة لأنّ «وطنيّة البدوي وطنيّةٌ قبَليّة لاوطنيّةٌ شعبية»[٢] ولأنّ مفهوم الوطنية قد وقف عند الانتصار والفشل؛ والسبب الرئيس يعود إلى كثرة الحروب والغارات التي كانت تتوالى لضرورة العيش والحياة وضيق السبل والوسائط وقلّة المال والغذاء والمرعى.

كان رؤساء القبائل يلعبون دور القادة والزعماء في عالم السياسة، فهؤلاء كانوا يجلسون على منصّة المحادثات فيما بينهم، ويعلنون الحروب إذا اقتضتها الظروف، وأفراد القبائل مطيعون لما يرسمه رئيس القبيلة. وكان الشعراء لسان القبيلة الناطق يقاتلون ويحاربون بأشعارهم كما يحارب أفراد القبيلة بسيوفهم ورماحهم؛ وكانت قوّة السياسة عند الشاعر خلال الأزمات تتجلّى في شدّة محافظته للأنساب والأحساب؛ لأنّه يصرّف لسانه فيها فيتناول عدوّه وينزل به أشدّ النكبات فلذلك كان الشاعر لسان السياسة في القبيلة.

إنّ الطبيعة المسندة إلى الشعر في العصر الجاهلي، والتي أعطت الشاعر مشروعيةً بوصفه لساناً للقبيلة، أدّت إلى اتفاقية اجتماعية غير مكتوبة بين القبيلة والشاعر، فأصبح الشعر صحيفة القبيلة. يقول أبو عمرو بن العلاء «كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخِّم شأنهم، ويهول على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوّف من كثرة عددهم ويهاب شاعر غيرهم فيُراقب شاعرهم»[٣].

---

١. انظر: الحاوي، إيليا. فنّ الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م، ص٣٥.

٢. أمين، أحمد. فجر الإسلام، الطبعة ١، دار الشروق، ٢٠٠٩م، ص٣٥.

٣. الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ص١٥١.

الشعر السياسي يتّصل بكيان الدولة وأنظمتها الداخليّة، وبمكانتها الدّوليّة وعلاقاتها بالدّول الأخرى، فلذلك يصعب علينا أن نبحث عن الشعر السياسي في الأدب العربي في تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام «لأنّ المعروف أنّ هذا الشعب العدناني كان يعيش قبائل متفرقة متنافرة لا تربطها وحدة عامّة تؤلّف بينها، وتكوّن منها شعباً متحداً منظماً تقوم به دولة عربية، كدولتى الفرس والروم اللتين عاصرتا العرب في ذلك العهد القديم».[١]

نستنتج ممّا سبق أنّ الأدب الجاهلى في فترة ما قبل الاسلام لم يعرف مفهوم الشعر السياسي ولا نرى في أدب الجاهليين شيئاً يدلّ على أنّهم فرّقوا بين مفهوم الفخر والشعر السياسي وبالتّالي لم يعرفوا هجاء سياسياً بالمعنى الدقيق لهذين الاصطلاحين، اللهمّ إلا أن نعتبر شعر التفاخر بين القبائل شعراً سياسياً؛ ولنا فيما ذهبنا إليه أدلّة مختلفة:

الأول: أنّ العرب في فترة ما قبل الاسلام لم يكونوا دولةً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة «بل كانت الدولة عندهم هى الجماعة في جملتها (collectivum) ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Insititur) ولا كانت لها أرض محددة، فلم يكن هناك في الحقيقة دولة (staat) وإنما كانت هناك أمة (volk). فلم يكن هناك نظام سياسي من صنع الانسان، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النّماء ولم يكن هناك موظفون يدبّرون شئون الجماعة بالمعنى الذي نعرفه في الدولة».[٢]

الثاني: أنّنا لا نرى عند العرب في تلك الفترة لا ديناً واحداً ولا لغةً واحدةً؛ ووجود لغة مشتركة في الشعر والأدب لايدلّ فعلاً على أنّهم كانوا يستخدمونها في كافّة شؤون حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

الثالث: لم تكن للعرب آنذاك آمال وطنيّة واحدة؛ هذا ما ذكره أحد الباحثين قائلاً إنّ

---

١. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٢٨.

٢. فلهوزن، يوليوس. تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام، إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٣.

«وطنيّة البدوي وطنيّةٌ قبَليّة لا وطنيّةٌ شعبية». [١] ولم يكن يجمعهم إلّا العصبية واللغة على حدّ قول صاحب تاريخ التمدن الاسلامي. [٢]

الرابع: أنّنا لا نجد في تلك الفترة شخصاً حازماً أو ممتازاً أو هيئةً مكوّنة من عدّة أشخاص تُملي أحكامها وأوامرها على جميع الأشخاص ليطيعونها لأنّ الحياة القبليّة تأبى ذلك.

إذن لانستطيع أن نظفر في تلك الفترة بأشعار أو قصائد تتناول بالنّقد حكومةً ونظامها الخاص أو مكانتها بين الدّول الأخرى عربيّةً كانت أو أجنبيّةً.

مع ذلك حاول بعض الباحثين أن يطبّق نظريات أصول الدّولة ـ وهى الطبيعة والأسرة والعقد الاجتماعي والقوّة والإرادة ـ على المجتمع الجاهلي ليثبت أنّه كان هناك شعر سياسي عرفه الشعراء في تلك الفترة، وأنّ القبيلة كانت صورة مصغّرة للدولة. [٣] غير أنّ هذا الباحث ناقض ما ذهب إليه عندما يقول «إنّ القبيلة ليست دولةً بهذا المعنى الاصطلاحي الحديث يقوم على نظام دقيق مدوّن وحكومات ذات شرائع ودواوين، وجيوش منظّمة، وولاة يتقاسمون الحكم في مختلف الشؤون والأرجاء، وإنّما تعدّ القبيلة ركناً من أركان الشّعب الذي تقوم الدولة على أكتافه». [٤]

## شعر الصّعاليك هل يمكن اعتباره هجاءً سياسيّاً؟

كان الصّعاليك كما نعلم جماعةً من فقراء القبائل اجتمعوا تحت لواء واحد، وخرجوا على قبائلهم، وتحلّلوا من نُظمها، وأحياناً طردهم قبائلهم، فأصبحوا يتعاطون الإغارة على القوافل التّجارية ويقسمون الغنائم بين فقراء قبائلهم. وكان بينهم من اشتهروا بقول الشعر ومثّلوا الخروج على النّظام القبليّ واحتجّوا على التقاليد السائدة وانعكست أصداء ذلك في شعر شعراءهم كما نراه في لاميّة الشّنفرى؛ غير أنّنا نظنّ أنّ هذا الاحتجاج يقوم على المبالغة

---

١. أمين، أحمد. فجر الإسلام، ص٣٥.

٢. انظر: زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار و مكتبة الحياة، بيروت، جـ ٤ ص١٦.

٣. انظر: الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٤٠.

٤. السابق، ص٣٣.

والادّعاء في كثير من جوانبه. يرى بعض الباحثين أنّ شعر الصعاليك يمثّل في بعض جوانبه ثورةً على النّظام القبليّ والنظّام الاقتصادي والاجتماعي السائد آنذاك، فنراه يقول: «إنّ شعر هؤلاء كان مثالاً لشعر سياسي طريف هو شعر الثّورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع بجانب هذا الفقر العامّ في البلاد كلّها».[١] نحن نرى أنّ شعر الصعاليك وإن مثّل الثورة على التقاليد والنقمة عليها، إلّا أنّه خارج من إطار الشعر السياسي المعارض، لأنّه أصبح محصوراً في دائرة الاعتزاز والفخر بالمواهب والقدرات الفردية. ونحن كما ذكرنا آنفاً لا نراهم يهجون وينقدون سلطةً مركزية يخضع جميع أفراد القبيلة لما وضعته من الأصول والقوانين؛ فلذلك رأينا أن نخرج شعرهم من إطار الهجاء السياسي.

## شعر الرفض في بلاط المناذرة

كانت جزيرة العرب تقع بين حضارتين عظيمتين آنذاك وهما حضارة الفرس وحضارة الروم، فحاولوا أن يخضعوا العرب لحكمهم ليأمنوا غزوهم وغاراتهم على قوافلهم التجارية، و«لكنّهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والأموال، ولأنّ طبيعة المعيشة العربية جعلتهم لايخضعون لقوّةٍ واحدةٍ إذا تغلب عليها المحارب... بل هناك عصابات وقوّات متعددة لابدّ لإخضاع البلاد من الاستيلاء عليها جميعاً وليس ذلك باليسير»[٢]. فلذلك توصّلوا إلى هذه النتيجة وهي أنّ أحسن طريق لدفع شرّ العرب والابتعاد عن غزوهم ونهبهم، أن يحموا بعض القبائل المجاورة على حدودهم، ومن جرّاء ذلك تكوّنت إمارة المناذرة على القرب من حدود الفرس وإمارة الغساسنة على القرب من حدود الروم. ونستطيع أن «نرى في كلّ من هاتين الإمارتين مقومات الدّولة سياسيّاً حيث الإقليم، والشعب، والوحدة، والنّظام، والخضوع لسلطانٍ قائم»[٣]. لقد كانت سياسة المناذرة حيال القبائل العربية

---

١. السابق، ص٥١.

٢. أمين، أحمد. فجر الإسلام، ص٤١.

٣. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص ٦٦.

سياسة ظالمة، فلم يستطع ملوك الحيرة آنذاك أن يطبّقوا سياسةً عادلةً وأن يتحكموا في زمام الأمور، فأدّت هذه السياسة المجحفة إلى نقمة تلك القبائل وعداوتها. والشاعر العربي ـ كلسان قبيلته ـ حمل على عاتقه مهمّة التصدّي والتحدّي لهؤلاء الملوك بالكلمة التي هي أشدّ وقعاً من السيف، فكان شعره يُعرَف بهجاء الملوك، وهو يعكس في هجائه «كراهيّته للملوك ورفضه لاستبدادهم، أو لكي يُرجع أصداء نفسه التي آلمها ما كان يثقل هؤلاء الحكام به كواهلهم من حروب وضرائب وما كانوا يعانونه تحتهم من وطأة الاستغلال والغدر من شدة بطشهم».[١]
وتبقى السياسة الظالمة وغير الحكيمة وتعسّف الملوك واستبدادهم السبب الوحيد لتصدّي الشعراء وثورتهم في وجوه الملوك ساعين بذلك إلى إبراز سلبيّات هذا الحكم وما نتج عنها من تشتّت فيما بين القبائل. فعلى الرغم من دخول بعض الشعراء إلى بلاط الحيرة والشّام مثل طرفة بن العبد، وحسّان بن ثابت، وعلقمة الفحل، وعديّ بن زيد، لم يصل إلى أيدينا من شعرهم المرتبط بالهجاء السياسي خلال الجاهلية شئ يذكر إلّا ما تسرّب إلينا من هجاء المتلمس في المناذرة وهجاء الأعشى ضدّ كسرى والفرس. ويحسن أن نقف قليلاً عند مقطوعةٍ شعريةٍ قيلت في هاتين الإمارتين حتّى يرى القارئ مقدار انطباق الهجاء السياسي عليها، وليس صاحب هذه المقطوعة إلّا المتلمّس. كان المتلمّس يتردد على بلاط عمرو بن هند ملك الحيرة ويمدحه، وكان ابن أخته طرفة ملازماً لقابوس بن المنذر شقيق الملك وولىّ عهده، وكان هذا يصحبهما إلى الصيد ولكنه كان يتعسف بهما إذ يرتهنهما على بابه، ولم يطق هذان الشاعران المتمردان مصيرهما البائس على باب الملك، فهجياه بأبيات أبلغها السعاة إليه. هجا المتلمس عمرو بن هند في قصيدته الهجائيّة التي مطلعها:[٢]

---

١. الشطي، عبدالفتاح عبدالمحسن. شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي، دار الطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٠٤.

٢. الأصمعي، عبدالملك بن قريب. الأصمعيات، تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، الطبعة ٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٣.

أ لَـــك السَّـــديرُ وَبَـــارِقٌ وَمَـــرَابِضٌ لَـــك والخَوَرْنَـــقُ[١]

إلى أن يقول:[٢]

وَإذا فَرَغْـــتَ رَأيْتَنـــا حَلقَـــاً وَعَادِيَـــةً وَزَرْدَقِ

مـــا لِلّيُـــوثِ وَأنـــتَ جَـا مِعُهـــا بِرَأيِـــك لاتَفَـــرُّقِ

وَالظُّلْـــمُ مَربُـــوطٌ بِأفْـ ـــنيةِ البُيُـــوتِ أغَـــرّ أبْلَـــقِ[٣]

إنّ شدة ظلم الملوك كانت السبب في تمرّد هؤلاء الشعراء عليهم خاصةً على عمرو بن هند الذي كثر التمرد عليه، فكان من أكثر ملوك الجاهلية ظلماً للرّعية وهذا ما وصفه لنا المتلمّس في الأبيات السابقة. غير أنّا نرى أنّ الأبيات السابقة امتزجت بالفخر والحماسة وهي لا تمتّ بأدنى صلةٍ إلى الهجاء السياسي، لأنّ الدفاع عن القبيلة كانت المهمة الأساسية للشاعر و «أنّ الفخر يغلب في البيئات البدائية على الهجاء».[٤] وكان للأعشى مواقف مع كسرى قبل وقعة ذي قار، يقول مخاطباً إيّاه:[٥]

وَأَقْعُـــدْ عَلَيـــك التّـــاجُ مُعْتَصِـــباً بِـــهِ لاتَطْلُـــبَنَّ سَـــوامَنا فَتُعَبِّـــدا[٦]

إنّه يسخر من كسرى وجيوشه التي تستعدّ لقتالهم وقتال شيبان، ويقول إن هاجمهم مُنِيَ بهزيمة فاضحة تطيح بتاجه. يبدو بوضوح أنّ بيت الأعشى هذا إلى الفخر أقرب منه إلى الهجاء السياسي.

## الهجاء السياسي في العصر الإسلامي

لمّا أشرق نور الإسلام في الجزيرة العربية دعا دعوةً واسعة إلى إبطال العصبية القبليّة

---

١. السدير وبارق والخورنق: أسماء قصور في حيرة. مرابض: موضع بنواحي الحيرة كان مكان للتنزه.

٢. السابق، ص٣٣.

٣. العادية: القوم يعدون على أرجلهم. الزردق بالفارسية: الصف. يشير إلى الّذين يقومون حول الملك ويتظاهرون بالقوة، فيما هم كالعبيد لا يتحرّكون إلّا بإشارة من سيّدهم، فليس في تلك البيوت إلّا الظلم والعبودية.

٤. الحاوي، إيليا. ص٨.

٥. الأعشى، ميمون بن قيس. الديوان. شرح وتعليق: الدكتور م.محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ص٨٧.

٦. السوام: من سام فلاناً الأمر: كلّفه إيّاه وألزمه به. تعبّد: تستعبد.

وإزالتها، ووقف الحروب التي كانت دائرة بين القبائل وسعى سعياً مكثّفاً إلى إماتة المفاخر القبليّة إلّا ما كان في مساعدة الدّين الجديد؛ فلذلك نرى الرّسول الأعظم (ص) يدعو العرب وغيرهم إلى الإيمان بهذا المفهوم الجديد كوطنيّةٍ جديدةٍ تجعل من المؤمنين مواطنين ومن دينهم وطناً جديداً لعلّهم يندفعون معاً ضدّ المشركين الذين يريدون أن يهدّموا حدود هذا الوطن الديني الجديد؛ فدعاهم إلى التضحية في سبيل الله وفرض عليهم ما لم يكن من قبل مثل الصيام والصلاة والزكاة والحجّ و...وأبطل كثيراً من الأمور التي كانت شائعة في بيئتهم السابقة. ولابدّ أن نشير إلى أنّ «الركن الرئيس الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية، فقد كانت قائمةً على تنظيم الشؤون الدينية والدنيوية للبشر عامّةً، لذلك كان الرسول صلّى الله عليه و [آله] وسلّم يدعو النّاس جميعاً ليصلح ما بينهم من صلات لتتوافر لهم حياة منظّمة عادلة آمنة، وليعلّمهم شعائر دينية أخرى قوامها التّوحيد والعبادة وانتظار الدّار الآخرة، وهذا معناه أنّ الإسلام كان ديناً ودولةً، أو كان يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية»[1].

ليس ببدعٍ إذا قلنا إنّ الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم قام بتوحيد القبائل المتخاصمة تحت لواء الإسلام والدّين الجديد، فأصبح العرب خاضعين لفكرة الجنس، وصاروا أمّةً ذات وحدة عنصرية ودينية ولغوية وشرعية، وخضعوا لرئيسٍ واحد وهو النبيّ (ص) وبذلك أسّسوا دولةً عربيةً إسلاميّةً لها مقوّمات وأصول الدّولة، وهذا ما ذهب إليه صاحب ضحى الإسلام قائلاً إنّه «لما جاء الإسلام تكوّن العرب أمّةً وكانت فيها خصائص الأمة من اتحاد لغة ودين وميول ومن وجود حكومة على رأسها».[2] إلّا أنّ الذي لفت انتباه الدارس أنّ ما أسّسه الرسول الأعظم (ص) في المدينة لم يكن يشبه جمهورية أو ملكيةً أو امبراطوريةً أو إمارةً، بل كان أسلوباً جديداً من أساليب الزعامة ذات السلطة المركزية حول شخصه (ص) لأنّه كان في البداية نبيّاً مرسلاً من قبل الله تعالى، وأخذ بعد الهجرة إلى المدينة صفة الزعيم السياسي

---

١. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٩٤.

٢. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، ج ١ ص٣٨.

للأمة الإسلامية وظلّ في الوقت نفسه يحمل صفة النبوّة. ولم يخلُ هذا السبيل من مشاكل، فوقف النبيّ (ص) والمسلمون في صفٍّ ووقف الكفّار والمشركون في صفٍّ آخر فنشأ لأوّل مرّة حزبان اثنان في الجزيرة العربية، وكان الحزب الجديد قد استولى على الأمور ووحّد النّفوس والجيوش تحت لواءٍ واحدٍ، وأصبحت القدرة بيده في الدولة الإسلامية الجديدة الصغيرة، وحاول الحزب القديم أن يجمع قوّته الزائلة ليستعيد ما كان له من نفوذٍ وما كانت له من امتيازاتٍ وعاداتٍ أبطلها الحزب الجديد وقامت المنافسة بين الحزبين، فاستمدّ هذان الحزبان شعراءهما للدخول في المعارك الدائرة بينهما، غير أنّ الشعر الهجائي عند الطرفين لم يتجاوز الهجاء القبليّ فوقف التجديد في حدودٍ ضيّقةٍ عند بعض شعراء الرسول (ص) الذين أقبلوا على المبادئ الإسلامية الجديدة، وذكروا الجنّة والنّار ممّا استمدّوه من تعاليم القرآن الكريم. لقد تولّى الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم كافّة الشؤون المتعلّقة بالمسلمين الدينيّة والدنيّوية وكان «قائدهم في الحرب وإمامهم في الصّلاة، وقاضيهم في سائر الأحوال»[1] وكان إنجاز هذه الشؤون يتمّ بسهولة دون تكلّف وبعيداً عن أيّ تحكمٍ واستبداد، وكلّ ما تستدعيه الحكومة من تشددٍ وقمع وإرهاب وتسلّط.

لم يكن الرسول الأعظم (ص) في تدبير شؤون الدولة الإسلاميّة ملكاً أو سلطاناً أو حاكماً، والقرآن أشار إلى هذه الحقيقة مخاطباً النّبيّ بأنّك (لَستَ عَلَيهِم بِمُسَيْطِرٍ)[2] بل كان ينظّم أمور المسلمين، ويصلح ما فسد من أوضاعهم، ويحفظ واجباتهم وحقوقهم في الحرّية والمساواة والعدل والحياة الكريمة. إذن لا يقبل الإسلام السلطان إذا كان بمعنى التّحكم والتّسلط.

قام الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم بأحسن الأشكال بتدبير شؤون النّاس الدينية والدنيوية طيلة حياته الشريفة ضمن الحدود المرسومة في القرآن الكريم، واستطاع بفضل الله تعالى أن ينظّم شؤون المجتمع تنظيماً فيه رضا الله ورضا الشّعب مبتعداً عن أيّ

---

١. زيدان، جرجي. جـ ٩ ص٦٦.

٢. الغاشية، الآية ٢١-٢٢.

استبدادٍ وسلطةٍ فردية، ومع ذلك يصعب علينا أن نتحدّث عن دولةٍ اسمها دولة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، لأنّه لم يؤسس في أيّامه أيّة إدارة ثابتة ولا حتّى جيش محترف أو قوّة عسكرية يستمرّ في إنجاز مهمّتها. وفي ضوء ما تقدّم لا نرى في شعر تلك الفترة ما ينقد سياسة النّبيّ إلّا ما كان من شعراء قريش المعارضين لرسالته السماوية التي تهدف سعادة النّاس في الدنيا والآخرة.

كانت وفاة الرسول الأعظم (ص) نهاية هذه الوحدة العربية الإسلامية التي عُدّت أساساً للنظام الجديد، ولمّا التحق (ص) بالرفيق الأعلى ترك العرب ما أوصاهم به من خلافة الإمام عليّ عليه السّلام وعقدوا جلسةً في بني سقيفة لتعيين خليفةٍ له، وبذلك حدث أوّل انشقاق في الدولة الإسلامية الناشئة.

## بواكير الهجاء السياسي في الشعر العربي

لمّا التحق الرسول الأعظم (ص) بالرفيق الأعلى ونحّى المسلمون العمل بوصيّته في خلافة الإمام عليّ عليه السّلام، فعادت العصبيات تتحرّك من جديد في عروق المسلمين، وأثارت في نفوسهم صوراً بغيضة من التّنافر والتحاسد والتّنافس على الرياسة؛ فسارع الأنصار إلى بيعة سعد بن عبادة الأنصاري[١] وسارع المهاجرون إلى مبايعة أبي بكر؛ وقبيل أن تتمّ البيعة له صرخت جماعة من المسلمين بأنّنا «لن نُبايع إلّا عليّاً»[٢] وشهر الزبير بن العوام سيفه بعد أن تمّت البيعة لأبي بكر قائلاً: «لا أغمده حتّى يُبايَع عليٌّ»[٣] ونرى أباسفيان زعيم بني أميّة يتقدّم إلى الإمام علي عليه السّلام قائلاً له: «ما بال هذا الأمر في أقلّ حيٍّ من قريش[٤] والله لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً...أبسط يدك حتّى أبايعك...»[٥] ولم يلبث أن أنشد أبياتاً[٦] أراد أن

---

١. انظر: الطبري، جـ ٢ ص٤٤٧.

٢. السابق، جـ ٢ ص٤٤٨.

٣. السابق، جـ ٢ ص٤٤٨.

٤. المراد هو القبيلة التي ينتمي إليها أبوبكر.

٥. السابق، جـ ٢ ص٤٤٨.

يحرّض الإمام علياً عليه السّلام بالثّورة ضدّ أبي بكر وانتزاع الخلافة من يده وإقرارها في البيت الهاشمي وفي الإمام عليّ (ع) تحديداً:

**بَنـي هاشِـمٍ لاتُطْمِعُـوا النَـاسَ فِـيكم ... وَلا سِـيَّما تَـيمُ بـنُ مـرَّةَ أوْ عَـدِيُّ**

**فَمَـا الأمْـرُ إلّا فِـيكمُ وَإلـيكم ... وَلـيسَ لَهـا إلّا أبُـو حَسَـنٍ عَلـيُّ**

**أبـا حَسَـنٍ فَأشْـدُدْ بهـا كـفَّ حَـازِمٍ ... فَإنَّـك بِـالأمرِ الّـذي يُرتَجَـى مَلِـيُّ[٢]**

والأنصار لم يقبلوا هذا الأمر بل كانوا يطالبون الخلافة بأن تكون فيهم ويستنكرون إهمال رأيهم والإعراض عنهم وتقديم أبي بكر على زعيمهم سعد بن عبادة، ويرون أنّه إذا كان أبوبكر خليق بالخلافة فإنّ الإمام علياً عليه السّلام أحقّ بها وأولى منه. وكان النّعمان بن عجلان واقفاً في جانب الأنصار، وكان لسانهم الناطق في الدّفاع عن حقّهم. ونراه يصوّر في أبياتٍ له غضب الأنصار ويهدّد زعماء قريش بيوم ينفد فيه صبرهم ويستخدم أسلوب الاحتجاج في أشعاره قائلاً:[٣]

**وَكـانَ خَطـاءً مـا أتَيْنَـا وَأنـتُمُ ... صَـوَاباً كأنّـا لانَـرِيشُ وَلا نَبـرِي[٤]**

**وَقُلْـتُم حَـرامٌ نَصْـبُ سَـعْدٍ وَنَصْـبُكم ... عَتِيـقَ بَنِـي عُثْمـانَ حَـلالٌ أبـابَكرِ[٥]**

**وَأهـلُ أبُـوبَكرٍ لَهـا خَيْـرُ قَـائِمٍ ... وَأنَّ عَليّـاً كـانَ أخْلَـقَ بِـالأمْرِ**

**وَكـانَ هَوانـاً فِـي عَلـيٍّ وَإنّـهُ ... لأهْـلٌ لَهـا مِـنْ حَيْـثُ نَـدْري وَلا نَـدْرِي[٦]**

---

١. انظر: اليعقوبي، جـ ٢ ص١٢٦.

٢. ابن أبي الحديد، أبو حامد هبة الله بن محمد، شرح نهج البلاغة للإمام علي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٦م، جـ ١ ص٧٠٦.

٣. ابن عبد البرّ، يوسف بن عبدالله بن محمد. الإستيعاب في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، د.ت، جـ ٣ ص٥٢١.

٤. يقال: فلان لا يريش ولا يبرى: لا يضرّ ولا ينفع. أراد الشاعر أن يقول: إننا لا نؤثر في مجريات الأمور.

٥. سعد: سعد بن عبادة الأنصاري. عتيق بني عثمان: المراد أبو بكر.

٦. يريد أن يقول: إنّ إبعاد الإمام علي عليه السّلام عن الخلافة استهانةٌ به، فهو جديرٌ بها لما يتمتّع به من مكرمات، بعضها معروف وبعضها غير معروف.

**وَهـذَا بِحَمْـدِ اللـهِ يَشْـفَى مِـنَ العَمَـى وَيَفْـتَحُ آذَانـاً ثُقْلْـنَ مِـنَ الـوَقْرِ**[١]

**فَلَـولا اتّقـاءُ اللـهِ لَـمْ تَـذْهَبُوا بِهـا وَلكـنّ هـذا الخَيـرَ أجمَـعُ لِلصَّـبرِ**

**وَلـم نَـرْضَ إلّا بِالرّضَـا وَلَرُبَمـا ضَـرَبْنا بِأيـدينا إلـى أسْـفَلِ الصَّـدرِ**

على أيّ حالٍ قبض أبوبكر زمام الأمور بعد النّبـيّ (ص) وسلَّمَ شؤونَ النّـاس إلـى بعـض عمّالٍ انحرفوا أحياناً كثيرة عن جادّة الصّواب، وأدّى ذلك الأمر إلى ظهـور التـذمّر والامتعـاض في المجتمع الاسلامي، وظهرت أصداء ذلك في أدب تلك الفتـرة إذ نـرى أبـا الأسـود الـدؤلي يظهر حبّه لآل البيت (ع) وينعي حرمانهم من الخلافة، وكثير عزّة دخل في هذا وشارك فيـه، والحطيئة سخر من خلافة أبي بكر قائلاً:[٢]

**أطَعْنَـا رَسُـولَ اللـهِ إذْ كـانَ بَيْنَنـا فَيـا لِعِبـادِ اللـهِ مـا لِأبـي بَكـرِ**

**أيُورِثُهـا بَكـراً إذَا مـاتَ بَعْـدَهُ وَتِلْـكَ لَعَمْـرُ اللـهِ قاصِـمَةُ الظَّهْـرِ**

قد رضيَ الشاعر بالرّسول (ص) ولكنّه لم يرضَ خلافة أبي بكر ورأى أنّها لـن تكـون لأبـي بكر بعده، ولا لبكر ابنه المزعوم. ولابدّ أن نعرف أنّنا لا نجد في هذين البيتين معارضة لمبادئ الإسـلام بـل حـاول قائلـه أن يحـتجّ بخلافـة الخليفتـين الأولـين. ومـع أنّ بعـض البـاحثين والمؤرخين ينفي وجود دولة سياسية في عصر الخلفاء، مؤكداً أنّها خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل[٣] إلّا أنّنا لا نصل إلى أيّام الخليفـة الثـاني حتّـى تتجـاوز سـلطته الإطـار الديني، فيبدأ أول خطوة في طريق الاستبداد، إذ جمـع لنفسـه السـلطات الـثلاث: التشـريعية والقضائية والتنفيذية؛ يظهر هذا بوضوح في تجواله في المدينة يحمل في يده الـدِّرَة [السـوط] يضرب بها من يراه مستحقاً للضرب.[٤]

---

١. يريد أن يقول: إنّ الإمام عليّ عليه السلام يقدر على إصلاح ما فسد من الأمور وأحوال البلاد والعباد.

٢. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري. الشّعر و الشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ص٢٣٨.

٣. انظر: زيدان، جـ ٤ ص٤٤.

٤. انظر: فلهوزن، ص٣٤.

وقد شاع في عهده الارتشاء، وقد قيل إنّ يرفأ حاجبه كان أوّل من ارتشى[١] وقد مال عمّاله إلى ادّخار الأموال الطائلة كما روت المصادر التاريخية عن عمرو بن العاص الذي ولّاه عمر على مصر.

ومن يستعرض عصر عمر بن الخطاب يرى أنّ أكثر ولاته وقادته قد اتّهموا باستغلال موارد الدولة والتصرف بها، واستغلّ بعض الشعراء جرأته وقوّة شخصيّته أيّام خلافته بإيصال ما كان من خيانات في إهدار مال عامّة الشعب من قبل القائمين عليها إلى الخليفة وتبصيره بحقيقة ما يقوم به بعض المسؤولين من تبديد لبيت المال.

ولاشك أن استغلال بيت المال والعبث بها من قبل فئةٍ من الولاة والمسؤولين قد أثار غضب الشعراء ورفع أصواتهم في وجوههم، وهذا ما فعله يزيد بن الصّعق[٢] عندما أرسل رسالةً إلى عمر بن الخطّاب ينقد ويهجو فيها بعض أصحاب الخراج الذين حصلوا على ثراءٍ غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها. اسمعه يقول فيها:[٣]

**فَلا تَدَعَنَّ أهْلَ الرّساتِيقِ وَالقُرَى ... يُضِيعُونَ مَالَ اللهِ فِي الأدَمِ الوَفْرِ**[٤]

**فَأرسِلْ إلى الحَجّاجِ فَأعرِف حِسَابَهُ ... وَأرْسِلْ إلى جُزْءٍ وَأرسِلْ إلى بِشْرِ**[٥]

**وَلاتَنْسَيَنَّ النّافِعَينِ كلَيْهِما ... وَلا أبنَ غَلّابٍ مِنْ سَراةِ بَنِي نَصْرِ**[٦]

**وَمَا عَاصِمٌ مِنّا بِصُفْرٍ عِنانُهُ ... وَذاكَ الّذي فِي السُّوقِ مَوْلَى بَنِي بَدْرِ**[٧]

---

١. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبالله به سهل. الأوائل، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٥م، جـ ١ ص٢٥٤.

٢- هو يزيد بن عمرو بن خويلد (وهو ابن الصّعق). انظر أخباره في الأعلام ٩: ٢٤٠.

٣. العسكري. الأوائل، جـ ١ ص٢٤٦.٢٤٧.

٤. الرساتيق: جمع رستاق وهو السّواد والقرى. الأدم: مفرده الأدم، الطعام المأدوم.

٥. هو الحجاج بن عتيك الثقفي، كان على الفرات.جزء بن معاوية، عم الأحنف كان يلي السّوق. هو بشر بن المحتضر المزنيّ كان على جند نيسابور.

٦. هما نافع بن الحارث، كان على غنائم الأبلّة، وهي بلدة على شاطئ دجلة أقدم من البصرة، وأخوه نُفيعٌ أبو بكرة.ابن غلاب خالد بن الحارث بن أوس من بني دهمان، كان على بيت المال بإصفهان.

٧. هو عاصم بن قيس بن الصلت السلمي، كان على المناذر وعلى الصدقة.

وَأرسِلْ إلى النعْمانِ وَأبْنِ مُغَفَّلٍ ... وَصِهْرِ بَنِي غَزْوانَ إنّي لَذُو خُبْرِ
وَشِبْلٍ هناك المالُ وَأبْنِ مُحَرِّشٍ ... وَقَدْ كانَ فِي أهْلِ الرَّساتِيقِ ذَا ذِكْرِ
فَأرْسِلْ إليْهِم يَصْدُقُوك وَيُخْبِرُوا ... أحَادِيثَ هَذا المالِ ذِي العَلَمِ الدَّثْرِ
فَقَاسِمْهُمُ نفسي فِداؤُك إنَهُم ... سَيَرْضَونَ إنْ قاسَمْتَهُم مِنْك بالشَّطْرِ
لاتَدْعُوَنّي لِلشّهادَةِ إنّنِي ... أغِيبُ وَلكنّي أرَى عَجَبَ الدَّهْرِ
أرَى الحُورَ كالغِزْلانِ والبِيضَ كالدُّمى ... وَما لَيسَ يُحْصَى مِنْ قِرامٍ وَمِنْ سِتْرِ[1]
وَمِنْ رَيْطَةٍ مَكنُونَةٍ فِي صِيانِها ... وَمِنْ طَيِّ أسْتارٍ مَعَصْفَرَةٍ حُمْرِ[2]
إذَا التاجِرُ الدّارِيُّ جَاءَ بِفَارَةٍ ... مِنَ المِسْك راحَتْ فِي مَفارِقِهِم تَجْرِي[3]
نَؤُوبُ إذا آبُوا وَنَغْزُو إذا غَزَوْا ... فَأنّى لَهم وَفْرٌ وَلَيسَ لَنا وَفْرُ

نفهم من هذه الأبيات أنّ الفساد لم يكن محصوراً في جانب واحد من المجتمع ولا في والٍ واحد، بل كان يعمّ أكثر الولايات، والشاعر أخذ بإحصاء أسماء الولاة ليُرِى الخليفة أنّ الأمر ليس شاذّاً، ولم يرد من كلّ هذا إلّا أن يحمّل الخليفة مسؤولية الفساد الإداري والاقتصادي.

وعلى الرغم من أنّ الأبيات السابقة تدلّ على خيانة الولاة في بيت المال إلا أن بيان ذلك بهذه الجرأة من قبل الشاعر لا يمكن أن يأتي من قبيل الصدفة، لولا وجود ما يشير إلى فساد إداري واسع في أجهزة الحكم وسكوت الخليفة عنهم أو تقصيره بعدم متابعة القائمين على هذه الأجهزة التي هى ملك لعامّة الشعب.

إنّ الإسلام لم يترك الولاة والحكام يتصرّفون في المجتمع والشؤون العامّة كيفما يشاؤون، بل يريد منهم أن يدبّروا مصالح الشعب العامّة كى يستقيم أمره ويكونوا حراساً أمناء لدين النّاس ودنياهم، وإذا تجاوزوا ما فرضه الإسلام لهم، وجدوا بين الشعراء الحريصين على مصالح

---

١. البيض: جمع الأبيض. الدمى: جمع الدّمية، وهى الصورة الممثلة من العاج وغيره يُضرب بها المثل في الحسن. قرام: ستر فيه رقم ونقوش.

٢. ريطة: الملاءة كلّها نسج واحد وقطعة واحدة. معصفر: من تعصفر أى: اصبغ بالعصفر. الحمر: جمع الأحمر.

٣. الدّاري: الملازم داره لا يبرحها ولا يطلب معاشا. الفارة: فارة المسك، رائحته.

الشّعب من يشكو أمرهم إلى الخليفة شعراً فاضحاً ليقتصّ منهم. وعلى الرّغم من كلّ المعلومات التاريخية التي تذهب إلى تأكيد العدالة والحقّ في عهد الخليفة الثاني فقد حدث الفساد في بعض النّواحي كما رأينا جانباً منه في قصيدة يزيد بن الصّعق.

جاء عثمان بعد عمر كخليفةٍ للمسلمين، فأصيب المجتمع الإسلامي بمجيئه بمشاكل عديدة لعلّ أهمّها الفساد والاستبداد، إذ ردّ الحكم بن أبي العاص إلى المدينة الذي طرده الرسول الأعظم (ص) ولم يكتف بهذا بل أعطاه مائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس إفريقية[١] كما أنّه عيّن ابن عمّه عبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر؛ وعبدالله هذا طرده الرسول (ص) وأباح دمه[٢] وسمح لكبار الصّحابة بالتنقّل في البلاد المفتوحة، وسمح لهم بجمع الأموال فادّخر معظمهم الأموال الطائلة وبذلك تخلص من عبء معارضتهم له «وخضع لأقاربه من الأمويين، فترك تصريف الأمور لرئيسهم مروان بن الحكم الأموي، وهذا عيّن جميع الأمراء الرئيسيين من الأمويين، فأغضب ذلك كثيراً من الصّحابة».[٣] كان معاوية أبرزهم في الشام، ونراه قد جعل مروان بن الحكم مستشاره المؤتمن والذي سيطر على الخلافة ولم يكتف بذلك بل منحهم الأموال بلا حساب. هذا يعني أن عثمان أسكت معظم الصحابة بالأموال إزاء سكوتهم مقابل جعله إدارة الأمور على أيدي أسرته الأموية. يرى أحد المستشرقين أنّه «تجلّى سلطان الأمراء والعمّال في عهده [عثمان] وتجلّى جريهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان في عهد عمر»[٤] وقد بلغ الشعر ذلك المبلغ بحثاً عن الحقّ الضائع في مال المسلمين، فصار عبدالرحمن بن حنبل يناقش

---

١. عيسى، رياض. الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتّى سقوط الدولة الأموية، الطبعة ١، دمشق، ١٩٩٢م، ص٦٥.

٢. انظر: فلهوزن، ص٤٥.

٣. أمين، أحمد. يوم الإسلام، ص٥١.

٤. فلهوزن، ص٤٣.

الخليفة عثمان بن عفّان حساب فئ المسلمين ويتّهمه بتبديده وتوزيعه بين أهله وخاصته: [١]

**وَأحْلِفُ باللهِ جَهْدَ اليَمِينِ ... مَا تَرَكَ اللهُ أمْراً سُدَى [٢]**

**وَلَكِنْ خُلِقْتَ لَنَا فِتْنَةً ... لِكَي نَبْتَلِي بِكَ أوْ تُبْتَلَى**

**دَعَوْتَ الطَرِيدَ فَأدْنَيْتَهُ ... خِلافاً لِمَا سَنّه المُصْطَفَى [٣]**

**وَوَلّيتَ قُرْباكَ أمْرَ العِبادِ ... خِلافاً لِسُنَّةِ مَنْ قَدْ مَضَى**

**وَأعْطَيْتَ مَروانَ خُمْسَ الغَليمةِ ... آثَرْتَهُ وَحَمَيْتَ الحِمَى**

**وَمالاً أتاكَ بِهِ الأشْعَرِيُّ ... مِنَ الفَيءِ أعْطَيْتَهُ مَنْ دَنَا**

ويتّضح ممّا بيّناه وممّا ذكرته المصادر التاريخية وممّا يشير إليه الشاعر في البيت الثالث أنّ الخليفة قام بمعارضة حكم الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما دعا شخصاً طرده النّبيّ، ويشير في البيت الرابع بقيام الخليفة بعملٍ يخالف سنّة الرسول (ص) إذ وظّف أقربائه في شؤون المجتمع، كما أنّه ذكر في البيت الخامس ولاية مروان على خمس إفريقيّة.

ولا شك أنّ الفساد والاستبداد في جهاز هولاء الخلفاء فتح أمام الشعراء آفاقاً جديدة أدّت إلى تطوّرٍ جديد في الهجاء لا سابق له في الشعر العربي، ونحن هنا نميل إلى أنّ بدايات الهجاء السياسي ظهرت في عهد الخلفاء نتيجةً لسوء سياستهم.

## مولد الفرق والأحزاب السياسية

شهد المجتمع الإسلامي نشأة فرق وأحزاب مختلفة لعبت دوراً سياسياً هامّاً في تطور الأحداث، وإنّنا إذا استثنينا فرقة الشيعة التي نذهب إلى أنّ نشأتها كانت إبّان حياة النّبي (ص) نستطيع أن نقول إنّ بقيّة الأحزاب كانت وليدة الظروف التي طرأت على المجتمع بعد وفاة الرسول (ص) وحروب الإمام علي (ع) مع المعارضة. ولعلّنا لا نخطئ إن قلنا إنّ تلك الحروب وضعت أساس حزبين اثنين هما حزب الخوارج وحزب الأمويين.

---

١. ابوهلال العسكري، الأوائل، جـ ١ ص٢٥.

٢. السدى: المهمل. وفي التنزيل العزيز ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦:٧٥].

٣. الطّريد: المطرود.

ليس من أهدافنا البحث هنا في تفاصيل الأحداث التي وقعت بعد الرّسول (ص) بل كلّ ما نستهدفه تبيان مواقف المعارضة السياسية وآرائهم في الخلافة والأوضاع السياسية في المجتمع الإسلامي، ونبدأها بالشيعة:

## فرقة الشيعة

إنّ الشيعة تعدّ أوّل فرقة ظهرت على مسرح الحياة الدينية والسياسية في الإسلام، إلّا أنّ آراء الباحثين من المستشرقين والعرب تضاربت في نشأتها؛ بينما يرى المستشرق فلهوزن أنّ منشأ الشيعة يعود إلى الثورة على عثمان[١] ذهب برنارد لويس المستشرق الكبير إلى القول مؤرخاً لقيام فرقة الشيعة بدأ التشيع بوفاة محمد صلّى الله عليه و[آله]وسلّم حركةً سياسيةً محضةً تطلب أن يكون عليّ خليفة للرّسول[٢] ويرجع بعض الباحثين العرب نشأة فرقة الشيعة إلى بعد وفاة الرسول (ص)[٣] ليست ولادة فرقة الشيعة متزامنةً مع لحظة وفاة النّبيّ(ص) أو الثورة على عثمان، بل نرى أنّ ولادتها تعود إلى حياة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، ونذهب مع محمد حسين آل كاشف الغطاء إلى «أنّ أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية، أى أنّ بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب وسواء بسواء، ولم يزل يمارسها ويتعهدها بالسقى والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته ثمّ أثمرت بعد وفاته».[٤]

إنّ الشيعة ترى أنّ الإمام عليّاً عليه السّلام أحقّ النّاس بالخلافة وأنّه أحقّ من الذين تولّوا الخلافة ونرى أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عهد له بها من بعده وكان كلّ إمام يعهد بها لمن بعده، وأهم خلاف بين الشيعة والأحزاب الأخرى هو مسألة الخلافة لمن تكون، وإن كان

---

١. انظر: فلهوزن، ص ٦٢.

٢. لويس، برنارد. أصول الإسماعيلية، ترجمة عربية، بغداد، ١٩٤٧م، ص٨٣.

٣. انظر: الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٢٢٣.

٤. كاشف الغطاء، محمد حسين. أصل الشيعة وأصولها، بيروت، د.ت، ص ٨٧.

الخلاف السياسي مصبوغاً أيضاً بصبغة الدين.[١]

كان الشيعة يبغضون بني أمية كما أنّهم يبغضون العباسيين في عهدهم لأنّهم معتدون اغتصبوا حقّهم في الخلافة، وبذلك كوّنوا جبهة المعارضة السياسية.

## الحزب الأموي

كانت الثورة على عثمان في الحقيقة ثورةً من أجل الحق والعدالة ضدّ فساد الحكم وظلمه، لكنّ معاوية، وكان والياً على الشّام، استغلّها للحصول على السّلطان والسيطرة على الحكومة، ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ ظهور الأمويين كان أهمّ نتيجة للثورة على عثمان، ولابدّ أن نعرف أنّ «المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني أميّة، والغرض الذي كانوا يرمون إليه، إنّما هو إحراز الخلافة والرجوع إلى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية إلى ذلك، أو وخامة الأسباب التي تمسّكوا بها، وقد فازوا بغايتهم، فاتّسعت المملكة الإسلامية في أيّامهم واشتدّت شوكتها، مالم تبلغ إليه دولة العباسيين بعدها، وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد».[٢]

ارتفعت مكانة الأمويين أيّام خلافة عثمان بواسطة اعتماده عليهم، وتوظيفهم على المناصب العالية والمهمّة في الدولة، وكان معاوية بن أبي سفيان أعظم الولاة عنده حظّاً فقد جعل له عدّة من الولايات وفوّض إليه أمر الخراج وبذلك أعطاه سلطةً واسعة جدّاً.[٣]

بعد مقتل عثمان بن عفّان بايع المسلمون الإمام علي (ع) الخلافة، إلّا أنّ معاوية بن أبي سفيان جعل مقتل الخليفة الثالث ذريعة على عدم مبايعة الإمام عليّ عليه السّلام على الخلافة واعتبر نفسه وليّ دمه.

خرج الإمام علي (ع) بعد واقعة الجمل إلى العراق واتّخذ الكوفة مقرّاً له، وجرت بينه وبين

---

١. انظر: أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ٣ ص٢١٧.

٢. زيدان، جرجي. جـ ٤ ص٦٥.

٣. انظر: المسعودي، مروج الذهب جـ ٢ ص٣٤٧.

معاوية مراسلات مختلفة لم تؤدِّ إلى نتيجة، فحدثت معركة صفّين وتمخّض عنها نشأة حزب آخر وهو الخوارج، وهنا لا نريد أن ندخل في تفاصيل المعركة وما حدث فيها.

استشهد الإمام علي سنة ٤٠ ه وتنازل الإمام الحسن عليه السلام عن حقّه درءاً للفتنة ومراعاةً لمصالح المجتمع الإسلامي، فاستولى معاوية على الخلافة، وبهذا بدأ عصر جديد في المجتمع الإسلامي عرف بالعصر الأموي «وقد كان أصل الأمويين لا يجعلهم أهلاً لقيادة الأمة المحمدية، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيوقراطية أن يظهر الأمويون ممثّليها الأعلين، فهم كانوا مغتصبين».[1]

أحيا الأمويون العصبيات القبليّة إحياءً شديداً صدمت شعور المسلمين، وبذلك مثّلوا سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام، وكان من عناصر سياسة الأمويين استخدام العطاء سلاحاً للإرهاب وأداةً للتقريب، فحرموا جماعةً من الناس وأغدقوه أضعافاً مضاعفةً على جماعةٍ أخرى «ولقد زاد في البغض للأمويين قدم الشكوى من السّلطان وأفعاله، وظلّت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة باعتبار أنهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان، وكانت موضوعات الشكوى هي: أنّ العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون النّاس، وأنّ أموال الدولة تجري إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية وأنّ الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذّاتٍ للسّادة لا يُعاقبون عليها، لأنّ الحدود معطّلة».[2]

وجديرٌ بالملاحظة أنّ الأمويين اتّجهوا إلى طرق شتّى للحصول على الخلافة وكانوا بحاجة إلى الاحتيال والذكاء للاحتفاظ على الموقف «ومما احتاج إليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب، كما فعل معاوية بن أبي سفيان في اكتساب نصرة

---

١. فلهوزن، ص٥٩.

٢. السابق، ص٦٠.

عمرو ابن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة». [١]

فلمّا اضطرّ بنوأمية إلى اصطناع الرجال وجمع الأحزاب واسترضاء القبائل، أغضوا عن كثير من أحكام الله ووطئوها تحت أقدامهم، واستخدموا عمّالاً أشداء لايبالون بالدّين ولا أحكامه في سبيل أغراضهم مثل زياد بن أبيه عامل معاوية، وعبيدالله بن زياد عامل ابنه يزيد، والحجاج بن يوسف عامل عبدالملك بن مروان، وخالد القسري عامل هشام بن عبدالملك وغيرهم. [٢]

كانت الدولة الأموية دولةً عربية، وكان طلب السلطة والتغلّب أساس سياستها، فاستعانوا للوصول على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الأحزاب، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بتقسيمهم وتفكيك العرب إلى قبائلها كما كانت قبل الإسلام، وأفرطوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي وأهل الذمّة «و أعوزهم اصطناع الأحزاب إلى الاستكثار من الإنفاق لصرفها في اجتذاب قلوب الرجال، والاستكثار منها بعثهم على الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل، ومدّوا أيديهم إلى أموال الصدقة وغيرها، واستأثروا بالفئ». [٣]

## حزب الخوارج

يصعب علينا استخلاص تاريخٍ للخوارج من خلال أمّهات الكتب والمصادر التاريخية ووضعه في سياق عامّ يختصّ بهم ويكشف عن نشأة هذا الحزب؛ ومهما يكن من أمر فإنّه فيما يخصّ نشأة الخوارج وتطورها نلاحظ أنّ الإجماع يكاد يتفق عند جمهور الباحثين على الربط بين معركة صفّين وما حدث إثرها من مسألة التحكيم وبين نشأة الخوارج، واعتبروا أنّ معركة النهروان بين الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) والخوارج هي بداية نشأة الخوارج.

لا نريد في هذا المجال أن نتحدّث عن معارك صفّين والنهروان، وما حدث من مسألة

---

١. زيدان، جرجي. جـ ٤ ص٧٧.

٢. السابق، جـ ٤ ص٨٧.

٣. السابق، جـ ٤ ص١١٨.

التحكيم، إذ وردت تفاصيل ذلك في الكتب التاريخية، غير أنّه لابدّ لنا أن نشير إلى أنّه بعد أن انتهى التحكيم بخلاف الحقّ تراجع الخوارج عن موقفهم الأول وعادوا فطالبوا الإمام عليّاً عليه السلام باستئناف القتال ضدّ معاوية، وقد ذكرهم الإمام بأنّهم هم الذين أجبروه على قبول التحكيم وأنّه أنكر عليهم ذلك. وكذلك لابدّ أن نذكر أنّ مسألة التحكيم كانت من أهمّ مواقفهم السياسية، لأنّهم كانوا من أوائل من بايعوا الإمام عليّاً عليه السلام على الخلافة بعد مقتل عثمان، ثمّ كانوا أوّل من خرج عليه بعد واقعة التحكيم.

ولم يكتف الخوارج بذلك بل «راحوا يؤلّبون النّاس على عليٍّ ويتعرّضون له في خطبه وسبّوه وشتموه، وعرضوا به بآيات من القرآن وحكموا عليه بالكفر، فقام عليّ خطيباً في النّاس وخاطب الخوارج الحاضرين بينهم وأعلمهم بأنّه لايمنعهم من المساجد ما لم يخرجوا عليه، ولايمنعهم نصيبهم من الفئ ما دامت أيديهم معه، ولايقاتلهم حتّى يقاتلوه، ولم يرتدع الخوارج بذلك، بل راحوا يعيثون في الأرض فساداً يستعرضون النّاس ويمتحنونهم في عقيدتهم ورأيهم، ويقتلون من يعرفون مخالفته لما هم عليه».[١]

وأمّا بالنسبة إلى الخلافة فكانت فكرة الخوارج تختلف عن سائر الفرق والأحزاب السياسية، فهؤلاء يرون أنّ خليفة الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يتعيّن من قبل، ولم يكن هناك نظامٌ وراثيّ في الخلافة كما كان الشأن في العصرين الأموي والعباسي، بل يجب أن يتولّى الخلافة أصلح النّاس لا فرق بين أن يكون قرشياً أو غير قرشي، عربيّاً كان أو غير عربي «ثمّ إنه إذا انتخب الخليفة وتمّت البيعة له، وسار سيرةً لاتتفق ومصلحة المسلمين بأن جار وظلم وجب عزله، فإن اعتزل وإلّا قوتل حتّى يقتل».[٢]

واستناداً إلى هذا المبدأ خرجوا على الدولة الأموية قائلين «إنّ الولاة من معاوية وقومه من

---

١. أبوسعدة، محمد. الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، الطبعة ٢، جامعة حلوان، كلية الآداب، ١٩٩٨م، ص٢٦.

٢. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ٢ ص٣٣٢.

الأمويين كفَرَةٌ ويجب أن يقابل كفرهم وظلمهم وجورهم بالخروج عليهم جهاراً».[١]

كان الخوارج ينظرون إلى الخلفاء العباسيين مثل نظرتهم إلى الخلفاء الأمويين، ويرون أنّهم لايمثّلون الخلافة الإسلاميّة ولم يُختاروا اختياراً حرّاً، وهم يفقدون الشروط اللازمة التي يجب أن تتوفّر في الخليفة، فلذلك يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم.

وقد لعب شعراؤهم دوراً كبيراً في ساحة الأدب وخاصّة مسرح الهجاء، إذ كان هجاؤهم تسفيهاً لآراء خصومهم كما كان نقداً لتملّق الحكام وهجوماً على الدولة الأموية من أجل تصرّفاتها الظالمة. يقول أحد شعراءهم في ذمّ عبيد الله بن زياد:[٢]

**أخَافُ عِقَابَ اللهِ إنْ مِتُّ رَاضِياً ... بِحُكمِ عُبَيدِاللهِ ذِي الجُورِ وَالغَدْرِ**

**وَأحْذَرُ أنْ ألقَى إلهِي وَلَمْ أرُعْ ... ذَوِي البَغْيِ وَالإلحادِ فِي جَحْفَلٍ مَجرِ**[٣]

ومن نقد شعراءهم للدولة الأموية وظلم ولاتها قول مرداس بن أدية:[٤]

**وَقَدْ أظْهَرَ الجُورَ الوُلاةُ وَأجْمَعُوا ... عَلَى ظُلْمِ أهْلِ الحَقِّ بِالغَدْرِ وَالكفْرِ**

**فَقَدْ ضَيَّقُوا الدُّنيا عَلَينا بِرَحْبِها ... وَقَدْ تَرَكونا لا نَقِرُّ مِنَ الذُّعْرِ**[٥]

## الحزب الزبيري

ينتمي هذا الحزب إلى عبدالله بن الزبير وكان الزبير من الصّحابة، ويظهر الحزب الزبيري على الساحة السياسية حينما حاول عبدالله أن يستولي على الخلافة، وكان يطمع بالخلافة منذ خلافة الإمام عليّ عليه السّلام، وكان يحرّض على حرب الإمام، ويشجّع أباه على الاشتراك في حرب الجمل ومحاربة الإمام (ع). لعب هذا الحزب دوراً كبيراً لمدّةٍ تقارب العقد من الزمن، وكان أبرز شخصياته بعد عبدالله أخوه مصعب. كان عبد الله بن الزبير يعارض

---

١. السابق، جـ ٣ ص٣٣٠.

٢. عباس، إحسان. شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٢٣م، ص١٢.

٣. الجحفل: الجيش الكبير.

٤. السابق، ص١١.

٥. قرّ بالمكان: أقام. الذعر: الخوف والفزع.

الإمام علياً عليه السلام ويسند خروج عائشة وكان يكره بني هاشم.

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السّلام وتنازل الإمام الحسن عليه السّلام عن حقّه مراعاةً لمصالح المسلمين، استولى معاوية على مقاليد الخلافة، وجاء بعده يزيد بقوّة السيف وقدرة المال، وحدث في عهده واقعتان زادتا من احتجاج المسلمين ونقمتهم على الأمويين هما: واقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وواقعة الحَرّة. ولمّا تولّى يزيد الخلافة لجأ ابن الزبير إلى مكة ودعا لنفسه بالخلافة سنة ثلاث وستّين هجرية «إلّا أنّ محمد بن الحنفية وعبدالله بن العباس وجماعة من بني هاشم أبوا بيعته، فحبسهم ابن الزبير في سجن عارم، ولكن المختار الثقفي وجّه رجالاً من الشيعة فكسروا باب السجن وأخرجوا منه بني هاشم وساروا بهم إلى مأمنهم ولذلك كان ابن الزبير يكره بني هاشم وجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر وأسقط ذكر النّبيّ (ص)».[1]

ومن الناحية السياسية كان يرى الحزب الزبيري أنّ الخلافة تجب أن تبقى في قريش لأنّها ركن أساسي من أركان الإسلام والخلافة لا تقوم إلّا بها، وبذلك وجد الزبيريّون أنفسهم في مواجهة الأحزاب الثلاثة أعني الشيعة والأمويين والخوارج، فقرّبوا المضريين إليهم وصبغوا حكمهم بصبغة ارستقراطيّةٍ قرشيّةٍ. ولكن لم تدم الحال لهم أكثر من تسع سنوات، لأنّ عبدالملك بن مروان ذهب نحو العراق وأجهز على مصعب أخيه سنة ٧٢هـ[2] ومن جانب آخر نراه أرسل الحجاج بن يوسف إلى مكة، فضرب الحصار عليها ورماها بالمنجنيق، وهزم عبدالله بن الزبير وقتله وصلبه وحدث ذلك سنة واحدة بعد مقتل أخيه مصعب.

وجدير بالذكر أنّ إدارة الزبيريين أخفقت وأساء عمّالهم السيرة ومالوا إلى الخيانة مدّة السنوات القليلة التي حكموا فيها وهذا يظهر ممّا قاله الشعراء في ذلك:[3]

---

١. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٢٥٢.

٢. انظر: المسعودي، علي بن الحسين. التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ص١٩٦٨م.

٣. البلاذري، أبوالحسن أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف، تحقيق: الدكتور محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، دار المعارف، مصر، د.ت، جـ ٦ ص٣٤٥.

يـا بْـنَ الزّبيـرِ أميـرَ المـؤمِنينَ ألَـمْ      يَبْلُغْـك مـا فَعَـلَ العُمّـالُ بِالعَمَـلِ

بَـاعُوا التّجّـارَ طَعـامَ الأرضِ وَاقتَسَـمُوا      صُـلْبَ الخَـراجِ شِـحاحاً قِسْـمَةَ النَّفَـلِ[١]

لا شك أنّ الحزب الزبيري كان أقلّ الأحزاب شعراً لما ذكرته المصادر التاريخية والأدبية من بخل عبدالله بن الزبير، ومن أجل هذا انفضّ الشعراء من حوله، وذكرت تلك المصادر أنّ فضالة بن شريك الأسدي قصده وطلب منه ناقةً فصرفه ولم يعطه، فقال:[٢]

يَضُـنُّ بِناقَـةٍ وَيَـرُومُ مُلكـاً      مَحـالٌ ذلكـم غَيـرُ السَّـدادِ[٣]

إلّا أنّ عبيدالله بن قيس الرّقيّات كان شاعرهم السياسي غير مدافع وله أشعار في الدفاع عن حقّهم امتزجت بهجاء الأمويين كقوله:[٤]

إنّمـا مُصْـعَبٌ شِـهابٌ مِـنَ اللّـ      ـهِ تَجَلّـتْ عَـنْ وَجْهِـهِ الظَّلمـاءُ

مُلْكـه مُلْـك قُـوّةٍ لـيس فِيـه      جَبَـرُوتٌ وَلا بِـهِ كبريـاءُ

ولابدّ أن نذكر أنّ هذه الفِرَق والمذاهب الأربعة كانت أهمّ ما نشأ في هذا العصر، ونجد بجانبهم فرقاً مختلفة تمتاز بصبغتها المذهبية أكثر من صبغتها السياسية. وأخيراً نقول إنّ هذا العصر كان فترة صراع سياسي عام حول الحكومة الإسلامية ونظامها، وهو صراع دوّخ الأمويين وذهب بسلطانهم آخر الأمر.

## الهجاء السياسي في العصر الأموي

لمّا قامت الدولة الأموية عام ١٣٢ه ظهرت من جديد، العصبيات القبلية التي خالفها الإسلام والتي حاول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يجتثّ جذورها؛ وما إن جلس الأمويون على الأريكة «شعروا بأن الدّم الذي يجري في عروقهم دمٌ ممتاز، ليس من

---

١. شحاح: جمع الشحيح: البخيل. النّفل: الغنيمة.

٢. المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران. معجم الشعراء، تحقيق: فاروق سليم، الطبعة ١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٧٦.

٣. ضنّ به عليه: ضَنّاً وضنانةً: بَخِلَ بُخلاً شديداً. رام: روماً ومراماً: طلب.

٤. الرقيات، الديوان، ص٩١.

جنسه دم الفرس والروم وأشباههم، وتملكهم هذا الشّعور بالسيادة والعظمة، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيّد إلى المسود، وكان الحكم الأموي مؤسساً على هذا النظر».[١]

اتّخذت الدولة الأمويّة سياسةً أساسها الاستبداد «وعرف معاوية كيف يتألف القلوب، ويبذل المال، ويقرّب الشعراء، وبايع لإبنه بولاية العهد، فسار على سياسة الوراثة في الحكم، وحرّض شعراءه على المعارضين، ودعاهم بالإغراء إلى أن يكونوا شعراء رسميّين كصحافة الحكومة في الممالك المعاصرة فقالوا في نصرته وفي هجاء خصومه، فاستفحل الهجاء السياسي وأصبح هؤلاء الشعراء يجتمعون فينشدون أهاجيهم، وكان فيها سباب وشتائم، ويذكرون فيها ما ذكر الجاهليون، ويعلّقون بهذه الأسباب ويهجمون عليها، حتى قيل لم يبق شاعر إلّا وكان له في الهجاء نصيب».[٢]

كان الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي، فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر في نفوس النّاس فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء. ومن الملاحظ في هذا العصر أنّ شعراء الفرق والأحزاب السياسية وإن كانت تختلف أغراضهم السياسية ومواقفهم من الأوضاع السياسية، فقد ألّفوا تكتّلاً واحداً في هجاء الأمويين ووقفوا في طرف واحد ينقدون ما ظهر في المجتمع من جرّاء استيلاءهم على شؤون الشعب السياسية والدينية نقداً صريحاً. هؤلاء الشعراء انصرفوا إلى تناول الحكام ونقدهم، ورموهم بالبعد عن الدعوة الإسلامية وبخروجهم على الشرع.كان عتبة الأسدي واحداً منهم، وقد نراه يهجو "معاوية" ويتّهمه بالشره في جمع المال وإفساد الناس. اسمعه يقول:[٣]

**مُعَاوِيَ إنّنا بَشَرٌ فَأَسْجَحْ ... فَلَسْنا بِالجِبالِ وَلا الحَديدِ**[٤]

**أكَلْتُم أرْضَنا وَجَذَذْتُمُونا ... فَهَلْ مِنْ قائِمٍ أوْ مِنْ حَصِيدِ**

---

١. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، جـ ١ ص٤١.

٢. الدهان، ص٥٩.

٣. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥ ص٦٤.

٤. السجح بضمّتين والسجيح: اللين السهل.

فَهِبْنـــا أمــــةً هَلَكَـــتْ ضِـــياعاً يَزيــــدُ أميرُهـــا وَأبُـــو يَزيـــدِ
أتَطْمَـــعُ بِــــالخُلودِ إذا هَلَكْنـــا وَلَـــيس لَنـــا وَلا لَـــك مِـــنْ خُلُـــودِ
ذَرُوا خَـــوْلَ الخِلافَـــةِ وَأسْـــتَقِيمُوا وَتـــأمينَ الأراذِلِ وَالعَبِيــدِ

نرى الشاعر يوجّه سهام الهجاء والنقد إلى معاوية قائلاً إنّنا بشر نحمل مشاعر الإنسان ولسنا جبالاً ولا حديداً، وبذلك يريد أن يعلمه أنّ السّيل قد بلغ الزبى وهو مسؤولٌ عمّا آلت إليه الأمور، وإن لم يجرِ الإصلاحات تخرج الأمور من أيديه. كانت هذه الأبيات بمنزلة صيحةٍ «كان يردّدها العرب في المطالبة السياسية بالحقوق والتساوي والبعد عن تقريب الأراذل والعبيد، ولكنها منبثقة من خلق العربي، وعلى كل حال فهو لا يرتضي الذلّ والإنقياد والضياع».[١]

كان من أهمّ القضايا السياسية في عصر معاوية جعل الخلافة وراثيةً، وهو بذلك نحى منحىً جديداً في تاريخ الدولة الإسلامية، وخالف ما كان شائعاً قبل هذا العصر؛ إذ كان اختيار الخليفة على أساس الشورى وإن كنّا نعتقد أنّه كان على شكلٍ صوريٍّ. ويرى أحمد أمين أنّ أيّام معاوية كانت نقطة الانطلاق «من خلافةٍ إلى ملك عضود، والفرق بينهما أنّ الخلافة أساسها اقتفاء أثر الرّسول (ص) والاعتماد في حلّ المشاكل على شورى أهل الحلّ والعقد واختيار الخليفة منهم حسب ما يرون أنّه الأصلح، أمّا الملك فيشبه الملوك الأقدمين من فرس وروم، واستبداد بالرأى وقصر الخلافة على الأبناء أو الأقرباء ولو لم يكن صالحين لذلك، وهذا كلّه ما فعله معاوية».[٢] ولفت هذا الأمر انتباه بعض الشعراء وهذا عبدالله بن همام السلولي يحمل على هذا الأمر الوراثي حملةً شديدة تجاوزت السخرية والتهكم إلى إظهار الحقد والغيظ على بني أميّة:[٣]

---

١. الدهان، ص٦٠.

٢. أمين، أحمد. يوم الإسلام، ص٥٧.

٣. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥ ص٧٠.

فَـــإنْ تَـــأتُوا بِرَمْلَـــةَ أوْ بِهِنْـــدٍ نُبَايِعْهـــا أمِيـــرَةَ مُؤمِنِينـــا[1]
إذَا مَـــاتَ كِسْـــرَى قَـــامَ كِسْـــرَى نَعُـــدُّ ثَلاثـــةً مُتَناسِـــقِينا

وفي هذا هجاء سياسي لاذع امتزج بطابع السخرية لتزداد لذعته إذ يرى الشاعر أنّ الأمويين إن جعلوا الخلافة في النّساء قبلناه وبايعنا النّساء كخليفات، وفي ذلك تقليد للأكاسرة وخروج عن الشرع. ولاشك أنّ الشاعر يريد أن يقول إنّ الشعب لا يد له في مجريات الأمور ولا دور له في اختيار الحكام والولاة، وهذا نهاية الاستبداد والديكتاتورية. عهد معاوية بالخلافة إلى ابنه يزيد الذي اشتهر بالظلم والفساد، ولم يكن رجل سياسةٍ إذ «ساس النّاس سياسةً ميكافيليّةً[2] استبدادية لا عهد للنّاس بها من قبل».[3] والواقع أن الحقبة الأموية من تاريخ المسلمين قد شهدت مزيداً من المجاهرة بالظلم والطغيان والانحراف عن صراط الاسلام.

استولى الأمويون على السلطة بالقوة مستخدمين السيف لإبادة من يقف لهم معارضاً في الطريق ولم تلبث سياسة الأمويين هذه أن أغضبت طوائف كثيرة من العرب والموالي على السواء، وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير في شيوع هذا السخط بين المسلمين. فقد وصفه وفد من بعض أهل المدينة بأنّه «رجل ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان».[4] وقد هجا الشاعر ابن عرادة يزيد بن معاوية بمثل هذا حين قال:[5]

---

١. رملة وهند: بنتا معاوية بن أبي سفيان.

٢. مذهب سياسي يعود إلى المفكر الإيطالي نيكولا ميكيافيللي ويقضي باعتبار الأمور اللاأخلاقية كالغش والخداع والدهاء وسوء النيّة أموراً ليست عيباً في سبيل تحقيق الأهداف من دون اعتبار لنداء الضمير أو الدين على أساس الغاية تبرر الوسيلة (انظر: عاصي ٢١).

٣. أمين، أحمد. يوم الإسلام، ص٥٨.

٤. الطبري، جـ ٤ ص٥٠٤.

٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥ ص٣٧٦.

أَبَنـي أُمَيَّـةَ إنَّ آخِـرَ مُلْكِكُـم ... جَسَـدٌ بحُـوّارينَ ثَـمَّ مُقِـيمُ

طَرَقَـتْ مَنِيّتُـهُ وَعِنْـدَ وِسـادِهِ ... كُـوبٌ وَزِقٌّ راعِـفٌ مَرثُـومُ[1]

وَمُرِنَّـةٌ تَبْكِـي علـى نَشْـوَانَةٍ ... بِالصَّـنْجِ تَقْعُـدُ تـارةً وَتَقُـومُ[2]

والخليفة الوليد بن يزيد تعرّض لهجاء شديد من الشعراء الذين عبّروا عمّا في نفوس الرعية بسبب ما كان يرتكبه من مجون ولتركه شئون الحكم وانغماسه في البطالة واللهو. يقول فيه حمزة بن بيض:[3]

يـا وَلِيـدَ الخَنـا تَرَكْـتَ الطَّرِيقَـا ... وَاضِـحاً وَارْتَكَبْـتَ فَجّـاً عَمِيقـا

وَتَمادَيْـتَ وَاْعْتَـدَيتَ وَأسْرفْـ ... ـتَ وَأغْوَيْـتَ وَانْبَعَثْـتَ فُسُـوقا

أبـداً هـاتِ ثـمّ هـاتِ وَهـاتِ ... ثـمّ هـاتِ حتّـى تَحِـزَّ صَـعِيقا[4]

أنـتَ سَـكرانُ مـا تُفيـقُ فَمـا تَـرْ ... تِـقُ فَتْقـاً وقَـدْ فَتَقْـتَ فُتُوقـا

واستعان الأمويون بالشعر لخدمة غاياتهم في مجال آخر، فقد كانوا واقفين على أثر سياسة "فرّقْ تَسُدْ" «فاستخدموا الشعراء في بذر بذور الفرقة بين النّاس وصرف أنظارهم عن قضايا الحكم بإغراقهم في الصراعات الداخلية».[5] ونلاحظ في الهجاء السياسي لهذه الفترة ميزات أهمّها:

أـ اتّسع نطاق الهجاء السياسي في العصر الأموي من حيث الكميّة، إذ تناول عددٌ قليل من الشعراء في العصر السابق سياسة الخلفاء، وكانت أشعارهم لاتتجاوز أبياتاً قليلة، غير أنّنا نرى في هذا العصر كمّاً هائلاً من المقطوعات والأشعار هجا فيها أصحابها خلفاء الأمويين

---

١. الوساد: المتّكأ، كلّ ما يوضع تحت الرأس. كوب: قدح من الزجاج وهو من آنية الشراب. زقّ: وعاء من جلد يجزّ شعره ولا يُنتف، للشراب وغيره. راعف: سائل. مرثوم: مكسور والملطّخ بالطيب.

٢. مرنّة: القوس المصوّتة. نشوانة: السكران في أول أمره وهي نشوى. الصنج: آلة موسيقية ذات أوتار.

٣. المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت، جـ ٥ ص١١٣.

٤. حزّه : حزّاً: قطعه ولم يفصله. صعيق: شديد الصوت.

٥. قاسم، عون الشريف. شعر البصرة في العصر الأموي، الطبعة ١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م، ص٩٣.

ونقدوهم نقداً لاذعاً.

ب ـ امتزج الهجاء السياسي في العصر الأموي بالهجاء المذهبي، وكثيراً ما نرى الشعراء المناوئين للأمويين يهجونهم بتعطيل الأحكام الإلهية والخروج عن جادة الصواب، وكان هذا طبيعيّاً لأنّ الشعراء كانوا في مجتمع إسلامي وكان الخلفاء يدّعون أنّهم يقومون بتنفيذ الأحكام الإلهيّة، وهذا ما ذهب إليه أحد الباحثين ذاهباً إلى أنّه «اتّسع نطاق الهجاء السياسي والمذهبي بصورةٍ لم يعرفها القرن الأول، مع أنّ الشعر السياسي بصفةٍ عامّة كان مزدهراً فيه، فبعد أن كنّا نسمع في القرن الأول أبياتاً متفرّقة في هجاء الخلفاء أصبحنا نجد أنّ هذا النوع من الهجاء قد انتشر في القرن الثاني انتشاراً واسعاً وأصبح لوناً ثابتاً من ألوان الهجاء».[١]

ج ـ اتخذ الهجاء السياسي في هذا العصر صوراً مختلفة ومذاهب متعددة «فمضى بعضه على الأسلوب الجاهلي الذي يقوم على العصبية القبلية واتّجه بعضه إلى مهاجاة أصحاب الدعوة والمحاربين في سبيل الملك وإنكار حقّهم في ذلك وتتبع سقطاتهم والتشنيع بأعمالهم وهفواتهم. وانصبّ بعضه الآخر على الولاة مهاجماً سياستهم البعيدة عن العدل والإنصاف، والمخالفة لما ألف من عادات. وذهب فريق من النّاس مذهب الساخط على هؤلاء الزعماء القرشيين الذين امتلأت نفوسهم بالطمع، فجروا على النّاس هذه الويلات التي لاتعود عليهم بغير الشرّ والفناء».[٢]

## هجاء الولاة في العصر الأموي

وفي أيّام الأمويين كان بعض الولاة يجورون ويرتشون مستترين وراء مناصبهم خادعين الشعب، سارقين أمواله، مستخفّين بالدّين وبتعاليمه، مستندين على دعم الخليفة لهم. وهنا تدخّل بعض الشعراء وفضحوا أمثال هؤلاء بحيث أرغموا الخليفة أن يقيل الولاة

---

١. هدارة، محمد مصطفى. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٤٢٣.

٢. محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، المطبعة النموذجية، الإسكندرية، د.ت، ص ٢٣.

الخاطئين.كان معاوية بن أبي سفيان قد نصب عبدالرحمن بن عبدالله الثقفي[١] والياً على الكوفة، فكان على ما يظهر سيئ الطبع فاسد الأخلاق والدّين؛ كان يظلم ويهمل شؤون الفلاحين بحيث أدّى إلى خراب الأراضي الزراعية الخيّرة، فأحسّ الشعراء بالفساد وبموجة الغلاء فأظهروا غضبهم ونهجوا في شعرهم منهجاً ثورياً فصوّروا مصير العراق واعتقدوا أنّ الظواهر الاجتماعية ترتبط بالبناء العام للمجتمع فلذلك رفعوا أصواتهم وفضحوا الجوانب السلبية ودعوا إلى التغيير. كتب عبدالله بن همام السلولي قصيدةً في رقاعٍ ألقاها في مسجد الكوفة الجامع جاء فيها:[٢]

**ألا أبلِغْ مُعاوِيَةَ بنَ صَخْرٍ ... فَقَدْ خَرِبَ السَّوادُ فَلا سَوَادا**[٣]

**أرَى العُمَالَ أقْسَاءَ عَلَينا ... بِعاجِلِ نَفْعِهِم ظَلَمُوا العِبَادا**

**فَهَلْ لَكَ أنْ تَدَارَكَ ما لَدَينا ... وَتَدْفَعَ عَنْ رَعِيَتِكَ الفَسَادا**[٤]

**وَتَعْزِلَ تابِعاً أبَداً هَوَاهُ ... يُخَرِّبُ مِنْ بَلادَتِهِ البِلادَا**

**إذَا ما قُلْتَ أقْصَرَ عَنْ هَواهُ ... تَمادَى فِي ضَلالَتِهِ وَزادَا**

وعبدالرحمن بن عبدالله الثقفي الذي ارتكب ذنوباً كبيرة بحقّ الفلاحين في أنحاء العراق وبحقّ السّكان الآمنين، ففضحه هذه المرّة حارثة بن بدر ونقده بالأبيات التالية:[٥]

**نَهَارُهُ فِي قَضَايا غَيرِ عَادِلَةٍ ... وَلَيلُهُ فِي هَوى سَعْدِ بنِ هبّارِ**

**ما يَسْمَعُ النّاسُ أصْوَاتاً لَهُم عَرَضَتْ ... إلّا دَوِيّاً كَدَوِيِّ النَّحْلِ فِي الغَارِ**

**يَدِينُ أصْحابَهُ فِيما يَدِينُهُم ... كأسَاً بِكَأسٍ وتَكْراراً بِتَكْرارِ**

---

١. هو ابن أخت معاوية فأمّه الحكم أخت معاوية، ولد في عهد النّبي (ص) ولّاه خاله الكوفة بعد موت زياد سنة ٥٧هـ (انظر: الزركلي ٤: ٨٤).

٢. ابن الأثير، ضياء الدين الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، د.ت، جـ ٣ ص٤٣٨.

٣. السّواد من البلد: قراه.

٤. تدارك الشيء بالشيء: أتبعه به. يقال: تدارك الخطأ بالصواب والذنب بالتوبة.

٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥ ص٣٧٠.

**فأصْبَحَ النَّاسُ أخْلاقاً أضَرَّ بِهِم المَطِيُّ وَما كانُوا بِسُفَارِ**

وتزداد في العصر الأموي تجاوزات الولاة فنرى شاعراً آخر اسمه الراعي النّميري يطلق لسانه لهجاء الولاة والعمّال الأمويين حينما كلّفوا قومه ما لايطيقون، وصبّوا عليهم سياط ظلمهم، بحيث أفقروا أغنياءهم وأهزلوهم. اسمعه يقول رافعاً صوته إلى الخليفة عبدالملك بن مروان:[1]

**فَادْفَعْ مَظالِمَ عَيَّلَتْ أبْناءَنا عَنّا وَأنقُذْ شِلْوَنا المَأكولا[2]**

**إنّ الّذِينَ أمَرْتَهم أنْ يَعْدِلُوا لَمْ يفْعَلُوا ممّا أمَرْتَ فَتِيلا**

ونرى شاعراً آخر في خراسان ينحو هذا المنحى، وهو كعب الأشقري يخاطب الخليفة عمر بن عبدالعزيز بشأن عمّاله، ويصفهم بأنّهم ذئاب وأنّهم يخالفون الله وأنّهم لا يرعون حتّى يتدخّل السّيف فيهم. اسمعه يقول:[3]

**إن كنْتَ تَحْفَظُ ما يَليك فإنّما عُمّالُ أرْضِك بِالبِلادِ ذِئابُ**

**لَنْ يَستَجِيبُوا لِلّذي تَدْعُو لَهُ حَتّى تُجَلّدَ بِالسُّيوفِ رِقَابُ**

ويرى أحد المستشرقين أنّه «زاد في البغض للأمويين قِدَمُ الشكوى من السلطان وأفعاله، وظلّت هذه الشكوى موجّهة إليهم خاصّةً باعتبار أنّهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان، وكانت موضوعات الشكوى هي هي: إنّ أموال الدولة تجري إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية، وأنّ الزنا والعهر والشّراب والميسر أصبحت لذّات للسّادة لا يُعاقَبون عليها، لأنّ الحدود معطّلة».[4] وشكا الشاعر عبدالله بن الزبير الأسدي عامل الخراج لأنّه اشتدّ في أمر الخراج وعامل النّاس بالظلم وابتعد عن الحق، وكان هذا العامل هو عبدالرحمن الثقفي ابن أخت معاوية أم الحكم الوالي ابن أم الحكم فقال

---

١. الراعي النميري، الديوان، بيروت، دار صادر، د.ت، ص٥٥.

٢. عيّل: كثر عياله. شلو: العضو.

٣. قيسي، نوري حمودي. شعراء أمويون، جامعة الموصل، العراق، مؤسسة دار الكتب، ١٩٧٦م، جـ ٢ ص٣٩٠.

٤. فلهوزن، ص٦٠.

بكلّ جرأة وشجاعة:[١]

| | |
|---|---|
| ألا أبلِــغْ مُعاوِيــةَ بْـنَ حَـزبٍ | فَقَـدْ خَـرِبَ السَّـوادُ فَـلا سَـوادَا |
| وَأنّ جِبالَنَـا خَرِبَـتْ وَبَـادَتْ | فَقَـدْ تَرَكـتْ لِحالِبِهـا جَمـادَا |
| فَهَـلْ لَـكَ أنْ تَـدَارَكَ مَـا لَـدَينا | وَتَزفَـعَ عَـنْ رَعِيَّتِـكَ الفَسَـادَا |
| فَـإنَّ أمِيـنَكم لا اللـهَ يَخْشَـى | وَلا يَنْـوِي لأمَّـتِكم سَـدَادَا |
| إذا مَـا قُلْـتَ أقْصَـرَ عَـنْ هَـواهُ | تَمَـادَى فِـي ضَـلالَتِهِ وزَادَا |

ورفع الشاعر عبدالله بن همام السلولي صوته إلى عبدالله بن الزبير من عمّاله الذين خانوا الأمانة وظلموا الرّعية وذكر أسماءهم بصريحة في قصيدةٍ طويلة منها:[٢]

| | |
|---|---|
| بَـاعُوا التّجَـارَ طَعـامَ الأرْضِ وَأقْتَسَـمُوا | صُـلْبَ الخَـراجِ شَـحَاحَاً قِسْـمَةَ النَّفَـلِ |
| وَقَـدَّمُوا لَـكَ شَـيْخاً خَائنـاً خَـذِلاً | مَهْمَـا يَقُـلْ لَـكَ شَـيْخٌ كَـاذِبٌ يَقُـلِ |
| وَقِيـلَ طالِـبُ حَـقٍّ ذُو مِرانِيـةٍ | جلْـدُ القَـوىَ لَـيسَ بِـالوانِي وَلا الوكَـلِ[٣] |
| وَأشْـدُدْ يَـدَيْك بِزَيـدٍ إنْ ظَفَـرْتَ بِـهِ | وَأشْـفِ الأرامِـلَ مِـنْ دَحرُوجَـةِ الجُعَـلِ[٤] |

وهكذا لم يقف الشعراء موقف المتفرّج الصامت وهم يرون بعض العمال والولاة يميلون عن الحقّ أو يتّبعون الهوى، أو يجورون على من تحت أمرهم من ضعاف المسلمين وفقرائهم، فكانت أشعارهم ألسنة حقّ تنادي بالعدل وتدعو إلى محاسبة المقصرين، وتحثّ على الالتزام بحدود الشريعة والحركة إلى معالجة الواقع.

## دور شعراء الشيعة في الهجاء السياسي زمن الأمويين

لعب شعراء الشيعة دوراً حاسماً في نقد المجتمع وهجاء الخلفاء والولاة والحكام هجاءً سياسيّاً، ولانخطئ إذا قلنا إنّ الكميت الأسدي كان أكبر شعراء الشيعة في هذا العصر، ولعلّه

---

١. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥ ص١٤٩.

٢. السابق، ج ٦ ص٣٤٥.

٣. مرانية: الملاينة. الواني: ضعيف البدن. الوكل: الجبان.

٤. دحروجة: ما تدحرج. ما يدوّره الجعل من فضلاته كالبندقيّة.

كان أوّل من امتزج هجائه السياسي بطابع مذهبيّ وكان عنيفاً في هجائه للأمويين هجاءً سياسياً ومذهبياً في آنٍ واحد. ومما قاله فيهم:[١]

| | |
|---|---|
| وَهَلْ أمَّةٌ مُسْتَيقِظُونَ لِرُشْدِهِم | فَيَكشِفُ عَنْهُ النَعْسَةَ المُتَزَمِّلُ[٢] |
| فَقَدْ طَالَ هَذا النَّومُ وَأسْتَخرَجَ الكَرَى | مَسَاوِيَهُم لَو أنَّ ذَا المَيلِ يَعْدِلُ[٣] |
| وَعُطِّلَتِ الأحْكَامُ حَتَى كأنَّنَا | على مِلَّةٍ غَيرِ الَّتي نَتَنَحَلُ[٤] |
| أأهْلُ كتابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأنْتُم | عَلَى الحَقِّ نَقْضِي بِالكتابِ وَنَعْدِلُ |
| فَكيفَ وَمِنْ أنّى وَإذْ نحنُ خِلْقَةٌ | فَرِيقَانِ شَتّى تَسْمَنُون وَنَهْزِلُ[٥] |
| فَتِلْكَ وُلاةُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُم | فَحَتّامَ حَتّامَ العَنَاءُ المُطَوَّلُ |

يصرخ الشاعر ويتساءل: هل الأمّة تستيقظ لأمر نفسها وتنهض من سكوتها وغفوتها فيخلع كلٌّ منها رداء خموله وجبنه وتكشف ما نزل بها من الجور والظلم؟ وكأنّه يريد أن يوقظ الشعب من سباته العميق لِيُريهم أنّ الأحكام الإلهيّة أصبحت معطّلة، ثمّ يتشكك فيما يدّعيه الأمويّون من العمل بالقرآن والأحكام، إذ يقول: إذا كنتم تصدقون فكيف انقسم الشعب إلى فريقين: سمين وأخرى مهزول؟ وهذا دليل على الشكوى من السياسة القائمة آنذاك كما أنّه يبيّن ظلم الأمويين لآل البيت (ع) ومعاملتهم معاملةً شاذة، فهم يسمنون والهاشميون يهزلون فقراً وجوعاً وحرماناً، ويصفهم بصفة السوء ويتمنّى زوال ملكهم.

وبعد أن اصطفّت الفرق والأحزاب السياسية، وجّه شعراءها جهودهم للدّفاع عنها، وهجوا مواقف الفرق والأحزاب الأخرى ووضعوها في بوتقة النقد، وهنا أيضاً يلمع اسم الكميت

---

١. الكميت بن زيد الأسدي، شرح هاشميات الكميت ابن زيد الأسدي، تحقيق: داود سلوم و نوري حمودي القيسي، الطبعة ٢، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٦م، ص١٤٧.

٢. المتزمّل: النائم الملتف بثيابه. النّعسة: النّومة من النّعاس، وهو السّنة من غير نوم.

٣. الكرى: النّوم. المساوى: العيوب جمع مساءة. الميل: أراد الميل عن الحق والجور والظلم.

٤. نتنحّل: من النّحلة وهي الدعوى. الملّة: الدين.

٥. نحن خلقة: مختلفون. فريقان شتّى: طائفتان متباينتان. شتّى: متشتّتون.

الأسدی الذي كان أشدّهم وطأةً في ذلك حين يذمّ سياسة بني أمية معدّداً اسماء عديد من خلفاء وولاة الأمويين. اسمعه يقول:[١]

**سَاسَــــةٌ لا كمَـــنْ يَرعَـــى النَّــــ ـــــاسَ سَــواءً وَرَعيّــةَ الأنْعَــامِ**

**لا كعَبْـــدِ المَليــــك أوْ كوَلِيــــدٍ أوْ سُــــلَيمانَ بَعْـــدَ أوْ كهِشَـــامِ**

يرى الشاعر أنّه ليست للأمويين سياسة حسنة مع الرعية، بل يعتقد أن من يحسنها هم الشيعة وآل البيت (ع) فلذلك قال: إنّهم يتعهدون النّاس بحسن السياسة لا يدعونهم هملاء كالأنعام، وقوله "لا كمن يرعى النّاس"يعني بني أميّة. ونراه يقول في ردّ حججهم في الخلافة:[٢]

**وَقَــالُوا وَرِثْنَاهــا أبَانَــا وَأمَّنَــا وَمــا وَرَّثَـــتهُم ذَاك أمٌّ وَلا أبُ**

**يَـرَوْنَ لَهُـم فَضْـلاً عَلـى النّـاسِ وَاجِبَـاً سَــفَاهَاً وَحَــقُّ الهاشِــميينَ أوْجَــبُ**

**وَلكــنْ مَوارِيــثُ أبْــنِ آمِنَــةَ الــذي بِــهِ دَانَ شَــرقِيٌّ لَكُــم وَمُغَــرِّبُ**[٣]

فقام الكميت «يردّ حججهم في الوراثة وينفي حقّهم فيها، ويجد أنّهم سلبوها سفاهاً وأنّ أحقّ الناس بها الهاشميون لأنهم من أصلاب ابن آمنة محمد (ص) فَبِهِ دان لهم المشرق والمغرب، ثمّ يعدّد مفاخر آله في بدر وغيرها من الغزوات والإنتصارات. ولم يكن يستطيع أن يقول هذا في جرأة وقوة من غير أن يتحمل وزر ذلك، فقد كان الأمويون حرباً عليه».[٤]

ونراه يهجوهم بصورةٍ لاذعة، فأنصت إليه وهو يقول:[٥]

**فَقُــلْ لِبَنِــي أمَيَّـــةَ حَيــثُ حَلَّــوا وإنْ خِفْــتَ المُهَنَّـــدَ وَالقَطِيعَــا**[٦]

---

١. السابق، ص٢٣.

٢. السابق، ص٥٩.

٣. ابن آمنة: المراد هو الرسول الأعظم (ص).

٤. الدهان، ص٦١.

٥. الكميت، الهاشميات، ص١٩٨.

٦. المهنّد: السيف المطبوع من حديد الهند؛ وكان خير الحديد. القطيع: القضيب تُبرى منه السّهام.

**ألا أفٍّ لِــدَهْرٍ كُنْــتُ فِيــهِ ... هِــدَاناً طَائِعَــاً لَكُــمُ مُطِيعَــا** [١]

**أجَــاعَ اللــهُ مَــنْ أشْبَعْتُمُــوهُ ... وَأشْــبَعَ مَــنْ بِجَــوْرِكُمُ أجِيعَــا**

لقد لعن الكميت بهذه الأبيات الأمويين وتمنى زوال حكمهم، كما تمنى أن يتسلّم أمور المسلمين فذّ من الهاشميين ليقيم ما أصبح معوجاً من أمور دنياهم ودينهم ويدفع عنهم كوارث الدهر وينشر فيهم العدل. وهجا الكميت الطاغية هشام بقوله: [٢]

**مُصِــيبٌ عَلَــى الأعْــوادِ يَــوْمَ رُكُوبِهــا ... لِمــا قَــالَ فِيهــا مُخْطِــئٌ حِــينَ يَنْــزِلُ** [٣]

**كَــلامُ النَّبِيِّيــنَ الهُــدَاةِ كَلامُنَــا ... وَأفْعَــالُ أهْــلِ الجاهِلَيــةِ نَفْعَــلُ** [٤]

واضطهده الأمويون وبالغوا في سجنه وتعذيبه ولكن ذلك لم يعقه عن جهاده وتصلبه لعقيدته.

كان أبو الأسود الدوئلي من شعراء الشيعة، وله مواقف عن الأمويين. جاء صاحب الأغاني بخبرٍ طريف في أحواله حيث يقول: «كان أبو الأسود يحدّث يوماً معاوية فتحرّك فضرط. فقال لمعاوية: استُرها عليّ. فقال: نعم. فلمّا خرج حدّث بها معاوية عمرَبن العاص ومروان بن الحكم. فلمّا غدا عليه أبوالأسود قال عمرو: ما فعلت ضرطتُك بالأمس؟ قال: ذهبت كما تذهب الريحُ مقبلةً ومدبرةً من شيخٍ ألأن الدّهر أعصابه ولحمه عن إمساكها، وكلّ أجوفٍ ضروط. ثمّ أقبل على معاوية فقال: إنّ امرءاً ضعُفَت أمانتُه عن كتمان ضرطةٍ، لحقيقٌ بألّا يؤمَّنَ على أمور المسلمين». [٥] هذه الرواية إن صحّت تدلّ على صراحة اللهجة عند الدوئلي وعدم خوفه من السلطة الحاكمة. ولأبي الأسود شعر كثير في الهجوم على بني أميّة والتنديد

---

١. الهدان: الأحمق الجافي الوَخِم الثقيل في الحرب. هنا بمعنى الجبان.

٢. الكميت، الهاشميات، ص١٤٨.

٣. الأعواد: أراد بها المِنبر. يعني هشاماً ويقول: هو مُصيب فيما يقول إذا كان على المِنبَر وإذا نزل خالف فِعلُه ما تكلّم.

٤. يقول: كلامنا كلامُ الأنبياء عليهم السّلام وأفعالُنا مثل أفعال الجاهلية. يعني بني مروان يتكلمون بالحق ويأمرون به ويفعلون خلاف ذلك.

٥. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٢ ص٩٤.

بهم وبحكمهم وسفكهم لدماء الشيعة ظلماً وبغياً من مثل قوله:[١]

صَبَغَتْ أمَيَّةُ بِالدِّماءِ أكُفَّهَا وَطَوَتْ أمَيَّةُ دُونَنا دُنْيانَا

ويسجل شعره هجوماً على بني زياد ويتمنّى فيه زوال جبروتهم وسلطانهم الجائر في مثل قوله:[٢]

أقُولُ وَزادَني غَضَباً وَغَيْظاً أزالَ اللهُ مُلْكَ بَنِي زِيَادِ

ونرى في ديوانه مقطوعة أخرى تناول فيها أسلوب الولاة والحكام في إدّخار الثروة عن طريق السرقة وحيازة أموال العامّة، وذلك حينما عيّن زيادٌ أو عبيدالله بن زياد، حارثة بن بدر الشاعر التميمي أميراً على سرّق.[٣] فقد نصحه الشاعر في سخرية بقوله:[٤]

أحَارِ بنَ بَدْرٍ قَدْ وَلِيتَ إمَارَةً فَكُنْ جِرْذاً فيها تَخُونُ وَتَسْرِقُ[٥]

وَلا تَحْقِرَنْ يا حَارِ شَيئاً تُصِيبُهُ فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ العِراقين سُرّقُ[٦]

فَإنَّ جَمِيعَ النَاسِ إمّا مُكَذِّبٌ يَقُولُ بِما تَهْوي وَإمّا مُصَدِّقُ

يَقُولُونَ أقْوَالاً بِظَنٍّ وَشُبهَةٍ فَإنْ قِيلَ هاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

فَلا تَعْجِزَنْ فَالْعَجْزُ أبْطأُ مَرْكَبٍ وَما كُلُّ مَنْ يُدْعَى إلَى الرِّزْقِ يُرْزَقُ

وَكاثِرْ تَمِيماً بِالغِنَى إنَّ لِلْغِنَى لِساناً بِهِ يَسْطُو العَيِيُّ وَيَنْطِقُ[٧]

ونحن لم نقف هذه الوقفة عند الهجاء السياسي لأبي الأسود إلّا لكي نستدل على أنّه شارك بقسطٍ في هجاء السلطة الأموية.ومن الذين تمردوا على الظلم واستهانوا بالأمويين الفرزدق، وذلك من خلال مدحه للإمام زين العابدين عليه السلام وانتقاصه لهشام ابن عبد

---

١. ابن خلكان، جـ ١ ص٢٤١.

٢. الدوئلي، أبو الأسود. ديوان أبي الأسود الدوئلي، تحقيق: عبدالكريم الدجيلي، بغداد، ١٣٧٣هـ، ص٢٤١.

٣. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني. جـ ٢١ ص٣٣.

٤. الدوئلي، ص٢٤٣.

٥. حار: ترخيم حارثة. الجرذ: الكبير من الفئران.

٦. سرّق: اسم الولاية التي وليها حارثة.

٧. عَيَ في منطقه: عيّاً وعياءً: عجز عنه فلم يستطع بيان مراده منه، فهو عيٌّ ج أعياء وهو عييٌّ ج أعيياء.

الملك الذي تجاهل مكانة الإمام حينما ازدحمت عليه الجماهير متبركة به في طوافه حول البيت المقدس، وقال هشام لأهل الشام حين سألوه عنه إني لا أعرفه فأنشد الفرزدق منكراً على هشام ومعرفاً للإمام: [١]

**هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ**

**هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِم ... هَذَا التَقِيُّ النَقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ**

**وَلَيسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ ... العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أنْكَرْتَ وَالعَجَمُ**

وتعرض الفرزدق لسخط هشام ونقمته فأودعه في السجن فقال الفرزدق يهجوه: [٢]

**يُقَلِّبُ عَيْنَاً لَمْ تَكُنْ لِخَليفَةٍ ... مُشَوَّهَةً حَوْلاءَ بَادٍ عُيوبُهَا** [٣]

ويرفع الفرزدق صوته في وجه الخليفة الوليد بن عبدالملك صارخاً من ظلم العامل الذي أفرط في سوء معاملة الرعية وشقّ عليهم، فضربهم بالسّياط حتّى ألجأهم إلى أخذ الرّبا ليوفوا ما يطلبه. اسمعه يقول: [٤]

**فَكَيفَ بِعامِلٍ يَسْعَى عَلَيْنَا ... يُكلِّفُنَا الدَّرَاهِمَ فِي البُدُورِ** [٥]

**وَأنَّى بِالدَّرَاهِمِ وَهْيَ مِنَّا ... كَرَافِعِ رَاحَتَيْهِ إلَى العَبُورِ** [٦]

**إذا سُقْنا الفَرَائضَ لَمْ يُرِدْهَا ... وَصَدَّ عَنِ الشُّوَيهَةِ وَالبَعِيرِ** [٧]

**إذا وَضَعَ السِّيَاطَ لَنَا نَهَاراً ... أخَذْنا بِالرِّبَا سَرَقَ الحَرِيرِ** [٨]

---

١. الفرزدق، الديوان. جـ ٢ ص٣٥٣.

٢. السابق، جـ ١ ص٨٣.

٣. يعيّره بعينه الشوهاء الحولاء، وهي لا تصلح للخليفة ولا تليق به.

٤. السابق، جـ ٢ ص٤٦٩.

٥. يشكو أحد عمّاله الذي يقتضيهم المال في مطالع الشهور.

٦. العبور: أحد نجمين بجوار الجوزاء. يقول: إنّ المال هو أبعد عنهم من النجوم النائية.

٧. الشويهة: مصغّر الشاة، وهي الواحدة من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش. يقول: إنهم يبذلون له الشياه أي الشويه والبعران وهو يقتضي المال عيناً.

٨. يقول: إنّه يضربهم بالسياط، فيطلبون الدّين بالفائدة الفاحشة وليس الربى سوى ضرب من السرقة الناعمة كالحرير.

## دور الموالي في الهجاء السياسي

كانت الدولة الأموية مزيجاً من العرب والأجناس المختلفة الذين غلبتهم العرب، ولمّا لم يتبع الحكام الأمويون سياسةً صحيحة بين المسلمين بل كانوا يعاملونهم معاملةً خارجة عن القوانين الإسلامية خاصةً معاملتهم للمسلمين غير العرب، أصبحنا نسمع صوتاً للموالي يقوى شيئاً فشيئاً منذ القرن الأول الهجري، إذ نجدهم «يشتركون لأول مرّة في ميدان الخلافات السياسية، وذلك في حرب الحرّة عام ٦٣ه حيث انتصروا للحزب الزبيري ضدّ الدولة الأموية الحاكمة».[١] وندّد شاعرهم أبا حرّة يتكلم باسمهم في المدينة ويقول:[٢]

**أبلِغْ أمَيّةَ عنّي إنْ عَرَضتَ لها ... وابْنَ الزُّبيرِ وأبلِغْ ذَلكَ العَرَبَا**

**أنّ المواليَ أضْحَتْ وَهي عاتِبَةٌ ... على الخَليفَةِ تَشْكو الجُوعَ وَالحَرَبا**

لا شك أنّ السلطة الأموية قد طرحت الأحكام الإسلامية جانباً ولم تكن تحكم بالعدل والمساواة بين النّاس، ولم تكن تحكم بالتّساوي في الحقوق بين العرب والموالي، بل كان الموالي يرزحون تحت سياط حكامها. يرى أحمد أمين أنّ الحكم الأموي «كان حكماً عربياً والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم.كانت تسود العرب فيه النزعةُ الجاهلية لا النزعة الإسلامية. فكان الحقّ والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل، فالعمل حقٌّ إذا صدر عن عربي من قبيلة، وهو باطل إذا صدر عن مولىً أو عربي من قبيلة أخرى».[٣] ويرى صاحب تاريخ التمدّن الإسلامي«أنّ العرب أعظموا تهتك بني أمية من أيّام يزيد بن معاوية واستغربوا البيعة له، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم:

**إنّ البَرِيّةَ قَدْ مَلّتْ سياسَتَكم ... فأستمْسِكوا بعَمُودِ الدّينِ وَارْتدِعُوا**

---

١. هدارة، ص٢٤.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥ ص٣٧٣.

٣. أمين، أحمد. ضحى الإسلام، ج ١ ص٤٨.

**لاتَلْحَمَــنَّ ذِئــابَ النّــاسِ أنفُسَــكم إنَّ الــذِئابَ إذَا مَــا ألحَمَــتْ رَتَعُــوا**

**لا تَبقَــرنَّ بِأيـــديكم بُطُـــونَكم فَـــثَمَّ لا حَسْـــرةٌ تُغْنِـــي وَلا جَـــزَعُ**[1]

وربما كان الحجاز يفور بالفتنة في هذا العصر بسبب ذلك التهتّك والاستهتار بالدين إلى جانب شعوره بزوال سيطرته على الحكم، وصيرورته بدون دور في ميزان السياسة، مع أنّه صاحب الحقّ الشرعي في الخلافة، وكان يشعر أنّ الأمويين مفسدون ومغتصبون لها، ولهذا كانت وقعة الحرّة عام ٦٣ﻫ تنفيساً عن هذه المعاني أو بعضها حتى إننا نجد ابن الغسيل ينشد في أثناء قتاله جيش يزيد:[2]

**بُؤسَــاً لِمــنْ شَــدَّ فَسَــاداً وَطَغَــى وَجانَــبَ القَصْــدَ وَآيَــاتِ الهُــ**

لا يُبْعِدُ الرّحْمنُ إلّا مَنْ عَصَى

ومن اللافت للنظر أن يتصدّى لهؤلاء الولاة شعراء لم يرهبوا جانب الدولة ولم يخرسوا أصواتهم، أو يسكتوا، فأماطوا اللّثام عن وجوه هؤلاء الولاة، وفضحوا سلوكهم الفاسد بوعيٍ ينمّ عن معرفة واسعة لمجرى الأحداث.

## الهجاء السياسي في العصر العباسي

وفي العصر العباسي أصبح الشعر منبراً لنقل معاناة الناس وشكواهم من إجحاف الولاة وإرهاق الخلفاء للرعية بالجبايات، وزخرت كتب الأدب بهذا النوع من الشعر مرتبطاً بأسماء الشعراء صراحة عندما كانت السلطة العباسية في أوج ازدهارها؛ ثم نرى تغييباً لأسماء الشعراء عندما بدأت بالتقهقر والانحدار، وتراجعت حرية الرأي، وأصبح الشعراء يخافون من غضب السلطة، ولكن دائماً كان الشاعر ضمير المجتمع المعبر بشعره عن المظالم مطالباً برفعها وإحقاق حقوق الناس. ومن الشعر الموجه للسلطة ما قاله ابن مناذر في خالد بن عبد الله بن

---

١. بقَرَ البطن ونحوه : بَقراً: شقّه. زيدان، جرجي، ج ٤ ص١٢٠.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥ ص٣٤٤.

طليق الخزاعي وكان المهدي استقضاه وعزل عبيد الله بن الحسن العنبري:[١]

**أَتَــى دَهْرَنـــا وَالــدَّهْرُ لــيسَ بِمُعْتِــبِ ... بِآبِـــدَةٍ وَالــــدَّهْرُ جَــمُّ الأَوَابِــــدِ[٢]**

**بِعَــــزْلِ عَبَيـــدِ اللـــهِ عَنَّـــا فَيَـــا لَـــهُ ... خِلافَـــاً وبِاسْــتِعمالِ ذِي النَّــوكِ خالِــدِ[٣]**

**بِحَيْــرَانَ عَــنْ قَصْــدِ الطَّرِيــقِ تَــرُدُّهُ ... خِيانَـــــةُ سَـــــلَامٍ ولِحيـــــةُ فايِـــدِ**

**أَذَلِــكَ مِــنْ رَيــبِ الزَّمــانِ وَصَــرفِهِ ... وَأَحْدَاثِــهِ أَمْ نَحــنُ فــي حُلْــمِ راقِــدِ**

وقال أيضاً:[٤]

**قُـــلْ لِأَميـــرِ المُـــؤمِنِينَ الَّـــذِي ... مِـــنْ هَاشِـــمٍ فـــي سِـــرِّها وَاللُّبَـــابْ**

**إنْ كُنْـــتَ لِلسَّـــخْطَةِ عاقِبْتَنَـــا ... قَـــدْ ضَـــرَبَ فَهْـــوَ أَشَـــدُّ العَـــذَابْ**

**أَصَـــمُّ أَعْمَـــى عَـــنْ سَـــبِيلِ الهُـــدَى ... قَـــدْ ضَـــرَبَ الجَهْـــلُ عَلَيـــهِ الحِجـــابْ**

**يـــا عَجَبَـــاً مِـــن خَالِـــدٍ كَيـــفَ لا ... يُخْطِـــئُ فينـــا مَـــرَّةً بِالصَّـــوَابْ**

وشاع الفوضى في هذا العصر وكان من الطبيعي أنّ تؤدّي إلى تعطيل أسباب الأمن وشلّ وسائل الاكتساب والارتزاق، والتضيّق على النّاس أشدّ التضييق، بحيث تعذّر عليهم طلب الرزق، وانقطعت عنهم مؤونة المعاش و«أمّا أبناء الطبقات الدنيا من المُحتاجين المُعدَمين فليس من شك في أنّهم كانوا يفتقرون في تلك الأحوال القلقة المضطربة أشدّ الافتقار، ويقاسون من المجاعة أعظم المقاساة. وإذا عرفنا أنّهم كانوا يَحيَون على الكفاف، بل على الفاقة والخصاصة في الأيام العادية اتّضح لنا هَول ما كانوا يُبتَلون من الشدّة والعَوَز والسّغب في أوقات الفتن والاضطرابات».[٥] ومن أوضح الشواهد على سوء حالهم وحاجتهم هذه الأبيات التي رفعها أبو العتاهية إلى خليفة من خلفاء العباسيين شاكياً إليه من غلاء الأسعار وقلّة

---

١. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢ ص٣٤٦.

٢. آبدة: الأمر العجيب يستغرب له.

٣. النوك: الحمق.

٤. السابق، جـ ٢ ص٣٤٦.

٥. عطوان، حسين. شعراء الشعب في العصر العباسي الأول، منشورات مكتبة عمان، عمان، ١٩٧٠م، ٤٦.

الأعمال وانتشار البطالة شارحاً له بؤس اليتامى والأرامل وجوعهم وعُريهم وناصحاً له ومستغيثاً به والتي يقول فيها:[١]

مَــــنْ مُبْلِــــغٌ عَنّــــي الإمَــــامَ    نَصَــــائحاً مُتَوالِيَــــه
إنّــــي أرَى الأسْــــعَارَ    أسْــــعَارَ الرَّعِيّــــةِ غَالِيَــــه
وَأرَى المَكاسِــــبَ نَــــزْرَةً    وَأرَى الضّــــرُورَةَ فَاشِــــيَه[٢]
وَأرَى غُمُــــومَ اليَتَــــامى وَالأرَا    مِــــلَ فــــي البُيُــــوتِ الخَالِيَــــه[٣]
مِــــنْ بَــــيْنِ راجٍ لَــــمْ يَــــزَلْ    يَسْــــمُو إليــــك وَرَاجِيَــــه
يَشْــــكونَ مَجهَــــدَةً بأصْــــوا    تٍ ضِــــعَافٍ عَالِيَــــه[٤]
يَرْجُــــونَ رِفْــــدَكَ كَــــي يَــــرَوا    ممّــــا لَقُــــوهُ العَافِيَــــه[٥]
مَــــنْ يُرتَجَــــى لِلنّــــاسِ غَيــــ    ـــرَكَ لِلعُيُــــونِ البَاكِيَــــه
مِــــنْ مُصِــــبياتٍ جُــــوَّعٍ    تُمْسِــــي وَتُصْــــبِحُ طاوِيَــــه
مَــــنْ يُرتَجَــــى لِــــدِفَاعِ كَــــرْ    بِ مُلِحّــــةٍ هِــــيَ مَــــا هِيَــــه
مَــــنْ لِلْبُطُــــونِ الجائِعَــــا    تِ وَلِلْجُسُــــومِ العَارِيَــــه
إنّ الأصُــــولَ الطّيِّبَــــا    تِ لهــــا فُــــرُوعٌ زَاكِيَــــه
ألقَيْــــتُ أخْبَــــاراً إليــــ    ـــكَ مِــــنَ الرّعيّــــةِ شَــــافِيَه

الهجاء السياسي في شعر الشيعة في العصر العباسي الأول

تحدّثنا في الفصل السابق عن الفرق والأحزاب السياسية ونشأتها وآرائها في الخلافة والمواقف السياسية، وكيف كان كلّ واحد منها يريد أن تكون الخلافة فيها، غير أننا لا نصل

---

١. أبوالعتاهية، الديوان، ص٤٨٧.

٢. نزرة: قليل تافه.

٣. الغموم: جمع الغمّ: الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما.

٤. مجهدة: مشقة.

٥. الرِّفد: العطاء والصّلة.

إلى العقد الثالث من القرن الثاني حتى تتغيّر الظروف، فتؤتي الثورات ضدّ الأمويين ثمارها، إذ كانت نتيجتها سقوط الدولة الأموية وقيام السلطة الزمنية العباسية. فلبس العباسيّون شعار مظلومية أهل البيت (ع) للوصول إلى مقاليد الخلافة وللتغلّب على خصومهم الأمويين. غير أنهم بعد استقرار الأمور أصبحوا كالوحش المفترس في محاربتهم للشيعة وتشريدهم وتقتيلهم، فكانوا أسوأ من الأمويين وأشدّ منهم جريمةً. وإلى ذلك يشير أبو العطاء السندي في قوله:[١]

**يا لَيتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا ... يـا لَيـتَ عَـدْلَ بَنِـي العَبَـاسِ فِـي النَّـارِ**

وجدير بالذّكر أنّ هذا التغيير في السلطة والتقدم الحضاريّ في تلك الفترة كان مقروناً بالانحراف الاجتماعي حيث بلغ التّرف ذروته على الصعيد الماديّ فانتشرت آفات سلبية في المجتمع مثل الفساد الجنسيّ وشيوع الخمر واللّهو إلى حدٍّ يظنّ الانسان أنّ المجتمع قد تحوّل إلى حالةٍ لا يهتمّ إلّا بالحاجات الحيوانية. أضف إلى ذلك الانحراف السياسيّ الذي سلّم شؤون المجتمع السياسي إلى قلّة قليلة لا تعني بشئٍ سوى السيطرة والتّحكم وما يعقبها من قتل وإرهاب لتثبيت السلطة. فضلاً عن أنّ الخلفاء والسلاطين كانوا نموذجاً لممارسة الفساد جنسيّاً وترفاً.

فإذا كان الانحراف الاجتماعي والسياسي قد بلغ ذروته في مجتمع يفترض أنّه إسلامى في هويته، حينئذٍ لابدّ أن يستتبع ردود فعل من قبل أشخاص ملتزمين تتحرّك القيم الإسلامية في أعماق قلوبهم ممّا يترتّب على ذلك ظهور الثورات على الصعيدين السياسي والفكري الذي ينكر مظاهر الانحراف، فيهجو السلطة والانحرافات بعامّة.

والملاحظة الهامّة التي تلفت انتباهنا في صراع الشيعة ومعارضتهم للعباسيين هى أنّ المعارضة اتّخذت أشكالاً مختلفة لعلّ أهمّها الشكلين التاليين:

أـ الشكل الأول: هو الصراع العسكري والحركات الثورية التي كان يقوم به أئمة الشيعة

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٧ ص٣٣٣.

ومواليهم. لا شك أنّ العباسيين بنوا سلطتهم على أساس البطش والمخادعة، وتمّ لهم استقرار أركان دولتهم بالاستبداد والفتك، فاستأثروا بالخلافة من دون العلويين، ونكلوا بهم بالمراقبة والتضييق والحبس والقتل؛ ومع كلّ ما أقاموا عليه سلطتهم من الظلم والجور واستخدام الرّعب والترهيب، ولكنّ ذلك لم يَحُل بينهم وبين انتفاض النّاس عليهم وسعيهم للإطاحة بهم. فكان من الطبيعي أن تقوم الشيعة بثوراتٍ يظهر فيها دورهم الرساليّ في مواجهة الوضع الزائف.

شهد العصر العباسي الأول ثورات عديدة قام بها الشيعة، ونرى في عصر أبي جعفر المنصور أول حركة ثورية تقوم بها الفرق الشيعية ضدّ الدولة العباسية وقد حمل لواء هذه الثورة محمد ذو النفس الزكية وأخوه إبراهيم، وكانت ثورتهما قد دوّخت العباسيين وخاصة أبي جعفر المنصور، وقد شغلت ثورتهما كثيراً من الأمصار الإسلامية و«اتّخذت الحركة مركزين ثوريين: أولهما في المدينة حيث ثار محمد النفس الزكية وبعث دعاته إلى مدن الحجاز، واليمن ومصر والشام وغيرها، وثانيهما في البصرة، حيث ثار أخوه ابراهيم بن عبدالله».[١] وشهد عصر المهديّ حركة شيعية أخرى هى ثورة على بن العباس بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب (ع).كانت الثورات السابقة كما أشرنا في الحجاز وبغداد، إلّا أنّ على بن العباس جعل بغداد مركزاً لثورته وأراد أن يثور عليهم في عاصمة حكومتهم.

بدأ الصدام بين الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي وآل الإمام علىّ بن أبى طالب (ع) منذ تولّيه الخلافة، وشهدت الشيعة مأساةً داميةً، إذ حدثت ثورةٌ بقيادة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب، وانتهت باستشهاده في فخ بالقرب من مكة وبإراقة دماءٍ كثيرة من دماء آله وشيعته. انتهت حياة الخليفة الهادي سريعاً بعد شهور قليلةٍ من مأساة فخ واستشهاد الحسين بن علي، فارتاحت نفوس الشيعة بنهاية عهد هذا الخليفة الذي اشتهر بالغلظة والقسوة.

---

١. مختار الليثي، سميرة. جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص١٤٧.

قامت الشيعة في عهد الخليفة هارون الرشيد بثورتين هما ثورة يحيى وثورة إدريس ابنى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب، وكانا شقيقين لمحمد النفس الزكية وابراهيم اللذين أعلنا ثورتهما في عهد الخليفة المنصور واستشهدا في المدينة والبصرة. كان يحيى بن عبدالله من كبار شخصيّات البيت العلوي وكان له منزلة كبيرة في قلوب الشيعة[١] وكان يحيى ومن خلفه العلويون والشيعة يتطلّعون للثأر لهما وللحسين بن على شهيد فخ.[٢] انتهت هاتان الثورتان باستشهاد أصحابهما، إذ أصبح وقوف الخلفاء العباسيين موقفاً حازماً صلباً إزاء البيت العلوي سياسةً تقليديةً متوارثةً.

تولّى محمد الأمين الخلافة بعد موت أبيه هارون الرشيد سنة ١٩٣ه وحفل عهده بالاضطرابات والفتن، أبرزها الصراع العنيف بينه وبين أخيه المأمون، وكان ذلك نتيجة رغبة الأمين في مخالفة نظام ولاية العهد الذى وضعه الرشيد، فقد أراد خلع أخيه المأمون من ولاية العهد وتولية ابنه الصغير موسى، واستمرّ الصراع بين الأخوين ودارت كثيرٌ من المعارك الحربية يخرج ذكرها عن نطاق هذا البحث، وانتشرت الفوضى في أرجاء الدولة العباسية وفي بغداد خاصةً وانتهى الأمر بمصرع الأمين وتولي المأمون الخلافة.

تولّى المأمون الخلافة في فترة قلقة حرجة، سادت فيها الاضطرابات والأزمات في أرجاء الدولة فـ «بدأت أول حركة شيعية في عهد المأمون بعد سنةٍ واحدةٍ من تولّيه الخلافة وتزعّمها محمد بن إبراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد اشتهر باسم ابن طباطبا».[٣] وذكر الطبري سببين لقيام هذه الثورة الشيعية أوّلهما اضطراب أحوال الدولة إذ استأثر الفضل بن سهل بالسلطة والنفوذ في الدولة العباسية دون المأمون، والسبب الثاني فهو تحريض أبي السّرايا الذي كان داعية له، إذ ساءت العلاقات بينه وبين الدولة العباسية ورأى

---

١. انظر: ابن طباطبا، ص١٩٤، ١٩٦.

٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٥ ص٩٠.

٣. مختار الليثي، ص٣١٨.

الاستفادة منه في خلع طاعة الدولة.[١]

شهد عصر الخليفة العباسي المأمون ثورة شيعية أخرى اختلفت في مركز ثورتها وطابعها، وتزعّمها محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب الذي اشتهر باسم الديباج واتّخذت هذه الحركة بلاد الحجاز مركزاً لها في سنة ٢٠٠هـ.[٢]

تولّى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨هـ فأصبح ثامن الخلفاء العباسيين الذين واجهوا ثورات الشيعة ونشاطاتهم، وفي بداية سنة ٢١٩هـ قامت ثورة شيعية تزعّمها محمد بن القاسم بن عمرو بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، وتعدّ هذه الثورة حلقة من حلقات الثورات الشيعية في فترة حكم العباسيين.[٣] وكانت ثورة محمد بن القاسم هى خاتمة الثورات الشيعية في العصر العباسي الأول، ولم نشهد حتى نهاية عصر المعتصم ثورة لهم. ولابدّ من أن نشير إلى أنّ هذه الثورات الشيعية كانت تتفق في أنّها قامت من أجل القضاء على الحكم العباسي ونقل الخلافة إلى أبناء البيت العلوي،كما أنّها كانت التطبيق العملي الإيجابي لآراء وتعاليم فرق الشيعة المختلفة التي اتّفقت في جوهر آرائها.

وكان الواثق الخليفة العباسي التاسع، وآخر خلفاء العصر العباسي الأول، قد تولّى الخلافة سنة ٢٢٧هـ بعد موت أبيه المعتصم، ولم يشهد عصره ما يمكننا أن نسمّيه ثورة.

ب ـ الشكل الثاني كان صراعاً فكرياً ومعارضة منطقية اعتمدت على الفكر واللّسان بدلاً من شهر السيّوف، فكان هذا الجهاد الفكري الذي كان الشعر قسماً منه، من صور الصراع بين العباسيين والعلويين ومن وسائل الحركات الشيعية ومن نتاجها أيضاً.

## الصراع الفكري وأشكاله

وإذا تركنا الثورات العسكرية التي قام به أنصار فرقة الشيعة، والتي أرعدت اركان الدولة

---

١. انظر: الطبري، جـ ٦ ص٤٨٥

٢. مختار الليثي، ص٣٣٦.

٣. السابق، ص٣٨٠.

العباسية، نرى الشيعة قاموا بشكلٍ آخر من الصراع لعلّه أهمّ من شكله الأول وهو الهجاء السياسي ونقد الحكومة. لقد عرفت الشيعة بالتمرد على الظلم والطغيان، ومقاومة حكام الجور، وكان موقفها مع خلفاء الأمويين والعباسيين متّسماً بالشدّة والصرامة، وعدم مشروعية خلافتهم، الأمر الذي أوجب نقمتهم عليهم ومقابلتهم بجميع ألوان القسوة والعذاب.

هذا الشكل من المعارضة حمل لواءه شعراء الشيعة إذ قاموا بدور أساسي في توعية الشعب إزاء ما حدث في المجتمع، وما يحدث من اغتصاب الخلافة من أيدي أصحابها الحقيقيين، وبذلك فتحوا جبهةً جديدةً «ضدّ السلاطين الذين أغدقوا أموالاً طائلة على حفنةٍ من كبار الشعراء وصغارهم ليضفوا شرعيّةً على سلطتهم الدنيوية التي تعجُّ بمظاهر التّرف والبذخ واللّهو من جانب، وبالقتل والتمثيل وإحضار الرؤوس وبالسجن والتعذيب والإرهاب من جانب آخر».[١]

اتّخذ الصراع الفكري بين الخلفاء العباسيين والشيعة صوراً كثيرة، ويمكن أن نعدّ الرسائل[٢] المتبادلة بين الخليفة المنصور ومحمد النفس الزكية في بداية الدولة العباسية قبل أن يعلن ثورته ضدّهم أحد أشكاله. كما أننا نرى بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعقدون مجالس المناظرة يحضر فيها بعض زعماء الشيعة خاصة في عهد هارون الرشيد والمأمون.

ومن صور الصراع الفكري الأخرى بين العباسيين والشيعة يمكن أن نذكر الاستعانة بالشعراء في الدفاع عن آراء كلّ فريق، وهجاء الفريق الآخر، وكان لكلّ من الفريقين شعراؤهم وكان الشعر من أمضى الأسلحة في ذلك العصر، ومن أبرز وسائل الإعلام ومخاطبة العقول والنفوس وتوعية الآخرين.

أصبح الأدب الشيعي مرآة انعكست عليها صور هذه المعارضة الفكرية إذ علت أصوات شعرائهم منذ بداية العصر العباسي الأوّل تحتجّ على ضياع أمور الناس وهوان أحوالهم، وزوال

---

١. البستاني، محمود. تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، الطبعة ١، مؤسسة الطبع والنشر للآستانة الرضوية المقدسة، مشهد. إيران، ١٤١٣هـ.ق، ص٤٣٩.

٢. انظر نصوص هذه الرسائل في تاريخ الطبري ٦: ١٩٥.

هيبة الخلافة، وفساد السلطة، واتّخذوا الشعر وسيلة من وسائل النقد والإصلاح، معتمدين على ما وجدوه من عيوب وأخطاء لدى الخليفة وحاشيته، كما أنّنا نسمع أصواتهم الناقدة في زمنٍ مبكرٍ، فواكبت ما جدّ على المجتمع من بذور الفوضى والانقسام، ابتداءً من تعيين الأمين ابنه موسى وليّاً للعهد ـ وهو طفلٌ رضيع بدلاً من المأمون ـ وانتهاءً بخروج الأمور من أيدي الخلفاء إلى أيدي العناصر الأجنبية.

## أئمة الشيعة بين القيادة الروحية والسياسية

ذهب بعض الباحثين إلى إنكار دور أئمة الشيعة في قيادة الحركات السياسية والفكرية للشيعة في العصر العباسي الأول، فيرى هؤلاء أنّ أكثر أئمّة الشيعة نهجوا منهج الإمامة الروحيّة التي تقرّبهم من أقطاب الصوفية وتبعدهم عن رئاسة الأحزاب السياسية، ونحن نراهم عندما يتحدثون عن ثورات الشيعة في العصر العباسي يذكرون الأئمة واحداً بعد الآخر معتقدين بأنّهم انصرفوا بعد حادثة كربلاء إلى الإرشاد والعبادات والتوجيه الديني والعقائدي واختاروا الإمامة الروحية وابتعدوا عن الخوض في ميادين السياسة ويستنتجون من جرّاء ذلك أنّه لم يكن لهم دور في تاريخ الشيعة السياسي.[١]

أقول: إنّ ما قاله هؤلاء من أنّ أئمة الشيعة المعصومين بعد مجزرة كربلاء قد اعتزلوا السياسة وانصرفوا إلى الساحات الروحية تاركين السياسة وشؤون الدولة للحاكمين، فهو خطأ محض لأنّ التشيع الذي وضع الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم نواته لم يكن يريد إلّا القيادة الإسلامية التي كان يمارسها هو(ص) بنفسه لإتمام بناء الأمة على أساس الإسلام بمعناه الواسع الشامل لجميع ساحات الحياة من روحية وسياسية واقتصادية وما إلى ذلك. ولو لم تكن مواقف الأئمة وشيعتهم وتجسيد التشيّع للإسلام كانت نهايته محتومة، لأنّ جهود الحكام العباسيين كلّها كانت موجّهة للقضاء عليه، ومع كلّ ذلك فقد ظلّ شامخاً يناهض جميع الحكام ويثور على الظلم والظالمين. فأئمة الشيعة (ع) هؤلاء كانوا يعرفون بأنّ فساد

---

١. انظر: مختار الليثي، ص٣٤-٤٠.

المجتمع ينشأ في الغالب عن فساد حكامه ولا سبيل إلى الإصلاح إلا إذا تولّى أمور الأمة أناس صالحون يحسّون بآلام الأمة ومشاكلها ويعملون من أجلها.

إذن فمن غير المعقول أن يتنازل الأئمة عن الجوانب السياسية أو أىّ جانب منها، اللّهم إلّا أن نقول إنّهم انصرفوا بكلّ طاقاتهم إلى الجوانب الروحية والفكرية من القيادة لعدم تمكنهم من ممارسة السلطة التي حالت قوى الشرّ والبغى بينهم وبينها، كما أنّ عدم قيامهم بثوراتٍ مسلّحة ضدّ الحكام الذين عاصروهم من الأمويين والعباسيين لا يعني تنازلهم عن جوانب القيادة التي جعلها الله لهم، بل السبب يعود إلى عدم توافر الأجواء المناسبة لأىّ عمل من هذا النوع. ويكفينا أن نعود إلى سيرة الأئمة (ع) لنرى أنّ كلّ إمام كان مستعدّاً في عصره حتّى يخوض جميع المعارك إذا توافرت لديه الإمكانيات اللازمة بنحو يستطيع أن يحقق الأهداف الإسلامية عن طريقها، وذلك لأنّ السلطة وحدها لم تكن من أهدافهم، بل كانت وسيلةً للسير بالإسلام في طريقه الصحيح.

ولقد اغتنم أئمة الشيعة أية فرصة مناسبة ليعبّروا عن آرائهم السياسية وليطرحوا وجهات نظرهم تجاه حركات الأحداث السياسية في حياتهم، واستطاعوا فعلاً أن يغطوا الأحداث بدقة وكفاءة، بل إنهم تخطّوا أطر الفعل السياسي باستكشاف الأبعاد الخفية للسياسات الاستبدادية؛ فكانت حصيلة ذلك كله نتاجاً شعرياً كبيراً شارك فيه كبار شعراء الشيعة في عصرهم.

## شعراء الشيعة وهجاؤهم السياسي في العصر العباسي الأول

هناك ملاحظة هامّة تلك هى أن الدراسات الأدبية التي تناولت الشعر الشيعي، تركزت على بيان جوانب مختلفة كالمدح والرثاء و ... وما إلى ذلك من مواقف أدبية فيما أُغفل الجانب السياسي والنقدي الذي يتناول الخصوم والأعداء. لاشك أنّ لشعراء الشيعة قصب السبق في مضمار الشّعر على مدى التاريخ الإسلامي إذ كانوا روّاداً في أكثر الفنون الشعرية، كما أنّهم فتحوا للشعر أبواباً جديدة لم تعرف قبلهم، لعلّ أهمّها الهجاء السياسي. فقد كوّن شعراء الشيعة هذا الركن الهامّ في الأدب في حين كان الأدب الرسمي فيه مثل المديح تطغى عليه الرغبات

المادية وتصرفه عوامل الرجاء والخوف وتلهب نفوس أصحابه الهبات والهدايا.

إنّ الباحث في أدب الشيعة يجد أنّ شعراءهم في كلّ عصرٍ كانت لهم اليد الطولى في مقارعة الظلم، فكانت قصائدهم أسنّة في صدور الحكام الظالمين. يقول الدكتور طه عبدالحسيب حميدة وهو من شيوخ الأزهر في كتابه أدب الشيعة: «إن الموقف الذي وقفته الدولة من الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ويثير الوجدان ويخلق فنّاً جديداً من القول مسرحاً جديداً للخيال وقد تمثّل ذلك في الأدب السياسي والعاطفي ـ وظهر أول وأقوى ما ظهر ـ في الأدب الشيعي أدب النّفس الثائرة والعاطفة الصادقة والحبّ المتأجج في أدب العقيدة».[١]

ولم يتعرض الشاعر الشيعي للسخط في عصر الأمويين فحسب، بل في عصر العباسيين أيضاً، لأن هذا الشعر قد اتجه إلى مقارعة الطواغيت، سواء كانوا من بني أمية، أم من بني هاشم من العباسيين، فالمتتبع في شعر الشيعة يجد كثيراً من الشعراء قاموا بدور معارض ضدّ السلطة العباسية الزمنية، واشترك عدد كبير من شعرائها في هذا المجال، فاستطاعوا إثراء الشعر الشيعي في بعده السياسي ، وهذا ما يمكن رصده بسهولة من خلال الحشد الكبير من الأسماء اللامعة في عالم أدب الشيعة. ولعلّ أوّل شاعر شيعي لمع اسمه في بداية هذا العصر كان سديف بن ميمون مولى الإمام السجاد وذكره ابن شهر آشوب ضمن الشعراء المقتصدين في أهل البيت وهو الذي حرّض بأشعاره السّفاح على الانتقام من بني أميّة.[٢]

وقد ذكر صاحب الأغاني أنّ أبا العباس [السفاح] كان جالساً في مجلسه بالحيرة على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسيّ، وبنو أميّة على الوسائد، قد ثُنِيت لهم، وكانوا في أيّام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السّرير ويجلس بنو هاشم على الكراسيّ. فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازيّ أسود راكب على نجيب [ جواد أصيل ]

١. حميدة، طه عبدالحسيب. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٣٤٥.

٢. الأمين، محسن. أعيان الشيعة، حققه وأخرجه: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٣٥.

متلثّم يستأذن ولايخبر باسمه ويحلف ألّا يحسر اللّثام عن وجهه حتّى يراك. قال: هذا مولاى سديف يدخل. فلمّا نظر إلي أبي العباس وبنو أميّة حوله أحدر اللّثام عن وجهه وأنشأ يقول:[١]

**لايَغُرَّنَّك ما تَرى مِنْ أناسٍ ... إنَّ تَحتَ الضُّلُوعِ دَاءً دَويّا[٢]**

**فَضَعِ السّيفَ وَأرْفَعِ السَّوْطَ حتّى ... لاتَرى فَوقَ ظَهْرِها أمَويّا**

هذان البيتان كانا من الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى أن يفتك أبو العباس السفاح بهم فتكاً ذريعاً بحيث لم يبقَ من جموعهم أحد.والملاحظة الهامة هى أنّ سديف قد تعرّض للعباسيين أيّام خلافة المنصور، كأنّه لم يدرك حقيقة العباسيين ذلك الوقت، لكن سرعان ما انكشفت الحقيقة للشاعر فبدأ بهجاءهم وخاصّةً المنصور وقال أشعاراً في تأييد محمد النفس الزكيّة و «أصدر [المنصور] أمره إلى عبد الصمد بن علي حاكم المدينة في دفنه حيّاً».[٣]

ونراه قد أعلن سخطه على الحكم الأموي بأدبه الفياض الذي هو من أروع ما قيل في أدب الثورة على الأمويين، إذ يقول:[٤]

**أمسَتْ أميّةُ قَدْ أظَلَّ فناؤُها ... يا قرّةَ العَينِ المُداوِي دَاؤُها**

**أمسَتْ أميّةُ قَدْ تَصَدّعَ شعبَها ... شعبَ الضّلالِ وَشَتَّتَ أهواءها**

**ولقَدْ سُرِرْتُ لِعَبْدِ شَمْسٍ أنّها ... أمْسَتْ تُساقُ مُباحَةً أحماءُها[٥]**

**فَلأنّ أميّةَ عَبدَ شَمسٍ وَدَّعَتْ ... لَقَدِ اضْمَحَلَّ عَنِ البِلادِ بلاؤُها**

**زَعَمَتْ أميّةُ وَهِى غَيرُ حَليمَةٍ ... أنْ لَنْ يَزُولَ وَلَنْ يهدّ بِناؤُها[٦]**

**هَيهاتَ قَدْ سَفِهَتْ أمَيّةُ دِينَها ... حتّى أذلَّ صغارَها كبَراؤُها**

---

١- انظر: أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٤ ص١٣٦.

٢. داءٌ دويّ: داءٌ شديد.

٣. ابن عبد ربه، جـ ٥ ص٧٣،٧٢.

٤. المرزباني، أبوعبدالله محمد بن عمران، أخبار شعراء الشيعة، الطبعة ٢، تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور الشيخ هادي الأميني، شركة الكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م، ص٨٢.

٥. أحماء: حما المرأة أبو زوجها ومن كان من قبله من الرجال. وحما الرجل: أبو امرأته ومن كان من قبله من الرجال.

٦. هدّ البناء: هدّاً وهدوداً: هدمه بشدّة صوت.

**لُعِنَتْ أميّةُ كم لها مِن سَوْءةٍ مَعْ سَوْءةٍ مَشهورةٍ عوراؤُها**

بشّار بن برد فقد عدّه صاحب أعيان الشيعة من شعراء الشيعة المبرزين الذين هاجم السلطة العباسية وذكرها بالمصير الذي انتهى الأمويون إليه، ولابدّ أن نذكر أنّ بشّاراً لم يمثّل تيّاراً سياسياً خاصّاً، لكنّه أعرب عن ضجره وضيقه بصالح بن داود، وهو أخ ليعقوب بن داود وزير الخليفة المهدي، ولفت النّظر إلى شكل آخر من أشكال الفساد، وهو حصر وظائف الدولة في أيدي قلّه متنفّذة، يقول: [١]

**هُم حَمَلُوا فَوقَ المنابِرِ صَالحاً أخاكَ فَضَجّتْ مِنْ أخِيك المنابِرُ**

فهو يرى أن صالحاً غير مقبول للنّاس، وقد وُضع رغماً عنهم، ولجأ بشار إلى أسلوب التشخيص، فجعل المنابر تمقته وترفضه لسوئه وثقله. وبشار واحدٌ ممّن عبرّوا عن استيائهم من تفويض الأمور كلّها إلى الوزير يعقوب بن داود، وتسليمه الدّواوين، وتقديمه على غيره دون متابعة ومراقبة.

كان يعقوب بن داود قبل وزارته للخليفة المهدي كاتباً لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، أخي النفس الزكية، وكان إبراهيم خرج في البصرة سنة ١٤٥ ه، وباءت ثورته بالفشل، وقُتل هو وأخوه محمد النفس الزكية، فطُلب يعقوب وحُبس أيام المنصور، فلمّا بويع المهدي مَنّ عليه بالعفو، وكان المهدي يخشى تحركات الشيعة الزيدية، فطلب رجلاً له معرفة بهم ليأمن به ثوراتهم، فدُلّ على يعقوب بن داود «فاستحضره المهدي وخاطبه فرأى أكمل الناس عقلاً، وأفضلهم سيرة، فشُغف به، واستخلصه لنفسه، ثم استوزره، وفوّض الأمور إليه». [٢] ربّما كان هذا الأمر قد حرّض الشاعر على هجاء يعقوب بن داود، لأنّه أحسّ بمناصرته للعباسيين، فهجاه بالأبيات التالية معرّضاً للعباسيين: [٣]

---

١. بشار، الديوان، ص٣٠٥.

٢. ابن طباطبا، ص١٨٤.

٣. بشّار، الديوان، جـ ٣ ص٩٤.

**بَنِـــي أمَيّــةَ هُبُّـــوا طَـــالَ نَـــوْمُكم ۞ إنَّ الخَليفَـــةَ يَعقُـــوبُ بْـــنُ داوُد**

**ضَـــاعَتْ خِلافَـــتُكم يـــا قَـــومُ فالتَمِسُـــوا ۞ خَليفَـــةَ اللـــهِ بـــينَ الـــزِّقِ والعُـــودِ**[1]

هذه الأبيات آذت يعقوب بن داود وأراد أن ينتقم من بشّار، فدخل بين يدى المهدي وقال: «يا أمير المؤمنين إنّ هذا الأعمى الزّنديق قد هجاك. فقال بأىّ شئٍ؟ فقال: بما لاينطق به لساني ولايتوهّمه فكري. فقال له: بحياتي إلّا أنشَدتَني. فقال: واللهِ لو خيّرتَني بين إنشادي إيّاه وبين ضرب عنقي لاخترتُ ضربَ عنقي. فحلفَ عليه المهدي بالأيمان التي لا فُسحَةَ فيها أن يُخبِره. فقال: أمّا لفظاً فلا، ولكن أكتُبُ ذلك. فكتبه ودفعه إليه. فكاد ينشقّ غيظاً».[2]

كان يعقوب بن داود الباعث على اتّهام الشاعر بالكفر والزّندقة بسبب هجائه له على ما ذكره أبوالفرج كما أنّ سعايته كانت دافعةً المهديّ إلى قتله، وإن ندم الخليفة أخيراً على قتله بما ظهر له خلاف ما سعى إليه لمّا بعث إلى منزله من يفتّشه فوجد طوماراً جاء فيه «بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم إنّي أردتُ هجاء آل سليمان بن عليٍّ لِبُخلِهم فذكرتُ قرابَتَهم من رسولِ الله فأمسكتُ عنهم. فلمّا قرأه المهدي بكى وندم على قتله وقال: لا جزى اللهُ يعقوب بن داود خيراً فإنه لما هجاه لفّق عندي شهوداً على أنّه زنديق فقتلتُه ثمّ ندمتُ حين لايغني الندمُ».[3]

وله أبيات أخرى في هجاء يعقوب بن داود:[4]

**لِلّـــهِ درُّك يـــا مَهْـــدِيُّ مِـــنْ مَلِـــكٍ ۞ لـــولا اصـــطِناعُك يعقُـــوبَ بـــنَ داوُدِ**

**أمّـــا النَّهـــارَ فَتخْمَـــاتٌ وَقَرقَـــرَةٌ ۞ واللّيـــلَ يَـــأوي إلـــى المزمَـــارِ والعُـــودِ**[5]

وله قصيدة يهجو فيها المنصور ويشير إلى إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب. فكان نظم بشّار هذه القصيدة في مدة ظهور إبراهيم بن عبدالله بالبصرة

---

١. الزّق: وعاء من جلد يجز شعرُه ولا يُنتف للشراب وغيره.

٢. أبوالفرج، الأغاني، جـ ٢ ص١٤٩.

٣. السابق، جـ ٢ ص٥٤.

٤. بشار، الديوان، جـ ٣ ص٢١٢.

٥. التخمة: داء يصيب الإنسان من أكل الطعام الوخيم، أو من امتلاء المعدة. قرقرة: الهدير.

وكان إبراهيم في أمر عسير، فلذلك أشار بشّار عليه بالشّورى. نذكر هنا أربعة أبيات منها يخوّل الشاعر فيها بانقلاب الأعاجم عليه كما فتكوا بكسرى:[١]

**أبـا جَعْفَـرٍ مـا طُـولُ عَـيشٍ بِـدائِمٍ ... وَلا سَـالِمٌ عَمَّـا قَليـلٍ بِسَـالِمِ**

**عَلَـى المَلِـكِ الجَبّـارِ يَقْـتَحِمُ الـرَّدَى ... وَيَصْـرَعُهُ فِـي المَـأزَقِ المُـتَلاحِمِ**

**كَأنَّـكَ لَـمْ تَسْـمَعْ بِقَتْـلِ مُتَـوَّجٍ ... عَظـيمٍ وَلَـمْ تَسْـمَعْ بِفَتْـكِ الأعَـاجِمِ**

**تَقَسَّـمَ كِسْـرَى رَهْطُـهُ بِسُـيُوفِهِم ... وَأمسـى أبُوالعَبّـاسِ أحْـلامَ نـائِمِ**

منصور النّمري كان شاعراً شيعياً آخر لمع اسمه في هذا العصر وقد تعرّض للمطاردة والقهر السياسي، كما أنّه عرف بتشّيعه الشديد لآل البيت بحيث قرنه أحد الباحثين بدعبل الخزاعي معتقداً أنّه كان يحمل خشبته على كتفه يريد من يصلبه.[٢] إذ تناول العباسيين بالنقد والتجريح رغم مديحه للرشيد، فنراه يهجوهم من أجل ما أصاب آل البيت من تعذيب واضطهاد على أيديهم. أنصت إليه وهو يقول معرّضاً بخصومهم العباسيين حاضّاً على الثورة والثأر:[٣]

**آلُ النبِـيِّ وَمَـنْ يُحِبُّهُم ... يَتَطـامَنُونَ مَخافَـةَ القَتْـلِ**

**أمِـنَ النَّصـارَى والیَهُـودُ وهُـمْ ... مِـنْ أمَّـةِ التوحِيـدِ فِـي أزْلِ**

**ألّا مَصَـالِت يَنْصُـرُونَهم ... بِظُبـا الصَّـوارِمِ والقَنَـا الـذُّبَلِ**[٤]

نرى الشاعر يدعو دعوةً صريحةً إلى ثورة دامية ضدّ العباسيين، وهو يريد ثورةً مسلّحة يشارك فيها الرجال الشجعان المزوّدين بالسيوف الصارمة والرماح الحادة، ثورةً تقوّض أركان السلطة العباسية الزمنية التي لايشعر فيها آل الرسول الأعظم (ص) بالأمن وهم دائماً

---

١. السابق، جـ ٣ ص١٦٩.

٢. انظر: الشكعة، مصطفى. الشعر والشعراء في العصر العباسي، الطبعة ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص٦١٥.

٣. النمري، منصور. شعر منصور النمري، جمعه وحققه: الطيب العشاش، دار المعارف للطباعة، دمشق، ١٩٨١م، ص١١٩.

٤. مصالت: من أصلت السيف: جرّده من غمده. ظبا: مفرده الظبّة: حدّ السيف والسنان والخنجر. الصوارم: مفرده الصارم وهو قاطع. الذبل: مفرده الذابل أي الدقيق.

يحسّون شبح القتل فوق رؤوسهم. فهذه الأبيات تكشف عن المناخ السياسي الذي أحاط بهذا العصر بحيث إنّ من يتجاهر بحبّ أهل البيت (ع) يتعرّض للقتل، ولذلك فإنّ الحصري يذهب إلى أنّ هذه الأبيات هى التي أثارت حفيظة الرشيد عليه فأمر بقتله، وأرسل رسوله إلى رأس العين لينفذ حكم الخليفة فيه فوجده قد مات.[١]

والأبيات التي ذكرناها تكشف عن المناخ السياسي المسموم في العصر العباسي الأول وما يسود فيه من جوّ مختنق إذ من يتجاهر بحبّ أهل البيت عليهم السّلام يتعرّض للقتل، ولعلّنا نستطيع بهذه الأبيات أن نفسّر استخدام التورية وما ذهب إليه الشاعر من ذكر كلمة هارون في أشعاره وإرادة مدلوله على أساس رواية عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال: عليّ منى بمنزلة هارون من موسى، كما أنّها تدلّ على أنّ الشاعر قد بلغ نضجاً فنيّاً بالغاً بخاصة تضمينه الصوري للنصارى واليهود: وهم في ظلّ آمن مقابل آل النّبيّ (ص) وهم في شدّة.

ويرى صاحب اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني أنّ النمرى بهذه الأبيات أراد أن «يعتذر لاضطراره إلى الكذب في مدح العباسيين وإنكار حقّ العلويين».[٢]

وله قصيدة لاميّة أخرى يقف في صفّ آل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأقصد بذلك أبناء الامام عليّ عليه السلام، يذهب فيها نفس المسلك من هجاء العباسيين وسلطتهم الزمنية التي يعمل القتل في ذريّة النّبيّ في وقت يتظاهر الخلفاء العباسيون بالتّقوى، وفيها يعلن الشاعر عن سخطه ويصوغ غضبه ويعرب عن سخريته على النحو التالي:[٣]

**شاءُ مِنَ النّاسِ راتِعٌ هامِلْ ... يُعَلِّلُونَ النُّفُوسَ بِالباطِلْ**

**تُقْتَلُ ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ وَيَرْ ... جُونَ جِنانَ الخُلُودِ للقاتِلْ**

---

١. انظر: الحصري القيرواني. زهر الآداب وثمر الألباب، ضبطه وشرحه: الدكتور زكي مبارك، مصر، د.ت، جـ ٢ ص٦٠.

٢. هدارة، ص٣٤٤.

٣. النمري، ص١٢١.

**ألا مَســـاعيرَ يَغْضَـــبُونَ لَهـــا　　　بِسَـــلَّةِ البِـيضِ وَالقَنـــا الـــذَّابِلْ**[١]

ولمّا سمع هارون الرشيد هذه الأبيات «غضب غضباً شديداً وقال للفضل بن الربيع [وزيره] أحضره الساعة، فبعث الفضل رجاله في ذلك، فوجدوه قد توفي. فأمر بنبش قبره ليحرقه، فلم يزل الفضل يلطف له حتّى كفّ عنه».[٢] هذه الرواية تدلّ على أنّ الشاعر قد وفق فكريّاً وفنّياً في هجائه السياسي إلى حدٍّ يثور الخليفة عليه ويأمر بقتله ونبش قبره وإحراقه. ونرى شعراء آخرين لم يبلغوا فنّياً ونضجاً إلى درجة رفيعة في هجوهم السياسي، بل وقفوا عند مواقف ضيّقة كانوا يأتون بها من حين إلى آخر وهذا ما نراه عند منصور بن سلمة بن الزبرقان الذي ترك الصراحة ولجأ إلى التعريض من بعيد، وأنشد قصيدةً سبّبت امتعاض الرشيد فأمر بقتله.[٣]

وكثيراً ما ذكرت المصادر التاريخية والأدبية أشعاراً هجائية لبعض الشعراء في هذا العصر، إلّا أنّها لم تذكر اسم أصحابها ونظنّ أنّهم كانوا من الشيعة أخفوا اسماءهم خوفاً من السلطة العباسية.كان من بينهم رجلٌ أعمى من أهل بغداد يدعى علي بن أبي طالب.[٤] وقد اندفع بحدّة وجرأة ونقل ما يجري في السلطة العباسية من صراعٍ وفوضى، فأشار إلى ظلم الحاشية للرعية، وكشف عن المؤامرات التي تدور بين الأمراء والوزراء بعضهم ضد بعضهم، وفي لفتةٍ ساخرة من الشاعر أدخل حَلّاق الوزير إلى إطار الحكم، وأشركه في الصّراع الذي يدور، وانتقد مبايعة الأمين لطفله الصغير قبل أن يفهم شيئاً عن الحياة، يقول:[٥]

**أَضَـــاعَ الخِلافَـــةَ غِـــشُّ الـــوَزيرِ　　　وَفِسْـــقُ الأميـــرِ وجَهْـــلُ المُشـــيرِ**

**لِـــواطُ الخَليفَـــةِ أعْجُوبَـــةٌ　　　وأعْجَـــبُ مِنْـــهُ حَـــلّاقُ الـــوَزيرِ**

---

١. مساعير: مفرده المسعار، ما تُحَرِّك به النّار من حديد أو خشب. سلّة البيض: استلال السيوف. القنا: الرمح. الذابل: دقيق.

٢. أبوالفرج، الأغاني، جـ ٨ ص١٤٣.

٣. انظر: المرزباني، ص٨٦.

٤. انظر: المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣ ص٤٣٣.

٥. الطبري، جـ ٧ ص٧.

فَهــذا يَــدُوسُ وَهــذا يُــدَاسُ كــذاك لَعَمْــري خِــلافُ الأمُــورِ
وَأعْجَــبُ مِــنْ ذَا وذَا أنّنــا نُبــايِعُ لِلطّفــلِ فِينــا الرَّضــيعِ
وَمَــنْ لــيسَ يُحْسِــنُ غسْــلَ اسْــتِهِ وَلــم يَخْــلُ مِــنْ بولِــهِ حِجْــرُ ظِيــرٍ[١]
وَمــا ذاك إلّا بِفَضْــلٍ وَبَكــرٍ يُريــدانِ طَمْــسَ الكتــابِ المُنيــرِ
ومــا ذانِ لــولا انقْــلابُ الزَّمــا نِ فِــي العيــرِ هــذانِ أوْ فــي النَّفيــرِ[٢]

وعلى هذا الأساس وصف نكلسون نظام الحكم العباسي بأنّه نظام استبدادي كـان مألوفـاً عند الفرس منذ أيّام داريوش، وأنّ العباسيين حكموا البلاد حكماً مطلقاً على النحو الذي كان يحكم به ملوك آل ساسان قبلهم.[٣]

والملاحظة الهامّة هى أنّ اولئك الشعراء الذين أتينا بمقطوعات من شعرهم كـانوا يمثّلـون دوراً ضئيلاً في الهجاء السياسي، بينما كان والسيد الحميري، ودعبل الخزاعى، وديك الجـنّ يمثّلون الجبهة الرئيسة في هذا الغرض، وهذا ما سنعرض له في هذا الباب والفصول التالية.

## بواعث الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول

استفحل الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة في هذا العصر لأسباب عديدة أهمّها ما تأتي:

الأول: امّتدت مسألة الخلافة إلـى هـذا العصـر وكثيـراً مـا كـان الشـعراء يتناولونهـا بالنقـد والدراسة ووقفوا مواقف شتّى فيمن أحقّ بها، وكان قصـب السّـبق فـي هـذا المضـمار لشـعراء الشيعة وخاصّةً دعبلاً والسيد الحميري.

الثاني: كان التحضّر في العصر العباسي الأول مقروناً بـالإنحراف الإجتمـاعي حيـث وصـل الترف إلى ذروته ممّا أدّى إلى نشر الإنحراف في ممارسة الفساد الجنسي والخمر واللّهـو بعامّـة حتّى تحوّل المجتمع العباسي إلى مسخٍ لا يعنى إلّا بالحاجات البهيمية .

---

١. حجر ظير: أراد حجر المرضعة، لأن الظؤورة تعني المرضعة (انظر: لسان العرب مادة ظأر) .

٢. العِير: ما جُلِبَ عليه الطّعام من قوافل الإبل والبغال والحمير. وفي المثل: فلان لا في العير ولا في النفير: يضرَب للرجل الصّغير القدر المستهان به.

٣. انظر: نيكلسون، ص٢٥٦.

الثالث: كان الإنحراف السياسي الذي تمحور في يد طبقة لا تعني إلّا بالسيطرة والتحكم، واستخدام أداة القتل والإرهاب لتثبيت سلطتها عاملاً أساسياً من أسباب الهجاء السياسي. لدينا روايات مختلفة تدلّ على أنّ الظلم والتنكيل والبغي كانت ظواهر منتشرة منذ مطلع العصر العباسي، فقد قال عمرو بن عبيد للمنصور بالبصرة: «إنّ من وراء بابك نيراناً تتأجّج من الجور، وما يعمل من وراء بابك بكتاب الله ولا بسنّة رسوله».[١]

الرابع: كان عددٌ من الخلفاء والسلاطين والأمراء يمارسون الفساد جنسياً ولهوياً، ممّا نرى أصداءه في ميدان الأدب، ومن جانب آخر نرى إزاء ذلك ردود فعلٍ من قبل أشخاص أسوياء تتحرّك القيم الإنسانية في أعماقهم ممّا نتج على ذلك نشأة الأدب السويّ الذي ينكر مظاهر الانحراف، فيهجو السلطة والانحرافات بعامّة ويشيد بمبادئه إسلامياً أو إنسانياً. وقد أخذ الشيعة وبعض الطوائف، على الدولة العباسية انغماس الولاة والامراء وقواد الجيش في حياة الملذات والمجون.

الخامس: ومن البواعث الرئيسة للهجاء السياسي ما يعود إلى الفساد الاقتصادي.[٢] الذي يتضح في زيادة الخراج على العمال والفلاحين وجماهير الكادحين، والتجبّر والتعسف في استيفائها، وإنفاق المبالغ الضخمة التي كانت تجبى منهم في سبل لا تنفع الجميع.

السادس: ومنها ما يعود إلى التباين الطبقي، فقد كان المجتمع العباسي موزعاً بين ثلاث طبقات، طبقة الخلفاء والوزراء والقادة، وهم الذين كان لهم السلطان المطلق في التحكم برقاب الناس، والتصرف في مصائرهم، والتهالك على تحقيق أكبر قسط ممكن من اللذة، والطبقة الوسطى، وأخيراً طبقة الفقراء المعدمين الذين كانوا يؤلفون أكثر الرعية، والذين كانوا يكدون للفوز بأقل القليل من ضرورات العيش.[٣]

---

١. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص ٣٨٤.

٢. انظر: عطوان، ص١٧٩.

٣. انظر: السابق، ص٢٦١٨.

السابع: ومنها ما يرجع إلى الخلل السياسي[١] إذ كانت الحال قلقة لهذا العصر، كما كان المجتمع يموج بالانتفاضات والثورات على الحكام المتسلطين المستبدين للإطاحة بهم، وإقامة حكومة صالحة تعدل بين الأمة، وتنصف الفقير والمظلوم، ولا تفرق بين الناس، وتعمل لمصلحتهم، مما كان له أثر في تعطيل مرافق الحياة، وتعذر أسباب الرزق، وشيوع الفقر؛ وهذه المفاسد هى التي أفقرت جمهور العرب والمسلمين، وهى وإن اختلفت أنواعها، فقد كان مصدرها واحداً، وهو الحكم الجائر الظالم، كما كان انتشار الفقر، واتساع المفارقات بين الناس نتيجةً حتميةً لها.

---

١. انظر: السابق، ص٢٧.٣٣.

# الفصل الثالث: الهجاء السياسي عند السيّد الحميري

## حياة الشاعر

ولد اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة سنة ١٠٥ه بعمان ونشأ في البصرة و«السيّدُ لقب لُقِّب به لذكاء كان فيه، فقيل: سيكون سيّداً فعلق هذا النّعت به لذلك»[١] ويكنّى أبا هاشم، وأمّه امرأةٌ من الأزد، ثمّ من بني الحدّان وجدّه يزيد بن ربيعة شاعر مشهور وهو الذي هجا زياداً وبنيه ونفاهم عن آل حرب وحبسه عبيدالله بن زياد لذلك وعذّبه.[٢]

## وفاة الشاعر

جاء في الأغاني عن بشير بن عمّار قال: «حضرت وفاة السيد في الرُّميلة ببغداد فوجّه رسولاً إلى صف الجزارين الكوفيين يُعْلِمُهم بحاله ووفاته فغلط الرسول فذهب إلى صف السموسين فشتموه ولعنوه، فعلم أنّه قد غلط، فعاد إلى الكوفيين يعلمهم بحاله ووفاته؛ فوافاه سبعون كفناً. قال: وحضرناه جميعاً وإنّه ليتحسّر تحسّراً شديداً وإن وجهه لأسودُ كالقار وما يتكلم، إلى أن أفاق إفاقة وفتح عينيه فنظر إلى ناحية القبلة ثمّ قال: فتجلّى والله في جبينه عِرْق بياض، فما زال يتّسع ويَلبَس وجهه حتى صار كلّه كالبدر وتوفي فأخذنا في جهازه، ودفناه في الجُنَينة ببغداد، وذلك في خلافة الرشيد».[٣] وأمّا سنة وفاته فقد أرّخها المرزباني بسنة ١٧٣ه.[٤]

---

١. المرزباني، أخبار شعراء الشيعة، ص١٥١.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٤٨.

٣. السابق، جـ ٧ ص٢٩٧.

٤. الأميني، عبدالحسين أحمد. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الطبعة ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٧م، جـ ٢ ص٢٧٢.

## مذهبه وقصة أبويه

ذكر أبوالفرج في أغانيه عن اسماعيل بن الساحر راوي السيد «أنّ أبوى السيّد كانا إباضيين وكان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبّة، وكان السيّد يقول: طالما سُبّ أمير المؤمنين في هذه الغرفة. فإذا سئل عن التشيع من أين وقع له قال: غاصت عليّ الرحمة غوصاً».[١]

أمّا مذهبه فكان كيسانيّاً يقول برجعة محمد بن الحنفية، وقال الأميني «عاش السيّد ردحاً من الزمن على الكيسانية يقول بإمامة محمد بن الحنفية وغيبته وله في ذلك شعر ثمّ أدركته سعادة ببركة الإمام الصادق عليه السّلام وشاهد منه حججه القوية وعرف الحق ونبذ ما كان عليه من سفاسف الكيسانية عندما نزل الإمام عليه السّلام الكوفة عند منصرفه من عند المنصور أو ملاقاته إيّاه في الحجّ».[٢] وفي ذلك يقول:[٣]

وَلمَّا رَأيتُ النَّاسَ فِي الدِّينَ قَدْ غَوَوا ... تَجَعْفَرْتُ بِاسْمِ اللهِ فِيمَنْ تَجَعْفَرُوا[٤]

وَنَادَيْتُ بِاسْمِ اللهِ وَاللهُ أكبَرُ ... وَأيقَنْتُ أنَّ اللهَ يَعْفُو وَيَغْفِرُ

وَيُثْبِتُ مَهمَا شَاءَ رَبِّي بِأمْرِه ... وَيَمْحُو وَيَقْضِي فِي الأمُورِ وَيَقْدِرُ

وَدِنْتُ بِدِينٍ غَيرِ مَا كنتُ دَائِنَاً ... بِهِ وَنَهَانِي سَيِّدُ النَّاسِ جَعْفَرُ[٥]

فَقُلْتُ فَهَبْنِي قَدْ تَهَوَّدْتُ بُرْهَةً ... وَإلّا فَدِينِي دِينُ مَنْ يَتَنَصَّرُ

وَإنِّي إلى الرَّحْمانِ مِنْ ذَاك تَائِبٌ ... وَإنِّي قَدْ أسْلَمْتُ وَاللهُ أكبَرُ

فَلَسْتُ بِغَالٍ مَا حَيِيتُ وَرَاجِعٍ ... إلى مَا عَلَيْهِ كنتُ أخْفِي وَأضْمِرُ

وَلا قَائلٍ حَيٌّ بِرِضْوَى مُحَمَّدٌ ... وَإنْ عَابَ جُهَّالٌ مَقَالي فَأكثَرُوا

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٥٠.

٢. الأميني، جـ ٢ ص٢٤٤.

٣. اسماعيل بن محمد، الحميري، الديوان، شرحه و ضبطه: ضياء حسين الأعلمي، الطبعة ١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص٩٥.

٤. غوى غيّاً: أمعن في الضلال، فهو غاوٍ.

٥. يريد الإمام جعفر الصادق (ع).

**وَلَكنَّــــهُ مِمَّـــا مَضَـــى لِسَــبِيلِهِ عَلَـى أفْضَـلِ الحَـالاتِ يَقْفِـي وَيَخْبِـرُ**[١]

**مَـعَ الطَّيِّبِـينَ الطَّـاهِرِينَ الأُولـى لَهُـم مِـنَ المُصْـطَفَى فَــرْعٌ زَكــيٌّ وَعُنْصُـرُ**

والسيّد الحميري رغم أنّ المصادر تجمع على أنّه كان كيسانيّاً في البداية إلّا أنّ بعض الباحثين اختلفوا حول رجعته من الكيسانية وتحوّله إلى الإمامية. فنرى صاحب الأغاني ينفي نفياً قاطعاً تحوّله إلى الإمامية وأشار إلى ذلك في قوله «إنّ السيد ظلّ على مذهبه الكيساني وأنّه لم يرجع عن مذهبه ولم يقل بإمامة جعفر بن محمد الصادق والقصائد التي قيلت في جعفر منحولة»[٢] إلّا أنّ بعض القدماء يتّفقون على تحوّله إلى الأمامية بعد أن زار الإمام الصادق عليه السّلام وتاب عن اعتقاده بإمامة محمد بن الحنفية.[٣] فالناظر في القصيدة السابقة يرى من بيتها الأول أنّ الحميري قد عدل عن الكيسانية وتحوّل إلى الإمامية، وربما هؤلاء القدماء جعلوا هذه القصيدة معياراً على حكمهم يبيّن كيفيّة عدوله عن مذهبه السابق.

### التزامه الفكري

اعتاد أكثر الباحثين الذين درسوا شعر شعراء الشيعة بعد العصر الأموي أن ينسبوهم إلى الموالي ظانّين أنّهم لم يكونوا من أنصار الشيعة بالمعنى الصحيح لهذا المصطلح، بل كانوا من الموالي وانضمّوا إليهم نتيجة ظلم الأمويين، وأظهروا كرههم للعرب بعد انتصار السلطة العباسية، إلّا أنّ السيد الحميري لم يكن من الموالي بل «هو رجلٌ عربي خالص لأمّه وأبيه وهو من عرب اليمن»[٤] ولم يكن ينتمي إلى أسرة فارسيةٍ، فلذلك «لم يكن تشيّعه طلاء سياسياً كاذباً يستر الشعوبية وبغض العرب»[٥] كما أنّهم اعتادوا أن يصفوا كلّ شاعر شيعيّ ينبض قلبه بحبّ آل البيت عليهم السّلام وولائهم بالتطرف والتعصّب كما يراه صاحب حديث الأربعاء

---

١. قفى : الشيء: تبعه.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص ٢٥٠.

٣. ابن المعتز، عبدالله. طبقات الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد نوح، نشر دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م، ص٣٣.

٤. حسين، طه. حديث الأربعاء، الطبعة ١٤، دار المعارف، مصر، جـ ٢ ص٢٣٩.

٥. السابق، جـ ٢ ص٢٣٩.

عندما يتحدّث عن الحميري.[١]

كان السيد الحميري شيعةً للإمام على عليه السّلام وأبنائه، وإذا سئل عنه كيف تشيّع وأين؟ قال: «غاصت عليّ الرحمة فاستنقذتني»[٢] وهو يعدّ أكبر شعراء الشيعة الذين وقفوا عليهم شعرهم وحياتهم، وأمّا مديحه للعباسيين فإنّه يمكن إدخاله في إطار التّقية، وهذا على حدّ قول طه حسين سياسة معقولة ممكنة التفسير، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان المحن أيّام بنى أميّة، مالم يلقه حزب سياسي آخر.[٣] ويرى طه حسين أنّ «شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله في حياتهم السياسية كلّها، وقف عليهم عمره وجهده، وكاد يقف عليهم مدحه وثناءه مخلصاً في ذلك كلّه إخلاصاً لايشبهه إخلاص».[٤]

ويصف صاحب حديث الأربعاء السيد الحميري بأنّه كان علوياً متطرفاً وعباسياً معتدلاً في وقت واحد، فكان من أشدّ الناس إخلاصاً لآل عليّ، يجهر بذلك ويعلنه ولايتحرّج منه، وكان في الوقت نفسه مسروراً بفوز بني العباس، لا لأنّهم فازوا على العلويين، بل لأنّهم يمثّلون بني هاشم الذين فازوا على الأمويين. وكان يعلن هذا الفرح وينتظر أن يأتي يوم آل عليّ، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً وإنّما كان يبثّ الدعوة لال عليّ ويبذل في ذلك من الجهد والقوة ما استطاع.[٥]

أهمل بعض النّقاد شعره ودراسته فذكر صاحب الأغاني روايةً عن التّوّزي أنّ الأصمعي قال: «أحبّ أن تأتيني بشئ من شعر هذا الحميري فَعَل الله به وفَعَل؛ فأتيته بشئ منه؛ فقرأه فقال: قاتله الله ما أسلكه لسبيل الشعراء؛ والله لولا ما في شعره من سبّ السلف لما تقدّمه من

---

١. السابق، جـ ٢ ص٢٢٨.

٢. المرزباني، أخبار شعراء الشيعة، ص ١٥٣.

٣. انظر: حسين، حديث الأربعاء، جـ ٢ ص٢٤٠.

٤. السابق، جـ ٢ ص٢٣٩.

٥. السابق، جـ ٢ ص٢٤٠.

طبقته أحد».[١] هذه الرواية التي ذكرناها تدلّ بوضوح على خصومة أعداء الشيعة وحقدهم بالنسبة إلى السيّد ولم يكن هذا إلّا «نظراً لالتزامه الفكري الذي لم يرق لأتباع السّلاطين».[٢]

إنّ الأثر البارز في حياة السيد هو تفانيه في حبّ أئمّة أهل البيت ونشر مناقبهم بشعره وبيانه ولسانه، ونقده اللاذع لأعداء العترة الطاهرة ومناوئيهم. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أكثر شعراء العصر العباسي قد انكبّوا على بلاط الجهاز الحاكم رغبة منهم في الصلة والعطايا، ولكن السيد أبعد نفسه عن هذه الوصمة ولم يتكسّب في شعره وأبى الوقوف على أبواب الخلفاء والأمراء يطلب المال أو يسألهم العطاء، وإن سأل يسأل ربّه على نحو ما يفهم من خطابه لأحد شعراء عصره، وفي ذلك يتّضح مذهبه الالتزامي:[٣]

**أيُّهـا المَـادِحُ العِبَـادَ لِيُعْطَـى ... إنَّ للـهِ مَـا بِأَيْـدِي العِبَـادِ**

**فَاَسْـأَلِ اللـهَ مَـا طَلَبْـتَ إلَـيهِم ... وَأرْجُ نَفْـعَ المُنَـزِّلِ العَـوّادِ[٤]**

**لاتَقُـلْ فِـي الجَـوَادِ مَـا لَـيسَ فِيـهِ ... وَتُسَـمِّي البَخِيـلَ بِأسْـمِ الجَـوَادِ**

فالحميرى كان يرفض حبّ الخلفاء والأمراء والمداهنة والتملّق لهم من أجل الكسب أو العطاء، لذلك كان منكراً أشدّ الإنكار للشعراء المتزلفين من أجل العطاء في حين كان يحاول أن ينقدهم نقداً لاذعاً، هدفه في ذلك تقويم سلوكهم. والأبيات السابقة إن دلّت على شئٍ فإنّما تدلّ على عفّته وإبائه، رافضاً المال والجاه التي كان يستمتع بها سابقوه ومعاصروه من الشعراء وقد كان منكراً أفعالهم ناقداً عيوبهم وأمورهم، كما أنّها تذكرنا بما انغمس فيه الأدب في هذا العصر، حيث غلب مديح الخلفاء والسلاطين على سائر الأغراض الشعرية، غير أنّ السيد يعتقد أنّ الله تعالى هو الذي يعطي من يشاء، ومن هذا نستخلص أنّ الشاعر كان ملتزماً بقضايا فكرية مستقاة من تعاليم القرآن والأئمة المعصومين.

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص ٢٥٥.

٢. البستاني، محمود. ص٤٥١.

٣. الحميري، الديوان، ص٨٣.

٤. العوّاد: البارّ واللطيف. الذي يُعيد النّعم بكثرة.

ونرى عند الشاعر مقطوعات مختلفة يظلّ حائماً على عاطفة أهل البيت عليهم السّلام مع تأكيد بالغ على حادثة الغدير بحيث قلّما تخلو قصيدة من قصائده من الإشارة إلى هذا الجانب. لنقرأ مثلاً:[١]

**أَلَسْتُ مُولاكم فَذَا مُولىً لَكم وَاللهُ شَاهِدٌ بِذَا عزَّ وَجلّ**
**يا رَبِّ وَالِ مَنْ يُوالِي حَيدَراً وَعادِ مَنْ عَاداهُ وَأَخْذُلْ مَنْ خَذَلْ**

هذان البيتان يكشفان بوضوح عن ميزة فكرية هي مدى تصاعد الشاعر في التزامه الفكرى لأهل البيت عليهم السّلام «هذا الفكر الذي يتشرّب مبادئ الرسالة في خطوطها التي جسّدتها حادثة الغدير».[٢]

يقول صاحب كتاب أدب الشيعة في القرن الثاني وهو من السنّة إنّ السيّد الحميري كان «ينفق حياته في التشيع حتى كاد يحيا فيه وله ويخص آل محمد بمحبة في القلب قد طويت عليها الاضلع وهو يهاجر بهذا الحب ويدعو اليه حتى في قصور الخلفاء العباسيين وولاتهم».[٣]

ونرى الدكتور طه حسين يحاول أن يقلّل من قيمة التزام السيّد الفكري عندما ذهب إلى أنّ الحميري «استطاع أن يكون علوياً متطرّفاً وعباسيّاً معتدلاً واستطاع ذلك في وقت واحد، فكان من أشدّ النّاس إخلاصاً لآل على [عليه السّلام] يجهر بذلك ويعلنه ولايتحرّج منه، وكان في الوقت نفسه مسروراً بفوز بني العباس، لا لأنّهم فازوا على العلويين بل لأنهم يمثّلون بني هاشم الذين فازوا على الأمويين»[٤] كما أنّه يحاول أن ينزله إلى درجة التكسّب معتقداً أنّ سقوط الأمويين لم يكن الباعث الوحيد الذي أدناه من بني العباس بل الرغبة والرهبة لعبتا دوراً هامّاً لأنّه كان يطمع في أموال العباسيين ويخشى بأسهم.[٥] والذي يعرف مواقف طه

---

١. السابق، ص١٦٥.

٢. البستاني، محمود، ص ٤٥٨.

٣. حميدة، ص٢٠٨.

٤. حسين، حديث الأربعاء، جـ ٢ ص٢٢٨.

٥. انظر: السابق، جـ ٢ ص٢٢٨.

حسين التي اشتهرت بعداوة الشيعة يدرك أنّه ابتعد عن الموضوعية في كثير منها وجانب الصواب. نحن نجد الجاحظ يتّهم الحميري بأنّه كان مولعاً بالشّراب.[١] وليس من البعيد أن يُتَّهم السيّد بشرب النّبيذ للحطّ من مكانته، لأنّ من أحبّ أهل البيت وتفاني في حبّهم كيف يخالفهم وكيف يشرب الخمر وهو يعلم أنّ شرب الخمر أبشع منكر عندهم.

ونجد في بعض المصادر التاريخية والأدبية أنّ السيد الحميري كان معتقداً ببعض المذاهب الفكرية الباطلة وأنّه كان يمارس بعض المفارقات. علينا أن ننبّه على أنّ حياة الإنسان تشهد مراحل مختلفة فكرياً وعقيدياً، والمرحلة المهمّة باعتقادنا هى المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان، لأننا كثيراً ما نشاهد بعض الشخصيات يخطئ فكرياً أو دينياً ثمّ يستيقظ من سباته ويتبصّر ويتوب عن ذنبه ويحدث تغييرات أساسية في معتقداته ويصبح شخصيةً ملتزمةً إسلاميةً، لأنّ المعيار هو خاتمة الأمور.

## طه حسين والسيّد الحميرى

لعلّ الدكتور طه حسين أكبر ناقد في العصر الحديث وأشدّ قسوة في أحكامه على شعراء الشيعة وخاصة السيد الحميري إذ يقول في كتابه ذكرى أبي العلاء أنّ «التناسخ معروف عند العرب منذ أواخر القرن الأول والشيعة تدين به وببعض المذاهب التي تقرب منه كالحلول والرجعة وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات الحميري وكثيّر في ذلك».[٢]

ونرى صاحب أعيان الشيعة يرّد على تهمه ردّاً حاسماً نذكره هنا إذ يقول إنّ «طه حسين ...قال إنّه معروف عند العرب منذ أواخر القرن الأول والشيعة تدين به وببعض المذاهب التي تقرب منه كالحلول والرجعة وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات السيد الحميري وكثيّر في ذلك. والعجيب من ابن آدم أنّه يتكلّم في كلّ شئ مما يعلم ومما لايعلم ويقوده التقليد إلى خبط العشواء. عرفنا تعصب المتعصبين على الشيعة من مظهري النسك

---

١. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢ ص١٦٨.

٢. حسين، طه. تجديد ذكرى أبي العلاء، الطبعة ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م، ص٣٥٨.

والدين ـ وهو بريئ ـ ممّن لايشبهون الدكتور في جميع أمورهم وحالاتهم لأمور ألفوها وعقائد تلقّفوها بدون تحقيق ولا تمحيص أو مشياً مع الأهواء. أما أن يصدر مثل ذلك من مثل الدكتور طه حسين فهو من البعيدين عن حالات اولئك كلّ البعد وليسوا من مسلكهم في خل ولا خمر فهو أمر يحق أن يعجب منه ... متى سمع الدكتور طه حسين شيعيّاً أو رأى في كتاب للشيعة أو قرأ له قارئ في كتبهم أنّ الشيعة تدين بالتناسخ أو بالحلول، بل متى رأى ذلك لعالم من أهل السنّة منصف متحرٍّ لحقائق الأمور اللهمّ لا. ومن قال نعم فقد أبطل وافترى. بلى يجوز أن يكون سمع ذلك في كتاب بعض المتعصبين الذين لايبالون أن يلصقوا بالشيعة كل نقص كذباً وزوراً، فالشيعة في كلّ عصر وزمان وفي كلّ قطر ومصر ومكان تبرأ إلى الله ممن يقول بالتناسخ أو الحلول وتكفّره وتعتبره خارجاً عن دين الإسلام. وإن تعجب فعجب أن يكون أمثال الدكتور طه حسين ممن يريد تحرّي الحقيقة يلقى كلاماً لا نصيب له في الصدق تقليداً لمن لا خلاق لهم ويرسله إرسال المسلّمات. أمّا قوله: وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات السيد الحميري أنّ نسبة السخافة إلى السيّد الحميري وكثيّر من أسخف السخافات. فالسيد الحميري نادرة من نوادر الدهر في علمه وفضله وشعره وقوة حجته، ولا يدانيه ولا يقف أمامه أحد من هؤلاء الذين ظهروا في هذه الأعصار يثلبون أعراض النّاس ويتقوّلون عليهم بغير حجة ولا برهان».[1] ونحن نعتقد أنّ الأسباب التي دفعت طه حسين إلى عدّه (الحميري) من الغلاة ووصفه ببعض الاوصاف القبيحة ربّما تعود إلى ما نذكره فيما يلي:

أ ـ يعتبر السيد الحميري من شعراء الشيعة الذي خاض غمار السياسة، ولعلّه كان طبيعيّاً جدّاً أن تُشوّه سيرته الشخصية وعقائده الدينية، وتلك في السياسة وسيلة قمع ربّما فاقت في نتائجها كلّ الوسائل المادية. وواضح أنّ من دخل نطاق السياسة واشتغل بها لن يسلم من التّهم والطعن اللاذع.

ب ـ ينقسم شعراء الشيعة في انتمائهم إلى الشيعة إلى درجات متفاوتة فبعضهم كان

---

١. الأمين، جـ٣ ص٤١١.

يقتصد في سيرته السياسية وبعض آخر كان يجاهر بآرائه ويعلن حقّ أهل البيت عليهم السّلام في الخلافة. وأمثال السيّد الحميري كان من المجاهرين، وهذا سبّب كثرة التّهم الموجّهة إليه.

## تجليات الهجاء السياسي في شعر السيّد الحميري

نحن لا نغالى إذا قلنا إنّ أغلب شعراء القرن الثاني شغلوا أنفسهم بالسياسة والصراع السائد بين الأحزاب السياسية والخلاف بينها وتأثّروا بها، ويبدو أنّ تأثرهم كطبقة مثقّفة كان أكثر من سائر الطبقات، فلذلك كان من الطبيعي أن تظهر ثماره في أشعارهم. ولا نستطيع أن نقول إنّ تأثرهم كان بنسبة واحدة بل كان على مقادير متفاوتة ويختلف من شاعر إلى آخر.كان السيّد الحميري في عداد من وقف نفسه للسياسة وعاش في أعماق ذلك الصراع. تقوم شهرة السيّد الحميري في عالم الشعر والنقد على مديح الإمام عليّ عليه السّلام ولكنّنا نتحدث عنه هنا بوصفه شاعراً هجّاءً سياسياً ظهر في القرن الثاني.

إذا كان الهجاء في العصر العباسي سلاحاً في أيدى الحاكمين يسلّطونه على المعارضة وخاصّة الشيعة فيشينون سمعتهم ويحطّون من مكانتهم فمن الطبيعي أن يظهر في الجبهة المعارضة شعراء يقومون بنفس الدور فيحاولون فضحهم من خلال الخوض في معارك شعرية حادّة. كان عدد الشعراء في الجبهة الشيعية كثيراً وكان لهم دور مشهود في الدفاع عنها والمنافحة عن حقوقها والتحدث بلسانها في مختلف المناسبات والقضايا التي تهمّها.كان الحميري أحد هؤلاء الشعراء الكبار الذين وقف بجانب الشيعة.

نشأ السيّد الحميري في أسرة اشتهرت بالنّضال والكفاح مع السّلطات الطاغية والدّفاع عن حقوق الشّعب المضطهدة إذ كان جدّه شاعراً ممتازاً ومشهوراً و «هو الذي هجا زياداً وبنيه ونفاهم عن آل حرب وحبسه عبيدالله بن زياد لذلك وعذّبه».[١] فكان من الطّبيعي أن يواصل الشاعر طريقة آبائه في الوقوف في وجه المغتصبين والطّغاة مطالباً بعودة الحقّ إلى أصحابه

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٤٨.

الحقيقيين.

رغم أنّ الحميري كان شاعراً بارعاً في العصر العباسي، ولكن مع الأسف لم يعتنِ الباحثون بدراسة شعره كما اعتنوا بدراسة شعر الآخرين الذين لم يبلغوا مبلغه في الجودة والسّهولة والبعد عن الغرابة، والسبب يعود إلى أنّ الحميري كان مذنباً! وأيّ ذنبٍ أكبر من إعلان الحقيقة والدّفاع عن حقّ آل البيت المهضوم على أيدي البغاة والطغاة؟ نرى صاحب الأغاني يعلّل ذلك الأمر بأنّه هجا الصّحابة فلذلك ترك شعره[١] إلّا أنّه لم يعرف أنّ رسالة الشّاعر الأولى هى الدّفاع عن الحقيقة والوقوف في جبهة المعارضة للسّلطة الفاسدة.

إنّ الدارس لشعر السيّد الحميري يرى كمّاً هائلاً من القصائد والمقطوعات تطرّق فيها الشاعر إلى مديح آل البيت عامّةً وإيضاح مناقب الإمام عليّ عليه السّلام خاصّةً، ولاغرو إذا قلنا إنّ هذين الغرضين يشكلان ٩٠% من مجموع شعره، فيبقى ١٠% من شعره أخذ صبغة الهجاء السياسي في فترات مختلفة من التاريخ الإسلامى ونقد ما حدث في المجتمع، وما قام به أصحاب السلطة ومن يمشي في ركابهم.

اتّضح بعد دراسة شعره السياسي وخاصّةً هجاءه السياسي أنّه يشتمل على مواقف الشاعر النقدية والهجائيّة بدايةً من صدر الإسلام حتّى العصر العباسي، فعلى هذا الأساس رأينا أن ندرس هجاءه السياسي في فتراتٍ ثلاثة تسهيلاً لدراستنا:

الأولى: الهجاء السياسي في شعره المتعلّق بالعصر الإسلامي.

الثانية: الهجاء السياسي في شعره المتعلّق بالعصر الأموي.

الثالثة: الهجاء السياسي في شعره المتعلق بالعصر العباسي.

## هجاء السيّد السياسي في الفترة الإسلامية

يمتدّ الهجاء السياسي في شعر السيّد الحميري إلى أكثر من عصر بني العباس ويشمل فترة الخلفاء الراشدين والعصر الأموي.

---

١. السابق، جـ ٧ ص٢٢٦.

شهد المجتمع في العصر الإسلامي بعد أن لبّى الرسول الأعظم (ص) نداء ربّه حوادث كبيرة مؤلمة نرى أصداءها في شعر السيّد الحميري، وكان أهمّها اغتصاب حقّ الإمام عليّ عليه السّلام في خلافة النّبيّ (ص) بعد أن أوصى له في مواقف مختلفة تشهد به أمّهات كتب الحديث من الشيعة والسنّة، وتليها حروب الإمام عليّ عليه السّلام مع عائشة وطلحة والزبير الذين نكثوا عهدهم ثمّ معركة صفّين والنّهروان. ونلاحظ أنّ السيّد الحميري وقف بجانب الإمام (ع) واتّخذ مواقف رصينة إلى حدٍّ جعله صاحب حديث الأربعاء مع أبان بن عبدالحميد ومروان بن أبي حفصة شاعر بني العباس في طبقةٍ واحدة تجمع بينهم السياسة.[١] ولعلّنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ مسألة خلافة المسلمين بعد النبيّ (ص)كانت أهمّ مسألة لفتت انتباه الشاعر وكرّست معظم شعره لها، كما أنّها دفعته إلى اتّخاذ موقفٍ صريحٍ إزاءها وبالتّالي هجاء من غضّوا أبصارهم على حقيقة الأمر فنرى الآثار السلبية لهذا الغضّ إلى يومنا هذا. فلنبدأ بدراسة موقف الشاعر من الخلافة وهجاء من اغتصبها:

## الشاعر ومسألة الخلافة

ما كاد النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يلفظ أنفاسه الأخيرة حتّى تحرّكت أطماع بعض الصحابة في منصب الخلافة وأظهر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، فلمّا تُوفّي الرسول الأعظم (ص) واجه المجتمع الإسلامى الناشئ مشكلةً خطيرةً «كانت مثاراً لأوّل خلافٍ جذريّ نشب بينهم»[٢] ومع أنّ الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم أوصى مراراً وفي مواقف شتّى بالخلافة للإمام علي عليه السّلام إلّا أنّهم طرحوا وصيّته جانباً، الأمر الذي شهد به وبلّغه آنذاك عدد كثير من كبار الصّحابة[٣] الذين ذكرت أسماءهم كتب التاريخ والحديث.

حمي الوطيس بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة الرّسول

---

١. انظر: حسين، حديث الأربعاء، جـ ٢ ص٢٢٦.

٢. المسعودي، مروج الذهب، ص٣٤٧.

٣. نذكر من هؤلاء الصّحابة: سلمان الفارسي، وأباذر الغفاري، وعمّار بن ياسر وهم من المهاجرين، وأبو الهيثم، وسهل وعثمان ابنا حنيف (انظر: الطّبرسي ١:٩٧).

الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، إلّا أنّ الأزمة تخفّفت حدّتها عندما ذكر أبوبكر حديثاً نسبه إلى النّبيّ ينصّ على أنّ «قريش ولاة هذا الأمر».[١] اختلف المهاجرون الذين كانوا هم من قريش أصحاب رسول الله(ص) فيما بينهم بين خيارين اثنين: أبوبكر وعليّ بن أبي طالب (ع) ابن عمّ النّبيّ (ص) وأوّل من آمن به وأقرب النّاس إليه محبّةً وتقديراً. فبويع أبو بكر في ذلك المكان بينما كان آل النّبيّ (ص) من بني هاشم غائبين عنه، وكان الأنصار معارضين له، ثمّ نرى أبابكر انتقل إلى المسجد للحصول على البيعة العامّة. ومن هناك «سمع العبّاسُ ـ عمّ النّبيّ ـ وعليُّ بن أبي طالب [ع] التّكبير في المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله فقال عليٌّ [ع]: ما هذا؟ قال العبّاس: ما رُئيَ مثلُ هذا قطُّ».[٢]

كانت فرقة الشيعة شكلت جبهة المعارضة لما حدث في بني سقيفة ومثّلت منذ تكوّنها في صدر الإسلام دوراً مهمّاً في بناء الفكر السياسي الإسلامي إذ حاولت الالتزام بوصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بتولية الإمام عليّ عليه السّلام خليفةً له ونائباً بعد وفاته (ص) لما للإمام من مكانة قد رسّخها النّبيّ (ص) وآتت ثمرها يوم بيعة الغدير. ولمّا لم تجر الأمور كما قدّر اتّفقوا على مبايعة أبي بكر. وهنا نلاحظ أنّ السيّد الحميري الذي استوعب جوانب هذه المسألة كلّها يقف موقف معارضة إذ أشار إلى هذه الحادثة في مقطوعةٍ له مبيّناً وجهة نظر بالنسبة إلى الذين اغتصبوا الخلافة ممّن أوصى الرسول الأعظم (ص) له قائلاً:[٣]

**تُوُفّيَ النّبيُّ عَلَيهِ السَّلامُ فَلَمّا تَغَيَّبَ فِي المَلحَدِ**
**أزَالُوا الوَصِيَّةَ عَنْ أقْرَبِيهِ إلَى الأبْعَدِ الأبْعَدِ الأبْعَدِ**

يقول الشاعر هاجياً مغتصبي الخلافة إنّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كان مُسجىً على فراش الموت ولمّا يلفظ أنفاسه الأخيرة حتّى طرح مغتصبو الخلافة ما أوصى به النّبيّ

---

١. زيدان، جرجي، ج ١ ص٦٦.

٢. ابن عبد ربه، ج ٤ ص٢٥٨.

٣. الحميري، الديوان، ص٩٠.

(ص) وجعلوا الخلافة فيمن ليس له أيّ قرابة من الرسول (ص). ونراه قد كرّر كلمة "الأبعد" ثلاث مرّات فكأنّه أراد بهذا التكرار أن يظهر مدى البعد بين الخليفة الأول وبين النّبيّ (ص) وأن يثبت الفجوة الواسعة بينه وبين النّبيّ (ص) من حيث النّسب والقرابة. ونرى الشاعر يهجو الخليفة الأوّل والذين ناصروه ويصفه ومن معه باستخدام المكيدة والخدعة للحصول على الخلافة واستبعاد من يحقّ لها عن حقّه قائلاً:[1]

**وَكَادُوا مَوَالِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ... فَيَا عَيْنُ جُودِي وَلاتَجْمَدِ**

**وَأَوْلادُ بِنْتِ رَسُولِ الإلهِ ... يُضَامُونَ وَلَمْ تَكمَدِ**[2]

**وَهُم بَيْنَ قَتْلَى وَمُسْتَضْعَفٍ ... وَمُنْعَفِرٍ فِي الثَّرَى مُقَصَّدِ**[3]

وجّه الشاعر سهام هجائه إلى مغتصبي الخلافة إذ رأى أنّ الأمر صار إليهم باستخدام الخدعة والمكيدة فلم يكونوا جديرين بها بل تمّ الأمر لهم بالإجحاف، ثمّ أنحى عليهم باللائمة لأنّهم ظلموا حفيد الرسول (ص) وقتلوه. وفي كلمة " كادوا" هجاء لاذعٌ يشير إلى أنّ الخلافة لم تكن حقّ الخليفة الأوّل بل إنّه لجأ إلى الخديعة حتى استطاع أن يستولى عليها.

وله قصيدة أخرى تطرّق في تضاعيفها إلى واقعة بدر الكبرى وقارن فيها بين الإمام عليّ عليه السّلام والذين أخذوا الخلافة منه:[4]

**أَهُمُ الّذِينَ غَدَاةَ بَدْرٍ بَارزوا ... عِنْدَ اخْتِدَامِ تَبَارُزِ الأَقْرانِ**[5]

**أَمْ كَانَ غَيْرَهُم الّذِينَ وَلّوهُم ... وَهُمْ بِأبْعَدِ مَوقِفٍ وَمَكَانِ**

**حتّى إذا انْقَضَتِ الأمُورُ وَصُرِّفَتْ ... وَمَضَى المُبَارَك صَاحِبُ العِرْفَانِ**

١. السابق، ص٩٠.

٢. الضيم: الظلم إو الإذلال ونحوهما. كمد الرّجل: حزن حزناً شديداً.

٣. منعفر: انعفر الشيء: تترّب. مقصَّد: مقطع.

٤. السابق، ص٢١١.

٥. بدر: موقع دارت فيه معركة عنيفة بين المسلمين والمشركين. التبارز: البروز والمنازلة بالسيف ونحوه. الأقران: ج القِرن، والقرن للإنسان: مثله في الشجاعة والشدّة والعلم والقتال وغير ذلك.

**أخَـــذُوا الخِلافَـــةَ بَعْـــدَ ذَلِـــك فَلْتَـــةً وَاسْتَبْصَـــروا مَـــنْ لَـــيسَ ذا الإيمـــانِ**

فالشاعر يشير إلى شجاعة الإمام عليّ (ع) ومدى تضحيته في سبيل الإسلام وقصور مبغضيه في مواقف حرجة من تاريخ الإسلام، وأراد بهذا أن يثبت أحقيّة الإمام للخلافة بعد النبيّ (ص)، إلّا أنّ الذي حدث بعد استقرار الأمور لم يكن ما يتوقّعه الشاعر بل أخذوا الخلافة عن صاحبه غصباً، وإلى هذا أشار الحميرى في البيت الرابع وضمّنه قول الخليفة الأول بشأن الخلافة حيث قال: إنّها كانت فلتة وقانا الله شرّها.

ونرى الشاعر في مقطوعة أخرى يتطرّق إلى مسألة الخلافة من جديد ويناقشها ويوسّعها إلى عهود الراشدين الثلاثة ويتّهم اولئك الذين تغاضوا عن وصيّةِ النّبيّ بالخيانة والكفر معتقداً أنّ الخلافة يجب أن تبقى في البيت الهاشمي الذي هو أهل لها لا أن تستولي على شؤون المجتمع قبيلة الخليفة الأول، ويرى السيّد الحميري أنّ هذا التّصرف كان عدوانيّاً تمّ بواسطة الغصب والقوّة ولم يكن الشعب مرتاحاً وراغباً فيه. اسمعه يقول:[1]

**وَلَكِـــنَّهُم خَـــانُوا النَّبِـــيَّ وَأَسَّسُـــوا أمُـــورَهُم فِـــي المُسـلِمِينَ عَلَـى كفْـرِ**

**أجَـــاءَ نَبِـــيُّ الحَـــقِّ مِـــنْ آلِ هَاشِـــمٍ لِتَمْلِـــكَ تَـــيمٌ دُونَهُـــم عُقْـــدَةَ الأمـــرِ[2]**

**وَتُصْـــرفَ عَـــنْ أهْـــلٍ أتَـــمَّ أمُورَهَـــا وَتَملِكهَـــا بِالغَصْـــبِ مِـــنْهُم وَبِالقَسْـــرِ[3]**

**أفِـي حُكْـمِ مَـن هَـذا فَنَسْـمَعُ حُكمَـهُ لَقَـدْ صَـارَ عُـرْفُ الـدِّينِ مِـنْهُم إلَـى نُكـرِ**

(المصدر السابق ١١٣)

إنّ الشاعر يتّهم الخليفة الأول وقبيلته بخيانة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهذا أشدّ ما بلغ إليه الحميري في هجاء الخليفة الأول، ثمّ يتسائل إذا كان الرّسول الأعظم من بني هاشم فمن أين تسلّمت تيم عنان الأمور؟ فيجيب أنّ هذا الأمر لم يكن إلّا عن طريق الغصب والتّعسف، كما أنّه يصفهم بالكفر والرجوع عن الدين القويم، ويرى أنّهم غيّروا الأمور وجعلوها

---

١. السابق، ص٢١٩.

٢. تيم: قبيلة أبي بكر بن أبي قحافة.

٣. القسر: الإكراه.

على غيرٍ وبدّلوها إلى صورةٍ منكرة من صورتها المعروفة إلى صورتها المنكرة. وإذا قارنّا هذه المقطوعة بما ذكرناه سابقاً نرى الشاعر يستخدم فيها لساناً حاداً إذ يهجوهم بأنّهم خانوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهذا أقسى ما يوصف به أحدٌ والذعه. ونرى الشاعر يفسّر هجائه لقبيلة تيم بسوء رأيها قائلاً:

**فَنَحنُ بِسُوءِ رَأيِهِما نُعادِي بَنِي فَعَلَ وَلا نَهوَي عَدِيّا**

تتردّد حادثة الغدير كثيراً في شعره، فهي تعدّ سلاحه الملازم له في معركته الشعرية التي يخوضها من أجل إثبات ذلك الحقّ واسترداده من مغتصبيه، وإعادته إلى أصحابه الشرعيين. وله قصيدة عنوانها «يا شيعة الحقّ لا تجزعوا» تناول حادثة الغدير وكأنّه راوٍ يعيد حكاية الحادثة بتفاصيلها:

**ثُمَّ أتَتهُ بَعدَ ذا عَزمَةٌ مِن رَبِّهِ لَيسَ لَها مَدفَعُ**[1]
**بَلِّغْ وَإلّا لَمْ تَكُن مُبلِغاً وَاللهُ مِنهُم عاصِمٌ يَمنَعُ**
**فَعِندَها قامَ النَّبِيُّ الَّذي كانَ بِما يُؤمَر بِهِ يَصدَعُ**[2]
**يَخطُبُ مَأموراً وَفي كفِّهِ كفُّ عَلِيٍّ ظاهِرٌ يَلمَعُ**
**رَافِعُها أكرِمْ بِكَفِّ الَّذي يَرفَعُ وَالكَفِّ الَّذي تُرفَعُ**
**يَقُولُ والأملاك مِن حَولِهِ وَاللهُ فِيهِم شاهِدٌ يَسمَعُ**
**مَن كُنتُ مَولاهُ فَهذا لَهُ مَولىً فَلَم يَرضَوا وَلَم يَقنَعُوا**

يرى السيد الحميري أنّ الإمام عليّاً عليه السّلام هو الشخص الجاهز من أهل البيت بنصّ الرسول (ص) ليتسلّم المسؤوليّات بعد النّبيّ (ص) مباشرة، وما وقع بعد وفاته لم يكن نتيجة لعدم الاستعداد والإنذار المسبق وإنّما نتج عن الاجتهاد في الرأى والضّلالة:[3]

---

١. مدفع: رافض، رادّ.
٢. صدع الأمر: بيّنه وجهر به.
٣. السابق، ص١٢٩.

وَضَـلَّ قَـومٌ غَاضَـهُم فِعْلُـهُ ... كأنَّمـا آنـافُهُم تُجْـدَعُ[١]

حَتَّـى إذَا وَارَوْهُ فِـي قَبْـرِهِ ... وَانْصَـرَفُوا مِـنْ دَفْنِـهِ ضَـيَّعُوا

مَـا قَـالَ بِـالأمْسِ وَأَوْصَـى بِـهِ ... وَاشْـتَرَوا الضُّـرَّ بِمَـا يَنْفَـعُ

وَقَطَّعُـوا أَرْحَامَـهُ بَعْـدَهُ ... فَسَـوْفَ يُجْـزَوْنَ بِمَـا قَطَّعُـوا

وَأزْمَعُـوا غَـدْراً بِمَـولاهُمُ ... تَبّـاً لِمَـا كـانُوا بِـهِ أزْمَعُـوا[٢]

يهجو الحميرى اؤلئك المغتصبين بأنّهم ضيّعوا رسالة الرسول الأعظم (ص) وبذلك اشتروا الضرّ بدلاً بالهداية، ثمّ يهجوهم بقطع صلة الأرحام واستعمال الغدر والمكيدة. وأخيراً يهدّدهم بأنّهم يجزون من أجل ما عملوه ويدعو عليهم بالفناء.

من الناحية الشكلية نجد أنّ الهجاء في الأبيات السابقة قام على البساطة في التعبير كما أنّه ابتعد عن المعانى الغريبة والأخيلة البعيدة والملائمات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة، ومن جانب آخر ملئت المقطوعة المذكورة بألفاظ ذات دلالة هجائيّة حادّة مثل: ضيّعوا، اشتروا الضرّ، قطّعوا أرحامه، أزمعوا غدراً، تبّاً. ونرى الشاعر حينما سأله سائل «ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال: إنّي أقول شعراً قريباً من القلوب يلذّه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقّداً تضلّ فيه الأوهام».[٣] وقول السيّد السابق يعدّ الدليل الحقيقي على ما سبق من حديث والبرهان القاطع في حكمنا على لغته في هجائه السياسي.

والصفة البارزة في الهجاء السياسي عند السيّد الحميرى وخاصّة في هجاء الخلفاء هى المباشرة والخطابة. هذه الصفة قد أدّت إلى أن تفقد المقطوعات والقصائد الهجائية كثيراً من جماليتها لأنّ الشاعر بصدد خطاب جماهيري يستعرض الظروف السياسية ويعالج واقع المجتمع الإسلامي عبر أبيات مقطوعته أو قصيدته، فلذلك كان يهتم بالحدث أكثر من إهتمامه بالناحية الفنية كما أنه كان يحاول لفت أنظار الأُمة الى حقيقة ما يدور في الساحة

---

١. الآناف: ج الأنف. تجدع: تقطع.

٢. تبّاً: من تبّ الشيء. تبّاً: انقطع. وتبّ فلانٌ: خسر وهلك. أزمعوا: أسرعوا.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٣٨.

السياسية بأقصى درجات الوضوح ومن أجل ذلك ابتعد عن الأساليب المعقّدة إلى حدّ كبير. وجدير بالذكر أنّ الحميري «ينفجر أحياناً على مستوى السبّ وتلك ظاهرة يمكن أن تعزى إلى أنّه لايستطيع الخروج على تكوينه النفسي في ظلّ حكم كان أبرز خصائصه أنّه يستمرئ الشتم ويغري به ويجزي عليه»[١] كما نراه في المقطوعة التالية يهجو الخلفاء الرّاشدين لأنّهم قهروا الإمام عليّاً عليه السّلام وبَغَوا عليه وغصبوا حقّه في الخلافة. فيقول معلناً براءته منهم ومن الخوارج:[٢]

**بَرِئتُ إلَى الإلَهِ مِنَ ابنِ أروى ... وَمِنْ قَولِ الخَوارِجِ أجْمَعِينَا[٣]**

**وَمِنْ عُمَرٍ بَرِئتُ وَمِنْ عَتِيقٍ ... غَدَاةَ دُعِي أمِيرِ المُؤمِنِينَا**

جاء في الأغاني فُعل وفَعَيل بدلاً من عمر وعتيق، والشرّاح يذكرون أنّه يقصد بفعل وفعيل عمر وأبابكر.[٤] وله مقطوعة أخرى فيمن تولّى الخلافة بعد الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم:[٥]

**أتَرَى صِهَاكاً وَابْنَهَا وَابْنَ ابْنِها ... وَأبَا قُحَافَةَ آكِلَ الذِّبانِ[٦]**

**كَانُوا يَرَوْنَ وَفِي الأمُورِ عَجَائِبٌ ... يَأتِي بِهِنَّ تَصَرُّفُ الأزْمَانِ**

**أنَّ الخِلافَةَ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... فِيهِم تَصِيرُ وَهَيْبَةُ السُّلطَانِ[٧]**

وقف السيد الحميري من خلافة أبي بكر وعمر موقف المعارضة واتّخذت معارضته شكلاً سلبياً أحياناً كثيرة. يبدو هذا الجانب في انتقاده الدائم للخلفاء الثلاثة والتعليق على سياستهم

---

١. صادق، عبدالرضا. في أدب العراق الحديث دور الأدباء الشيعة، مراجعة وتقديم: حبيب صادق، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٣٨.

٢. الحميري، الديوان، ص٢٠١.

٣. بَرِئ منه: تباعد وتخلّى عنه. ابن أروى: عثمان بن عفّان الخليفة الثالث.

٤. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٧٦.

٥. الحميري، الديوان، ص٢١٤.

٦. صهاك اسم جدّة عمر بن الخطاب لأبيه وأبو قحافة والد أبي بكر.

٧. الذؤابة من كلّ شيء: أعلاه. ويقال: فلانٌ ذؤابة قومه: شريفهم والمقدّم فيهم.

خلال أشعاره ونقده لأعمالهم. والملاحظة الهامة التي تواجهنا في الشعر الشيعيّ إلى أيّام العباسيين هى أنّه كان حتّى خلافة هارون الرشيد منصرفاً إلى الجانب العاطفي وقلّما تناول الجانب الفكري فيه إلّا إذا استثنينا الكميت الأسدي، وبعبارة أخرى انصرف عن الجدل في موضوع الخلافة على مستوى السقيفة ـ وهو الموضوع الأساسي في الجانب الفكرى من عقيدة الشيعة إلى الحديث على مستوى العاطفة مدحاً ورثاءً. وهذا لايعني أنّ الأدب الشيعي لم يتطرّق إلى الجوانب الفكرية بل نريد أن نقول إنّ العاطفة كانت الطابع الغالب عليه، وقد ظلّ الحديث عن الخلافة واغتصابها يأتى من حين إلى آخر.

إنّ المقطوعات السابقة التي تحدّثنا عنها تدلّ بوضوح على أنّ السيد الحميري تدارك هذه المسألة ووصل ما انقطع إلى عهد الرشيد من الجدل حول الخلافة.

والظاهرة البارزة لهجاء الخلفاء عند الحميري هى ميله إلى السهولة المتناهية سواء ذلك في ألفاظه أم في وضوح معانيه وقربه من المتلقي وتحرره من الصنعة المتكلفة، لأنّ غموض الأسلوب وصعوبة الألفاظ «تجعل السامع يحتاج إلى وقت وجهد للوصول إلى غرض الشاعر وتضيّع على الهاجي غرضه من الهجاء».[١] وبعد دراسة شعر السيّد الحميري لم نجد شيئاً منه يهجو فيه عثمان الخليفة الثالث وعلّل أحد الباحثين ذلك بأنّ الإمام عليّاً عليه السّلام لم يكن ليقرّ أن يتجرّأ شاعر من الشيعة على الخلفاء مهما جار عن القصد أو أخطأ السبيل، وكان يبدو لهم أنّه لا يلبث وقد طعن في السنّ أن يموت وأن يشقّ عليّ من ثمّ طريقه إلى الحكم دون منازع ولهذا فقد ظلّ الشعر الشيعي محايداً لعثمان.[٢] لاشك أنّ الإمام (ع) منع الثوّار من الهجوم على الخليفة الثالث حتّى أنّه كان يرسل الطعام والشراب إليه كما ذكرته المصادر التاريخية إلّا أنّنا لا نعثر على شئ يصرّح أنّه منع الشعراء من نقده وهجائه فلذلك نعلّل تخلّي السيد عن هجاء عثمان بأنّه كان يعرّف الخليفة الأوّل السبب الرئيس في اغتصاب الخلافة

---

١. بدوي، أحمد أحمد. أسس النقد الأدبي عند العرب، الطبعة ٢، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٠م، ص٢٥٦.

٢. انظر: القاضي، النعمان. الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، د.ت، ص٣٢٤.

من صاحبها الحقيقي.

## الشاعر وواقعة الجمل

بعد أن توقف الثوّار بوجه الخليفة الثالث وقتلوه أسرع النّاس إلى بيت الإمام عليّ عليه السّلام وألحّوا عليه أن يقبل خلافة الأمّة الإسلامية حتّى يرشدهم إلى الطريق السويّ ممّا نقرأ تفاصيله في خطبة الشقشقية. فلمّا اختير الإمام (ع) للخلافة قام بأمرين مهمّين:

الأوّل: عزل ولاةَ عثمان وفي مقدّمتهم معاوية بن أبي سفيان وكان والياً على الشّام. والثاني: استردّ الإمام عليه السّلام الأموال والقطائع التي أعطاها عثمان أقاربه من بيت المال. وبهذا رفض رأى اولئك الذين طلبوا منه الاعتراف بالموقع المتميّز لولاة الأمصار ولاسيّما لمعاوية بالشام[1] لأنّه كان قد جاء لإصلاح ما حدث أيّام عثمان.

عيّن الإمام(ع) سهل بن حنيف والياً على الشام وبديلاً لمعاوية غير أنّ أهلها لم يسمحوا له بالدّخول، وبينما كان الإمام مشغولاً بهذه المعضلة فوجئ بمضيّ عائشة أمّ المؤمنين ومعها طلحة والزبير إلى البصرة، و «خروج هؤلاء جميعاً على خلافة عليّ كان من المرجّح أن يحدث ولكن سياسة عليّ الصارمة عجّلت فيه وقرّبت أوانه».[2] ولا شك أنّ سياسة الإمام الإصلاحية لم تعجب الزعماء والسّادة الذين حصلوا على الأموال والقطائع أيّام عثمان فلذلك كان من المنتظر أن ينضمّوا إلى عائشة وطلحة والزبير. اندفع هؤلاء يجمعون الأنصار ويدعون النّاس إلى قتال الإمام (ع) ثأراً للخليفة المقتول «فلم يكن بدّ للخليفة [الإمام عليّ ] الذي بويع واشترك في بيعته بعض هؤلاء [الزعماء وقادة حرب الجمل] من أن يلحق بهم. وقد فعل ذلك غير عازم على قتالهم، بل لحق بهم ليناظرهم ويدعوهم إلى الصلح عسى أن يثوبوا إلى الحقّ ويعودوا معه إلى المدينة. فقد سئل: أيّ شئ تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أمّا الذي نريد

---

١. انظر: الطبري، جـ ٥ ص٤٣٩.

٢. مغنية، حبيب. الشعر السياسي من وفاة الرسول (ص) إلى نهاية العصر الأموي، الطبعة ١، دار ومكتبة الهلال، ٢٠٠٩م، ص٥٥.

ونتوي فالإصلاح، إن قبلوا منّا وأجابونا إليه. فقيل له: فإن لم يجيبونا إليه؟ قال: ندعهم ما تركونا. قيل له: فإن لم يتركونا؟ قال: نمتنع عنهم».[١] وعندما لم يقبل هؤلاء دعوة الإصلاح ولم يتركوا عليّاً وشأنه بل أصرّوا على الحرب والقتال وكانت النتيجة إضرام نار الحرب، هنا نشاهد السيّد الحميري يهجو هؤلاء هجاءً سياسياً مدافعاً عن عليٍّ (ع). ويتميّز الهجاء السياسي عنده أحياناً كثيرة بالتركيز والإيجاز، فقد أظهر قدرةً فائقة وبراعة لغوية في إيصال أفكاره والتعبير عن معانيه ببيتين أو ثلاثة أبيات ليتمّ معناه ويبلغ مرامه من النظم، دون أن يجد نفسه مضطرّاً إلى المزيد من الألفاظ وهذا هو حدّ الإيجاز كما قال ابن الأثير: «حدّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه».[٢] للسيّد مقطوعة عنوانها "بايعتم ثمّ نقضتم"، قالها مخاطباً من خرج لقتال أمير المؤمنين عليه السّلام في واقعة الجمل:[٣]

| | |
|---|---|
| **وَبَيْعَةِ ظَاهِرٍ بَايَعْتُمُوهَا** | **عَلَى الإِسْلامِ ثُمَّ نَقَضْتُمُوهَا** |
| **وَقَدْ قَالَ الإِلهُ لَهُنَّ قِرْنَا** | **فَمَا قَرَّتْ وَلا أَقْرَرْتُمُوهَا** |
| **يَسُوقُ لَهَا البَعِيرَ أَبُوخُبَيْبٍ** | **لِحَينِ أَبِيهِ إِذْ سَيَّرْتُمُوهَا[٤]** |

فيهجوهم الشاعر بأنّ بيعتهم للإمام (ع)كانت ظاهريّة لم تتمّ عن إخلاص، ومن أجل ذلك انتهت بالنّقض والتّخلي عنها، ويشير إلى أنّ الله تعالى كان قد أمر نساء الرسول (ص) بالإقامة في بيوتهنّ إلّا أنّ عائشة عملت على خلاف أوامر الله ولم تَقرَّ في بيتها، ويهجو طلحة والزبير بأنّهما لم يطلبا منها بأن تقرّ في بيتها بل أضرما النّار وحرّضاها على الخوض في المعركة.

---

١. الحوفي، أحمد محمد. أدب السياسة في العصر الأموي، الطبعة ٥، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، د.ت، ص٣٣.

٢. ابن الأثير، ضياء الدين الجزري. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م، جـ ٢ ص٧٤.

٣. الحميري، الديوان، ص٢١٧.

٤. لحين أبيه: لعله من الحين بمعنى الهلاك، وتكون الكلمة للاستحقار.

من الناحية الفنيّة نلاحظ أنّ معاني الهجاء عند الحميري تتصل مباشرة بآيات قرآنية ووقائع تاريخية ثابتة، وقد عمد الشاعر إلى هذا الأمر لأنّه وجد في الآيات الكريمة تعبيراً صادقاً عمّا يريد قوله وهذا أورث كلامه وقاراً ورقّةً. يتّضح هذا الأمر في المقطوعة السابقة إذ نرى السّيد قد اقتبس من الآية القرآنية (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ).[1]

وإلى جانب هذا الأمر استخدم السيد في مقطوعته المذكورة من المحسّنات البديعية ما زادت من إيقاعيّتها إذ جانس بين «بيعة وبايعتم وبين قرن وقرّت وأقررتم». ونرى السيّد الحميري قد تناول في قصيدته البائية التي اشتهرت بين الباحثين والنّقاد بالمذهّبة أصحاب الجمل ومواقفهم المعادية من الإمام عليّ عليه السلام وخصّ خمسة عشر بيتاً منها بهجاء المعارضة وأعدائه. ونراه قد بدأ هجائه السياسي بنفي ولائه ومودّته للأمويين وأصحاب الجمل قائلاً:[2]

**أيـنَ التَّطَـرُّبُ بِـالْوِلاء وَبِـالهَوَى ... أإلَـى الكَـوَاذِبِ مِـنْ بُـرُوقِ الخُلَّـبِ**[3]

**أإلَـى أُمَيَّـةَ أمْ إلَـى الشِّـيَعِ الّتـي ... جـاءَتْ عَلَـى الجَمَـلِ الخِـدَبِّ الشَّوْقَبِ**[4]

إنّه بهذا الأسلوب الإستفهامي ينكر ولائه للأمويين أصحاب السلطة والجاه كما أنّه يبرّئ نفسه من حبّ أصحاب الجمل الذين خرجوا إلى البصرة بقيادة صاحبة جملٍ يتصف بالضخامة والطول. والحميري يثبت بهذا ولائه لآل البيت عليهم السّلام ويعلن في صراحةٍ أنّ الآمال الدنيوية والمظاهر المادّية لم تؤثر في الرسالية التي اختارها لنفسه. ثمّ يهجو عائشة ومن معها قائلاً:[5]

---

١. الأحزاب، الآية: ٣٣.

٢. الحميري، الديوان، ص٣٨.

٣. البروق: ج البرق. الخلّب: السّحاب يومض برقُه حتى يُرجى مطره، ثمّ يُخلف ويتقشّع.

٤. الشيع: ج الشيعة: الفرقة والجماعة. الخدبّ: الضخم. الشوقب: الطويل.

٥. السابق، ص٣٨.

تَهـوِي مِـنَ البَلَـدِ الحَـرَامِ فَنَبَّهَـتْ بَعْـدَ الهُـدُوِّ كـلابَ أهْـلِ الحَـوْأبِ[١]
يَحْـدُو الزُّبَيْـرُ بِهـا وَطَلْحَـةُ عَسْـكَراً يـا لَلرِّجـالِ لِـرَأيِ أُمٍّ مِشْـجَبِ[٢]

يشير السيّد في هذين البيتين إلى مسير عائشة من مكة إلى البصرة ويذكر أنّه لمّا وصل موكبها إلى قرية تسمّى الحوأب بدأت كلاب القرية تنبح حول الجمل عليها، وهنا نلاحظ أنّه ضمّن هجائه ما روى عن الرسول (ص) حول خروج بعض أمهات المؤمنين حيث قال الرسول (ص) مخاطباً عائشة: «انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت»[٣] كما أنّه يشير إلى الآية القرآنية التي نزلت في هذا الأمر (إنّ الّذين لايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكبُونَ).[٤] ثمّ يشير إلى أنّ طلحة والزبير كانا يسوقان جملها إلى قتال الإمام عليّ عليه السّلام ويلومهما من أجل اتّباعهما رأى عائشة الذي كان مهلكاً. لاشك أنّ طلحة والزبير وعائشة وقفوا إلى جانب معسكر الشرك والجاهلية الذي قادهما الأمويون واشتركوا في حرب الإمام عليّ (ع) فلذلك يهجوهما بأنّ الشقاء كان سبباً في سقوطهما في ورطة الهلاك: يقول:[٥]

يـا لَلرِّجـالِ لِـرَأيِ أُمٍّ قادَهـا ذِئبـانِ يَكتَنِفانِهـا فـي أذْؤبِ[٦]
ذِئبـانِ قادَهُمـا الشَّـقاءُ وَقادَهـا لِلحَـيْنِ فَأقْتَحَمـا بِهـا فـي مِنْشَـبِ[٧]
فِـي وَرْطَـةٍ لَحَجـا بِهـا فَتَحَمَّلَـتْ مِنهـا عَلَـى قَتَـبٍ بِـإثْمٍ مُحْقَـبِ

شبّه الشاعر طلحة والزبير بذئبين وحمّلهما مسؤولية الأمر لأنّهما ساقاها إلى الهلاك

---

١. الحوأب: بئر من مياه العرب نزلته عائشة حين ذهبت إلى البصرة في وقعة الجمل.

٢. مشجب: مهلك.

٣. الأمين، ج ٤ ص١٥٤.

٤. المؤمنون، الآية: ٧٤.

٥. الحميري، الديوان، ص٣٨.

٦. أذؤب: ج الذئب.

٧. الحين: الهلاك. المنشب: من نشب في الشئ إذا دخل فيه وعلق به كما ينشب الصيد في الحبالة. الورطة: الهلاك. لحجا بها: كعلما أى نشبا بها. القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير. المحقب: من حقب الشيء: حَقْباً: احتبس وامتنع. يقال: احتقب الإثم: ارتكبه. والمراد في البيت هذا المعنى.

وسبّبا وقوعها في شباكهما والدخول في مستنقع الموت. والحقّ أنّ الشاعر كان محقّاً في هجائهما لأنّهما «كانا مضطربي السلوك السياسي، فقد بايعا عليّاً ثمّ طمعا في الأمر واتّخذا موقف عائشة سنداً لهما وصانعا الأمويين على غير بصيرةٍ وانتهى الأمر بقتلهما جميعاً».[١]

ويبدو أنّ معاوية أكد على طلحة والزبير أن يستغلّا عداء عائشة للإمام عليّ (ع) ويحملاها إلى البصرة، ورحّبت عائشة بهذه الفكرة وانضمّت إليهما وكان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى أنّ وجودها بين المتمردين يثير الرأى العام ويحرّك الجماهير ويحثّهم على الانضمام إلى المتمردين بصفتها زوجة للنبيّ وابنة للخليفة الأول. فلذلك عاد من جديد إلى عائشة وشبّهها بأمٍّ تغري أقاربها على إيذاء ابنها:[٢]

**أمٌّ تَدِبُّ إلى ابنِها وَوَلِيِّها ... بالمُؤذِياتِ لَهُ دَبيبَ العَقْرَبِ**[٣]

ولمّا رأى الزبير أنّ السيوف برقت وأنّه وقع في أزمةٍ حرجة عاد وفرّ من ساحة المعركة، وإلى هذا يشير الحميري في البيتين التاليين:[٤]

**أمّا الزُّبَيرُ فَحاصَ حينَ بَدَتْ لَهُ ... جَأواءُ تَبرُقُ فِي الحَديدِ الأشهَبِ**[٥]

**حَتَّى إذا أمِنَ الحُتُوفَ وَتَحتَهُ ... عَارِى النَّواهِقِ ذو نَجاءٍ مُلْهِبِ**[٦]

وأمّا مصير طلحة فلم يكن بأحسن من الزبير فلقي حتفه بين الرماح والأسنّة:[٧]

---

١. الشايب، أحمد. تاريخ الشعر السياسي، ص١٧١.

٢. الحميري، الديوان، ص٣٨.

٣. دبَّ: سرى، يقال: دبّت عَقاربُه: أى سرت نمائمه وأذاه.

٤. السابق، ص٣٨.

٥. حاص: عدل وحاد. الجأواء: الكتيبة التي يضرب لونها إلى السواد من صدأ الحديد. الأشهب: الأبيض يتخلله سواد.

٦. النواهق: العظمان الشاخصان من ذي الحافر في مجرى الدمع أى عارى النواهق من اللحم ويحمد في الفرس أن يكون قليل لحم الخدين. النجاء: الإسراع. ملهب: سريع العدو.

٧. السابق، ص٣٨.

**وَاْغْتُرَّ طَلحَةُ عِندَ مُخْتَلِفِ القَنا عَبْلُ الذِّراعِ شَديدُ أصْلِ المَنْكِبِ**[١]
**فَاْخْتَلَّ حَبَّةَ قَلْبِهِ بِمَذَلَّقٍ رَيَّانَ مِنْ دَمِ جَوْفِهِ المُتَصَبِّبِ**[٢]

ويرى الشاعر أنّهم كانوا في زمرة المارقين الذين فارقوا طريق الهداية وضلّوا في متاهات العداوة لأهل البيت عليهم السّلام:[٣]

**في مارِقينَ مِنَ الجَماعَةِ فارَقُوا بابَ الهُدَى وَحَيا الرَّبيعِ المُخْصِبِ**[٤]

فالشاعر يظهر في هجائه تشيعاً وانحيازاً للإمام عليّ وللعلويين، والألفاظ الدالة على ذلك واضحة وبينة:[٥]

**خَيرَ البَرِيَّةِ بَعدَ أحْمَدَ مَنْ لَه مِنّي الهَوَى وَإلى بَنيهِ تَطَرُّبي**

ومما يلحظه الدارس في اللوحات الهجائية التي رسمها الحميري لأصحاب الجمل أنّها تتميّز بالصدق والبساطة والبعد عن التعقيد، كما أنّنا نلاحظ أنّه استمدّ مضامينه من التعاليم الإسلامية ومتأثراً بالقرآن في ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية.

كانت المعركة بين الإمام عليّ عليه السّلام وأصحاب الجمل عنيفة فرّ منها الزبير بن العوّام وسافر قاصداً المدينة، لكنّ شخصاً يدعى عمرو بن جرموز قتله غدراً بمحلّ يسمّى وادي السّباع ونطع رأسه وحمله إلى الإمام عليّ عليه السّلام.[٦] أثّر فراق الزبير الجمع في طلحة فبدأ يفكر في كراهة عمله فندم على وجوده بين المعارضين للإمام عليّ (ع) ثمّ أراد الامتناع عن الحرب وفي هذا الوقت «اغتنم الفرصة صاحب الفتنة مروان بن الحكم ورماه بسهم

---

١. اغترّه: طلب غرّته. عبل الذراع: ضخمها. المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

٢. اختلّ: دخل في خلل قلبه.

٣. السابق، ص٣٨.

٤. الحيا: المطر.

٥. السابق، ص٣٨.

٦. غالب الطويل، محمد أمين. تاريخ العلويين، مطبعة الترقي، اللاذقية، ١٩٢٤م، ص٩٩.

فجرحه».[١] فذهب طلحة إلى البصرة مجروحاً وأنشد عند دخولها هذه الأبيات:[٢]

فَإنْ تَكنِ الحَوادِثُ أقْصَدَتْنِي ... وَأخْطَأهنَّ سَهمِي حِينَ أزمِي

فَقَد ضُيِّعْتُ حِينَ تَبِعتُ سَهْماً ... سَفَاهاً ماسُفِهْتُ وَضَلَّ حِلْمِي

نَدِمْتُ نَدامَةَ الْكسَعِيِّ لَمّا ... شَرَيْتُ رِضَى بَنِي سهمٍ بِرَغمِي

أطَعْتُ لِفرقَةِ آلِ لأيٍ ... فَألْقوا لِلسِّباعِ دَمِي وَلَحْمِي

هذه الأبيات اعتراف سافر من المعارضة يدلّ دلالة واضحة على ضلالة أصحاب الجمل، كما أنّها تدلّ على أنّ السيّد الحميري كان محقّاً في هجائهم.

## الشاعر وعائشة

ذكرت المصادر التاريخية أنّ طلحة والزبير وعائشة كانوا من أشدّ المعارضين للإمام عليّ عليه السّلام، أمّا عائشة فكان أهون عليها أن تطبق السماء على الأرض من أن تؤول الخلافة إلى الإمام عليّ عليه السّلام[٣] و«كان معروفاً أنّ عائشة رحمها الله لم تكن تحبّ عليّاً ولا تهواه، بل كان معروفاً أنّها كانت تجد عليه موجدةً شديدة».[٤]

ولقد قرّر طلحة والزبير نقض بيعتهما للإمام عليّ والالتحاق بالسيّدة عائشة عندما لم يستجب لطلبهما بإعطاء كلّ منهما ولاية من الولايات. كان أحد الشعراء[٥] لقي عائشة في طريقها إلى مكة للانضمام إلى المعارضين وجرى بينهما حديث قالت فيه "قتل والله عثمان مظلوماً واللهِ لأطلبنّ بدمه. فأجابها: ولِمَ؟ فوالله إنّ أوّل من أمال حرفه لأنتِ. فقد كنتِ تقولين: اقتلوا نعثلاً[٦] فقد كفر. فقالت: إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه. فقال الشاعر:[١]

---

١. السابق، ص٩٩.

٢. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢ ص٢٤٦.

٣. الطبري، جـ ٤ ص٤٧٧-٤٧٨.

٤. حسين، طه. الفتنة الكبرى علي وبنوه، الطبعة ١٢، دار المعارف، القاهرة، ص٢٥.

٥. قيل: هو ابن أم كلاب، وقيل هو عمّار بن ياسر (انظر: القاضي ٣٢٧).

٦. النعثل: الذكر من الضباع، والشيخ الأحمق. تقصد به الخليفة الثالث.

فَمِنْكَ البَداءُ وَمِنكَ الغِيَرُ | وَمِنك الرِياحُ وَمِنك المَطَر[٢]
وَأنتِ أمَرْتِ بِقَتْلِ الإمامِ | وَقُلْتِ لَنا إنَّهُ قَدْ كفَر
فَهَبْنا أطَعْنَاك فِي قَتْلِهِ | وَقَاتِلُهُ عِندَنا مَنْ أمَر

ونعرف مما سبق أنّ الحميري لم يكن الشاعر الوحيد الذي هجا أصحاب الجمل، بل يبدو من دراسة المصادر التاريخية الأدبية أنّ شعراء آخرين تناولوهم بالهجاء ولم يكونوا من الشيعة. نرى شاعراً اسمه جارية بن قدامة السعدي يندّد بما فعل طلحة والزبير من إخراج عائشة لقتال الإمام عليّ (ع) في حين أنّ الله تعالى أمرها أن تقرّ في بيتها:[٣]

صُنْتُم حَلائِلَكم وَقُدْتُم أمَّكُم | هذا لَعَمْرُك قِلَّةُ الإنْصافِ[٤]
أمِرَتْ بِجَرِّ ذُيُولِها في بَيْتِها | فَهَوَتْ تَشُقُّ البِيدَ بالإيجافِ[٥]
غَرَضاً يُقاتِلُ دُونَها أبناؤُها | بِالنَّبْلِ وَالخَطِّيِّ وَالأسْيافِ[٦]
هُتِكَتْ بِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ سُتُورُها | هذا المُخَبَّرُ عَنْهُم وَالكافِي[٧]

كما أنّنا نرى شاعراً آخر يسمّى عمرة بن بحرة يلوم عائشة على خروجها للقتال وتحريضها على سفك الدّماء، ويخاطبها بأنّه أعقّ أمّهات رآها إذ تغذو الأمّ الحنون أولادها وتعطف عليهم وترحمهم وتؤدّي مسؤولية الأمّ:[٨]

يا أمَّنا أعَقَّ أمٍّ نَعْلَمُ | وَالأمُّ تَغْذو وَلَداً وَتَرْحَمُ

---

١. الطبري، جـ ٣ ص٤٧٧.

٢. البداء: ظهور الرأى بعد أن لم يكن. ويقال: بدا لي في هذا الأمر بداء، أى ظهر لي فيه رأى آخر.

٣. السابق، جـ ٣ ص٤٨٢.

٤. حلائلكم: نساءكم. أمّكم: يعني عائشة.

٥. البيد: ج البيداء: الفلاة. الإيجاف: الإسراع. يشير إلى الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾.

٦. الخَطّي: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح الخطيّة لأنّها تباع به.

٧. السّتر: الحياء.

٨. السابق، جـ ٣ ص٢٥٦.

**ألا تَـــرَيْنَ كَـــمْ شُـــجاعٍ يُكلَـــمُ وَتُخْتَلَـــى مِنْـــهُ يَـــدٌ وَمِعْصَـــمُ**[١]

وبهذا يتضح موقف عائشة العدائي من الإمام عليّ عليه السلام وما تضمره من حقد له. والسيّد الحميري بوصفه شاعراً سياسياً ينتمي إلى الشيعة اتّخذ موقفاً متشدّداً حيال عائشة أمّ المؤمنين لأنّها دعمت المعارضة، فنراه يهجوها ببيتين اثنين:[٢]

**جـاءَتْ مَـعَ الأشْـقَيْنِ فِـي هَـوْدَجٍ تُزْجِـي إلَـى البَصْـرةِ أجْنَادَهَـا**[٣]

**كأنَّهَـا فِـي فِعْلِهَـا هِـرَّةٌ تُرِيـدُ أنْ تَأكـلَ أوْلادَهَـا**

فالصورة التي رسمها الشاعر لمهجوّته مزرية فقد جعلها قائدةً تسوق جنودها إلى ساحة الحرب، وجعل جنودها من الأشقياء لأنّ الحرب تنتهي بموتهم فشبّه عائشة قائدتهم بهرّةٍ وذهب إلى أبعد من ذلك في تحقيرها والإزراء بها حين جعلها تريد أن تأكل أولادها. يبدو أنّ الحميري سلك ضرب التندر والسخرية إذ نجده يسخر من مهجوته بأسلوب يثير الضحك. وتمتاز هذه الصور التي رسمها الشاعر بكثرة الصورة إذ تتلاحق الصور فيها كما أنّنا نلمس صورة قصصية إذ استخدم بعض عناصر القصّة في المقطوعة المذكورة مثل الحدث والشخصيّات والمناظر المتتالية بحيث تتألف من مجموعها صورة تنمّ عن حساسية فنيّة مرهفة، واستطاع الشاعر أن ينسّق بين الصور حتى تبدو مجموعة الصور في النّهاية كأنّها لوحة مركبة.

وقد ذكر كثيرٌ من المصادر أنّ شعر السيّد ضاع وماتت شهرته واندثرت أخباره وقبر في زوايا النسيان وذلك لأنّ شعره حوى كثيراً من السبّ للصحابة فهجره النّاس خوفاً على أنفسهم من الكفر. قال صاحب الأغاني: «وإنّما مات ذكره وهجر النّاس شعره لما كان يفرط فيه من سبّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأزواجه في شعره وما يستعمله من قذفهم والطعن

---

١. يكلم: يجرح. تختلي: تُقطَع.

٢. الحميري، الديوان، ص٧٩.

٣. الأشقين: هما طلحة والزبير اللّذان حضّا عائشة على الخروج لقتال الإمام عليّ عليه السّلام. تزجي: تسوق وتدفع برفق. الأجناد: جمع الجند، العسكر.

عليهم».[1] والذي يرى الدّارس أنّ شعر الحميري لم يتضمّن سبّ الصحابة وسبّ أزواج الرسول (ص) بل أنّ ما نراه في شعره يمثّل موقف صاحبه السياسي إزاء المعارضة التي نكثت ما اتّفقت عليه. وبرأينا أنّ الشاعر إذا يهجو عائشة إنّما يهجوها باعتبار انضمامها إلى الجبهة المعادية للإمام عليّ عليه السّلام، لأنّها وقفت بجانب أعدائه إذ تورّطت في نزعاتٍ سياسية واستغِلّت لمآرب الطامعين في الحكم وخرجت من بيتها إلى ميدان القتال. ولابدّ أن نذكر أنّ هناك فرقاً بين أن يطعن الشاعر أحداً دون سبب خاص وبين أن يكون وراء ذلك منهج فكري وسياسي، فهجاء السيّد نابع عن فكرته السياسية الخاصة التي تؤيّد الإمام علياً عليه السّلام وتقف أمام المناهج المناهضة له.نحن نلاحظ في هجاء السيّد الحميري لعائشة أنّه يتميّز ببعض ميزات:

أـ إنّ الحميري رغم سهولة لغته المستخدمة في الهجاء السياسي وبساطتها لم يبتعد من الانفتاح على التراث الديني وتوظيفه في تصوير مهجوّته، فاستوحى من نصوص القرآن والأحاديث النبوية ومعانيها ما يخدم غرضه، ولعلّ ذلك التأثر بنصوص القرآن والحديث ناجم عن اتصاله بموروثه الأدبي شعراً أو نثراً والاستفادة منه في تحقيق مقاصده. تتجلّى هذه الميزة في قصيدته النونية التي أنشدها في مديح الإمام عليّ (ع) والتي خصّ فيها سبعة أبيات بهجاء عائشة وخروجها لقتال أمير المؤمنين وندمها بعد ذلك. يقول:[2]

**أعائِشُ ما دعاك إلى قِتالِ الـ ... ـوَصِيِّ وَما عَلَيهِ تَنْقِمينا**

**أَلَمْ يَعْهِدْ إلَيك اللهُ أنْ لا ... تُرَىْ أبَداً مِنَ المُتَبَرِّجينا**

**وَأنْ تُرْخِي الحِجَابَ وَأنْ تَقَرِّي ... وَلا تَتَبَرَّجِي للنَّاظِرِينا**

**وَقَالَ لَك النَّبِيُّ أيا حُمَيرا ... سَيُبْدَي مِنْك فِعلُ الحَاسِدِينا**

**وَقَالَ سَتُنْبِحِينَ كِلابَ قَوْمٍ ... مِنَ الأعرَابِ وَالمُتَعَرِّبِينا**

**وَقَالَ سَتَرْكَبِينَ عَلَى خِدَبٍّ ... يُسَمَّى عَسْكراً فَتُقَاتِلِينا**

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٥٥.

٢. الحميري، الديوان، ص٢٠٢.

**فَخُنْتِ مُحَمَّداً فِي أقْرَبيهِ      وَلَمْ تَرْعَىْ لَهُ القَولَ الرَّصِينا**

فبلغ الشاعر قمّة هجائه السياسي حينما ناظر عائشة بهذه الأبيات ودخل معها في جدال هادئ حول سبب خروجها على خلافة الإمام عليّ عليه السّلام ومشاركتها أصحاب الجمل في مقاتلته. تتصل معاني الهجاء في المقطوعة المذكورة من الناحية المعنوية مباشرة بآيات القرآن وأحاديث الرسول الأعظم(ص) إذ ضمّن السيّد شعره بعض الآيات وكثيراً من الأحاديث التي ذكرتها كتب الحديث. يخاطب الشاعر عائشة ويؤنّبها لمعارضتها الإمام عليّ عليه السّلام وخروجها في زينتها ثمّ يتسائل عنها: ألم يتّخذ الله على نساء الرسول(ص) أن يقرن في بيوتهنّ ولا يخرجن متبرّجات؟ فالبيت الثاني والثالث متأثر بقوله تعالى(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ).[١] والأبيات الرابع والخامس والسادس تشير إلى ما روى عن الرسول (ص) عن تنبّؤه من قتال عائشة الإمام عليّاً (ع).

ب ـ إنّ الحميري اعتمد في هجائه لعائشة على التاريخ اعتماداً كبيراً إذ نراه يشبه مؤرخاً يصور معايب خصومه، هذا من جانب، ومن جانب آخر نراه عندما يناقش المسائل، يناقشها في ضوء الدّين ويذهب في هذا التفكير والمعتقد إلى أبعد حدوده فلا يتحرّج من أن ينقد شخصاً له حرمة وقداسة كعائشة زوجة الرسول الأعظم ويهجوها في عنف.

ج ـ لم يكن الحميري في هجائه يبغي الشرّ دائماً وإنما يتخذه في بعض الأحيان طريقاً للإصلاح أو للتعبير عن شعور إنسانى نبيل، وإن كان يمزجه باللوم والتأنيب. والمقطوعة المذكورة خير مثال على ما ندّعي.

## الشاعر والقاعدون عن بيعة الامام(ع)

لمّا اختير الإمام عليّ(ع) للخلافة امتنعت فئة من المهاجرين والأنصار من المبايعة للإمام عليّ عليه السّلام أمثال عبدالله بن عمر، سعد بن أبى وقّاص، حسّان بن ثابت، زيد بن

---

١. الأحزاب، الآية: ٣٣.

ثابت، أسامة بن زيد، محمد بن مسلمة، كعب بن مالك وعبدالله بن مالك.[١] كان هـؤلاء ممّـن قال الإمام فيهم: «خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل».[٢]

ويرى بعض الباحثين أنّ البيعة للإمام كانت بيعة عامّة لم يتخلّف أحـد عنهـا، فعلـى هـذا الأسـاس أقـرّت تلـك الجماعـة لحكومـة الإمـام وإن تخلّفـت عـن مصـاحبة الإمـام (ع) فـي الحروب.[٣] وسمّى هؤلاء بالقاعدين لأنّهم قعدوا واتّخـذوا سياسـة المحايـدة حيـال الإمـام (ع) والمعارضين له.على أىّ حال لم يشكل هؤلاء القاعدون خطراً يـذكر لحكومـة الإمـام (ع) بـل كان قعودهم سبباً لاحتجاج الآخرين.لم يجبر الإمام عليّ (ع) أحداً علـى المبايعـة ولـم يعـتنِ بمعارضة أمثال حسّان بن ثابت وعبدالله بن ثابـت، وكـان يقـول لمـن يريـد أن يجبـرهم علـى البيعة: «لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا».[٤]

وبالنسبة إلى هذه الفئة نرى الهجاء السياسي عند الحميري من خلال المقارنة والمفاضلة بين الإمام عليه السلام وأعدائه تنتهي إلى ترجيح كفّة الإمام (ع) وتبرز المقارنـة إيـذاءً وإيلامـاً شديداً بالمهجوّ. وقد عدّ أسلوب الهجاء بالموازنة والمفاضلة عند القدماء من أشدّ الهجاء[٥] كمـا نلاحظه في القصيدة التالية التي يعرّض فيها بمن تخلّف عن بيعة الإمـام علـيّ عليـه السّـلام وقعد عن نصرته. اسمعه يقول:[٦]

**سَـائِل قُرَيْشَـاً بِهَـا إنْ كنْـتَ ذَا عَمَـهٍ ... مَـنْ كَـانَ أَثْبَتَهَـا فِـي الـدِّينِ أَوْتَـادَا[٧]**
**مَـنْ كَـانَ أَقْـدَمَها سِـلْماً وَأكثَرَهَـا ... عِلْمَـاً وَأَطْهَرَهَـا أَهْـلاً وَأَوْلَادَا**

---

١. الطبري، جـ ٣، ص٤٥٢.
٢. نهج البلاغة، الحكمة ١٨.
٣. ابن أبي الحديد، جـ ٤ ص١٠٩.
٤. السابق، جـ ٤ ص٩.
٥. ابن رشيق، جـ ٢ ص١٧٠.
٦. الحميري، الديوان، ص٧١.
٧. عمه في الأمر: لم يَدرِ وجه الصّواب فيه.

مَــــنْ وَحَّــدَ اللــهَ إذْ كانَــتْ مُكذِّبَــةً     تَـــدْعُو مَـــعَ اللــهِ أوْثَانَــاً وَأنْــدَادَا[١]

مَـنْ كـانَ يَقْـدِمُ فِـي الهَيْجَـاءِ إنْ نَكلُـوا     عَنْهَــا وَإنْ بَخِلُــوا فِــي أزْمَــةٍ جَــادَا[٢]

مَــنْ كــانَ أعْــدَلها حُكمَــاً وَأقْسَــطَها     فُتْيَــاً وَأصْــدَقَها وَعْــداً وَإيعَــادَا

إذَا أتَـــى مَعْشَــراً يَوْمــاً أنَــامَهُم     إنَامَــةَ الــرِّيحِ فِــي تَــدْمِيرِها عَــادَا

إنْ يَصْــدُقُوك فَلَــنْ يَعْــدُو أبَــا حَسَــنٍ     إنْ أنــتَ لَــمْ تَلْــقَ لِلأبْــرارِ حُسَّــادَا

إنْ أنـتَ لَـمْ تَلْـقَ مِـنْ تَـيْمٍ أخَـا صَـلَفٍ     وَمِــنْ عَــدِيٍّ لِحَــقِّ اللــهِ جَحَّــادَا[٣]

أوْ مِــنْ بَنــي عَــامِرٍ أوْ مِــنْ بَنِــي أسَــدٍ     رَهْــطِ العَبِيــدِ ذَوِي جَهْــلٍ وَأوْغَــادَا[٤]

أوْ رَهْــطِ سَــعْدٍ وَسَــعْدٌ كــانَ قَــدْ عَلِمُــوا     عَــنْ مُسْــتَقِيمِ صِــرَاطِ اللــهِ صَــدَّادَا[٥]

قَـــوْمٌ تَــدَاعَوا زَنِيمَــاً ثُــمَّ سَــادَهُم     لَــوْلا خُمُــولُ بَنِــي زُهْــرٍ لِمَــا سَــادَا

أنت تلاحظ أنّ أبيات السيّد السابقة بعيدة كلّ البعد عن كلّ تكلّف وتعقيد، وألفاظها قبل معانيها مفهومة واضحة مع الاحتفاظ بفصاحة اللغة برغم الأسلوب النثرى الغالب عليها، والناظر في هذه الأبيات يلاحظ من أول نظرة أنّ السيّد لم يهتمّ بحكم سامعه سواء كان بالجودة أم بالركاكة بقدر ما يودّ اقناع سامعه بأحقّيّة الإمام علي (ع) وتأكيد هذه الوصية.

والأبيات السابقة ليست مدائح للإمام عليّ عليه السّلام بالمعنى المتعارف عليه في المديح وإنّما هى حجاج له ودفاع عن حقّه إذ يخاطب الشاعر في الأبيات الخمسة الأولى الناكثين الذين نكثوا عهودهم ويقول إنّكم إن لم تستطيعوا تمييز وجه الصواب فاَسألوا من قبيلة قريش

---

١. الأوثان: ج الوثن، وهو التمثال يُعبد سواء أكان من خشب أم حجر أم غير ذلك. الأنداد: ج النّد وهو المثل والنظير.

٢. الهيجاء: الحرب الضروس. نكلوا: انهزموا. الأزمة: الضيق والشدّة.

٣. تيم: قبيلة طلحة بن عبيدالله وعديّ قبيلة عبدالله بن عمرو. الصّلف: يقال صلف صلفاً أى تمدّح بما ليس فيه أو عنده وادّعى فوق ذلك إعجاباً وتكبّراً.

٤. بني عامر: اسم قبيلة لابدّ أنّ أحد أفرادها الذين نكثوا بيعة الامام عليّ عليه السلام. بني أسد: هم قبيلة الزبير بن العوام الذي نكث بيعة أمير المؤمنين. الأوغاد: ج الوغد وهو الأحمق الدّنيء الرّذل.

٥. أى سعد بن أبي وقاص. الصدّ: الإعراض والصدوف.

فهى تجيبكم عن أثبتها في الدين وأقدمها سلماً وأطهرها أسرةً، ثمّ هى تجيبكم عن أكثرها توحيداً بينما كانت هى تكذّب وتعبد الأصنام وتجعل لله أنداداً وتعرّفكم شجعانها وأشدّها عدلاً وصدقاً.ثمّ أشار إلى شجاعة الإمام في ساحات الحرب وأنّه يبيد الأعداء إبادة الريح قوم عاد.

يرى الشاعر أنّ الإمام علياً أحقّ شخص ينبغي أن تصير الخلافة إليه ومن هنا يتّهم المعارضة بحسد الإمام وبأنّهم كانوا يجحدون الله سبحانه وتعالى ذاكراً القبائل المناوئة له مثل تيم وعديّ وبنى عامر وبنى أسد وبني زهرة. وقد بلغ الشاعر في الأبيات الأربعة الأخيرة ذروة الهجاء حيث هجا تيماً وعدياً بإنكار الله تعالى ثمّ هجا بني عامر وبني أسد بالجهل وبأنّهم أوباش وشرذمة قليلون وهجا قبيلة سعد بن أبي وقّاص بانحرافهم عن جادّة الحق وصدودهم عنه كما هجا قبيلة بني زهرة بالزنا.

اعتمد الحميرى في بعض مقطوعاته الهجائية على الأسلوب القصصي وذلك تقنية وظّفها بعض شعراء هذا العصر في هجوهم بقصد تحطيم مهجوّيهم وإلصاق العيوب بهم وكشف جوانب النقص فيهم. ويبدو أنّ اتساع هذا الأسلوب لتفصيل الكلام ولقربه من طريق المحادثة والقصة لما يحتمله من قول وردّ وسؤال وجواب وحوار ونقاش، هو الذي حمل الهجائين على اتّخاذه سبيلاً لفنية الهجاء.

ولابدّ أن نذكر أنّ الحميري اتّخذ السرد القصصي وحده دون الحوار في بناء حكاياته القصصية بصورة متسلسلة تتصاعد أحداثها فتجعلها أكثرا اقتراباً لسامعها من ناحية وأشدّ إيذاءً واحتقاراً للمهجوّ من ناحية أخرى إلى جانب بلوغه إلى هدفه في التشهير والسخرية اللاذعة من خصمه. هذه القصيدة القصيرة يمكن إيراد خواصّها الفنية في النقاط الآتية:

١ـ بدأ الشاعر الأبيات الخمسة الأولى من قصيدته بأسلوب استفهامي يقصد منه التقرير ولفت انتباه المعارضة إلى أحقيّة الإمام (ع). ونراه قد كرّر "من كان" في ثلاثة منها وهذا ما زاد من إيقاعيّتها وجمالها الشكليّ.

٢ـ والملاحظة البارزة أنّ الشاعر في هذه القصيدة اتّجه اتجاهاً قبليّاً واضحاً وإن كان هو

إسلاميّاً، والقصيدة بمعانيها وإيقاعها وبألفاظها وأسلوبها تكاد تكون خالية من الخيال إذ وجّه الشاعر معانيها وجهةً شعورية ونفسية مختلفة عن أىّ وجهة يتّجه إليها شعرٌ آخر.

٣ـ جاءت هذه القصيدة صاخبةً أشبه بالخطابة لأنّها تكون هى والخطابة من وادٍ واحد إذ تقوم بوظيفتها وتعتمد على قوّة الشعور وصدق العقيدة ويقين الإقناع.

## الشاعر والخوارج

نحن لانريد أن نفصّل هنا في تاريخ الخوارج وآرائهم في الحكومة والسياسة فلذلك كتبه ومواطنه الخاصّة به، وحسبنا أن نذكر شيئاً يسيراً عن تسميتهم ونشأتهم.

يكاد يجمع جمهور الباحثين المعاصرين الذين تحدّثوا عن الخوارج على أنّ واقعة التحكيم هى نقطة البدء في نشأة الخوارج وظهورهم في الساحة الدينية والسياسية، إلّا أنّهم ذكروا في تسميتهم أسماء متضاربة، فمنهم من سمّاهم بالخوارج اعتماداً على الآية (وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيتِهِ مُهاجِرَاً إلى اللهِ وَرَسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكهُ المَوْتُ فَقَد وَقَعَ أجْرُهُ عَلى اللهِ).[1] ومنهم من سمّاهم بالمحكمة لقولهم"لا حكم إلا لله" ومنهم من سمّاهم بالحرورية وهى قرية خرجوا إليها في بداية أمرهم، وقد يسمّون الشُّراة من شَرَى بمعنى غضب أو لأنّهم شروا أنفسهم ـ أى باعوها ـ لله تعالى أخذاً من الآية الكريمة ( وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ)[2] لأنّ طابع نشاطهم كان الجهاد في سبيل الله.[3]

لمّا تولّى الإمام عليّ عليه السّلام الخلافة سنة ٣٥ه ثار في وجهه بعض المسلمين ممّن لم يبايعوه كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعائشة، وقد كانت الدوافع التي تعلّل بها هؤلاء الثأر لعثمان بن عفّان الخليفة الثالث، وتخلّلت هذه الفتن حربان ضروسان هما معركة الجمل ومعركة صفّين «وقد ظهر في هذه الحروب لون جديد من العصبية هو العصبية

---

١. النساء، الآية: ١٠٠.

٢. البقرة، الآية: ٢٧.

٣. انظر: الشايب، احمد. تاريخ الشعر السياسي، ص٢٠٠.

الإقليمية فقد أصبح الشام حزب معاوية، وأصبح العراق حزب عليّ، وأصبح الحجاز موطناً للمعارضة يقودها زعماء قريش الطامعون في الخلافة الذين لايقرّون عليها علي بن أبي طالب، فهم طلحة والزبير وعبدالله بن عمر وعائشة أم المؤمنين».[١]

انتهت معركة الجمل بانتصار الإمام عليّ (ع) وفرار أصحاب عائشة، إلّا أنّ معركة صفّين قد انتهت بقبول ما سمّي حينئذٍ بالتحكيم. بعد أن انتهت مسألة التحكيم بخلاف الحقّ تراجع الخوارج عن موقفهم الأول وطالبوا الإمام عليّاً عليه السّلام باستئناف القتال ضدّ معاوية، إلّا أنّ الإمام (ع) استنكر طلبهم وذكرهم بأنّهم هم الذين أجبروه على قبول التحكيم وأنّه لم يكن يقبله. رجع الإمام مع جيشه إلى الكوفة فأقام فيها أمّا الخوارج فقد فارقوه واجتمعوا بالنّهروان وأعلنوا خروجهم عليه واستخلفوا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي وأخذوا يفسدون في الأرض فذهب الإمام (ع) إليهم وقاتلهم حتّى أبادهم هناك ولم يبق منهم إلا نفر قليل. وكما هجا السيّد الحميري أصحاب الجمل نراه قد دخل في هجاء الأحزاب السياسية، وقد يكون الخوارج من أكثر الأحزاب الذين تعرّض لنقمة الحميري وسخطه، وهذا لا يعود إلّا إلى تكفير الخوارج للشيعة ومفارقتهم الإمام عليّاً (ع) في صفّين ومقاتلتهم إيّاه في النهروان. ومن هنا كان الخوارج من ألدّ أعداء الشيعة، وهذا السيد الحميري يسخر منهم ومن اعتقاداتهم في الإمام ويبيّن لهم ضلالتهم وكفرهم. اسمعه يقول:[٢]

**خَوَارِجُ فَارِقُوهُ بِنَهْرَوَانَ ... عَلَى تَحْكِيمِهِ الحَسَنِ الجَمِيلِ**

**عَلَى تَحْكِيمِهِ فَعَمُوا وَصَمُّوا ... كِتَابَ اللهِ فِي فَمِ جِبرَئِيلِ**

**فَمَالُوا جَانِبَاً وَبَغَوا عَلَيهِ ... فَمَا مَالُوا هُنَاكَ إلَى مُمِيلِ**

**فَتَاهَ القَومُ فِي ظُلْمٍ حَيَارَى ... عُمَاةً يَعْمَهُونَ بِلَا دَلِيلِ**[٣]

---

١. محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، ص٩.

٢. الحميري، الديوان، ص١٦٣.

٣. تاه . تيهاً في الأرض: ضلّ وذهب متحيّراً. عمه: تحيّر وتردّد في الطريق.

فَضَلُّوا كالسَّوائِمِ يَومَ عِيدٍ تُنَحَّرُ بِالغَداةِ وَبِالأَصِيلِ[١]
كأنَّ الطَّيرَ حَولَهُم نَصارَى عُكوفاً حَولَ صُلبانِ الأَبِيلِ[٢]

والسيّد هنا يوضّح الأسباب التي فارق بها الخوارج الإمام علياً ويشير إلى مسألة التحكيم ويهجو تجبّرهم في أمرهم وتمرّدهم على تحكيم كتاب الله وكيف انتقم الله منهم لعملهم هذا وجعلهم بعد مفارقتهم للإمام (ع) لقمةً سائغة للطيور الجارحة التي أخذت تنهش لحوم أجسادهم.

يشير الشاعر في البيت الثالث إلى التسمية التي أطلق الشيعة على الخوارج حيث سمّوهم بالفئة الباغية، لأنّهم عارضوا الإمام (ع) كثيراً وبغوا عليه وعاثوا في الأرض فساداً يكفرون النّاس ويستبيحون دماءهم وأموالهم بغير حق، ولذلك استحلّ الإمام قتالهم إعمالاً لقول الله تعالى (وإنْ طَائِفَتانِ مِنَ المُؤمِنينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحُوا بَينَهُما فَإنْ بَغَتْ إحداهُما عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الّتِي تَبْغِى حَتّى تَفِئَ إلى أمْرِ اللهِ فَإنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَينَهُما بِالعَدْلِ).[٣]

وكان هناك من عابَ الإمام في قتل الخوارج، فنرى السيّد الحميري تصدّى لهم وهجاهم بمقطوعة مدافعاً عن الإمام (ع):[٤]

أهوَجَ لاحَى في عليٍّ وَعابَهُ بِسَفك دِماءِ مِنْ رِجالٍ تَهوّدوا[٥]
وَتلك دِماءُ المارقينَ وَسَفكُها مِنَ اللهِ ميثاقٌ عَلَيهِ مُؤكدِ
هُمُ نَكَثُوا أيمانَهم بِنفاقِهِم كما أبرَقوا مِنْ قَبلِ ذاك وأرعَدُوا

---

١. السوائم: جمع السائم: الذاهب على وجهه حيث شاء. والسائمة كلّ إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل (انظر: لسان العرب مادة سوم).

٢. العكوف: ملازمة الشيء. الصلبان: ج الصّليب وه الخشبة التي يقولون إنّه صلب عليها المسيح. الأبيل: الرّاهب.

٣. الحجرات، الآية: ٩.

٤. الحميري، الديوان، ص٧٠.

٥. الأهوج: من هوجَ: هوجاً: طال في حمق وطيش. فهو أهوج. لاحاه: نازعه وخاصمه و لاومه. تهوّد: تحوّل إلى الدّين اليهودي.

**أتَلْحــى امــرءً مــا زالَ مُــذْ هُــوَ يــافِعٌ يُصَـــلّي وَيُرضِـــي ربَّـــهُ وَيُوحِّـــدُ**[١]

**وَقَـــدْ كانــتِ الأوْثــانُ قَبْــلَ صَــلاتِهِ يُطــافُ بهــا فــي كــلِّ يــومٍ وتُعْبَــدُ**

فتناول الشاعر هؤلاء الذين سبّوا الإمام (ع) ووصفهم بالحمق والطيش معتقداً أنّ سفك دمائهم كان ميثاقاً من الله أكد الإمام عليه لأنّهم نكثوا عهدهم ولجأوا إلى النفاق والخديعة. ونرى السيّد قد ضمّن هجائه خطبة قصيرة للإمام في شأنهم حيث قال: «"وَقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشلُ. ولسنا نرعد حتّى نوقِع ولا نسيل حتّى نمطر»[٢] ثمّ يمضي في هجائه ويقول: أتلوم من كان موحداً ومصليّاً منذ هو يافع في حين كان النّاس يعبدون الأصنام ويطوفون بها؟

صحيح أن هذه القصائد تنطوي على شيء من السرد التاريخي لوقائع الاحداث الاّ انها تندرج تحت بواعث الشعر السياسي، لأنّ الشاعر انحاز إلى حزبه وأعلن موالاته له. والسيّد الحميري حين يسمع شاعر الخوارج عمران بن حطّان يفتخر بمذهبه ويؤكد تمسكه بآراء الخوارج ومعتقداتهم بقوله:

**إنّـــى أدِيـــنُ بِمـــا دَانَ الشَّـــراةُ بِـــهِ يَـــومَ النُّخَيلَـــةِ عِنْـــدَ الجويـــقِ الخُـــرَبِ**

فَيردّ عليه السيّد بقوله:[٣]

**أقُـــولُ لَمّـــا رأيـــتُ النّـــاسَ قَـــدْ ذَهَبُـــوا فِـــي كـــلِّ فَـــنٍّ بِـــلا عِلْـــمٍ يَتِيهُونـــا**

**مِـــنْ نـــاكثينَ وَمُـــرّاقٍ وَقاسِـــطَةٍ دَانُـــوا بِـــدِينِ أبِـــي مُوســـى وَمَرجِينـــا**

**أنّـــي أدِيـــنُ بِمـــا دَانَ الوَصـــيُّ بِـــهِ يَـــومَ النَّخِيلـــةِ مِـــنْ قَتْـــلِ المُحِلّينـــا**[٤]

**وَمـــا بِـــهِ دانَ يَـــومَ النَّهـــرِ دِنْـــتُ بِـــهِ وَشـــارَكَتْ كفُّـــهُ كفِّـــي بِصِـــفِّينا**

**تِلْـــك الـــدِّماءُ مَعَـــاً يـــا رَبِّ فِـــي عُنُقِـــي ثُـــمَّ اسْـــقِنِى بَعْـــدَها آمِـــينَ آمِينـــا**

---

١. اليافع: من شارف الاحتلام، وهو دون المراهق.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٩.

٣. الحميري، الديوان، ص١٩٧.

٤. الخريبة: موضع بالبصرة كانت به وقعة الجمل.

آمِينَ مَنْ مِثْلُهُم فِي مِثْلِ حَالِهِم فِي فِتيَةٍ هَاجَروا للهِ شارِينا
لَيسُوا يُرِيدُونَ غَيرَ اللهِ ربِّهِم نِعمَ المُرادُ تَوَخّاه المُرِيدونا

والسيّد هنا يفتخر بولائه للإمام عليّ عليه السّلام وفي نفس الوقت يعلن براءته من الذين نكثوا بيعة الإمام (ع) وحاربوه في واقعة الجمل وهم عائشة وطلحة والزبير كما يتبرّأ من الخوارج الذين خرجوا من الدّين وحاربوا أمير المؤمنين في النهروان، ثمّ من القاسطة ويعني بهم معاوية واتباعه الذين عدلوا عن أمير المؤمنين وحاربوه في صفين، ومن "المرجين" الذين قالوا بإرجاء من اشترك في الحرب بين الإمام عليّ وتفويض أمرهم إلى الله.

وللسيّد قصيدة أخرى يهجو بها ويهاجم فيها المرجئة ساخراً من قولهم بإرجاء الحكم في الإمام عليّ(ع) وعثمان وابن حرب والخوارج إلى يوم القيامة، ويتعجب السيّد لهذا الاعتقاد ويرى أنّ الحقيقة واضحة لاشك فيها ولا حاجة لهذا الاعتقاد لأنّه من غير المعقول أن نضع الإمام علياً في نفس المرتبة التي يضع فيها المرجئة عثمان، ومعاوية بن أبي سفيان والخوارج، لأنّ هؤلاء قد كفروا من غير شك وانحرفوا عن سبيل الإسلام ونصوصه:[1]

خَلِيلَيَّ لاتُرجِيا وَاْعلَمَا بِأنَّ الهُدَى غَيرَ ما تَزْعَمانِ
وَأنَّ عَمَى الشَّكِ بَعدَ اليَقِينِ وَضَعفَ البَصيرَةِ بَعدَ العَيانِ
ضَلالٌ فَلا تَلَجّجا فِيهِما فَبِئسَتْ لَعَمرُكما الخَصْلَتانِ
أيُرجَى عَلِيٌّ إمامُ الهُدَى وَعُثْمانُ ما أعنَدَ المُرجِيانِ
وَيُرْجَى ابْنُ حَربٍ وَأشْياعُهُ وَهُوجُ الخَوارِجِ بِالنَّهروانِ
يَكُونُ إمامُهُم فِي المَعادِ خَبِيثَ الهَوَى مُؤمِنَ الشَّيصَبانِ[2]

تأثّر السيّد في المقطوعة المذكورة بالروح الدينية في ألفاظها ومعانيها، والقرآن مصدر وقاموس ألفاظها ومعانيها كقوله: الهدى، اليقين، ضعف البصيرة، الضلال، المعاد. واستطاع

---

١. السابق، ص٢١٥.
٢. من أسماء الشيطان.

الحميرى باستخدامه الألفاظ الدينية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية يدعم رأيه بها، لأنّها البرهان الساطع والدليل القاطع على صدق الاعتقاد أو ذاك المبدأ.وأحياناً نرى الشاعر يهجو مدينة برمّتها كما نرى ذلك في هجاء أهل البصرة:[١]

**اهْبِطْ إلى الأرْضِ فَخُذْ جَلْمَداً ثُمَّ ازمِهِم يا مُزْنُ بِالجلْمَدِ**[٢]

**لا تَسْقِهِم مِنْ سَبَلٍ قَطْرَةً فَإنَّهُم حِزبُ بَنِي أحمدِ**[٣]

فنرى الشاعر يتّهم مدينة البصرة بأنّهم أعداء الرسول (ص) فلذلك يدعو عليهم.

## هجاء قبائل الخلفاء الراشدين

ذكر أبوالفرج الأصفهاني روايةً عن أبي سليمان النّاجي حيث قال: «جلس المهدي يوماً يعطى قريشاً صلاتٍ لهم وهو وليّ عهد فبدأ ببني هاشم ثمّ بسائر قريش، فجاء السيّد فرفع إلى الرّبيع رقعةً مختومةً وقال: إنّ فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه، فأوصلها، فإذا فيها [الأبيات التالية] وهى قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه. قال: فرمى بها إلى إلى عبيد الله. ثمّ قال: اقطع العطاء، فقطعه وانصرف النّاس، ودخل السيّد إليه، فلمّا رآه ضحك وقال: قد قبلنا نصيحتك يا اسماعيل ولم يعطهم شيئاً».[٤] جاء في تلك القصيدة:[٥]

**قُلْ لِابْنِ عَبَّاسٍ سَمِيِّ مُحَمَّدٍ لاتُعْطِيَنَّ بَنِي عَدِيٍّ دِرْهَمَا**[٦]

**احْرِمْ بَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ إنَّهُم شَرُّ البَرِيّةِ آخِراً وَمُقَدَّمَا**

**إنْ تُعْطِهِم لايَشْكرُوا لَكَ نِعْمَةً وَيُكافِئُوك بِأنْ تُذَمَّ وتُشْتَما**

**وَإنْ ائتَمَنْتَهم أو اسْتَعمَلتَهم خَانُوك وَاتَّخَذُوا خَرَاجَك مَغْنَما**

---

١. السابق، ص٨٣.

٢. الجَلْمَد: الصخر.

٣. السَّبَل: المطر الهاطل.

٤. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص١٦٢.

٥. الحميري، الديوان، ص١٧٦.

٦. سَمِيُّ الشيء: موافقه في اسمه.هم بنو عديّ بن كعب رهط عمربن الخطاب.

وَلَـئِنْ مَنَعْـتَهُم لَقَـدْ بَـدَؤُوكم ... بِـالمَنعِ إذْ مَلَكـوا وَكـانُوا أظْلَمَـا

مَنَعُـوا تُـرَاثَ مُحَمَّـدٍ أعْمَامَـه ... وَأبْنَيـهِ وَأبْنَتَـهُ عَدِيلَـةَ مَرْيَمَـا[١]

وَتَـأمَّرُوا مِـنْ غَيـرِ أنْ يُسْـتَخْلَفُوا ... وَكفـي بِمـا فَعَلُـوا هُنالِـك مَأثَمَـا

لَـمْ يَشْـكروا لِمُحَمَّـدٍ إنْعَامَـه ... أفَيَشْـكرُونَ لِغَيْـرِه أنْ أنْعَمَـا

واللـهُ مَـنَّ عَلَـيهِم بِمُحَمَّـدٍ ... وَهَـدَاهُم وَكسَـا الجَنُـوبَ وَأطْعَمَـا

ثُـمّ أنبَـرُوا لِوَصِـيِّهِ وَوَلِيِّـهِ ... بِـالمُنكرَاتِ فَجَرَّعُـوه العَلْقَمَـا[٢]

نرى الشاعر يطلب من الخليفة العباسي أن لايُعطي قبيلتى الخليفتين عمر وأبي بكر شيئاً، لأنّهما اغتصبا حقّهم في الخلافة، وأنّ قبيلتيهما شرُّ البريّةِ. ثمّ يمهّد السيّد الحميري أرضيّةً لطلبه ذاك مخاطباً الخليفة بأنّهم لا يشكرونه إذا أعطاهم بل يذمُّونه ويشتمونه. يتّهم الشاعر نفوس قبيلتيْ هـذين الخليفتين بأنّهم لا يستحقّون الثقة في الوظائف الحكومية، وأنّهم أصحاب خيانة. ثمّ يشير الشاعر إلى مسألةٍ مشهورة في التّاريخ الاسلامي وهى قضية فدك[٣]، التي كثيراً ما استغلّها شعراء الشيعة في هجاء الخليفة الثاني، وفدك قرية بخيبر فيها عين ونخل أفاءها الله على الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم في السنة السابعة للهجرة، ولمّا توفي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت فاطمةُ سلام الله عليها إنّ رسول الله أعطانيها، فقال أبوبكر: أريد لذلك شهوداً، وقيل إنّه قال لها: سمعت رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، وإلى هذا يشير السيد الحميري بقوله: منعوا تراث محمد أعمامه. يأتي هجاء السيّد السياسي في صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين على أساس الجدول التالي:

جدول رقم ١.٤ هجاء الحميري في صدر الإسلام وعهد الراشدين

| ١ | الموضوع | المهجوّ | القالب | أبياتها | الصـ |
|---|---|---|---|---|---|

١. الذي بقي من أعمامه هو العباس بن عبدالمطلب وقد مات بعده ويعني بابنيه: الحسن والحسين وبابنته فاطمة عليها السّلام وبمريم بنت عمران أمّ موسى. العديل: المثل والنظير.

٢. العلقم: كلّ شيء مُرّ.

٣. فدك قرية بخيبر فيها عين ونخيل أفائها الله على نبيّه في سنة سبعٍ صلحاً.

| ١ | مسألة | الخلفاء | قصيدة | ١١ | ٩٠ |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢ | الخلافة | الخلفاء | قصيدة | ٤ | ١١ |
| ٣ | مسألة | الخلفاء | قصيدة | ١٢ | ١٢ |
| ٤ | البراءة | عثمان | مقطوعة | ٢ | ٢٠ |
| ٥ | الخلافة | أبوبكر وعمر | مقطوعة | ٣ | ٢١ |
| ٦ | واقعة الجمل | أصحاب الجمل | مقطوعة | ٣ | ٢١ |
| ٧ | واقعة الجمل | أصحاب الجمل | قصيدة | ١٤ | ٣٨ |
| ٨ | واقعة الجمل | أصحاب الجمل | مقطوعة | ٢ | ٧٩ |
| ٩ | واقعة الجمل | أصحاب الجمل | قصيدة | ٧ | ٢٠ |
| ١ | أحقيّة عليّ | القاعدون عن | قصيدة | ١١ | ٧٠ |
| ١ | واقعة | الخوارج | مقطوعة | ٦ | ١٦ |
| ١ | خصوم عليّ | المارقون | مقطوعة | ٥ | ٧٠ |

## الشاعر وهجاء الأمويين

خصّ السيد الحميري بعض أشعاره بهجاء الأمويين فإذا درسنا الشعر المتبقي له وجدنا مقطوعة له يخاطب فيها الأمويين ويقول: [١]

**فَـــإنْ قُلْــتُم أبُونَـــا عَبْـــدُ شَـــمْسٍ ... فَـــإنَّ الـــزَّنْجَ مِـــنْ أوْلادِ نُـــوحِ** [٢]

**هُمَـــا غُصْـــنَانِ مِـــنْ أصْـــلٍ جَمِيعَـــاً ... وَلَكِـــنْ لَـــيسَ نَبْـــعُ مِثْـــلَ شَـــيحِ** [٣]

---

١. السابق، ص٦٨.

٢. عبد شمس هو شقيق هاشم بن عبد مناف وهما توأمان.

٣. النّبع: شجرٌ من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ (لسان العرب مادة نبع ).الشيح: نباتٌ سهليّ يتّخذ من بعضه

بدأ الشاعر في هذين البيتين بمقارنة بين هاشم وعبد شمس وهما ولدان لعبد مناف جدّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وفضلّ هاشماً على عبد شمس. يرى الحميري أنّهما وإن كانا من أصل واحد إلّا أنّ بينهما مفارقة كبيرة. وكما نعلم أنّ عبد مناف لمّا أدركته الوفاة أوصى بسدانة الكعبة لابنه هاشم وكانت هذه السنّة تستوجب الرياسة في قريش ولذلك حسد أميّة بن عبد شمس عمّه هاشماً على هذه الرياسة ونازعه في هذا الأمر. وذكرت بعض المصادر أنّ هذا الخلاف اضطرّهما إلى الرّضا بالتحكيم ولمّا رأى المحكمون أنّ الحقّ بجانب هاشم حكموا على أميّة أن يعطي عمّه هاشماً خمسين جملاً ويغادر مكة مدة عشرين سنة ومن هنا نشأت العداوة بين بني هاشم والأمويين.[١] والملاحظة التي تلفت انتباهنا أنّ الحميرى في هذه المقطوعة سلك مسلك الشعراء الجاهليين وشعراء النقائض في العصر الأموي الذين كانوا يهجون بالأنساب بحيث نشعر أنّنا نقرأ لجرير والأخطل، لكنّ لهجة السيد الحميري تتصف هنا بالخفّة واللين والسذاجة.وللسيد بجانب تلك المقطوعة قصيدة يعرّض فيها ببني أميّة يقول في تضاعيفها:[٢]

**مَلِكُ ابْنُ هِنْدٍ وَابْنُ أزْوَى قَبْلَهُ ... مُلْكاً أمَرَ بحلّهِ الإبْرامُ**[٣]

**وَأضَافَ ذَاكَ إلَى يَزِيدٍ وَمُلْكُهُ ... إثْمٌ عَلَيهِ فِي الوَرَى وعرامُ**[٤]

**أخْزَى الإلهُ بَنِي أمَيَّةَ إنَّهُم ... ظَلَمُوا العِبَادَ بِمَا أتَوهُ وَخَامُوا**[٥]

**نامَتْ جُدُودُهُم وَأسْقِطَ نَجْمُهُم ... وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالجُدُودُ تَنَامُ**

**أيِمَتْ نِسَاءُ بَنِي أمَيَّةَ مِنْهُمُ ... وَبَنُوهُم بِمَضْيَعةٍ أيْتَامُ**

---

المكانس وهو من الأمرار له رائحةٌ طيّبة وطعمٌ مرّ (لسان العرب: مادة شيح).

١. انظر: غالب الطويل، ص٤٧.

٢. الحميري، الديوان، ص١٧٣.

٣. ابن هند: معاوية ابن أبي سفيان.

٤. العرام: الاشتداد ومفارقة القصد، والخروج عن الحدّ.

٥. خام فلانٌ ـ خيماً: أقام بالمكان. وكاد لغيره كيداً فلم ينجح فيه ورجع عليه.

جَزَعَــتْ أُميَــةُ مِــنْ وِلَايَــةِ هَاشِــمٍ وَبَكَــتْ وَمِــنْهُم قَــدْ بَكَــى الإِسْــلامُ
إنْ يَجْزَعُــوا فَلَقَــدْ أتَــتْهُم دَوْلَــةٌ وَبِهَــا تَــدُولُ عَلَــيهِمُ الأَيَّــامُ
وَلَهُــم يَكُــونُ بِكُــلِّ شَــهْرٍ أشْــهُرٌ وَبِكُــلِّ عَــامٍ وَاحِــدٍ أعْــوامُ
يــا رَهْــطَ أحْمَــدَ إنَّ مَــنْ أعْطَــاكمُ مُلْــكَ الــوَرَى وَعَطَــاءُهُ أقْسَــامُ
رَدَّ الوِرَاثَــةَ وَالخِلافَــةَ فِــيكمُ وَبَنُــو أمَيَّــةَ صَــاغِرُونَ رَغَــامُ[١]

يتحدّث الشاعر في البيتين الأول والثاني عن الدولة الأموية وخلفائها ويرى أنّ معاوية حكم سوء حكم وقد جعل الخليفة الثالث من الأمويين الذى كانت تقاليد الأمور بيده قبل معاوية، لأنّه ينتمي إلى الأسرة الأموية التي كانت تتحيّن الفرصة لاسترجاع مكانتها التي فقدتها نتيجة معاداتها الشديدة للرسول الأعظم (ص) وكأنّ الحميري يرى أنّه مهّد الطريق لاستيلاء الأمويين على دفّة الحكم، ويشير في البيت الثاني إلى موروثية الخلافة عند الأمويين حيث نصب معاوية ابنه يزيد للخلافة بعده وكان فاسداً وخارجاً عن الحدود التي رسمها الله تعالى ورسوله(ص).

وأشار الحميري في البيت الثالث إلى أنّ مصير السوء الذي انتهى إليه الأمويون لم يكن إلّا نتيجة لظلمهم. وقد خصّ البيت الرابع من قصيدته بخصومة الأمويين لبني هاشم عامّة والإسلام خاصّةً منذ صدر الإسلام وهجاهم بأنّ جدودهم إمّا ذكرهم خامل وإمّا قتلوا في حروبهم مع الإسلام، ويرى أنّهم كانوا جديرين بهذا الخمول.ثمّ مضى قائلاً إنّ نساء بني أميّة أصبحت أرامل كما أنّ أولادهم أصبحوا يتامى. ولم يلبث أن تطرّق إلى الخصومة القديمة بين بني هاشم والأمويين وإن كان يعترف بإضرارهم للإسلام.

أشرنا فيما سبق إلى أنّ بني أميّة كانوا يحسدون بني هاشم على رياستهم وسدانتهم الكعبة واشتدّت عدواتهم لمّا دعا الرسول الأعظم (ص) إلى الدين الجديد فقابلت قريش وخاصة بني أمية دعوة الرسول (ص) بالاستخفاف والازدراء مدة طويلة وجاهروا بعداوته

---

١. الصاغر: من رضي بالذّل والضعة. الرغام: التّراب الليّن، وليس بالدقيق (انظر: لسان العرب مادة رغم).

ومقاومة دعوته بأساليب شتّى من الإيذاء للرسول وأصحابة إلى المقاطعة الاقتصادية و...لكنّهم خابوا في النهاية واستمرّت حركة الدين الجديد في التقدم. وإلى هذا أشار في البيت السادس وما بعده. وأخيراً تمنّى الشاعر أن يعود الخلافة إلى أصحابها الحقيقيين.

ليست هذه الأبيات التي ذكرناها تنديداً ببني أميّة فحسب بل هى في الواقع تقرير لأهم أصل عند الشيعة وهو التنديد بالنظم الدنيوية الفاسدة التي اتبعها بنو أمية في حكم المسلمين والتي خرجت بهم عن روح الإسلام. والملاحظة البارزة في القصيدة المذكورة هى أنّ الحميري اتّجه في كثيرٍ من أبياتها اتّجاهاً قبليّاً واضحاً، ومع ذلك نرى أثر الإسلام يبدو فيها بارزاً. نرى الشاعر قد استخدم، من الناحية اللفظية، ألفاظاً رقيقة ولطيفة وعذبة، ومن ناحية الأسلوب ظلّت روح الحماسة تنبض فيها. والحميري في أغلب قصائده يحوم حول موضوعين اثنين، إذ يبدأ قصائده بهجاء الأمويين والتعريض بهم، ثمّ يتخلّص إلى مدح الهاشميين. ومن الأمثلة على ذلك قصيدته الميمية التي تُعدّ من غرر قصائده فهو يبدؤها بالتعرّض للأمويين والحديث عن ظلمهم، ثمّ يختمها بمديح الهاشميين.

قال السيد هاجياً خراش بن حوشب الشيباني ( من جند يوسف بن عمر) الذي نبش قبر زيد بن علي بن الحسين وصلبه بالكناسة:[1]

| | |
|---|---|
| **بِتُّ لَيلي مُسَهَّدَاً** | **سَاهِرَ الطَّرْفِ مقْصَدَا** |
| **وَلَقَدْ قُلْتُ قَوْلَةً** | **وَأطَلْتُ التَبَلُّدَا** |
| **لَعَنَ اللهُ حَوْشَباً** | **وَخِرَاشَاً وَمَزْيَدا** |
| **وَيَزِيدَاً فَإنَّهُ** | **كَانَ أعْتَى وَأعْنَدَا** |
| **ألْفَ ألْفٍ وَألْفَ** | **ألْفٍ مِنَ اللَّعْنِ سَرْمَدَا** |

## الشاعر وهجاء المروانيين

بعد موت يزيد بن معاوية نجح مروان بن الحكم أحد شيوخ بني أميّة في انتزاع السّلطة من

---

١. السابق، ص٦٩.

خالد بن يزيد فتحوّل الحكم عن البيت السّفياني إلى البيت المرواني «وحين ينتقل الحكم إلى المروانيين يظل المبدأ الذي أقرّ لاستئصال المعارضة الشيعية قائماً يعمل على هذا مروان وعبدالملك».[١]

ولا شك أنّ هذا التحول الصوريّ لم يغيّر شيئاً ولم يقلّل من اضطهاد جور الحكام بالنسبة إلى الشيعة والموالين لأهل البيت عليهم السّلام، فكان من الطبيعي أن يتّخذ الحميري موقفه ذلك إزاء المروانيين. له مقطوعة أنشدها في موالاة أهل البيت والبراءة من أعدائهم وخاصة المروانيين. اسمعه يقول:[٢]

**يا آلَ يَاسِينَ يَا ثِقَاتِي أَنْتُم مَوَالِيَّ فِي حَيَاتِي**
**وَعُدَّتِي إِذْ دَنَتْ وَفَاتِي بِكم لَدَى مَحْشَرِي نَجَاتِي**

إِذ يَفْصِلُ الحَاكِمُ القَضَاءَ

**أبرأ إلَيكم مِنَ الأعَادِي مِنَ آلِ حَرْبٍ وَمَنْ زِيَادِ**
**وَآلِ مَرْوَانَ ذِي العَتَادِ وَأَوَّلِ النَّاسِ فِي العِنَادِ**

مُجاهِرٌ أظهرَ البَراء

فيعلن الشاعر من جديد حبّه لأهل البيت عليهم السّلام ويراهم منجاةً يوم القيامة كما أنّه يعلن براءته من أعداء آل البيت (ع) معدّداً بعضهم بعينه كآل حرب وآل زياد وآل مروان الذين كانت لهم جيوش وأدوات حربية مجهّزة. بلغ الشاعر ذروة الهجاء حينما قال إنّه مجاهرٌ براءته من خصوم أهل البيت (ع) وأعلن ذلك في وضوح تامّ.

يلاحظ أنّ الهجاء السياسي للحميري يتجلّى في الجانب الفكري من عقيدته وهو الذي يكاد يستغرق شعره، ويظنّ أنّ ذلك إنّما يتمّ لما وقع في العصر من تحدٍّ كبير يسرف في امتهان

---

١. صادق، ص١٢٩.

٢. الحميري، الديوان، ص٢٦.

الرأى الشيعي.

بعد أن سقطت الدولة الأموية وانتهى الأمر إلى العباسيين عمّت الفرحة أعداء الأمويين خاصّة شعراء الشيعة «ظانّين أنّ العباسيين سيشركون أبناء عمّهم العلويين في الحكم حتّى إذا انبجلت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم»[١] فأنشد الحميري أبياتاً اختلفت آراء النقّاد والباحثين حولها:[٢]

**دُونَكُمُوهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ — فَجَدِّدُوا مِنْ آيِهَا الطَّامِسَا**

**دُونَكُمُوهَا لَا عَلَا كَعْبُ مَنْ — أمْسَى عَلَيْكم مُلْكُها نَافِسَا**

**دُونَكُمُوهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا — لاتَعْدَمُوا مِنْكم لَهُ لَابِسَا**

**خِلَافَةُ اللهِ وَسُلْطَانُهُ — وَعُنْصُرٌ كَانَ لَكُم دَارِسَا**

**قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكم سَاسَةٌ — لَمْ يَتْرُكُوا رَطْبَاً وَلَا يَابِسَا**

مدح الحميرى بنى هاشمٍ ورأى أنّ الخلافة حقّ لهم وأنّ الحقّ عاد إلى نصابه، وهجا وغمز الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلماً وجوراً حينما قال: قد ساسَها قبلكم ساسةٌ، على نحو ما نجده في البيت الخامس. اختلفت آراء النقّاد والباحثين في تفسير هذه الأبيات، بينما يرى الدكتور شوقي ضيف أنّ موقف الشاعر هذا ربّما هو موقف حقيقي، لا نفاق فيه ولا تقيّة.[٣] ذهب طه حسين إلى أنّ أشعار السيد الحميري هذه لاتعبّر بالضرورة عن مواقفه، ولا عن مواقف الشيعة، إذ اعتبرها تقيّةً[٤] ورأى أنّ السيد الحميري كان «يستحلّ ذلك، كان يستحلّ أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بني العباس بلسانه ويلعنهم في قلبه فيظفر بمالهم ويتّقي

---

١. ضيف، شوقي. العصر العباسي الأول، ص٣٠٥.

٢. الحميري، الديوان، ص١٢٥.

٣. انظر: ضيف، شوقي. العصر الإسلامي، ص٣١١.

٤. هى اتّقاء المكروه بالتظاهر بغير ما في النّفس، أو هى أن تقول أو تفعل غير ما تعتقد لتدفع الضرر عن نفسك أو مالك أو لتحتفظ بكرامتك. ويرى أحد علمائنا أنّها ضرب من المداراة لمن تخشى سطوته على النفس أو على الدّين أو العرض (الحائري ١:٦٥١).

شرّهم، كان يستحلّ ذلك كما كانت تستحلّه عامّة الشيعة الذين يقولون بمذهب التّقية ويستبيحون لأنفسهم أن يروا في السياسة والدين رأيين، رأياً تجاريّاً إن صحّ هذا التعبير يصطنعون فيما بينهم وبين النّاس ليعيشوا ويأمنوا ويستمتعوا بلذّات الحياة والأمن. ورأياً آخر يخفونه على النّاس جميعاً إلّا أنصارهم وأولياءهم، وهو الرأى الذي يصطنعونه فيما بينهم وبين الله، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيّام الأمويين، وعليها سارت أيضاً أيّام العباسيين وهى معقولة ممكنة التفسير، فقد لقيت شيعة عليّ من الاضطهاد وألوان المحن أيّام بني أميّة مالم يلقه حزب سياسي آخر إذا استثنينا الخوارج».[1] يستخلص هؤلاء الباحثون من هذه الأبيات أنّ الحميري كان يحيا هدنة كاملة مع السلطة العباسية إلّا في النّادر، والواقع أنّ الأمر ليس كما ذهب إليه هؤلاء بل علينا أن ندرس الظروف التي أنشد الشاعر هذه الأبيات. يتّضح من دراسة المصادر التاريخيّة والأدبية أنّ الحميري قالها في بداية السلطة العباسية وهو آنذاك لم يدرك ماهيّة العباسيين الذين اشتهروا باضطهاد الشيعة ومواليهم، كما أنّ قصائد الحميري في مديح العباسيين لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولاشك أنّ طه حسين أخطأ حين جعل التقية رأياً تجاريّاً للشيعة بل هذا لا يوافق المذهب الفكري والالتزامي للحميري الذي تحدّثنا عنه فيما سبق.

جدول رقم ٢.٤ هجاء الحميري في العصر الأموي

| ا | المهجوّ | القالب | أبياتها | الص |
|---|---|---|---|---|
| ١ | الأمويون | مقطوعة | ٢ | ٦٨ |
| ٢ | الأمويون | قصيدة | ١٠ | ١٧ |
| ٣ | المروانيون | مقطوعة | ٥ | ٦٩ |
| ٤ | أعداء الشيعة | مقطوعة | ٤ | ٢٦ |

---

١. انظر: طه، حسين. حديث الأربعاء، جـ ٢ ص ٢٤٠.

## الشاعر وهجاء العباسيين

أدرك السيد في حياته خمسة من ملوك بني العباس: السفاح وهو أولهم والمنصور أخاه والمهدي بن المنصور والهادي بن المهدي والرشيد بن المهدي وتوفي في خلافة الرشيد. له أخبار وحكايات مع ملوك بني العباس، وهناك أشعار يهجوهم فيها.

إذا كان شعراء السلطة العباسية رسموا للخليفة صوراً إيجابية فإنّنا لانعدم صوراً سلبية في شعر شعراء الشيعة، ولم تكن هذه الصور إلّا انعكاساً لرؤية صاحبها تجاه الخليفة وتعبيراً عن وجهة نظره السياسية أو الفكرية.

من المفاهيم الفكرية التي جاء بها الإسلام الإجهار بالحق وفضح الظلم. هذا المفهوم المتنور يدخل ميدان العمل السياسي أكثر من المجال الفكري. فالأمة التي لايوجد بين أفرادها من يقول للحاكم إذا أخطأ أخطأت لاخير يرجى منها ولا إمكانية لها نحو التحرّر.

ومن حسن حظّ هذه الأمة العربية أنّ بعضاً من شعرائها خلال فترة من حياتها السياسية كان يرفع صوته عالياً في وجه السلطة الجائرة الظالمة ليقول كلمة حق عند سلطان جائر.كان الحميري من اولئك الذين قالوا كلمة الحقّ عند الإمام الجائر إذ ورد في ديوانه أنّ محمد المهدي وليّ عهد المنصور قد استغلّ من اسمه ولقبه طريقاً إلى دعوةٍ عريضة، فلم يستطع الشاعر أن يصبر عليها بحالٍ من الأحوال، لأنّها تصطدم بعقيدته في إمامه المنتظر، فقد ادّعى الخليفة أنّه المهدي المنتظر الذي بشّر به الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسّلم، وهو ما لايتّفق مع عقيدة السيد الحميري الإمامية، فلذلك أنشد الشاعر في ذلك معرّضاً:[١]

**تَظُنَّـــا أنَّـــهُ المَهـــدِيُّ حَقَّـــاً ... وَلَـــمْ تَقَـــعِ الأمُـــورُ كمَـــا تَظُنَّـــا**

**وَلا وَاللـــهِ مَـــا المِهْـــدِيُّ إلّا ... إمَـــامٌ فَضْـــلُهُ أعْلَـــى وَأسْـــنَى**

وينبغي أن يشار إلى أنّ النماذج الشعرية السابقة هي أقرب إلى الشكوى وإسداء النصح، لكن بعض تلك النماذج تشير إلى مواقف رافضة وإن خفّت حدّتها تجاه الخلفاء لأن هؤلاء

---

١. ٢٠٦.

يجب أن يكون الشاعر معهم لطيفاً حتى لا يتعرض للأذى فبدا الشاعر في نقده وسيطاً ومصلحاً.

وفي هذه الأبيات يعلن الشاعر موقفه الصريح فهو يقف في صفّ آل النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم ويتمثّل وجهة نظر الشيعة في الإمام المنتظر، ويصوّر الخليفة الذي يدّعي بأنّه المهدي المنتظر في صورة شخص عاديّ، وأمّا المهدي فهو أفضل من ذلك وأعلى. والحميري بهذين البيتين يوسّع انفجاره على السلطة العباسية، كما أنّهما يمثّلان عصر التحدّي الذي عاش الحميري نفسه واقع اضطهاده.

كان العباسيون يحاولون منذ البداية استمالة النّاس بعيداً عن الدعوة الشيعة العلوية، ولمّا كان الشيعة تعتقد بوجود الإمام المنتظر، استغلّ العباسيون هذه العقيدة وأوهموا أنّ أبا جعفر المنصور هو المهدي المنتظر، ونرى بعض الشعراء يصفونه في مدائحهم بلقب المهدي.كان أبودلامة واحداً من هؤلاء الشعراء يخاطب أبا مسلم الخراساني قائلاً:[1]

**أفي دَوْلَةِ المَهديِّ حَاوَلتَ غَدرَةً ... ألا إنَّ أهلَ الغَدرِ آبَاؤُك الكُردُ**

وأحياناً نرى ازدواجية في صوره والمراد منها أن يمدح الشاعر الخليفة في مكانٍ ثمّ يهجوه في مكان آخر.إنّ الشاعر لم ينفك على ولاء أهل البيت عليهم السّلام، لكن الظروف السياسية دفعه إلى مدح الخليفة المنصور على سبيل التقية بقوله:[2]

**إنَّ الإلهَ الّذِي لاشيَ يُشبِهُهُ ... أعطاكمُ المُلكَ لِلدُّنيا وَلِلدِّينِ**

**أعطاكم اللهُ مُلكاً لا زَوالَ لَهُ ... حَتّى يُقادُ إليكم صاحب الصّينِ**

**وَصاحِبُ الهِندِ مَأخوذاً بِرُمَّتِهِ ... وَصاحِبُ التُّرك محبوساً على هونِ**

ثمّ إنّه يشدد النكير على خلفاء العباسيين لأنّهم تسمّوا بالهادي والمهدي وهو يرى على ما

---

١. الحميري، الديوان، ص١٣٢.

٢. السابق، ص٢١٠.

يبدو أنّ هذه الأسماء حكر على العلويين وفي ذلك يهجو العباسيين بقوله:[١]

**فَقُلْ لِلنَّاصِبِ الهَادِي ضَلَالاً ... تَقُومُ وَلَيسَ عِنْدَهُم غَنَاءُ**

**فِدَاءٌ لِابْنِ خَوْلَةَ كُلُّ نَذْلٍ ... يُطِيفُ بِهِ وَأَنتَ لَهُ فِدَاءُ**[٢]

**كأنّا بِابْنِ خَوْلَةَ عَنْ قَرِيبٍ ... وَرَبُّ العَرْشِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**

**تَشَبَّهَ وَجْهَهُ قَمَراً مُنِيراً ... يُضِيءُ لَهُ إِذَا طَلَعَ السَّنَاءُ**

**فَلَايَخْفَى عَلَى أَحَدٍ بَصِيرٍ ... وَهَلْ بِالشَّمْسِ ضَاحِيَةً خَفَاءُ**

فإعادة الحق إلى صاحبه لا يستلزم دائماً صرخة احتجاج، وإنما يحتاج إلى ضربات موجعة كما نجده عند الحميري. ويغدو هذا الهجاء مشروعاً في الدفاع عن الحقيقة، لأن السكوت على الظلم مشاركة فيه.

## الشاعر وهجاء القضاة

لدينا بعد ماذكرنا من هجاء الخلفاء والمعارضين السياسيين هجاء لايتصل بأصول الحكم ولا يصوّر ميولاً حزبية معينة ولكنّه يتصل بالقضاة في السلطة الحاكمة ويعارض سياستهم وينقد تصرفاتهم. هذا اللون من الهجاء السياسي مختلط بالهجاء الاجتماعي وهو من أمتع ألوان الشعر السياسي وأكثرها دقة ووضوحاً في الكشف عن معايب هذا المجتمع الذي تعقدت فيه الحياة وتعارضت فيه الآراء والأهواء وهو لا يصور معارضة حزبية ولكنّه يصور سخطاً على النظم الاجتماعية القائمة.

لاشك أنّ القضاء من الأمور المقدّسة عند جميع الأمم مهما بلغت درجةً من الرّقيّ والحضارة حتّى لايصبح النّاس فوضى، فلذا كانت وظيفة القاضي ـ ولاتزال ـ من أسمى المناصب إذ إنّ من شأنها تمكين سيادة القوانين التي تحكم المجتمع وتدعيم السّلام بين النّاس بواسطة ما يصدره القاضي من أحكام وأوامر.

---

١. السابق، ص١٩.

٢. ابن خولة هو محمد بن حنفية، وخولة هي خولة بنت جعفر الحنفية.

إنّ فساد القضاة الذين كانوا يسيرون في موكب الطغاة وهجوهم ظلّ لوقتٍ طويل مورداً غزيراً لشعراء الشيعة، ولم يكن هؤلاء الشعراء يقصدون من هجاءهم مجرّد الإضحاك بلا مغزى، فانتقادهم وهجاؤهم لهؤلاء القضاة جعل شعرهم يعدّ من مظاهر الهجاء السياسي والتّمرد على الجور والمفاسد الاجتماعية، ومن هنا أتت أهمية شعرهم وتفرّده في الشعر العربي.

كان السيّد الحميري من كبار شعراء الشيعة وقد كرّس بعض قصائده ومقطوعاته الشعرية لهجاء القضاة في السلطة العباسية. وممن رماهم الشاعر بهجائه سوّار بن عبدالله العنبري[١] قاضي البصرة للمنصور الخليفة العباسي والذي كان يعدّ أكبر القضاة في تلك الفترة، والذي أصبح مادّة خصبة له في هجائه السياسي.

يعدّ القاضي رمزاً للعدالة ورمزاً لإحقاق الحقّ فلذا ينبغي أن يتّصف بالورع والتّقوى والعدل الذي تؤهلّه لهذا المنصب وعليه أن يبتعد عن الكبر والغرور والخباثة. وللسيّد مقطوعة تناول سوّاراً وخاطب فيها أبا جعفر المنصور في هجائه:[٢]

**لا تَستَعِنْ بِخَبِيثِ الرَّأيِ ذِي صَلَفٍ ... جَمِّ العُيُوبِ عَظِيمِ الكِبرِ جَبَّارِ**[٣]
**تُضْحِي الخُصُومُ لَدَيهِ مِنْ تَجَبُّرِهِ ... لايَرْفَعُونَ إلَيهِ لَحْظَ أبْصَارِ**
**تِيهَاً وَكِبْراً وَلَولا مَا رَفَعْتَ لَهُ ... مِنْ ضَبْعِهِ كانَ عَينَ الجَائِعِ العَارِي**[٤]

فيصف الشاعر سوّاراً بالأوصاف التي تضرّ منصب القضاء إذ يهجوه بخباثة الرأى والتكبّر بحيث لا يستطيع من حضر للحكم عنده أن يرفع بصره إليه من شدّة تكبّره، ثمّ يخاطب

---

١. هو سوار بن عبد الله بن سوار بن عبد الله بن قدامة، من بني العنبر، من تميم، أبو عبد الله العنبري، من أهل البصرة، نزل بغداد وولّيَ بها قضاء الرصافة، له علم بالفقه والحديث، وكفّ بصره في أواخر أعوامه، توفي ببغداد سنة ٢٤٥هـ (الزركلي ٣: ٢١٣).

٢. الحميري، الديوان، ص ١١١

٣. الصّلف: من صَلِفَ فلان: لم يحظَ عند النّاس وأبغضوه.

٤. الضبع في الأصل: وسط العضد بلحمه، وقيل: الإبط وقد جاء في أساس البلاغة مادّة"ضبع" وأخذت بضبعيه ومددت بضبعيه إذا نعشته ونوّهت باسمه.

المنصور قائلاً لولا ما نوّهت باسمه لكان كالإنسان الجائع والعاري. ولابدّ أن نعترف بأنّ «في الهجاء قوّة بنائية إلى هذا الجانب الهدّام الذى هو أوّل ما يطالع المتصفح له. فهو [الهجّاء] حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات يتصوّر في حقيقة الأمر حياةً أخرى بأشخاصها ونظامها وأسلوبها، هى مثله الأعلى الذي يطمح إليه ويدعو له».[١]

ولم يقتصر هجاء السيّد الحميري لسوّار على الجانب الشخصي والكشف عن عيوبه، بل حملت أشعاره رسائل اجتماعية وأحياناً نجده قد لجأ في بعض مقطوعاته الهجائية إلى إيصال رسالة من خلال هجائه السياسي إلى بعض الخلفاء، تكشف سوء تصرّفات بعض القضاة وفضحها أمام الناس بصورة موجزة. روى عن معاذ بن سعيد الحميري أنّه قال: «شهد السيد إسماعيل بن محمد الحميري رحمه الله عند سوار القاضي بشهادةٍ فقال له: ألستَ إسماعيل بن محمد الذي يعرف بالسيد؟ فقال: نعم. فقال له: كيف أقدمتَ على الشهادة عندي وأنا أعرف عداوتك للسّلف؟ فقال السيد: قد أعاذني الله من عداوة أولياء وإنّما هو شئ لزمني. ثمّ نهض فقال له: قم يا رافضيّ فوالله ما شهدتَ بحق».[٢]

فأزعج ذلك السيّد فصنع القصيدة التالية ووجّهها إلى الخليفة في أسلوب ساخر يكشف عن فساد سوّار:[٣]

يا أمِينَ اللهِ يَا مَنْـ ـصُورُ يَا خَيْرَ الوُلاةِ
إنَّ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِالـ ـلّهِ مِنْ شَرِّ القُضَاةِ
إنَّ سَوَّاراً لأَعْمَى مِنْ ذَوِي جَهْرٍ جُنَاةِ
نَعْثَلِيٌّ جَمَلِيٌّ لَكُم غَيرُ مُوَاتِ[٤]

---

١. محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، ص١٩.

٢. الأميني، جـ ٢ ص٢٩٩.

٣. الحميري، الديوان، ص٦٠.

٤. نعثل: اسم رجل يهودي من أهل المدينة، وقيل: نعثل رجل لحياني (طويل اللحية) من أهل مصر، كان يشبه به عثمان إذا نيل منه (انظر: لسان العرب مادة نعثل). الجمليّ: نسبة إلى واقعة الجمل بين الإمام عليّ عليه السلام وعائشة

جَـــدُّهُ سَـــارِقُ عَنْـــزٍ فَجْـــرَةٌ مِـــنْ فَجَـــرَاتِ
لِرَسُـــولِ اللـــهِ وَالـــــ ــــقَاذِفُهُ بِـــالمُنكَرَاتِ
وَالَّـــذِي كَـــانَ يُنَـــادِي مِـــنْ وَرَاءِ الحُجُـــرَاتِ[١]
يَـــا هَنَـــاةُ أُخْـــرُجْ إِلَيْنَـــا إنَّنَـــا أهْـــلُ هَنَـــاتِ[٢]
سَـــنَّ فِينَـــا سُـــنَنَاً كانَـــتْ مَوارِيـــثَ الطُّغَـــاةِ
فَهَجَوْنَـــاهُ وَمَـــنْ نَهْجُـــو يُصَـــبْ بِالفَـــاقِرَاتِ[٣]
مَـــدَحْنَا المَـــدْحَ وَمَـــنْ نَـــرُمْ يُصَـــبْ بِـــالزَّفَرَاتِ
فَأَكْفِنِيـــهِ لاكَفَـــاهُ الـــــ ـــلَهُ شَـــرَّ الطَّارِقَـــاتِ

استهلّ الشاعر قصيدته بمديح المنصور ونحن نعلّل ذلك بأمرين: الأول أنّ الشاعر ربّما أنشد القصيدة في بداية قيام الدولة العباسية، ولم يكن الحميري يعرف آنذاك حقيقة أمر العباسيين، والثاني أنّ الشاعر ربّما استخدم التقية بمديحه ليوصل أشعاره وبعبارة أخرى رسالته للخليفة. مضى الشاعر ووصف سوّاراً في البيت الثاني بأنّه شرّ القضاة:

ثمّ مضى في البيت الثاني وهجا سوّاراً بأنّه أعمى البصيرة لا يرى أعماله السيّئة كما أنّه من القوم الذين كانوا ينادون الرسول (ص) بصوتٍ عالٍ، واتّهمه بأنّه من أنصار الخليفة الثالث وهو ينتمي إلى أصحاب الجمل. وما أقسى هجاء الشاعر وأشدّه خصوصاً في البيت الثاني الذي جعله فيه من أصحاب الجمل.

استمرّ الحميري في هجاء سوّار معرّضاً بكلّ صفاته الخلقية والخلقية مستهزئاً بعلمه ثمّ تناول في البيت الخامس قصّة أبيه وسرقته عنزاً كان لآل رسول الله (ص). وقد أراد الشاعر

---

والزبير وطلحة حيث ركبت عائشة جملاً فسمّيت معركة الجمل.

١. الحجرات: جمع حجرة يقصد الذين نادوا النّبيّ بصوتٍ عالٍ فأنزل الله سبحانه وتعالى"إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون" وقوم سوّار كانوا بينهم.

٢. أهل هنات: أهل شرّ.

٣. الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار.يقال: عمل به الفاقرة أي الدّاهية (انظر: لسان العرب مادة فقر).

بهذا البيت "عنزة بن نعثب" وجدّ المهجوّ وكان يقال له: "سارق العنز". ويبدو أنّهم كانوا يرمون النبيّ بالمنكرات كما يتّضح من البيت السادس. وبهذا البيت يشير الشاعر إلى ما أنزل الله سبحانه في شأن من كانوا ينادون الرسول (ص) بصوت عالٍ (إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَك مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أكثَرُهُم لايَعْقِلُونَ). هذا البيت يدلّ من جانب آخر على مدى تركيز الحميري على التراث القرآني في هجائه السياسي الذي يظهر في شعره أحياناً كثيرة، وتختصّ هذه الميزة بشعر الحميري في حين كنّا نرى دعبلاً يتناصّ هجائه مع الموروث من حين إلى آخر.

وأحياناً نرى الشاعر لا يجد بدّاً من أن يهدّد سوّاراً كما فعله في البيت الثامن. ونرى السيّد يهجوه في البيت التاسع بأنّ الأحكام التي يصدرها سوارٌ تعدّ من مواريث الطغاة لا تنطبق على الأحكام الإلهية. وأخيراً عاد الشاعر وهدّده من جديد.

هذه القصيدة التي ذكرناها كانت تعبيراً صريحاً عن القاضي واتهامه بالظلم في الحكم ونقداً يبين فساد القضاء وهو من الأمراض الاجتماعية يصرح بها الشاعر نيابة عن العامة وتلك رسالة اجتماعية، كما أنّها تبرز بوضوح جوانب التقصير والانحراف من قبل سوّار وقومه، وقد استغلّها لتحريض الخليفة على قاضيه، وقد أظهر مقدرة لغوية وفنية كبيرة في تصوير مهجوّه، إذ تتميّز الأبيات الأربع الأخير بالتجانس اللفظي والصوتي بين عدّة ألفاظ. فالتجانس اللفظي يظهر في: "سنّ ـ سنناً" "هجونا ـ نهجو" "مدحنا ـ المدح" "فاكفِنيه لاكفاه" كما أنّ التجانس الصوتي يظهر في "يُصَب بالفاقرات ـ يُصَب بالزّفرات ـ الطّارقات" وهذا يدلّ على موهبة الشاعر وعبقريته في الحسّ اللفظي الذي تلتئم فيها الألفاظ التئاماً عجيباً.

بالنظر إلى تلك النماذج من شعر الهجاء السياسي عند السيّد الحميري نجدها بعيدة عن التعقيد تبدو فيها بساطة التعبير والعفوية التي لا تكلّف فيها ويدور موضوعها حول فكرة واحدة، وتلك سمات تحقق لها سرعة الحفظ وسرعة الانتشار.

ذكر صاحب الأغاني أنّ سوّاراً شكا السيّد إلى أبي جعفر بعد أن هجاه، فأمر الخليفة بأن

يذهب إليه معتذراً، ففعل فلم يقبل سوّارٌ عذره[١] فأزعج ذلك السيّد ثمّ عمل شعراً فهجاه بالمقطوعة التالية من جديد:[٢]

**أَتَيْتُ دَعِيَّ بَنِي العَنْبَرِ — أرُومُ اعْتِذَاراً فَلَمْ أعْذِرِ**

**فَقُلْتُ لِنَفْسِي وَعَاتَبْتُها — عَلَى اللَّوْمِ فِي فِعْلِها أقْصِرِي**

**أيَعْتَذِرُ الحُرُّ مِمَّا أتَى — إلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي العَنْبَرِ**

**أبُوك ابْنُ سَارِقِ عَنْزِ النَّبِيِّ — وَأمُّك بِنْتُ أبِي جَحْدَرِ**

**وَنَحْنُ عَلَى رَغْمِك الرَّافِضُو — نَ لِأهْلِ الضَّلَالَةِ وَ المُنْكَرِ**

ولمّا لم يقبل سوّار اعتذاره هجاه بأقسى ألفاظ وأشدّها إذ لم يبالِ أن يخالف القيم الأخلاقية وأن يتورّط في الفحش والسّباب فهجاه بالدّعيّ، ذلك لأنّه قصد إلى الإيجاع والتشهير بالمهجوّ، كما أنّه عاد إلى الوراء مرّة أخرى واستغلّ قصة سرقة أبيه من جديد، وبجانب ذلك قلّل من شأن قبيلتيْ أمّه وأبيه اللتين لاتستحقّان المعذرة. ثمّ مضى الشاعر وعاتب نفسه على إقباله على الاعتذار معتقداً أنّ الانسان الحرّ لا يندم على ما يقدّم إلى رجل من بني العنبر.

تتجلّى في البيت الأخير قوّة الحميري ومقدرتها الشعرية إذ أجاب عن نسبة الرافضي إليه بأسلوب رائع قائلاً: نعم أنا رافضيّ أرفض طريق الضّالين وما يأتون من المنكرات. إذن فالذي يفهمه الحميري من الرافضة يختلف اختلافاً جوهريّاً عمّا يفهمه أعداء الشيعة. فقد سخر الحميري من سوّارٍ في مواقف كثيرة وتناول عيوبه ومظاهر القبح فيه، ولكنّ السخرية عند الحميري ـ باعتقادي ـ كانت نابعة من حالة نفسية يعانيها الشاعر حيث الغيظ والغضب أجّج في قلبه مشاعر سلبية فتحوّلت إلى نيران نفثها في وجه سوّار.للسيّد مقطوعة في حديث الطائر

---

١. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٨١.

٢. الحميري، الديوان، ص١١٢.

المشويّ الذي قاله النّبيّ (ص) في شأن الإمام عليّ (ع): [١]

**لَمّا أتَى بالخَبَرِ الأَنْبَلِ ... فِي طائِرٍ أَهْدِي إلى المُرْسَلِ**

**فِي خَبَرٍ جاءَ أبانٌ بِهِ ... عَنْ أَنَسٍ فِي الزَّمَنِ الأوَّلِ**

**هذا وَقَيسُ الحَبْرُ يَروِيهِ عَنْ ... سَفِينَةٍ ذِي القُلَّبِ الحُوَّلِ** [٢]

**سَفِينَةٌ يُمْكِنُ مِنْ رُشْدِهِ ... وَأَنَسٌ خَانَ وَلَمْ يَعْدِلِ** [٣]

**فِي رَدِّهِ سَيِّدَ كُلِّ الوَرَى ... مَولاهُمُ فِي المُحْكَمِ المُنْزَلِ**

**فَصَدَّهُ ذُو العَرْشِ عَنْ رُشْدِهِ ... وَشانَهُ بِالبَرَصِ الأنْكَلِ** [٤]

بلغت هذه المقطوعة سواراً وهو قاضي البصرة فقال: ما يدع هذا أحداً من الصّحابة إلّا رماه بشعرٍ يظهر عواره وأمر بحبسه، فاجتمع بنو هاشم والشيعة وقالوا له: والله لئن لم تخرجه لكسرنا الحبس وأخرجناه، أيمتدحك شاعر فتُثيبه ويمتدح أهل البيت شاعر فتحبسه؟ [٥] فأطلقه على مضضٍ فقال يهجوه بالقصيدة التالية: [٦]

**قُولا لِسَوَّارِ أَبِي شَمْلَةٍ ... يَا وَاحِداً فِي النَّوك وَالعَارِ** [٧]

**مَا قُلْتُ فِي الطَّيرِ خِلافَ الَّذِي ... رَوَيْتَهُ أنتَ بِآثَارِ**

**وَخَبَرُ المَسْجِدِ إذْ خَصَّهُ ... مُحَلَّلاً مِنْ عَرْصَةِ الدَّارِ** [٨]

**إنْ جُنُباً كانَ وَإنْ طَاهِراً ... فِي كُلِّ إعْلانٍ وَإسْرَارِ**

---

١. السابق، ص١٥٧.

٢. قيس الخبر وسفينة: من رواة الحديث. القلّب والحوّل: خادع ومزوّر.

٣. وجاء في رواية ابن شهر آشوب ج٢ ص٣١٨: إنّ البرص أصاب أنس بن مالك عندما رفع عليّ عليه السّلام يده إلى السّماء فقال: اللهمّ ارمِ أنساً بوضح لا يستره من النّاس.

٤. شانه: شوّهه وعابه. البرص: بياض يقع في الجسد لعلّة.

٥. الأمين، ج ٣ ص٤١٥.

٦. الديوان، الحميري، ص١٠٨.

٧. النّوك: الحمق.

٨. عرصة الدار: ساحتها.

وَأخْـرَجَ البَـاقِينَ مِنْـهُ مَعَـاً ... بِـالوَحْي مِـنْ إنْـزَالِ جَبَّـارِ

حُبَّـاً عَلِيَّـاً وَحُسَـيناً مَعَـاً ... وَالحَسَـنَ الطُّهْـرَ لِأطْهَـارِ

وَفَاطِمَـاً أهْـلُ الكِسَـاءِ الأولَـى ... خُصُّـوا بِـإكرامٍ وَإيثَـارِ

فَمُـبْغِضُ اللـهِ يَـرَى بُغْضَـهُم ... يَصِـيرُ لِلْخِـزيِ وَلِلنَّـارِ

عَلَيـهِ مِـنْ ذِي العَـرْشِ فـي فِعْلِـهِ ... وَسْـمٌ يَـرَاهُ العَائِـبُ الـزَّارِي[1]

وأنْـتَ يَـا سَـوَّارُ رَأسٌ لَهُـم ... فِـي كُـلِّ خِـزْيٍ طَالِـبُ الثَّـارِ

تَعِيـبُ مَـنْ آخَـاهُ خَيـرُ الـوَرَى ... مِـنْ بَـيْنِ أطْهَـارٍ وَأخْيَـارِ

وَقَـالَ فِـي خُـمٍّ لَـهُ مُعْلِنَـاً ... مَـالَمْ يُلَقَّـوهُ بِإنْكَـارِ

مَـنْ كُنْـتُ مَـوْلاهُ فَهَـذا لَـهُ ... مَـوْلَىً فَكونُـوا غَيـرَ كُفَّـارِ

فَعَوِّلُـوا بَعْـدِي عَلَيـهِ وَلَا ... تَبْغُـوا سَـرَابَ المَهْمَـهِ الجَـارِي

الحمق صفة مذمومة لا يرغب المرء بأن تنسب إليه ولا يحبّ الاختلاط بأصحابها، والحمق يعنى قلّة العقل، وقليل العقل صعبُ التفاهم معه؛ هذا ما استهلّ الشاعر قصيدته بمخاطبة سوّار وقد جعل له صورةً ساخرة فنيّة وهجاه بأنّه لا مثيل له في الحمق والعار. وقد أراد الشاعر من النّاس أن يبلغوا رسالته إلى المهجوّ وهذا الأمر من سمات الهجاء السياسي حيث يوجّه الشاعر خطابه إلى جمهور النّاس مستعيناً بهم على إبلاغ رسالته إلى من يهجوه.

ثمّ مضى الشاعر وتناول خبر الطائر المشويّ مخاطباً مهجوّه: إنّ ما ذكرته من حديث الطائر المشويّ لا يخالف ما رويته أنت من كتب الحديث والرواية. ثمّ أشار إلى ميزة خصّ النبيّ (ص) الإمام عليّ عليه السّلام بها. إذ أجاز للإمام (ع) أن يدخل إلى المسجد من ساحة الدار ولم يفرّق بين أن يكون جنباً أو طاهراً. وهذه ميزة مختصة لعليّ (ع) لأنّ الرسول (ص) أخرج الآخرين من المسجد على أساس الوحى المنزل من الله سبحانه وتعالى.

ولمّا عُرف القاضي سوّار بعداء أهل البيت عليهم السّلام نرى الحميري يوصيه بحبّهم

---

١. الوسم: أثر الكيّ.

وخاصّة أهل الكساء ويدعوه إلى محبّة أهل البيت ويذكر منهم الإمام عليّاً والإمام الحسين والحسن عليهم السّلام وفاطمة (س) ووصفهم جميعاً بالطّهارة والكرم والإيثار. ثمّ أشار الحميري إلى أنّ من عاداهم فهو عدوٌّ لله وينتهي مصيره إلى الخزى والعار، وفي هذا هجاء لاذع لسوّار. ثمّ مضى إلى أنّ من أبغض أهل البيت يسمه الله بوصمة عار تتّضح لكلّ من يراه.

كانت الأبيات السابقة كمقدّمة حيث مهّد الشاعر الأرضية لينال من سوّار فنراه يبلغ ذروة هجائه في البيت العاشر والحادي عشر حيث خاطب مهجوّه قائلاً إنّك رأس الهوان والذلّة لأنّك تعيب إنساناً قد جعله النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أخاً له من بين جميع الأطهار وخيرة النّاس. ثمّ مضى الشاعر وكرّر على نسق أكثر أشعاره الهجائية أحقيّة الإمام عليّ (ع) بالخلافة مذكراً إيّاه حادثة الغدير وما أعلن النبيّ (ص) فيها من خلافة الإمام (ع) وولايته بعده.

ختم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى العمل بوصيّة الرسول (ص) وشبّه الطريق الذي سلكه أعداء أهل البيت (ع) بالسّراب.

إذا دقّقنا في كلّ ما سبق لم نجد فيه أثراً بارزاً للخيال والصناعات الشعرية والتعميق فيهما ، ولاشك أنّ هذا لم يكن ضعفاً للشاعر لأنّ «التعمق في الخيال والإسراف في الصناعة الشعرية، وفي تكلّف الجزالة وسموّ العبارة يضعف الهجاء ويفقد قيمته لأنّه يباعد بينه وبين الواقع».[١]

وشعر الهجاء السياسي في الأغلب نتيجة أو ردّ فعلٍ من الشاعر على الظروف الاجتماعية المحيطة به فقد يكون الشاعر مظلوماً، أو مضطهداً، أو خلاف ذلك من المآسي الحياتية التي تحيط به. نحن نلمس ذلك عند الحميري في مقطوعته التالية التي عنوانها «الهائم الهامل» والتي يهجو فيها سوّار بن عبدالله القاضي:[٢]

جَاثَيْتُ سَوَّاراً أَبَا شَمْلَةٍ عِنْدَ الإِمَامِ الحَاكِمِ العَادِلِ

١. محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في العصر الجاهلي، ص٣٩.

٢. الحميري، الديوان، ص١٦٢.

فَقَالَ قَوْلاً خَطَلاً كُلَّهُ ... عِنْدَ الوَرَى الحَافِي أَوْ النَّاعِلِ

مَا ذَبَّ عَمَّا قُلْتُ مِنْ وَصْمَةٍ ... فِي أَهْلِهِ بَلْ لَجَّ فِي البَاطِلِ

يُبْغِضُ ذَا العَرْشِ وَمَنْ يَصْطَفِي ... قَدْ بَانَ كِذْبُ الأَنْوَكِ الجَاهِلِ

وَ يَشْنَأُ الحِبْرَ الجَوَادَ الَّذِي ... فُضِّلَ بِالفَضْلِ عَلَى الفَاضِلِ

وَيَعْتَدِي بِالحُكْمِ فِي مَعْشَرٍ ... أَدَّوا حُقُوقَ الرُّسْلِ لِلرَّاسِلِ

فَبَيَّنَ اللهُ تَزَاوِيقَهُ ... **فَصَارَ مِثْلَ الهَائِمِ الهَامِلِ**[1]

كان سوّار يضمر للسّيد عداءً وحقداً لا حدّ له، «فقد كان العداء بينه وبين السيد شديداً، وكان قد أجمع ألّا يقبل للسيّد شهادةً، وكان قد سعى بالسيّد عند المنصور غير مرّة، وكان السيّد قد هجاه، فأسرف في هجائه. فشكا ذلك إلى المنصور، فنهاه عنه، وأمره أن يذهب إلى القاضي، فيعتذر إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرته، فاستأنف السيد الهجاء وألحّ فيه. ويقال إنّ سوّاراً أعدّ شهوداً على السيّد بالسرقةِ، ليقطع يده، فعلم السيّد ذلك، فجزع وفزع إلى المنصور، فعزل المنصور سوّاراً من القضاء للسيّد أو عليه».[2]

يبدو أنّ المنصور نهى السيّد عن هجاء سوّار بعد ما ذكرنا من هجائه، فذكر صاحب الأغاني «أنّ سوّاراً اعتلّ علّته التي مات فيها فلم يقدر السيّد على هجائه في حياته لنهى المنصور إيّاه عن ذلك، ومات سوّار فأخرج عشيّاً وحفر له، فوقع الحفر في موضعٍ كنيفٍ[3]، وكان بين الأزد وبين تميم عداوة فمات عقب موته عباد بن حبيب بن المهلب، فهجا السيّد سوّاراً في قصيدة رثي بها عباداً ودفعها إلى نوائح الأزد لما بينهم وبين تميم من العداوة ولقربهم من دار سوّار ينحن بها».[4] يقول السيّد في هجائه:[5]

---

١. الهامل: النّاقة المسيبة ليلاً ونهاراً.

٢. حسين، طه، حديث الأربعاء، جـ ٢ ص٢٤٩.

٣. الكنيف: المرحاض، حظيرة من شجر للمواشي.

٤. أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص١٩٤.

٥. الحميري، الديوان، ص١١٠.

يَـا مَـنْ غَـدَا حَـامِلاً جُثْمَـانَ سَـوَّارِ ... مِـنْ دَارِهِ ظَاعِنَـاً مِنْهَـا إِلَـى النَّـارِ

لا قَـدَّسَ اللـهُ رُوحَـاً كَـانَ هَيْكَلُهَـا ... لَقَـدْ مَضَـتْ بِعَظِيمِ الخِـزْيِ وَالعَـارِ

حَتَّـى هَـوَتْ قَعْـرَ بَرَهُـوتٍ مُعَذَّبَـةً ... وَجِسْـمُهُ فِـي كَنِيـفٍ بَـيْنَ أَقْـذَارِ[1]

لَقَـدْ رَأَيْـتُ مِـنَ الرَّحْمَـانِ مُعْجِبَـةً ... فِيـهِ وَأَحْكَامُـهُ تَجْـرِي بِمِقْـدَارِ

فَأَذْهَـبْ عَلَيْـك مِـنَ الرَّحْمَـانِ بَهْلَتَـهُ ... يَـا شَـرَّ حَـيٍّ بَـرَاهُ الوَاحِـدُ البَـارِي[2]

يَـا مُبْغِضَـاً لِأَمِيـرِ المُـؤمِنِينَ وَقَـدْ ... قَـالَ النَّبِـيُّ لَـهُ مِـنْ دُونِ إِنْكَـارِ

يَـوْمَ الغَـدِيرِ وَكُـلُّ النَّـاسِ قَـدْ حَضَـرُوا ... مَـنْ كُنْـتُ مَـوْلَاهُ فِـي سِـرٍّ وَإِجْهَـارِ

هَـذَا أَخِـي وَوَصِـيِّي فِـي الأُمُـورِ وَمَـنْ ... يَقُـومُ فِـيكم مَقَـامِي عِنْـدَ تَـذْكَارِي

يَـا رَبِّ عَـادِ الَّـذِي عَـادَاهُ مِـنْ بَشَـرٍ ... وَأَصْـلِهِ فِـي جَحِـيمٍ ذَاتِ إِسْـعَارِ

وَأَنْـتَ لَا شَـك عَادَيْـتَ الإِلَـهَ بِـهِ ... فَيَـا جَحِـيمُ أَلَا هُبِّـي لِسَـوَّارِ

فيخاطب الشاعر اولئك الذين يحملون جثمان سوّار إلى قبره ويقول: لاقدّس الله روحاً يتضمّنها هذا الجسد الذي كان ملطّخاً بالخزى والهوان. يرى الحميرى أنّ روح المهجوّ قد وقعت في بئر برهوت وهى تُعذَّب كلّ يوم كما أنّ هيكله بين الأقذار والأوساخ. وسوّار باعتقاد الشاعر شرّ المخلوقات فيلعنه بلغة حادّة. ولابدّ أن ننتبه إلى أنّ سوّاراً ربّما لم يكن كما وصفه السيّد، إلّا أنّ السبب الرئيس يعود إلى معارضته للشيعة وإنكاره وصاية النّبيّ (ص) بالإمام عليّ عليه السّلام، فلذلك نلقى في هذه القصيدة تقريراً لمسألة وصاية الرسول الأعظم (ص) للإمام عليّ (ع) يوم غدير خمّ، كما أنّ أحقيّة الإمام عليّ تعدّ من أهمّ المبادئ التي نادى بها الحميري وعالجها في شعره وركز عليها تركيزاً، وردّ على خصومه من جانب آخر ردّاً حاسماً، وأهمّ ما اعتمد عليه ورآه برهاناً ثابتاً على أحقيّته هو نصّ الرسول وهى أقوى الأدلة والبراهين.

وربّما يسأل سائل لماذا ندخل أمثال هذه القصائد ضمن حديثنا عن الهجاء السياسي؟ ألم

---

١. برهوت: بئر عميقٌ بحضرموت لايستطاع النزول إلى قعرها.وقد ورد في هذه البئر أنّها مأوى أرواح الكفّار والمنافقين.

٢. البهلة: اللعنة.

يكن الحديث عمّا ذكرناه مسائل مذهبية وفردية؟ إذا لماذا تطرقنا إلى مثل هذه المسائل ونحن نعالج الهجاء السياسي؟

أقول لهذا السائل حقّاً إنّ سؤالك ونقدك في محلّه على اعتبار أنّ القضايا المذكورة في قصائدنا ربما تكون الصبغة المذهبية طاغية عليها أكثر من الصبغة السياسية الهجائية، لكنّنا لو محصنا ودققنا النظر في المستندات التي ساقها الحميري فإننا نجد أنفسنا أمام شعر سياسي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لأنّ الهدف الذي كان الحميري ينشد من أجله هو الوصول إلى هدف سياسي لا جدال فيه.

وبعد عرضنا السابق نستطيع أن نجمل خصائص الهجاء السياسي في شعر السيّد الحميري في النقاط التالية:

أوّلاً: بساطة وقرب مآخذه وابتعاده عن التعقيد والغرابة والإبهام وقربه من اللغة المتداولة، كما أنّ معانيه بعيدة كلّ البعد عن الغموض والتصنع والتكلّف، ولعلّ فيما ذكرنا من أمثلة هذا الشعر في البحث الدليل الواضح على ذلك.

ثانياً: تأثره الشديد والبالغ بالقرآن والحديث الشريف، والألفاظ والمعاني الدينية ظاهرة واضحة فيه.

ثالثاً: أخذ الهجاء السياسي عند السيّد الحميري صبغةً دينية أحياناً كثيرة، وهذه ميزة قلّما نراها عند شعراء الشيعة الآخرين في هذا العصر الذين تناولوا السلطة الحاكمة والسلطات الحاكمة قبلها بالنقد والتجريح.

ونأتي هنا بجدول يمثّل هجاء الشاعر السياسي في العصر العباسي:

جدول رقم ٣.٤ هجاء القضاة

| ١ | المهجوّ | القالب | أبياتها | الص |
|---|---|---|---|---|
| ١ | سوّار القاضي | مقطوعة | ٥ | ١١ |

| ٢ | سوّار القاضي | قصيدة | ١٣ | ٦٠ |
|---|---|---|---|---|
| ٣ | سوّار القاضي | مقطوعة | ٥ | ١١ |
| ٤ | سوّار القاضي | قصيدة | ١٤ | ١٠ |
| ٥ | سوّار القاضي | مقطوعة | ٨ | ١٦ |
| ٥ | المهديّ | مقطوعة | ٢ | |

## قيمة شعره

جعل كثير من النقاد القدامى السيّد الحميري من الشعراء المطبوعين والمتقدّمين. يقول صاحب الأغاني إنّه «كان شاعراً متقدماً مطبوعاً. يقال: إنّ أكثر النّاس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشّار وأبوالعتاهية، والسيّد فإنّه لا يُعلَم أنّ أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع».[1]

وذهب الجاحظ نفس المذهب عندما قال «المطبوعون على الشّعر من المولّدين بشّار العُقيليّ، والسّيّد الحميري وأبو العتاهية، وابن أبي عُيَينة».[2]

تناول كثير من النقاد شعر الحميري بالنقد والتجريح واختلفت آراؤهم فيه، ولنسمع بعض آراء القدماء في شعره، يقول صاحب الأغاني «وله طراز من الشعر ومذهب قلّما يُلحَق فيه أو يُقارُبه».[3] والأصمعي برغم مخالفته لمذهب السيّد العقائدي نراه يطرب لشعر السيّد ويعجب به ويثني على شعره ويقول: «قاتله الله ما أسلكه لطريق لسبيل الشعراء! والله لولا ما في شعره

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٤٩.

٢. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١ ص٥٠.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٤٩.

من سبّ السلف لما تقدّمه من طبقته من أحد».[١] ويعجب أيضاً بشعر السيّد ويشيد بمذهبه الشعبى ويقول: «كان شاعراً ظريفاً حسن النمط مطبوعاً جدّاً محكم الشعر مع ذلك».[٢] والعتبى يعدّه من أبرز وألمع شعراء هذا المذهب ويقول: «ليس في عصرنا هذا أحسن مذهباً في شعره ولا أنقى ألفاظاً من السيّد».[٣]

وكما أعجب النقاد والمؤرخون بشعر السيّد أعجب أيضاً الشعراء به. هذا ما أشار إليه بشار بن برد وأشاد بشعره ومدحه برغم هجاء السيّد له والسخرية منه، يقول: «لولا أنّ هذا الرجل قد شغل عنّا بمديح بني هاشم لشغلنا ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا».[٤]

وكما نال شعر السيد إعجاب النقاد والمؤرخين السلف نال إعجاب النقاد المحدثين ومدحوه وأشادوا بمذهبه الشعري. يقول عميد الأدب العربي «إنّه كان سهلاً مطبوعاً شديد النفرة من الغريب، وقد سئل عن ذلك، فأجاب بأنّه يؤثر أن يقول كلاماً يُعجَب به الرواة. وهذا طبيعيّ بالقياس إلى شاعر سياسي يدافع عن حزبٍ مضطهدٍ كالسيّد الحميري، فهو لا ينظم شعره للخاصّة وحدهم وإنّما ينظمه للعامّة الذين يريد أن يتّخذ منهم أنصاراً».[٥]

ويرى أحد الباحثين المعاصرين أنّه «يجري شعر السيّد سهولة ويسراً وهكذا تتبين قوته التي اكتسبها من الطبع الجارف وتجنّب الغريب والعويص والنفور من الفكرة العميقة البعيدة، فشعره كلام منغوم ولهذا كان موقعه محبباً إلى القلوب».[٦] ويرى هذا الباحث أنّ أهمّ ميزة تميّز شعر السيّد هو قوّة الطبع، ونقاء اللفظ، والبعد عن التكلّف بعداً كان يقرب بينه وبين

---

١. السابق، جـ ٧ ص٢٥٥.

٢. ابن سلام الجمحي، محمد. طبقات فحول الشعراء، قرأه و شرحه: أبوالفهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ص٣٢.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٦٧.

٤. السابق، جـ ٧ ص٢٥٦.

٥. حسين، طه. حديث الأربعاء، جـ ٢ ص٢٤٩.

٦. البهبيتي، محمد نجيب. تاريخ لاشعر العربي حتّى آخر القرن الثالث الهجري، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م، ص٣٣٢.

نفوس الناس.[١]

ولم يكن الإعجاب به وقفاً على العلماء «فمن أهل البادية من كان يعجب بـه وإنـا لنسـمع تميمياً يقول عن السيد: هو أحد المطبوعين وهو والله أشعر من صاحبنا [يعني أنـه أشـعر مـن جرير] ».[٢]

ولعلّ أهمّ ميزة تبدّت للدارس أثناء دارسة الهجاء السياسي في شعره هى الوضـوح وابتعـاد الشاعر من التكلّف والغرابة والصنعة في شعره. قيل له: «مـا لـك لا تسـتعمل فـي شـعرك مـن الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال: لأن أقول شعراً قريباً من القلوب، يلذه من سمعه خيرٌ من أقول شيئاً متعقداً تضلّ فيه الأوهام».[٣]

---

١. انظر: السابق، ص٣٣٠.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٥٩.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٧ ص٢٦٨.

# الفصل الرابع: الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي

## دعبل بن علي الخزاعي

ينتسب دعبل بن علي الخزاعي إلى قبيلة عربية يمانية، هي قبيلة خزاعة[١] التي يعود نسبها إلى مضر وخزاعة، وكانت تقيم في جنوب الجزيرة العربية قبيل القرن الثاني للميلاد.

وفي أوائل هذا القرن حصل قحطٌ شديد وجدب عظيم بسبب انهيار سدّ مأرب نتيجة سيل العرم الذي فاض ودمّر السدّ، فنزحت بعض القبائل عن موطنها، ومنها خزاعة واتّجهت نحو الشّمال، فوصلت إلى بطاح مكة، واستقرّت فيها بعد نزاع وقتال مع قبيلة جُرهم المستوطنة في تلك الرّبوع[٢] حيث أجلتها عن البلاد وحلّت محلّها ثمّ وليت أمر البيت الحرام.

يقول المسعودي «إنّ ولاية البيت بقيت في خزاعة قرابة ثلاثمائة سنة»[٣] كما ذكر أنّهم وقفوا بجانب عبد المطّلب بن هاشم ـ جدّ النبيّ ـ حلفاء له يناصرونه على عمّه نوفل بن عبد مناف كما ثبت أنّهم انحازوا إلى الرّسول الأعظم (ص) في صلح الحديبية الذي عقد بين قريش والمسلمين. ولمّا تمّ فتح مكة للنّبي الكريم (ص) كاتب بديل بن ورقاء الخزاعي للدّخول في الإسلام فلبّى الدعوة وحضر مع ابنه عبدالله وبايع الرّسول على السمع والطاعة، وهكذا دخل أخوه خزاعة في الدين الجديد تباعاً.

---

١. تضاربت آراء القدماء حول نسبة دعبل إلى خزاعة، فأبوالفرج الأصفهاني والخطيب البغدادي يجمعان على أنّ دعبلاً ينتهي إلى البيت الرفيع من خزاعة (انظر: الأغاني ٢٠:١٤٤. تاريخ بغداد ٨:٣٨٢). أما ياقوت الحموي وابن خلّكان فقد أثبتا أنّ نسبته إلى خزاعة كانت بالولاء (انظر: معجم الأدباء ١١:١٠٠. وفيات الأعيان ٢:٢٦٦).

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص٦٨ .

٣. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢ ص٣١.

وقد حارب بديل مع الإمام عليّ (ع) في معركة صفّين وقتل فيها[١] ومن هذا نستدلّ على إخلاص أحفاد خزاعة لآل البيت (ع) فكانوا خالصي الودّ لهم ممّا دفع معاوية بن أبي سفيان إلى أن يقول: «خزاعة بلغوا في الولاء لعليّ حدّاً لو أمكن لنسائهم محاربتنا لحاربتنا»[٢] ونتيجة ولائهم لآل البيت اشتهروا فيما بعد بالتشيع، وهذا ما يؤكد تشيع دعبل بن علي الخزاعي وقوّة دفاعه عن آل البيت (ع).

**حياة الشاعر**

روى اسماعيل بن علي بن أخي دعبل عن ولادة الشاعر قائلاً: «إنّ عمّي دعبلاً ولد في الكوفة في خلافة أبي جعفر المنصور عام ١٤٨ه».[٣] هذا التاريخ لولادة الشاعر يبدو صحيحاً لأنّنا نرى جمهرة من المؤرخين لأحداث العصر أخذوا عنه كالجاحظ والطبري وابن النّديم والخطيب البغدادي وياقوت الحموي وابن خلّكان. ويؤيّد ما ذهبنا إليه بعض الأدلّة فالمعروف أنّ دعبلاً ترعرع في كنف مسلم بن الوليد، وكان قد ولد عام ١٣٨ه.[٤]

فقد وقع خلاف بين المؤرخين في مكان ولادته، واستناداً إلى رواية ابن أخيه التي تشهد بولادته في الكوفة، نجد أكثر المؤرخين المذكورين آنفاً قد أخذوا بهذه الرواية وأثبتوا صحّتها وأضافوا أنّه من بيتٍ معروف في خزاعة بالفصاحة والشعر وأنّه أمضى فترة شبابه فيها ولم يخرج منها إلّا سنة ١٧٥ه حيث قضى سبعاً وعشرين سنة يعيش بين أهله وذويه ويختلف منذ حداثة سنّه ونعومة أظفاره إلى حلقات الدرس في الكوفة. لكن الصّولي روى أنّه ولد في قرقيسيا[٥]

---

١. السابق، جـ ٢ ص٣٨٨.

٢. ابن عبد ربه، جـ ٣ ص٣٨١.

٣. الأميني، جـ ٢ ص٣٦٦.

٤. انظر: البستاني، بطرس. أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م، ١١٣.

٥. انظر: الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى، أخبار البحتري، دار الفكر دمشق، ١٩٦٤م، ٦٦. قرقيسيا بلدة تقع على نهر الخابور تبعد ٦ فراسخ عن رحبة مالك بن طوق، وعندها يصب الخابور في الفرات، وقد فتحت هي والجزيرة على يد حبيب بن سلمة الفهري من قوّاد عاض بن غنم (انظر: الحموي معجم البلدان ٤١٨:٤).

ومن الجدير بالذكر أنّ مصادر القرنين الثالث والرابع لم تتناول هذه المسألة حتى أنّ الأغاني الذي يعدّ أوسع مصادرنا عن الشاعر لم يذكر غير الكوفة.[١]

## وفاة الشاعر

توفي دعبل بن علي الخزاعي سنة ٢٤٦ﻫ بعد عمرٍ قارب القرن، فقد ثبت أنّه عاش ٩٨ عاماً قضاها في التنقل والترحال، ومناوئة كلّ من وقف من آل البيت موقف الخصوم، وقد مات قتلاً، وكأنّ نبوءة أبي خالد الخزاعي قد صدقت حين سمعه يهجو النّاس ويبدي رأيه فيهم، قال: هذا ـ والله ـ مقال من لا يموت حتف أنفه.[٢]

وكما اتّفق أكثر المؤرخين في سنة ولادته، نراهم كذلك متّفقين أنّ السنة المذكورة هي التي توفي فيها الشاعر.[٣]

## بيئة الشاعر

ولد دعبل الخزاعي في الكوفة، وهي كانت آنذاك تحت نفوذ شيعيّ واسع، وقد شهدت صراعاً سياسياً عنيفاً. تعتبر ثورة المختار الثقفي أوّل ثورة شيعيّة مسلّحة وهي أهمّ ثورات الشيعة المسلّحة التي شهدتها الكوفة، ثمّ نرى فيها أحداثاً كبيرةً منها ظهور الدعوة العباسية واستيلاء أبي العباس السفّاح على الخلافة سنة ١٣٢ﻫ، ومقتل أبي سلمة الخلال على أيدي رجال أبي جعفر المنصور، وكان أبو سلمة يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد الإمام عليّ (ع).

جلس أبو جعفر المنصور على أريكة الحكم سنة ١٣٦ﻫ، وخطّط لمقتل أبي مسلم الخراساني بعد سنة واحدة من تولّيه الخلافة، ممّا أدّى إلى سخط الشيعة، وسبّب ثورة محمد بن عبدالله الملقّب بالنفس الزكيّة.

---

١. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ صـ٦٨.

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ صـ١٣١.

٣. من هؤلاء المؤرخين الذين اتفقوا على سنة وفاته، الجاحظ في الحيوان ٢:٣٧٤ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨:٣٨٢، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ١١:١٠٢ وابن خلكان في وفيات الأعيان ٥:٢٦٤والنويري في نهاية الأرب ٣:٩١ وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢:٣٢٢.

إنّ استمرار الثورات والأحداث يجعلنا نؤكد على أنّ ما أصاب السلطة العباسية من تقهقر واضطراب كان نتيجة النزاع الشائع بين العلويين والعباسيين، وكان لكلا الفريقين مؤيدون من الشعراء والأدباء، فقد التفّ بعضهم حول أئمة الشيعة عليهم السلام ومدحوهم ودافعوا عن حقّهم في الخلافة أمثال الكميت بن زيد [في العصر الأموي] والسيّد الحميري ودعبل بن علي الخزاعي [في العصر العباسي].[١]

لا شك أنّ دعبلاً أحبّ آل البيت منذ ولادته، وحافظ على هذا الحبّ طوال حياته، ونرى أنّ الفضل في ذلك يعود إلى نشأته في الكوفة. فقد سمع شعر الكميت بن زيد ورواه وحفظه، ورأى أسلوبه في الدفاع عن آل البيت عليهم السلام، كما أنّه درس شعر السيّد الحميري واستوعب أفكاره ومضامينه، ومن جرّاء ذلك حصل على معين خصب وثقافةٍ واسعةٍ في الشعر الشيعي.

نظنّ أنّه كان يجتمع بزعماء الشيعة في الكوفة ويستمع إلى إرشاداتهم وتوجيهاتهم كلّما سمحت له الظروف، فلا غرو إذن أن يتغلغل حبّ آل البيت عليهم السلام في أعماق نفسه ويسيطر على أفكاره ومشاعره. وقد ثبت أنّه سخّر مواهبه الفنيّة وشاعريته في خدمتهم والوقوف أمام أعدائهم طوال عمره، فـ «كان حبّ آل البيت [عليهم السلام] مذهبه وعقيدته، فقد نافح عنهم وجاهر بموالاتهم ورغب في الوقيعة بمناوئيهم».[٢]

## عقيدة الشاعر

اتّخذ الشاعر منذ نشأته الأولى مبدأً سار عليه ولم يتراجع عنه طوال عمره، هذا المبدأ يقوم على مناصرة آل البيت عليهم السّلام وإبراز حقّهم في الخلافة؛ وقد دفعه إلى مخاصمة خلفاء بني العبّاس وكلّ من وقف في الصفّ المعادي لآل البيت.كان دعبل يرى أنّ مودّة أهل البيت دين وبغضهم كفرٌ، وذلك غاية الصدق في الحبّ. لقد وُلِدَت هذه المودّة في نفسه منذ

---

١. الأميني، جـ ٢ ص٣٦٨.

٢. السابق، جـ ٢ ص٣٧٠.

ذلك اليوم الذي أُغتُصِبَ حقُّ الإمام علي (ع) في الخلافة، وكان الإمام يرى نفسه صاحب الخلافة الحقيقي، فتأصلت جذور ذلك في نفس الشاعر حتى استحالت إلى عقيدة راسخة بحيث قضى عمره في الدفاع عن حقّهم ولقى في هذا الطريق مصائب وآلاماً كثيرة تدلّ على صدقه وإخلاصه.

أثّرت نشأته في مدينة الكوفة تأثيراً عظيماً في عقيدته، لأنّها مدينة شيعيّة كان يسمع فيها فضائل الإمام عليّ (ع) وأهل بيته. وإذا شئنا أن نتبيّن مقدار صدق عقيدته في آل البيت، فعلينا أن نقرأ شعره الذي هجا به الخلفاء العباسيين، فهو أصدق شاهد على تشيعه. ولقد شهد له أبو الفرج الأصفهاني بصدق تشيعه فقال: «كان دعبل بن علي من الشيعة المشهورين بالميل إلى عليّ».[١]

لقد حبّب إليه الدّفاع عن آل البيت عليهم السلام أن يستجيب لنداء الضّمير وصوت العقيدة، فأغمض عينيه عن صلات الرشيد وجوائز المأمون وولاية أسوان من قبل المطّلب الخزاعي، فكان صورة متمردة للوضع السياسي الفاسد في عصره.

والذي نريد إثباته هنا هو أنّه لم يتغيّر عن مبدئه ولم ينحرف عن مذهبه رغم المخاطر التي واجهته، بل شقّ طريقه بجرأةٍ إلى تحقيق كفاحه ضدّ السلطة الحاكمة، لأنّه من قبيلة خزاعة التي عرفت بالولاء التامّ لآل البيت إذ تحالفت مع الرسول الأعظم (ص) في بداية دعوته ويؤيّده ما قاله معاوية بن أبي سفيان من أنّ «خزاعة لو أمكن لنسائها مُحاربتنا لَحارَبَتْنا».[٢]

ولا ندري لماذا اتّهمه أبو العلاء المعري بالتملّق، وتشكك في عقيدته حيث يقول: «وما يلحقني الشك في أنّ دعبل بن علي لم يكن له دين، وكلّ ما في الأمر أنّه تظاهر في التشيّع وتملّق لآل البيت وإنّما كان غرضه التكسّب».[٣]

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٣٢.

٢. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت، جـ ١٦ ص٢٤.

٣. المعري، أبوالعلاء. رسالة الغفران، الطبعة ٦، تحقيق: الدكتورة عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص٢٠٧.

يبدو أنّ الذي دفع المعرّي إلى أن يتّهم الشاعر بالتملّق والتظاهر بالتشيّع، ما نقلته الكتب من أخبار مجون الشاعر ومصاحبته للشطّار، ولكن هذا ـ إن صحّ ـ كان في شبابه وسنّ مراهقته ولم يرافقه طوال عمره، بل ترك كلّ ما اُتُّهِم به منذ انتقاله إلى بغداد وزيارته الإمام الرضا (ع). وفي هذه الفترة من حياة الشاعر لا نجد أحداً يتّهمه بالمجون، مما يجعلنا نقرر أنّ المعري حكم على الشاعر حكماً مبكراً.

اتخذ ايمان دعبل بآل البيت مظهرين في التعبير عن نفسه:

الأول: مظهر النقد اللاذع للحكام العباسيين ومن يبدي لهم موالاةً من القضاة أمثال أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة والقاضي يحيى بن أكثم والقوّاد أمثال طاهر بن الحسين وولاتهم أمثال المطلب بن عبدالله والي مصر والوزراء كالوزيرين أحمد بن أبي خالد وأبي عباد وكل من يتّبع سياسة السلطة العباسية.

الثاني: أما المظهر الآخر الذي عبّر به دعبل عنه هو ايمانه بقيادة آل البيت (ع) لأنّه رآهم «قائمين على تعميق الخطّ الرسالي الممتدّ من آدم حتّى محمد (ص) وبلورته عبر الظروف السياسية المختلفة التي مرّت بها الأمة».[1] فكان يمدح الأئمة ولايرجو منهم مكسباً مادياً وإنما يعبّر به عن ولائه السياسي وتعاطفه الروحي معهم. كان ايمانه بهم مستنداً إلى القرآن والسنّة النبوية وليس عاطفة خاليةً لا تقوم على أساس متين:[2]

**نَطَقَ القُرآنُ بِفَضْلِ آلِ مُحَمَّدٍ وَوِلايَةِ لِعَلِيِّهِم لَمْ تُجْحَدِ**

**بِوِلايَةِ المُخْتارِ مَنْ خَيْرُ الوَرَى بَعْدَ النَّبِيّ الصَّادِقِ المُتَوَدِّدِ**

كان حبّ أهل البيت عليهم السلام يلازم الشاعر طوال حياته، كما أنّ بغض أعدائهم وأعداء الإسلام كان يلازمه دائماً. كان يعتقد أنّ قتل أئمة الشيعة كفر وضلالٌ يستوجب أن

١. موسى، حسين. دعبل بن علي الخزاعي، الطبعة ١، الدار الإسلامية، ١٩٨٠م، ص٧.

٢. الخزاعي، عبل بن علي، الديوان، جمعه وقدّم له: عبدالصاحب عمران الدجيلي، الطبعة ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص١٧٥.

يتبرأ الإنسان من قَتَلَتِهم، وأن يلعنهم في الصلوات صباحاً ومساءً. اسمعه يقول:[١]

**سَأقْنُتُ طُولَ الدَهْرِ ما هَبَّتِ الصَّبا وأقْنُتُ بِالآصالِ وَالغُدُواتِ**

**عَلى مَعْشَرٍ ضَلّوا جَميعاً وَضَيَّعُوا مَقالَ رَسُولِ اللهِ بِالشُّبَهاتِ**

## مواقف الشاعر السياسية

لا نبالغ إذا قلنا إنّ دعبلاً الخزاعي أكبر شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول في تصدّيه للانحراف والأوضاع السياسية القائمة، وفي تنويره الرأى العام وتوعيته في المجتمع العباسي. مع الأسف حاولت المصادر الأدبية تشويه صورة هذا الشاعر الكبير، وجعل أصحاب تلك المصادر ما نقله صاحب كتاب الأغاني ذريعةً للهجوم عليه. حاول أبوالفرج أن يجمع أخباراً موهمة ومضطربة حتى يرسم له صورة رجل خطير ومجرم شرير، لذلك وصفه بأنّه: «هجّاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم».[٢] ويبدو أنّ سائر المصادر استقت مما رسمه صاحب الأغاني لدعبل، فصوّرته بصورةٍ مشوّهة. نرى أباالعلاء المعرّي يجرّد الشاعر من الدين حيث يقول: «وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين وكان يتظاهر بالتشيع وإنّما غرضه التكسّب».[٣] ونرى بعض الباحثين المعاصرين وسّعوا دائرة اتهاماتهم نحو دعبل ذاكراً أنه «كان مولعاً بالشراب متهتكاً خبيث الهجاء».[٤]

والواقع أنّنا لا نريد هنا أن نذكر شيئاً على حساب العصبية والطائفية ولا نريد أن ننفي تلك التّهم الموجّهة إليه من ولعه بالشراب وممارسته الصّعلكة، بل نقول إنّ الشعر المتبقّي منه لايعكس فعلاً ذلك التّهم، فعلى هذا الأساس نرى أنّ دعبلاً لم يكن يتشيع ولم تكن غايته من الشعر التكسب كما ظنّ أبو العلاء المعري، فلو كان يريد التكسّب والجاه، لكانت أبواب قصور

---

١. السابق، ص١٥١.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ١٨ ص١٣١.

٣. المعري، ص٢٠٧.

٤. هدارة، ص٣٤٦.

الخلفاء مفتوحة أمامه. بل كان شيعياً مخلصاً كما يبدو من دراسة ديوانه إذ كثر شعره في أهل البيت، ودفاعه عن أحقّيّتهم في الخلافة، كما كثر شعره في هجاء الخلفاء والوزراء والعمّال العباسيين، والإدلاء بآرائه في مختلف المواقف السياسية والاجتماعية.

كان دعبل يعتقد أن مكانة الشاعر تتعارض مع مديح الخلفاء والوزراء وتقبيل أيديهم، ومداراة المنحرفين، فلذلك رأى أن يقوم بمهمته الإنسانية في بيان الواقع وإعلانه. و«قد انفرد دعبل بهذه الجرأة في مواجهة هؤلاء بواقعهم، كما انفرد بصرامته وصراحته دون تهيّب ورهبة، واحتفظ بهذه الجرأة حتى النهاية فلم يصبها الفتور في مختلف المناسبات والمواقف التي تنخلع فيها القلوب، ولم يعرف الرياء والملق ولا الخوف والفرق إلى نفسه سبيلاً وعاش يتحدى أشدّ الرجال إذا ما استدعته أهدافه إلى ذلك».[١] ويرى شوقي ضيف أن الشاعر الإمامي الوحيد الذي جاهر بموقفه من العباسيين هو دعبل الخزاعي.[٢]

## تقييم آراء أبي الفرج

أشرنا فيما سبق إلى أنّ أبا الفرج الأصفهاني وهو أقدم من ترجم لدعبل، وصفه بأنّه هجّاء خبيث اللّسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم. نحن إذا راجعنا كتاب الأغاني نرى صاحبه يرسم هذه الصورة لكثير من الشعراء فكأنّ هذه الأوصاف والألفاظ كانت اعتياديّةً عنده، ونحن هنا نذكر عدّةً منها حتّى تتبيّن الحقيقة للقارئ. ذكر في ترجمة عيينة بن مرداس الملقب بابن نسوة أنّه: «هجّاء خبيث اللسان، بذئ، كان فاحشاً كثير الشرّ، وكان لايزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه»[٣] وقال في ترجمة الوليد بن حنيفة الملقب بأبو حزابة: «شاعر بدويّ حضر وسكن البصرة وكان شاعراً راجزاً فصيحاً، خبيث اللّسان،

---

١. ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمعه وقدّم له وحققه: عبدالصاحب عمران الدجيلي، الطبعة ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م، ص٦٧.

٢. انظر: ضيف، شوقي. العصر العباسي الأول، ص٣٠٨.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، ج ١٩ ص١٤٣.

هجّاء»[١] وذكر في ترجمة الحكم بن عبدل نفس الأوصاف قائلاً: «إنّه شاعر مجيد مقدّم في طبقته، هجّاء خبيث اللّسان»[٢] كما أنّه يكرّر هذه العبارات التقليديّة مرّة أخرى عندما يتحدّث عن الشاعر الحزين الكناني ذاكراً أنّه «كان هجّاء خبيث اللّسان، ساقطاً يرضيه اليسير، يتكسّب بالشرّ وهجاء النّاس»[٣] وأخيراً نذكر ما قاله عن ابن الخياط أنّه «كان ماجناً خليعاً هجّاءً خبيث اللّسان».[٤]

يبدو من خلال ما أبنّاه أنّ هذه الأوصاف التي ذكرها أبوالفرج ربما تدلّ على مقدرة الشاعر الفنيّة في الهجاء ودقائقه، والإتيان بالمعانى النّادرة فيه، ولاشك أنّها لاتدلّ فعلاً على مدلول كلمة الخبث الذي نعرفه اليوم.

## التزام الشاعر السياسي

تضاربت آراء الباحثين حول مفهوم الالتزام؛ وأمّا المفهوم الذي يكاد يقبله أكثر الباحثين أنّه «كان مرتبطاً بالعقيدة، منبثقاً من شدّة الإيمان بها، صادراً في جميع أشكاله وأحواله عن ايديولوجية معيّنة يدين بها الفكر الملتزم».[٥] والمراد بالأدب الملتزم هو الأدب الذي يشارك في القضايا المرتبطة بالشعب ويدافع عن مصالحه، ويناضل من أجل رفعته وتحرره مع إيمان شديد بعقيدة كاتبه وشاعره. وهو الأدب المهتم بأوضاع الشعب الكادح مصوراً المجتمع تصويراً واقعياً، من أجل انتقاده ومن أجل تغييره نحو الأفضل، وتبقى المصلحة الشعبية لديه فوق كل اعتبار.

يعتقد أكثر الباحثين أن الالتزام في الأدب والفنون وليد المدرسة الواقعية في اوربا في القرن التاسع عشر الميلادي، هؤلاء يرون أنّ الإتجاه الواقعي الاشتراكي الذي اتّسم به

---

١. السابق، جـ ٢٢ ص٢٦١.
٢. السابق، جـ ٢ ص٣٩٦.
٣. السابق، جـ ١٤ ص٧٦.
٤. السابق، جـ ٢ ص٢٦٣.
٥. أبوحاقة، أحمد. الالتزام في الشعر العربي، الطبعة ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٤.

التفكير والمذاهب الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هو الذي وجّه الأدب نحو الحياة وعمّق صلته بها وجعله يهتمّ أبلغ الاهتمام بمشكلات المجتمع وقضايا الإنسان الكبرى غير أننا نرى أن الالتزام كان قرين الانسان في إنتاجاته الفكرية منذ القديم، وأنّ الشعراء والأدباء الأقدمين كانوا يعرفون هذه الأمور، إلّا أنّهم لم يكونوا يفهمون هذه الأمور فهماً نظرياً. إذن الالتزام موجود في كلّ عصر وفي كلّ بيئة، لكنّ التنظير له يعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي.

إذا كان مفهوم الالتزام مشاركة الشاعر والأديب «مشاركات واعية في القضايا الإنسانية الكبرى السياسية والإجتماعية والفكرية»[١] فدعبل الخزاعي يعدّ في طليعة شعراء الشيعة الملتزمين في العصر العباسي، لأنّه وقف شعره على المشاركة في القضايا المتعلقة بالمجتمع. هذه المشاركة كانت تتطلّب منه صراحةً ووضوحاً وإخلاصاً وصدقاً، وكان يتحمل المخاطر التي تترتب على هذا الإلتزام. أو لم يكن يحمل خشبته على عاتقه خمسين سنة؟

لا نبالغ إذا قلنا إنّ أهمّ ميزة يمتاز به شعر دعبل هو التزامه السياسي حتّى غلب الطابع السياسي على ديوانه.كان التزامه السياسي نابعاً من عقيدة شيعية تخالف الظلم والعدوان والطغيان، ومن ايمانٍ صادق بانتصار الحقّ «هذا الإيمان الذي رفع الشاعر في تاريخ الشعر العربي إلى مرتبة شعراء الالتزام السياسي ورفع شعره إلى مرتبة الدعوات ذات المحتوى الإنساني الباهر الأثر في تاريخ الكفاح من أجل العدالة واستقامة معنى الحكم، وتقوية قدرة المحكوم على تقويم الحاكم وإلزامه بما ألزم به نفسه، منذ تصدى لحمل تبعات الحكم»[٢] يتأثر الشاعر في أيّ عصر من العصور بالبيئة التي يعيش فيها سلباً وايجاباً، وهذا التأثر يختلف بين شاعر وآخر.كان دعبل شاعراً اهتمّ بقضايا مجتمعه وتنبّه إلى المسؤولية التي يتحمّلها في معالجة تلك القضايا وفق رؤية خاصة حيث كان يؤثّر في مجتمعه ويعمل على إصلاحه.كان

---

١. أبوحاقة، ص١٣.

٢. مجلة الموقف الأدبي، العدد ٣٦٦، ص١٥.

يصدر في آرائه السياسية عن ايديولوجية معينة، وكان يتّخذ موقفه السياسي من خلال شعوره بالمسؤولية أمام المجتمع وشعبه المظلوم. فنراه لم يترك حدثاً عاصره إلّا وساهم فيه بالتعبير عنه في شعره معارضاً أو مؤيداً.

يتمثّل التزام دعبل السياسي في تمحيص شعره في مدائح أهل البيت ومواجهة أعدائهم وتصوير انحرافات السلطة الحاكمة. فلذلك اتخذ الالتزام السياسي عنده «مظهر النقد اللاذع للحكام العباسيين ومرتزقتهم ومن يدور في فلكهم من القضاة أمثال أحمد بن أبى دؤاد قاضي القضاة ويحيى بن أكثم القاضي ومن الوزراء أمثال أحمد بن أبي خالد وأبي عباد وكلّ من يسير في ركب الجهاز الحاكم من أجهزة دعايته».[١]

واكب شعر دعبل في هذه الفترة غالبية الأحداث السياسية التي شهدها العصر و«حاول قدر جهده ـ كما يبدو من خلال ديوانه ـ أن يصوّر حياة عصره تصويراً فنياً دقيقاً حتى يجعل من شعره مرآة تتجلّى فيها ألوان الحياة في عصره من اضطراب سياسي إلى مجون وترف وخلاعة وتهتك، إلى نهضة فكرية ونقدية حتى جعل من شعره لساناً ناطقاً لطائفة من الناس وصورة حية لواقع المجتمع والعصر».[٢]

## الشاعر في بلاط العباسيين

اعتاد الملوك من قديم الزمن حتّى يومنا هذا أن يجذبوا أصحاب المواهب والأفكار الفذّة إليهم ليتّخذوا منهم ندماء، ومن هنا يسخّروا أدبهم لإشادة السلطة الحاكمة وأعمالها. فكان دعبل آنذاك يسلك طريق التقّدم شيئاً فشيئاً، وأخذ النّاس يتناقلون أخبار شهرة دعبل الأدبية وأخذ المغنّون ينشدون أشعاره الجميلة :[٣]

**أيـــنَ الشَّـــبابُ وَأيّـــةً سَـــلَكا لا أيـــنَ يُطْلَـــبُ ضَـــلَّ بَـــلْ هلَكـــا**

---

١. موسى، ص٢٤.

٢. عويضة، كامل محمد محمد، دعبل بن علي الخزاعي، الصورة الفنية في شعره، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص٢٤.

٣. الخزاعي، الديوان، ص٢٤٩.

**لا تَعْجَبي يا سَلْمُ مِن رَجُلٍ ضَحِكَ المَشيبُ بِرأسِهِ فَبَكى**

وغنّاها يحيى بن المكي صديق الشاعر وشاع «فغنّى به بين يدى الرشيد إمّا ابن جامع أو ابن المكي فطرب الرشيد وسأل عن قائل الشعر، فقيل له: دعبل بن علي، وهو غلام نشأ من خزاعة. فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه، فأحضر ذلك، فدفعه مع مركبٍ من مراكبه إلى خادم من خاصته وقال له: اذهب بهذا إلى خزاعة فاسأل عن دعبل بن علي، فإذا دُلِلتَ عليه فاعطه هذا، وقل له: ليحضُر إن شاء وإن لم يجب ذلك فدعه وأمر للمغنّي بجائزةٍ. فسار الغلام إلى دعبل وأعطاه الجائزة، وأشار عليه بالمسير إليه. فلمّا دخل عليه وسلّم، أمره بالجلوس فجلس، واستنشده الشعر فأنشده إيّاه. فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنيّاً»[١] عاش دعبل منعّماً في بلاط الخليفة متخذاً التورية وسيلةً لكيلا يعرف عنه ميله إلى الشيعة وكان الرشيد في هذه الفترة يضع الإرصاد والقيود على تحركات الشيعة المناوئين للحكم.[٢]

عرف دعبل في بلاط هارون الرشيد ما كان من التّرف والمجون والتّفاهة، وعرف أنّه لم يبق في بلاطه من الإسلام إلّا أحكام معطّلة، وأعطاه دخولُه في بلاط هارون الرشيد فرصة طيّبة له حتّى «يطّلع على ما يجري وراء الكواليس ممّا خفي على العامّة ويرى الوجه الحقيقي للخليفة عارياً يستقبل به سراريه ونساءه وخمرته وندماءه وهو غير الوجه الذي يرتديه للأمّة الإسلامية حين يخرج لصلاة الجمعة يصلّي بالنّاس الجمعة ويخطب خطبتها، فتكشّفت لعينى دعبل حقيقة هذا الخليفة المزعوم الذي يدبّر المؤمرات ليقضي على خصومه ويقتل المعارضة وهم من أتباع آل البيت»[٣] الأمر الذي حدث للبرامكة وهم كانوا يوالون أهل البيت (ع) ولمّا ظهرت حقيقة أمرهم له نكل بهم تنكيلاً ذكرت تفاصيله كتب التاريخ.

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٩٣-١٩٤.

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني *مقاتل الطالبيين*، شرح و تحقيق: أحمد صقر، الطبعة ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت، ص٤٠٦-٤٠٦.

٣. موسى، ص٢٢.

## موقف الشاعر من نكبة البرامكة

ظلّ دعبل يتردّد على بلاط هارون الرشيد حتى سنة ١٨٧ه وإلى أن حدثت نكبة البرامكة[١] في نفس السنة فآلمه ما أصابهم من فجيعة، وكان يعلم أنّهم يعطفون على آل البيت ويؤيّدون حقّهم في الخلافة سرّاً. ولم تكن نكبة البرامكة الحادثة الوحيدة التي تألّم دعبل بها، بل جرت أمامه حوادث مزعجة خلال فترة وجوده في البلاط، ولكنّه كان يغمض عينيه على ما يراه ولا يتعرّض لشئ مخافة أن يعرف هارون الرشيد حقيقة أمره وأنّه شاعر يخفى التشيع. شهد دعبل مقتل يحيى بن عبدالله أخي ابراهيم ذي النفس الزكية الذي خرج على طاعة الخليفة، فاستطاع رجاله من القبض عليه، فقتلوه بعد أن كتب الخليفة له أماناً كما شهد في عام ١٨٣ه استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام إثر مؤامرة من جانب هارون الرشيد.[٢]

لا نشك أنّ كلّ هذه الحوادث المؤسفة التي شهدها دعبل خلال وجوده في بلاط العباسيين كانت تزعجه وتؤلمه، ولكنّه كان يحاول تجاهلها وعندما شهد نكبة البرامكة لم يستطع أن يتحمّل كلّ هذا، فتحرّكت في نفسه العواصف الدينية، فرثى البرامكة وبكى أيامهم تعبيراً عن حبّه لهم:[٣]

**أَلمْ تَرَ صَرْفَ الدّهْرِ فِي آلِ بَرْمَكٍ ... وَفي أبْنِ نَهيك وَالقُرُونِ التي تَخْلُو[٤]**

**لَقَدْ غُرِسُوا غَرْسَ النَخِيلِ تَمَكّناً ... وَما حُصِدُوا إلّا كما حُصِدَ البَقْلُ**

ونحن نرى في رثاء دعبل في البرامكة لوناً من التحدّي الصريح لسياسة هارون الرّشيد، كما أنّه إعلانٌ للعصيان والتمرّد من قبل الشاعر، ونراه لم يكتفِ بهذا بل أخذ يبكي ما حلّ

---

١. البرامكة جمع برمك من مجوس بلخ. كان جدّهم (الموبذ برمك) يخدم هيكلاً فيها وكان عظيم القدر حسن المعرفة بالفلك والطبّ والفلسفة، أسلم أولاده ونالوا حظوة في الدولة العباسية إذ وزر ابنه خالد للسّفاح والمنصور، كما وزر يحيى بن خالد للرّشيد وتولّى ابناه الفضل وجعفر الوزارة وظهرت دولة البرامكة وسقطت في نكبتهم (انظر البلاذري أنساب الأشراف ١: ٥٤٥).

٢. انظر: المسعودي، مروج لاذهب، جـ ٣ ص٣٦٥.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص ٢٥٩.

٤. وابن نهيك هو ابراهيم بن عثمان بن نهيك قتله الرشيد في السنة التي نكب فيها البرامكة.

بجعفر وأبيه يحيى على يد الرشيد فقال:[١]

**وَلمّا رأيتُ السَيفَ جَلَّلَ جَعْفَراً ... وَنادَى مُنادٍ لِلخَليفَةِ فِي يَحْيَى**

**بَكَيتُ عَلَى الدُنيا وَأيقَنتُ أنّما ... قُصَارَى الفَتَى يَوْماً مُفارَقَةُ الدُنيا**

ثمّ غادر الشاعر بلاط هارون الرشيد وهو ناقمٌ على تصرّفات الخليفة وسوء معاملته آل البيت عليهم السلام، وخاف من أن يَكشِفَ سرَّه بأنّه شاعر يؤيّد الشيعة في دعوتهم. ومنذ أن غادر دعبل بلاط الرشيد استعدّ لمجابهة أعداء آل البيت وأخذ يهجوهم لايفرق بين ميّتهم وحيّهم ويفتش عن مثالبهم.

## معارضة الشاعر للأمويين والعباسيين

عاش دعبل الخزاعي ـ كما قلنا آنفاً ـ في زمنٍ لم يبق فيه من الإسلام سوى أحكام معطّلة وألفاظ خالية من أيّ مضمون كأمير المؤمنين والخلافة. فساعده ذلك أن يرى ويسمع انحرافات السلطة الحاكمة ومظالمها إزاء الشعب المظلوم. كان دعبل يرى أنّ العباسيين يضطهدون الأئمة والموالين لأهل البيت عليهم السّلام ويضيّقون عليهم المجال، وهذا ما آلم الشاعر وآذاه وفجّر قريحته فبدأ يقول:[٢]

**إنَّ اليَهُودَ بِحُبِّهَا لِنَبِيِّهَا ... أمِنَتْ بَوائِقَ دَهْرِهَا الخَوّانِ**[٣]

**وَكَذَا النَّصارَى حُبُّهُم لِنَبِيِّهِم ... يَمْشُونَ زَهْواً فِي قُرَى نَجْرَانِ**[٤]

**وَالمَسلِمُونَ بِحُبِّ آلِ نَبِيِّهِم ... يُرْمَونَ فِي الآفَاقِ بِالنِّيرَانِ**

يصرخ الشاعر بوجه العباسيين أنّ اليهود والنصارى كانوا يتمتعون بحريةٍ كاملة في حبّ أنبياءهم في حين أنّهم يقمعون المسلمين والشيعة خاصة وليس لهم ذنب إلّا حبّ آل البيت

---

١. السابق، ص ٣٦٤.

٢. السابق، ص٢٩٦.

٣. البوائق: ج البائقة، وهي الداهية والشرّ.

٤ـ الزهو: الكبر والفخر. نجران: بالفتح ثمّ السكون في مخاليف اليمن من ناحية مكة، سمّي بنجران بن زيدان بن يشعب بن يعرب لأنّه كان أول من عمرها وكان أهلها من النّصارى (الحموي معجم البلدان ٥: ٢٦٦).

عليهم السلام، وفي هذا معارضة شديدة للخلفاء والحكام العباسيين الذين اضطهدوا موالي أهل البيت.

ودعبل بوصفه شاعراً شيعيّاً متمرّداً على الواقع الفاسد في العصر العباسي تطرّق في قصيدته التائية المشهورة إلى هجو الأمويين وقارن بين نموذجين من القيادة. فرأى في الأئمة من أهل البيت (ع) النّموذج الصادق للقيادة النّزيهة الواعية الأمينة فقد رأى الإمام الكاظم والتقى بالإمام الرضا عليهما السّلام وامتدّت علاقته بهم إلى الإمام الجواد وميّز أيّهما تمثّل القيادة الإسلامية وأيّهما لا تمثّلها. وعلينا أن نتسائل: لماذا كان يهجو الأمويين وهو يعيش في فترة سلطة العباسيين؟

يبدو من خلال دراسة تائية الشاعر ـ وتلك من أشهر قصائده ـ أنّ الشاعر رأى أوّلاً: أنّ الأمويين كانوا طغاةً يظلمون أهل البيت (ع) وثانياً أنّ حالة أهل البيت وأئمتهم (ع) ومواليهم في العصر العباسي لم تكن أحسن منها بالنسبة إلى العصر الأموي، كما أنّ حياة الخلفاء العباسيين كانت مماثلة للخلفاء الأمويين، وكأنّه أراد أن يذكرهم أنّهم لا يختلفون في اضطهاد أهل البيت (ع) عن الأمويين فكلاهما يعيشان في قصور فاخرة ويلبسون ثياباً فخمة. يرى الشاعر من خلال القصيدة أنّ البيعة الزائفة في السقيفة هى التي مهّدت الطريق لاستيلاء الأمويين على الخلافة وهم بذلك نقضوا ما أتى الله به في كتابه المبين. هؤلاء وإن قبضوا على دَفة الحكم وسمّوا أنفسهم وارثي الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا أن هذا الأمر لم يحصل عن القرابة بل هم مالوا إلى الحقد والضّغينة ولجأوا إلى استخدام القوّة:[1]

**هُمُ نَقَضُوا عَهْدَ الكتَابِ وَفَرْضَهُ ... وَمُحْكَمَهُ بِالزُّورِ وَالشُّبَهَاتِ**[2]

**وَمَا سَهَّلَتْ تِلْكَ المَذَاهِبَ فِيهِم ... عَلَى النَّاسِ إلّا بَيْعَةُ الفَلَتَاتِ**[3]

---

١. السابق، ص١٢٧.

٢. الزّور: الباطل، شهادة الباطل.

٣. أي ما سهلت الأمور وطّدتها لمعاوية وأشباهه إلّا بيعة السقيفة، وقد رُوي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: "وكانت بيعة أبي بكر فلتةً وقى الله شرّها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه" (ابن أبي الحديد ١:١٢٣).

تُراثٌ بِلا قُرْبَى وَمِلْكٌ بِلا هُدَى وَحُكْمٌ بِلا شُورَى بِغَيْرِ هُدَاةِ[١]

وَما نَالَ أَصْحابُ السَّقِيفَةِ إِمْرَةً بِدَعْوَى تُراثٍ بَلْ بِأَمْرِ تِراتِ[٢]

إنّ الفوضى والاضطراب في العصرين الأموي والعباسي كانا حصيلة اغتصاب الخلافة من يد صاحبها الحقيقي، فلذلک نرى الشاعر يؤكدّ على أنّ هؤلاء المغتصبين لو تركوا الأمر لمن يحقّ له لكانوا آمنين من الزلّات والخطايا التي ارتكبوها. وقد ضمّن دعبل قصيدته بعض أدلّة وشواهد لإثبات أحقيّة الإمام عليّ عليه السلام:[٣]

وَلَوْ قَلَّدُوا المُوصَى إليهِ زِمامَها لَزُمَّتْ بِمَأمُونٍ مِنَ العَثَراتِ[٤]

فَإنْ جَحَدُوا كانَ الغَدِيرُ شَهِيدَهُ وَبَدْرٌ وَأُحُدٌ شَامِخُ الهَضَباتِ[٥]

وقد تناول الشاعر المظالم والآفات السلبية التي أصيب بها المجتمع في فترة حكم الأمويين فثارت نفسه لهذه المظالم ورأى أعداء آل البيت (ع) أنّ الضغائن قد أكلت قلوبهم فاجتمعوا على حسدهم وتكذيبهم ومكنوا للظالمين من رقابهم. إنّهم في نظره الأمويون والعباسيون:[٦]

وَمَا النّاسُ إلّا حَاسِدٌ وَمُكَذِّبٌ وَمُضْطَغِنٌ ذُو إحْنَةٍ وَتِرَاتِ[٧]

وَكَيْفَ يُحِبُّونَ النَّبِيَّ وَرَهْطَهُ وَهُم تَرَكُوا أحْشَاءَهم وَغِرَاتِ[٨]

---

١. الهداة: مفرده الهادي.

٢. السقيفة: بالمدينة وهي ظلّة كانوا يجلسون تحتها ( الحموي معجم البلدان ٣:٢٢٨). التِّرة: الثأر أو الظلم.

٣. السابق، ص ١٢٩.

٤. زمّ الشيء: شدّه. وزمّ البعير: جعل له زماماً.

٥. الغدير (غدير خم): خم واد بين مكة والمدينة عند الجحفة فيه غدير، وقد خطب فيه رسول الله (ص) على منبر من أقتاب الإبل وهو عائد من مكة بعد حجة الوداع، فأعلن البيعة والموالاة للإمام علي (ع) فقال: "من كنتُ مولاهُ هذا عليّ مولاه اللهمّ والِ من والاهُ وعادِ من عاداه" (انظر: الحموي معجم البلدان ٢:٣٨٩). الهضبات: ج الهضبة وهي الجبل المنبسط الممتدّ على وجه الأرض.

٦. السابق، ص١٣٣.

٧. مضطغن: من الضّغن، الحقد والإحنة. تِرات: جمع ترة للموتور الذي قُتل له قتيل، وذو ترات: ذو دماء.

٨. الوغرة: شدّة الحرارة.

**لَقَــدْ لاينُــوهُ فِــي المَقَــالِ وَأضْــمَرُوا قُلُوبَـــاً عَلَـــى الأحْقَـــادِ مُنْطَوِيـــاتِ**

يقول الشاعر إنّ أعداء الرّسول (ع) والشيعة يبطنون لهم الحسد والحقد، ثمّ يتسائل: كيف يحبّ هؤلاء النّبيّ (ص) وآله وقد تركوا أحشاءهم متوقدة مشتعلة من الغيظ على شهداءهم في هذه المواقع، وظلّت صدور أصحابهم تغلي ساخطاً حتى اليوم وإلى الغد. ثمّ يقول: إنّ هؤلاء أظهروا للنّبيّ (ص) الملاينة والانقياد وأضمروا له ولآله العداء والأحقاد. ونرى الشاعر يوجّه سهام هجائه إلى تيم وعديّ قبيلتى أبي بكر وعمر ويرى بيعتهم إثماً كبيراً بنيت على أساسٍ من الغدر والحقد، كما يتّهمهم باغتصاب الخلافة. ثمّ آلمه أن يرى حقوق آل البيت أصبحت تشبه الفئ وأنّهم يُعاملون معاملة الكفار ويشير إلى قرية فدك التي أخذها الخلفاء منهم:[1]

**فَــإنْ لَــمْ تَكــنْ إلّا بِقُرْبَــى مُحَمَّــدٍ فَهَاشِــمُ أوْلَــى مِــنْ هَــنٍ وَهَنَــاتِ**[2]

**سَتُسْــأَلُ تَــيْمُ عَــنْهُمْ وَعَــدِيُّها وَبَيْعَــتُهُم مِــنْ أفْجَــرِ الفَجَــراتِ**[3]

**هُــمْ مَنَعُــوا الآبَــاءَ عَــنْ أخْــذِ حَقِّهِــم وَهُــم تَرَكُــوا الأبْنَــاءَ رَهْــنَ شَــتَاتِ**

**وَهُــم عَــدَلُوها عَــنْ وَصِــيِّ مُحَمَّــدٍ فَبَيْعَــتُهُم جَــاءَتْ عَلَــى الغَــدَرَاتِ**

**أرَى فَيْــئَهُم فِــي غَيْــرِهِم مُتَقَسَّــمَاً وَأيْــدِيَهُم مِــنْ فَيْــئِهِم صَــفِرَاتِ**[4]

**فَكَيْــفَ أدَاوِي مِــنْ جَــوَىً لِــي وَالجَــوَى أمَيَّــةُ أهْــلُ الفِسْــقِ وَالتَّبِعَــاتِ**[5]

ولم يكتف دعبل بتناول الظروف السياسية بالنقد والهجاء، ولم يكتف بهجاء أصحاب تلك البيعة المشؤومة بل راح يتوغل في كشف المتناقضات الموجودة في المجتمع. ولعلّ أهمّ ما لفت انتباهه ذلك التفاوت الطبقي الصارخ بين أهل البيت عليهم السلام وبين أعدائهم فبدأ

---

١. السابق، ص ١٣٥.

٢. هَن وَهنات: كناية عمّا لايمكن التصريح به من أمور. وفي خطبة الإمام (ع) المعروفة بالشقشقية جاء"فصغا رجلٌ منهم لضغنه ومال الآخر لصهره مع هَنٍ وهنٍ".

٣. تيم: قبيلة ينتسب إليها أبوبكر بن أبي قحافة. عدي : بطن من تيم ينتسب إليها عمر بن الخطاب.

٤. الفيء: الخراج أو الغنيمة. يريد أنّ أيديهم صفر من حقّهم المنقسم ظلماً.

٥. جَوِيَ فلانٌ : جَوىً: مَرِضَ صدره؛ وضاق صدره.

يصوّر هزال آل البيت (ع) ومصائبهم وآلامهم ويرى أنّ خصومهم غلاظ عراض من النعمة:[١]

**بَنَاتُ زِيادٍ فِي القُصُورِ مَصُونَةٌ وَآلُ رَسُولِ اللهِ فِي الفَلَوَاتِ**

**وَآلُ رَسُولِ اللهِ تَدْمَى نُحُورُهُم وَآلُ زِيادٍ آمَنُوا السَّرَباتِ[٢]**

**وَآلُ رَسُولِ اللهِ تَسْبَى حَرِيمُهُم وَآلُ زِيادٍ رَبَّةُ الحَجَلاتِ[٣]**

**وَآلُ رَسُولِ اللهِ نُحْفٌ جُسُومُهُم وَآلُ زِيادٍ غُلَّظُ القَصَراتِ[٤]**

تدفقت نفس الشاعر تدفقاً رائعاً فأخذ يقارن في الأبيات السابقة بين العلويين وبين أعدائهم مقارنةً ساخرة ساخطة. فالأمويون أصبحت بناتهم في القصور الفخمة بينما آل رسول الله (ص) يعيشون في الفلوات عطشى وجوعى وهم أسرى لايراعى حريمهم كما أنَ الأمويين تبعّجت بطونهم من كثرة الأكل، فلذلك هم مثقلو الخُطى؛ وأمّا العلويون فقد مَسّهم الجوع والضنك. تدلّ هذه الأبيات على قوة ثقافة الشاعر واتّساع معلوماته بالأحداث التاريخية الدامية التي حصلت بينهم. وفي ضوء هذا الإطّلاع على التناقضات الموجودة بين الأئمة عليهم السّلام وبين الجبابرة والفساد في حكمهم اتّخذ للطريق السويّ وسار بجانب الأئمة وكره حياة القصور وما فيها من التّرف واللّذة، ففارقها ونهج منهجاً آخر وهو منهج الحقّ.

هذه الأبيات التي تحدثنا عنها كانت مختارات من قصيدة الشاعر التائية المشهورة التي أنشدها دعبل للإمام الرضا عليه السلام وهي سجلٌّ حافل بجرائم الأمويين والعباسيين ومظالمهم وأنّها وثيقة تاريخية خالدة تتحدث عن سياستهم الدموية الغاشمة. بدأت معارضة دعبل السياسية للعباسيين لمّا تناول الشعراء الذين كانوا يهجون آل البيت؛ ومن هؤلاء مروان

---

١. السابق، ص١٤٢.

٢. أدمى فلاناً: ضربه حتى خرج منه الدّم. السربات ج السّرب وهو النفس والقلب. يقال: هو آمِن السّرب وآمنٌ في سِربه: آمِنُ النفس والقلب.

٣. سَبَى عدوّه ـ سبياً وسِباءً: أسره. ربية: مؤنث الرّبّ. الحجلات: ج الحجلة: ساتر كالقبّة يزيّن بالثياب والستور للعروس.

٤. القَصَرَة: أصل العنق إذا غلظ.

بن أبي حفصة، فهجاه دعبل بعد موته هجاءً لاذعاً:[١]

قُــلْ لِـــابْنِ خَائِنَـــةِ البُعُـــولِ وَابــــنِ الجَـــوَادةِ وَالبَخِيــــلِ[٢]

إنَّ المَذمَـــــــةَ لِلْوَصِــــــيِّ هـــــي المذَمَـــــةُ لِلرَّسُـــولِ

أمَـــــوذَةَ القُرْبــــى تُحـــا وِلُهــــا بِـــذَمٍّ مُسْـــتَحِيلِ

أتَــــــذُمُّ أوْلادَ النبــــــيِّ وَأنْـــتَ مِـــنْ وُلْـــدِ النَفُـــولِ[٣]

لو درسنا شعر الشعراء في مختلف العصور لرأينا أنّهم نبغوا في غرض واحد من الأغراض الشعرية، إذ اشتهر امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة بغزلهما، واشتهر أبو العتاهية بزهدياته، وأبو نواس بخمرياته. أمّا دعبل «فقد تخصص في هجاء ملوك بني العباس، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم وابراهيم بن المهدي الذي ولي الملك لفترة قصيرة في بغداد، وخلع فيها المأمون، كما هجا أيضاً الواثق والمتوكل وهجا من كبار رجال دولتهم أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن سهل، والحسن بن رجاء، وأبا نصير الطوسي، وبني طاهر بن الحسين، ومالك بن طوق».[٤]

## الهجاء السياسي في شعر دعبل

لقد كان الهجاء عند دعبل أكثر الفنون الشعرية تطرّقاً، حيث يمثّل الهجاء النسبة الكبرى في شعره وبه اشتهر بين شعراء عصره؛ وقد بلغ مجموع القصائد ومقطوعات الهجاء مائة وثماني قصيدة ومقطوعة من أصل مائتين وسبع وتسعين قصيدة ومقطوعة، وهذا يشكل أكثر من ٣٠ في المائة من مجموع تطرّقه لبقية الأغراض الشعرية. هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخر نجد أشعاراً هجائية مختلفة تتداخل سائر القصائد، فلذلك لا غرابة إذا ما عرف دعبل بين الشعراء والأدباء بالهجّاء، وأصبح أحد أعلام العصر العباسي في الهجاء.

---

١. السابق، ص ٢٦٢.

٢. يريد الشاعر بالجوادة أمّ مروان التي تجود بعرضها، ويريد من البخيل أباه الذي يبخل بماله.

٣. النّفول: جمع نفل وهو كلّ من كان فاسد النّسب ( انظر: لسان العرب مادة نفل).

٤. الشكعة، ص٣٢٨.

من أبرز قَسمات صورة الهجاء في شعر دعبل هجاؤه السياسي ضدّ الخلفاء والحكام والوزراء، يعارض سياستهم وينتقد تصرّفاتهم حتّى ليعدّ «هذا اللون من الهجاء أوضح ألوان الهجاء السياسي وأكثرها لصوقاً بالهجاء الاجتماعي، وهو بلا شك من أعنف ألوان الشعر السياسي وأكثرها دقّةً ووضوحاً في الكشف عن معايب مجتمع تعقّدت فيه الحياة وتعارضت فيه الآراء والأهواء مصوّراً سخطه على النظم الاجتماعية القائمة».[1]

أكثر الباحثين الذين درسوا حياة دعبل وشعره، ظلموه لأنّهم اتّخذوا ما ذكره صاحب الأغاني ذريعة للهجوم عليه والغضّ من أهميّة شعره في هجاء السلطة الفاسدة، ونستطيع أن نذكر على سبيل المثال أبا العلاء المعرّي الذي اتّهم دعبلاً بالتّكسّب والبحث عن المال، غير أنّ الدارس لشعره سرعان ما يكشف خلافه، ويعثر على كمٍّ غير قليل من شعره يدفع عنه نزعته الماديّة واشتراكه مع الشطّار، فنقول مع أحد الدّارسين أنّه «لم يكن الدافع المادي من دوافع الهجاء عند دعبل بقدر ما كان الدافع فضح فسق الحكام وابراز ظلمهم، وتوضيح مخازيهم ومحاربة أعداء آل البيت».[2]

يتّضح من دراسة حياة الشاعر وديوانه أنّه عاصر ثلاثة من الأئمة المعصومين الطاهرين وهم: الإمام الكاظم والإمام الرضا والإمام الجواد عليهم السلام، وشهد أيّام ستّةٍ من الخلفاء العباسيين وهم: هارون الرشيد والأمين والمأمون والواثق والمعتصم والمتوكل؛ هؤلاء الخلفاء بشهادة ديوانه لم يسلموا من نقده وهجائه، فهجاهم ونقدهم من أجل خروجهم من جادة الصواب ومن أجل سياساتهم الخاطئة وعداوتهم لأهل البيت (ع).

نستطيع أن نسمّى دعبلاً الخزاعى المعارض السياسي للسلطة العباسية «في وقت كان الإنتصار فيه لأهل البيت يعني الإنتصار للفئة المعارضة للأنظمة الجائرة المنحرفة عن خطّ الإسلام في العهد العباسي وبالتالي لم يكن الموقف المعارض مجرد عمل استعراضي يحقّق

---

١. محمد حسين، *الهجاء والهجاؤون في الإسلام*، ص٥٧.

٢. عويضة، ص ١٣٦.

لصاحبه الشهرة والبروز وإنما كان موقفاً باهظ التكاليف كثيراً ما تكون الحياة ثمناً له».[١] ولا نشك في أنّ دعبلاً الخزاعي أحسّ بخطورة عمله وما يجرّ وراءه من أخطارٍ عندما قال «أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحداً يصلبني عليها».[٢] فكان يتمنّى أن يموت على الأيدي الجائرة حتّى يكون شهيد الفكرة أى شهيد الإسلام الذي آمن به ووصل إلى شغاف قلبه.

شِعْرُ دعبل الخزاعى يمثّل صراعه مع المذاهب السياسية المنحرفة الجائرة والمغتصبة للسلطة والخلافة التي حُوِّلَت إلى ملكية مطلقة لم يعرفها الإسلام، كما أنّه يمثل جهود آل البيت (ع) في إعادة البناء الأخلاقي للأمة ووقوفهم بوجه الطامعين بالحكم باسم الدين.

كان دعبل الخزاعي يقصد في هجائه السياسي للعباسيين تشويه سمعة الحاكمين منهم أو من يتّصل بهم من كبار رجال الدولة، فنراه يهاجم الخلفاء العباسيين ووزراءهم منذ أن جادت قريحته بالشعر، من حكم هارون الرشيد إلى عصر المتوكل فلم يسلم منه أحد من هؤلاء الحاكمين. غير أنّ المسألة الهامّة التي يجب أن نأخذها بنظرة الإعتبار أنّه «لم يكن هجاء دعبل حرفة أو هواية بل صدىً لعلاقته بالحكام والوزراء وصدى لتلك الأحداث الجسام والخطوب العظام التي كان لها أثرها البعيد في حياة الشاعر الجرئ فتأثرت حياته بها، وما الأدب إلّا تعبير عن الحياة وتصوير لها».[٣]

فالشعر السياسي لم يكن عند دعبل يقتصر على ناحية الاحتجاج الفقهي لحقّ آل البيت عليهم السلام في الخلافة، بل كان يتضمن جانباً تصويرياً مؤثراً، وهو بهذا المنحى يخالف الكميت بن زيد والسيّد الحميري اللذين اتّخذا من الاحتجاج سبيلاً للتعبير عن مذهبهما. ونراه يخالفهما في ميزة ثانية هى أنّ شعره لم يكن متّصلاً بمديحهم أو هجاء أعدائهم بل كان

---

١. السابق، ص٣.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٢٠ ص١٣٣.

٣. عويضة، ص٤١.

مزيجاً منهما، فهو من ناحية مديحٌ لفضائل وسلوك آل البيت (ع) ومن ناحية ثانية هجاء مقذع وهجوم سافر لمن لا ينصفهم.

## مظاهر الهجاء السياسي عند دعبل

قبل أن نتحدّث عن مظاهر الهجاء السياسي وصوره المختلفة في شعر دعبل التي تبدّت للدّارس في مجموعة الأشعار المنتقاة لهذا الغرض، لابدّ من الإشارة إلى أنّ الهدف من عرضها، لا يقصد بها دراسة ملامح الحياة السياسية خلال فترة حكم العباسيين، ولا يراد منها ابراز النزاعات والصراعات السياسية، وإنّما الهدف من دراسة تلك النصوص الشعرية، هو الوقوف عند تلك النصوص الرافضة والناقدة لبعض المواقف السياسية، وهى مواقف لم يرضَ عنها الشعراء وليست لديهم قدرة على تغييرها، لأنّهم لا يمتلكون قوة التغيير، وكل ما يمتلكونه هو رفض تلك المواقف بأشعارٍ ينظمونها، فهى وسيلة للرفض بطريقةٍ أولى؛ ولعل سوء النظام السياسي والإداري وتردّى أوضاع الناس المعيشية وما صاحبها من فساد في فترة حكم العباسيين، بسبب تقصير بعض الحكام ومن دونهم في مناصب الإدارة، كلّ ذلك جعلهم عرضةً لهجو شعراء الشيعة وخاصّةً دعبلاً الخزاعي ونقد مواقفهم السياسية سواء كان ذلك تصريحاً في مواقف أم تلميحاً في مواقف أخرى، وفق مقتضيات الحال وظروف الشاعر الخاصة.

وقد حرّكت المواقف المتخاذلة والتصرفات القبيحة من قبل الخلفاء وأعوانهم قريحة الشاعر، وملئت صدره بالحقد والكراهية والغضب، على تلك الأوضاع السياسية التي تعرّضت لها الأمة في تلك الفترة من تاريخها، فوجّه لسانه وحوّل كلماته إلى شظايا من اللّهب تُصَبّ على رؤوس هؤلاء، مستخدماً في هجوهم أقذع الكلمات وأبشع الصفات أحياناً لفضحهم وإظهار حقيقتهم أمام النّاس.

لعلّ أبرز مظاهر الهجاء السياسي عند دعبل، تلك الأشعار التى تناولت بالنقد اولئك الذين تولّوا منصب الخلافة والوزارة والقضاء والكتابة وقيادة الجيش ومسؤولية البريد، وولاية المدن

والأقاليم و... فلم يسلموا من هجائه ونقده، ويمكن تتبّع هؤلاء على النحو التالي:

**هجاء الخلفاء**

لابِدْعَ أنّ الخلافة كانت أعلى منصب بعد وفاة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكان الرّسول الأعظم (ص) قد أوصى بالخلافة للإمام عليّ عليه السّلام من بعده، وهذا ما تشهد به مئات من الروايات والأحاديث والتي تؤيّدها الشيعة والسّنة. فلم ينصرف الإمام وأنصاره من مدفن الرسول حتّى أُقيمت جلسةٌ في بني السّقيفة لتعيين الخليفة، وبذلك حدث شقاق بين المسلمين نتيجة الابتعاد عن العمل بوصيّته، وتنحّى الإمام عليّ عليه السّلام عن حقّه، واستولى على الخلافة من لم يكن يتمتّع بالأهلية لها. سبّب انحراف الخلفاء بعد النّبي (ص) نشأة انحرافات ومشاكل عديدة في مجالات دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية و... وأصبحت الخلافة تتضاءل قدره عند النّاس لكثرة الانحرافات، بحيث ثاروا على الخليفة الثالث فقتلوه لتعاظم الفساد السياسي والاقتصادي أيّام خلافته.

لم تتحسّن سياسة الخلفاء في العصر الأموي بل عمّ الفساد والانحراف على صعيدين السياسي والاجتماعي وبلغ ذروته عند يزيد بن معاوية بحيث نرى أصداءها في شعر الفرق السياسية المناهضة للأمويين خاصةً عند شعراء الشيعة الذين كانوا يشعرون بالطغيان والاضطهاد من قبل الخلفاء.

كانت سياسة العباسيين نفس سياسة الأمويين بالنسبة إلى الشيعة وائمّتهم، إذ نراهم يلجأون إلى الارهاب والتّنكيل بمن تتحدث نفسه بالثورة ضدّهم. وعلى الرغم من تضييق العباسيين على الأحزاب والفرق المناهضة خاصةً الشيعة،كان هؤلاء يقومون ببعض الثورات في وجه السلطة الحاكمة مما نقرأ تفاصيله في كتب التاريخ، ولم تكن كلّ هذه الثورات عسكريةً بل يشكل الصراع السياسي والفكري قسماً مهمّاً من ثورات المعارضين تظهر أصداءها في أدب شعراء هذه الفترة وخاصةً في شعر دعبل الخزاعي.

يحتوي ديوان هذا الشاعر الكبير على قصائد ومقطوعات عديدة تناول فيها حياة العصر

السياسية والاجتماعية والمنازعات الدائرة بين الخلفاء وولاة العهد، وكأنّها مرآة نرى فيها بوضوح ما يدور في المجتمع، وهذا يدلّ على أنّ الشاعر استوعب تطوّرات الأوضاع ورصد ما يقوم به السلطة الحاكمة الزمنية. ودعبل بانتمائه إلى فرقة الشيعة كأنّه كان المتحدّث باسم هذه الفرقة، فلذلك قام خير قيام بوظيفته في أداء رسالته، ووقف في وجه السلطة العباسية يقول وينتقد ويهجو من يعمل في السلطة ومن يواكبهم. فلم يقتصر دعبل في هجائه للخلفاء العباسيين على الجانب الشخصي لهؤلاء الخلفاء، بل حملت أشعاره رسائل اجتماعية، فلذلك كان يرغب أن يبرز في أشعاره جوانب التقصير والانحراف من قبل هؤلاء في حقّ الشعب، ونراه اتّخذ شعره سلاحاً لمحاربة الفساد ونقد الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر، فحمل هجاؤه رسالةً ساميةً، لأنّه لم يكن يريد الشرّ فيه دائماً، وإنّما كان يتّخذه في بعض الأحيان طريقاً لإصلاح فساد السلطة الحاكمة، أو للتعبير عن شعور إنساني نبيل.كان دعبل معاصراً لستة من الخلفاء من بني العباس هم هارون الرشيد، والأمين والمأمون، والمعتصم، والواثق والمتوكل. نحن ندرس هجائه لهم بالترتيب الذي ذكرناه:

## هجاء هارون الرشيد

كان هارون الرشيد على ما ذكرت المصادر التاريخية «يكره الشيعة منذ صباه ...ولمّا تولّى الخلافة أمر بإخراج الطالبيين جميعاً من بغداد إلى المدينة».[١] ولم نرَ دعبلاً الخزاعي يتعرّض لهارون الرشيد بهجاء خلال حياته إلّا بعد مرور عشر سنوات من وفاته أي سنة ٢٠٧هـ.[٢] فنراه يهجو الرشيد في قصيدته الرائيّة التي رثى فيها أهل البيت عليهم السّلام، ونحن نذكر هنا أحد عشر بيتاً يرتبط بموضوعنا. يقول:[٣]

**يا أمّةَ السُّوءِ ما جَازَيتِ أحْمَدَ عَنْ ... حُسْنِ البَلاءِ عَلَى التَّنْزِيلِ وَالسُّوَرِ**

---

١. ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، جـ ٤ ص٣ ٨٤٨.

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٣٩.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٩٧.

الأمويين عامّةً وأبناء حرب ومروان وأسرتهم خاصّةً يحملون أحقاداً في ضلوعهم لأهل البيت عليم السلام، وإن كانت هذه الجرائم من صنيعهم فَهُم لا يُلامُون بسبب فعلهم هذا، لأنّهم شهروا السيوف في وجه أهل البيت ومحبّيهم، وأعلنوا خصومتهم بصورة سافرة، غير أن العباسيين لا مبرّر لظلمهم وطغيانهم، لأنّهم ظنّوا أنفسهم وارثي النبي (ص).

وأخيراً نرى الشاعر في الأبيات الأربعة الأخيرة يهجو الرشيد إذ أراد بكلمة «قبران» قبرى الإمام الرضا عليه السلام وقبر هارون الرشيد الخليفة العباسى في مدينة طوس وأراد من «الزكيّ» كذلک الإمام الرضا عليه السلام ومن «الرّجس» هارون الرشيد؛ فقد جعل الشاعر الإمام الرضا (ع) خير الخَلق كلّهم وأشار إلى الرشيد بأنّه شرّهم. نحن لم نشهد ولم نسمع في هجاء الرشيد هجاءً لاذعاً أشدّ من هذا الهجاء.

يبدو أنّ هذه القصيدة طويلة غير أنّ الديوان لم يحتفظ إلّا بأربعة وعشرين بيتاً منها. لقد وجد دعبل في تجاور قبرهما مفارقة مثيرة استغلّها في هجاء الرشيد.

نحن نعلّل هجاء دعبل للرّشيد بسببين، الأول: أنّ الرشيد دسّ السّمّ في طعام الإمام موسى الكاظم عليه السلام. هذا هو السبب الرئيس في هجائه. والثّاني: أنّ نكبة البرامكة وقعت على يديه وكانوا ـ فيما يبدو ـ يقرّبون دعبلاً وربّما يكون هذا سبباً آخر لغضبه عليه وقد تحدّاه فرثاهم رثاءً جميلاً.

كان دعبل يستغلّ جميع الظروف والمناسبات لهجاء الرّشيد، فعندما رثى ولده أحمد، ضمّن رثاءه هجاءً لاذعاً للرّشيد فقال:[1]

**وَعاثَتْ بَنُو العَبّاسِ فِي الدّينِ عَيْثَةً ... تَحَكَّمَ فيهِ ظَالِمٌ وظَنينُ**[2]

**وَسَمُّوا رَشِيداً لَيسَ فِيهِم لِرُشْدِهِ ... وَها ذَاك مَأمُونٌ وَذاك أمِينُ**

**فَمَا قُبِلَتْ بالرُّشْدِ مِنْهُم رِعايَةٌ ... وَلا لِوَليٍّ بِالأمانَةِ دِينُ**

---

١. السابق، ص٢٨٩.

٢. عاث ـ عيثاً وعيوثاً: أفسد.

رَشِيدُهُم غَاوٍ وَ لِهَذا رَزَايا دُونَ ذلك مُجُونُ[١]

نلمس من الأبيات السابقة أنّ دعبلاً لم يكتف في هجائه للرّشيد عند النقد المقبول، بل تعدّى ذلك إلى الهجاء الجارح والنقد المقذع، فعلى هذا الأساس نراه ينعته بالغواية وينفي عنه الرّشد، ويجرّد المأمون والأمين ولديه من الأمانة والدين، وأحياناً ينعته بالطفولة. وقد بقي في ديوان الشاعر من هذه القصيدة النّونية ستة عشر بيتاً تضمّنت رثاء لولده أحمد وهجاء للرّشيد وولديه. ومهما كان من أمر هذا الهجاء فإنّه لم يبق في أيدينا من شعر دعبل يصوّر صلته بالرشيد تصويراً حسناً و«أغلب الظنّ أنّه خصّه بهجاء كثير إلّا أنّه ضاع جملةً».[٢]

وقد وصف عبدالله بن طاهر موقف الشاعر من هارون الرشيد بعد أن خرج من قصره بقوله «فوالله ما بلغه ـ أى دعبل ـ أنّ الرشيد مات حتّى كافأه على ما فعله من العطاء السنيّ والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة. إنّ موقفه هذا يعدّ قلّة وفاء منه».[٣]

يبدو أنّ ابن طاهر قد نسى مبالغة الرشيد في إيذاء العلويين بالقتل والحبس والمطاردة ما جعل دعبلاً الغيور على أهل البيت عليهم السّلام ينسى صنيعه وما نال من جوائزه ويتناوله بالهجاء اللاذع والغضب الدّفين، فلو أنّه لم يغادر القصر لكان في عداد المعذَّبين، وقد ثبت أنّ «الرشيد طلبه بعد مغادرته القصر على أثر رثائه البرامكة فلم يجده».[٤]

## هجاء المأمون[٥]

عندما نصل إلى أيّام خلافة المأمون تزداد ثورات الشيعة، حتّى رأى الخليفة أن يتوسّل بالخديعة، فعهد بالخلافة للإمام الرضا عليه السلام، وبايع الإمام وضرب اسمه على الدّراهم

---

١. الغاوى: الضّالّ، من الغواية ضدّ الهداية.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٣٩.

٣. الأمين، جـ ٣ ص٢٨٤.

٤. ابن عساكر، علي بن الحسن. تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: نشاط غزاري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ، جـ ٣ ص٣٠.

٥. المأمون عبدالله أبوالعباس بن الرشيد؛ ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول، وهى الليلة التي مات فيها الهادي واستخلف أبو، أمّه أم ولد اسمها مراجل (السيوطي ٣٦٤).

والدّنانير، وأمر بأن يخلع السّواد شعار العباسيين، وأن تُلبَس الخضرة شعار العلويين. وهنا اختلفت أقوال المؤرخين حول الدافع الحقيقي لهذا الأمر، فنرى الطبري يذكر أنّ الدافع للمأمون هو أنّه «نظر في بني العباس وبني عليّ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولاأعلم منه».[١]

ونرى صاحب مقاتل الطالبيين يقرب ممّا سبق قائلاً إنّ المأمون كان خلال صراعه مع أخيه الأمين قد عاهد الله أن ينقل الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب وأنّ علياً الرضا هو أفضل العلويين.[٢]

غير أنّنا إذا دقّقنا في هذه الآراء نراها تتّصف بالسطحيّة والسذاجة، لأنّ الخليفة التي قاتل أخاه لنيل الخلافة، كيف يمكن أن يسلّمها إلى الإمام الرضا عليه السّلام الذي كان يعارض العباسيين، وكان يراهم مغتصبي الخلافة من أصحابها الحقيقيين. نحن نرى أنّه كان يكمن وراء هذا الأمر دوافع مختلفة:

الأول: لمّا رأى المأمون سرعة انتشار التشيع في الآفاق، خشى من عاقبة الأمر، فرأى أن يتوسّل بالخديعة، وأن يسعى للحيلولة دون انتشاره، وكان ذلك في سبيل حماية مصالح السلطة العباسية.

الثاني: الدافع الثاني ولعلّ أهمّها هو أنّ المأمون أراد أن يضع الإمام الرضا عليه السّلام تحت رقابته وأن يمنعه من القيام بدوره الريادي في توجيه ثورات الشيعة.

الثالث: نرى أبا الصّلت الهرويّ يذكر أنّ المأمون أراد بعمله هذا «أن يقلّل من قيمته [الإمام الرضا عليه السّلام] اجتماعيّاً فيخيّل إلى النّاس أنّه (ع) يميل إلى الدنيا».[٣]

ولمّا عهد المأمون بالخلافة إلى الإمام الرضا عليه السّلام وبايعه، انخدع دعبل بهذا

---

١. الطبري، جـ ٧ ص١٣٥.

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *مقاتل الطالبيين*، ص٤٥٤.

٣. البستاني، محم.د، ص٤٨٥.

الصّنيع لأنّه «لم يعلم أنّ هذا التأييد من المأمون للشيعة ماهو إلّا شعار وقتيّ لتقوية جبهته في صراعه السياسي والعسكري مع أخيه الأمين على الحكم. أراد المأمون وهو المعروف بذكائه ودهائه أن يستقطب أكبر مساحة من الرأى العام الإسلامي الذي يمثّل آل البيت قطبه في كلّ الأدوار التاريخيّة».[١] فسرعان ما تغيّر موقف المأمون من الشيعة والإمام الرضا عليه السلام، لأنّه رأى أنّ الخلافة قد أفلتت من يده وأنّ النّاس بايعوا ابراهيم بن المهديّ في بغداد خليفةً لهم فـ «دسّ إلى علي بن موسى الرضا عليه السّلام سمّاً في عنب»[٢] وخلع الخضرة شعار العلويين ولبس السّواد شعار العباسيين لإرضاء بني عمومته، وتمزّق بهذا القناع الذي كان يستخدمه أمام الرأى العام بإظهار مودّته وتعاطفه مع الشيعة «فلا عجب أن يتغيّر دعبل ويتّخذ موقفاً عدائيّاً يفصح في شعره عمّا يحسّ به فلم يستكن للمأمون كما لم يستكن للرّشيد من قبل».[٣] فنرى الشاعر يتعرّض له بالهجاء إذ نظم مقطوعة يبلغ عدد أبياتها تسعة نذكرها فيما يلي:[٤]

**أيَسُومُني المأمُونُ خِطّةَ عَاجِزٍ ... أوَ ما رَأى بِالأمْسِ رَأسَ مُحَمَّدِ**[٥]

**نُوفِي عَلى هَامِ الخَلائِفِ مِثْلَما ... تُوفي الجِبالُ عَلى رُؤُوسِ القَرْدَدِ**[٦]

**وَنَحلُّ فِي أكْنافِ كُلِّ مُمَنَّعٍ ... حَتّى نُذَلّلَ شَاهقاً لَمْ يُصْعَدِ**[٧]

**إنَّ التِّراتَ مُسَهَّدٌ طُلّابُها ... فَاكْفُفْ لُعابَك عَنْ لُعابِ الأسْوَدِ**[٨]

---

١. موسى، ص١٢٥.

٢. ابن طباطبا، ص٢١٨.

٣. عويضة، ص٤٥.

٤. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٧٥.

٥. سامَ فلاناً الأمر: كلّفه إيّاه وألزمه به. رأس محمد: يعني محمداً الأمين ابن زبيدة الذي حاربه طاهر بن الحسين مولى خزاعة من قبل المأمون.

٦. الهام: مفرده الهامة وهى الرأس، ويقال هو هامة القوم: سيّدهم ورئيسهم. الخلائف: جمع الخليفة.

٧. أكناف: ج الكنف: جانب الشيء. ممنع: الأمر الصعب.

٨. الترات: مفردها ترة أى الثأر. اللعاب: الملاعبة. الأسود: الحيّة العظيمة.

| | |
|---|---|
| لا تَحْسَـبَنْ جَهْلـي كَحِلْـمِ أبـي فَمَـا | حِلْـمُ المَشـايخِ مِثْـلُ جَهْـلِ الأمْـرَدِ[١] |
| إنّـي مِـنَ القَـوْمِ الّـذينَ سُـيُوفُهُم | قَتَلَـتْ أخـاك وَشَـرَّفتْك بِمَقْعَـدِ |
| شَـادُوا بِـذِكْرِك بَعْـدَ طُـولِ خُمُولِـهِ | وَأسْـتَنْقَذُوك مِـنَ الحَضِـيضِ الأوْهَـدِ[٢] |
| كَـمْ مِـنْ كـرِيمٍ قَبْلَـهُ وَخَليفَـةٍ | أضْـحى لَنَـا دَمُـهُ لَذِيـذَ المَقصَـدِ |
| مِثْـلِ أبـنِ عَفَّـانَ وَمِثْـلِ وَلِيـدِهِ | أوْ مِثْـلِ مَـروانَ وَمثـلِ مُحَمَّـدِ |

بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام وأخذ يتسائل عن أمر الخليفة الذي ظنّ أنّ الشاعر وقبيلته عاجزون عن القيام بمهمّتهم: هل يعرف ما جرى لمحمّد الذي قُتِل على يد خزاعة. وجدير بالذكر أنّ استفهامه لم يكن بالمعنى الحقيقي للاستفهام، بل جاء هنا لغرض التقرير أى أنّ المأمون رأى ما حدث وعاينه بوضوح. وفي البيتين الأولين تتجلّى ثورة الشعر لدى دعبل في أسلوب تهكميّ ساخر يفضح حكم المأمون الذي لم يحقّق للشعب أىّ منجزٍ يذكر، بل كان أداة هدم وخراب، إلّا أنّ الحساب قادمٌ وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون.

مهّد دعبل بالبيتين الأولين أرضية ملائماً للتطرّق إلى الموضوع الرئيس إذ أنشد أبياتاً يدرس فيها العوامل التي أدّت إلى تولّيه الخلافة، فيشتدّ غضبه بعد البيت الثاني ويقول: إنّ قبيلته مستعدةٌ للقيام بما يبدو مستحيلاً فهؤلاء لاتوجد كلمة "المستحيل" في قاموسهم بل هم مستعدّون لأخذ الثأر ولاينامون، وهكذا استمرّ دعبل متمسكاً بمبادئه ومصرّاً على الإطاحة بحكم المأمون وازدادت ثورة الشعر أجيجاً ولهيباً لتنطلق صيحةً في وجه المأمون رافضةً لحكمه. ألسنا نجد في هذه الأبيات روح التحدي والإباء؟ فطلّاب الثأر لا ينامون، فهذا كناية عن استعدادهم لردّ الثأر والنّيل ممّن أوقع بهم عدواناً ويحذّر من أنّ لؤمه لايوازي خطر الحيّة العظيمة، ويعرفه بأنّ حلم الكبار مختلف عن طيش الشباب وتمرّدهم متوسّلاً بلون من المقابلة بين الجهل والحلم وبين الشيخ و الأمرد.

---

١. الحلم: العقل.

٢. الأوهد: ج الوهد: الحفرة، والأرض المنخفضة.

وقد لا تكون هذه الجرأة في رفع الصوت وتوجيه النقد إلى الخليفة موجودة عند معظم الشعراء، فقد دفع ظلم الخلفاء والحكام وقسوتهم كثيراً من الشعراء إلى المداهنة والمجاملة خوفاً من بطش الخلفاء بهم، ونهب أموالهم والتنكيل بأقاربهم وأبنائهم، ودعبل كان نجمةً تتألق في سماء الأدب العربي عبر عصوره المختلفة، ولم يكن هذا إلّا أثراً من تعاليم الأئمة وإرشاداتهم بحيث استطاع الشاعر أن يقول كلمته عند الإمام الجائر.

ونرى الشاعر أحياناً كثيرة يقول كلمته صريحاً حاسماً «حين يشعر في بعض الفترات بالظلم الواقع عليه، ولم يظهر الولاء ويبطن العداء ولم يلجأ إلى الأساليب الجبانة، بل قال كلمته في خشونة حين دفع إليها دفعاً فأفصح عنها مصرّحاً لا معرّضاً».[١] انظر إلى الأبيات الأربعة الأخيرة التي انقلب الشاعر على المأمون وصرَّح بلغةٍ حادّةٍ كيفيةَ استيلائه على عرش الخلافة إذ يرى الشاعر نفسه واحداً من الذين شرّفوه بهذه المنزلة، وأوصلوه اليها. وهنا أظهر ندمه على ذلك، وأخذ على نفسه وعلى قومه بني خزاعة مساعدتهم له، وتمنّى لو أبقوه خامل الذكر.كما أنّ الشاعر ذكّر المأمون المصير الذي انتهت إليه عاقبة بعض الخلفاء وعلى رأسهم الخليفة الثالث.وقد حملت هذه القصيدة بعض النفوس الضعيفة على لوم دعبل ونصحه أن يكفّ عن نقد المأمون والتشهير بسياسته قائلاً له: أنت أجسر النّاس حيث تقول:

**إنّي مِنَ القَومِ الّذينَ سُيُوفُهُم ... قَتَلَتْ أخَاك وَشَرَّفَتْك بِمَقْعَدِ**

فأجابه دعبل: يا أبا إسحاق إنّي أحمل خشبتي منذ أربعين سنة ولا أجد من يصلبني عليها.[٢]

ونلاحظ بوضوح فيما سبق أنّ الشاعر استخدم لغةً لاذعة في هجائه السياسي ضدّ المأمون كما أنّه قرنه بالتّهديد والتهكم اللّذين يتلازمان مع الهجاء. ويبدو أنّ هذه الميزة تختص بدعبل الخزاعي، فكم من شعراء عاصروه وشهدوا ما شهده الشاعر من الظلم

---

١. عويضة، ص١٤٦.

٢. انظر: موسى، ص٢٧.

والطغيان والانحراف، ولكنّهم ظلّوا صامتين لم ينبسوا ببنت شفة إمّا خوفاً وإمّا اكتساباً للجاه والمقام، بينما نراه يثور في وجه الطغاة والبغاة مدركاً أنّ ثورته هذه قد تُلقيه في غيابة السّجن، ومثل هذا الردّ الحاسم ينمّ عن كبرياء مجروحة ومرارة تخالط الدم وما نحسب شاعراً في الأدب العربي ـ العصر العباسي خاصة ـ غير دعبل قد أقدم على ما رأينا من هذا التهديد حيث خاطب الخليفة بمثل هذا اللسان.

### هجاء المعتصم[١]

تجمع المصادر التاريخية على أنَّ الضّعفَ والخمول قد تسرّب في الخلافة العباسية بعد المعتصم وبعد أن مهّد الطريق للأتراك للسيطرة على شؤون الدولة العباسية إذ بدأ الخليفة يعتمد عليهم في تدبير أمور السلطة وإدارة ولاياته إلى حدٍّ نرى آثاره السلبية فيما بعد، فهؤلاء يسيطرون على الخلفاء، بل يقتلونهم ويسملون عيونهم أحياناً، ويستبدلون بهم غيرهم أحياناً أخرى.

وجّه دعبل الخزاعى أكثر هجائه السياسي إلى المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين، فإنّه حين تولّى الخلافة سنة ٢١٨ه دخل دعبل عليه وطلب منه مائة بدرة، فقال المعتصم له امهلني مائة سنة، فخرج دعبل ساخطاً عليه وهرب إلى مدينة قم.[٢]

ومن هناك أذاع قصيدته البائيّة في هجاء المعتصم التي تعدّ من عيون شعره، وقد وصلنا منها اثنا عشر بيتاً. وفي هذه القصيدة الهجائيّة شكا الشاعر من تشتّت الدّين بقيام المعتصم العباسي كخليفة جاهل لايهتدي، وأعلن أنّه سلك طريقاً معوجّاً انتهى به إلى الضّلالة، وجرّده من الرّشد والهداية والدّين والتفكير السّليم، وأبدى إعجابه أن يملّك مثلُه مقاليد الخلافة

---

١. هو أبواسحاق محمد بن هارون الرّشيد، ولد سنة ثمانين ومائة، كذا قال الذهبي وقال الصولي: في شعبان سنة ثمان وسبعين. وأمّه أمّ ولد من مولّدات الكوفة اسمها ماردة. بويع له بالخلافة بعد المأمون؛ تحوّل المعتصم من بغداد وبنى سرّ من رأى وذلك أنّه اعتنى باقناء الترك فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم وبذل فيهم الأموال ( انظر: السيوطي ٣٩٦،٣٩٥).

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ صـ١٣٢.

وتدين له العرب. أنصت إليه وهو يقول:[1]

**بَكَـى لِشَـتاتِ الـدِّينِ مُكْتَئِـبٌ صَـبٌّ وَفَـاضَ بِفَـرطِ الـدّمعِ مِـنْ عَيْنِـهِ غَـرْبُ**[2]

**وَقَـامَ إمَـامٌ لَـمْ يَكُـنْ ذَا هِدَايَـةٍ فَلَـيسَ لَـهُ دِيـنٌ وَلَـيسَ لَـهُ لُـبُّ**

**وَمـا كانَـتِ الأنبـاء تَـأتِي بِمِثْلِـهِ يُمَلَّـك يَوْمـاً أوْ تَـدِينُ لَـهُ العُـرْبُ**

**وَلَكِـنْ كمـا قَـالَ الّـذِينَ تَتَـابَعُوا مِـنَ السَّـلَفِ الماضِـينَ إذْ عَظُـمَ الخَطْـبُ**

استعان الشاعر في قصيدته بقصة أصحاب الكهف وشبّه خلفاء بني العباس بأصحاب الكهف في العدد، بحيث يكون كلٌّ منها سبعة، ثمّ شبّه المعتصم بكلبهم ووصفه بالمثمَّن ليزيِّف بهذه الصّفة هيبة الخلافة في شخص المعتصم، إلّا أنّنا نرى مفارقة كبيرة في هذا التشبيه إذ كان لكلب أصحاب الكهف دورٌ إيجابي في مرافقتهم في حين أنّ الخليفة له دور سلبيّ لم يسلم من أذاه أحد، فأراد الشاعر بهذا أن يقلّل من شأنه لأنّ كلبَهم بريءٌ من الذنوب في حين أنّ الخليفة عنده ذنوب عظام كثيرة:[3]

**مُلُـوك بَنِـي العَبّـاسِ فِـي الكُتْـبِ سَـبْعَةٌ وَلَـمْ تَأتِنَـا عَـنْ ثَـامِنٍ لَهُـم الكُتْـبُ**

**كَـذَلِك أهْـلُ الكَهْـفِ فـي الكهـفِ سَـبْعَةٌ كِـرامٌ إذَا عُـدُّوا وَثـامِنُهُم كلْـبُ**

**وَإنّـي لَأعلِـي كَلْـبَهُم عَنْـك رِفعَـةً لِأنّـك ذُو ذَنْـبٍ وَلَـيسَ لَـهُ ذَنْـبُ**

**كَأنّـك إذْ مُلِّكْتَنـا لِشَـقَائِنا عَجُـوزٌ عَلَيهَـا التَـاجُ وَالعِقْـدُ والإتْـبُ**[4]

ونرى الشاعر قد استخدم لغة هزليةً ساخرةً في هجاءه للمعتصم عندما صوّره في صورة عجوزٍ وضعت على رأسها تاجاً ولبست في صدرها عقداً، وارتدى ثوب البنات الجميلات ساخراً

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٠٢.

٢. الشتات: التفرق. مكتئب: ذو الكآبة والحزن. صبّ: العاشق وذو الولع الشديد. الغرب: عرقٌ في العين.

٣. السابق، ص١٠٢.

٤. الإتب: بردٌ يشقّ فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمّين.

من الخليفة الذي وُضعَ في مكانٍ لايستحقّه، كما أنّ الجمال والزينة لايُستحسَن في وجه العجوز، بل يكون هذا العمل مدعاة إلى السخرية والاستهزاء. نحن نعتقد أنّ دعبلاً لم يكن يريد من هذا نفس الإضحاك والترويح عن هموم النّاس، بل كان هدفه الرئيس كشف مساوئ السلطة العباسية ومفاسدها والسعي وراء انتشار هذه العيوب.

ثمّ أخذ يحصي أخطاء المعتصم الفادحة وأكبرها باعتقاد الشاعر تولّيه الأتراك الجيش وتفويض وصيف وأشناس التركيين قيادته، وقد تسلّط الأتراك بواسطتهما على الخلافة وبسبب تشجيعهما لهم فعَظمت بهم المصيبة. ولم يقف به عند هذا الحدّ فولّى الوزارة نصرانيّاً هو الفضل بن مروان فهو لا يبالي بماذا يُبتَلى الإسلام على يديه، ثمّ يعلن أنّها حالٌ سوف لن تدوم. أنصت إليه وهو يقول:[١]

**لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَاسِ إذْ سَاسَ مُلْكَهُم وَصِيفٌ وَأشْنَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ**[٢]

**وَفَضْلُ بْنُ مَروانٍ سَيَثْلَمُ ثلْمَةً يَظَلُّ لَهَا الإسْلامُ لَيسَ لَهُ شِعْبُ**[٣]

**وَهَمُّكَ تُركِيٌّ عَلَيه مَهانَةٌ فأنتَ لَهُ أمٌّ وَأنتَ لَهُ أبُ**

ونرى أنّ دعبلاً بهذه المواقف ينفّس عن آلام كانت تجيش بصدره وبصدر الأمة، وهو بهذه الأبيات أراد أن يهزّ دعائم السلطة العباسية و«تعدّ صوره نوعاً من السّلاح يشهره في وجه المجتمع وحكامه، ويعكس واقعه الحزين الذي يعيش داخله، ويشير من قريب أو يلمح من بعيد إلى أنّ هناك اختلالاً في هذا المجتمع الذي يحاصره ويضغط عليه، ويكشف عن المرارة التي تملأ نفسه ممّا حدا بالكثير من الباحثين إلى وسمه بأنّه مولع بهجاء الأمراء والخلفاء

---

١. السابق، ص١٠٣.

٢. وصيف وأشناس: غلامان من الأتراك الذين جلبهم المعتصم ليستعين بهم على العرب والفرس، وقد صارا فيما بعد من قوّاده المتنفذين.

٣. الفضل بن مروان النّصراني: كاتب المعتصم ووزيره. ثلم الشيءُ: ثَلْماً: صارت فيه ثُلمة. ثَلِمَ الرجل: بَلُدَ طبعُه. فهو ثَلِمٌ.

الذين عاصرهم».[١] ولمّا ضاق المقام به في بغداد عاصمة السلطة العباسية إثر تضييق السلطة العباسية رأى أن يتركها، فقال أبياتاً رائعة بعثها إلى المعتصم ونراه يتحسّر فيها على المصير الذي انتهت إليها بغداد أيّام خلافته إذ أصيبت بمصائب كثيرة وعمّت فيها الكآبة والحزن، ولم تكن سامرّاء بأحسن حالاً من بغداد بل اشتدّ البؤس والفاقة فيها أيضاً. نحن نعدّ هذه الأبيات وليدة وطنية الشاعر التي أثارت غضبه. اسمعه يقول:[٢]

| | |
|---|---|
| **بَغْدادُ دارَ الملُوكِ كانَتْ** | **حَتّى دَهَاهَا الّذِي دَهَاهَا**[٣] |
| **ما غَابَ عَنْها سُرورُ مُلْكٍ** | **عَادَ إلى بَلْدَةٍ سِواها** |
| **لَيسَ سُرُورُ بِسُرَّ مَنْ رَأى** | **بَلْ هِيَ بُؤسٌ لِمَنْ يَرَاهَا**[٤] |
| **عَجَّلَ رَبّي لَهَا خَرَابَاً** | **بِرَغْمِ أنْفِ الّذي أبْتَنَاهَا** |

لم يكتفِ دعبل الخراعي بهجاء المعتصم أيّام حياته بل وجّه سهام هجائه اللاذع إليه بعد موته؛كانت العادة عند الشعراء في العصر العباسي إذا مات خليفة وقام آخر، يعزّون الخليفة الجديد بموت السابق ويهنّئونه بمنصبه. والتطور الذي حدث على يديه أنّه جعل ذلك معاكساً إذ هجا الخليفة الميّت وأعرب عن استيائه بقيام الخليفة الجديد، وهذا ما نراه عند تولية الواثق الخلافةَ بعد المعتصم. لمّا مات وتولّى الواثق الخلافة نرى الشاعر يصوّر فراغ الخلافة من معانيها كلّها، وإلى نفض الناس أيديهم منها وإدارة ظهورهم لها، وهو أمضّ ما بلغ هجاؤه

---

١. عويضة، ص١٤٧.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٠٧.

٣. دهاه ُ دَهواً: أصابه بداهية.

٤. سُرَّ من رَأى أو سامرّاء مدينة على دجلة فوق بغداد وعلى بعد ثلاثين فرسخاً منها، بناها المعتصم سنة ٢٢١هـ بسبب اعتداء جيوش المعتصم على حرمات الناس وسعيهم بالفساد، أنشأ المعتصم فيها القصور وثكنات الجيش وانتقل إليها وأخذت في التقدّم والتطور حتى أيام المستعين حيث دبّ فيها في أيّامه التناقض بسبب قوة شوكة الأتراك واستبدادهم بالملك، وخربت المدينة ولم يبق منها إلّا الموضع الذي ضمّ ضريحي الإمامين العسكريين عليّ الهادي والحسن بن علي العسكري (انظر: الحموي معجم البلدان ٣:١٧٣).

السياسي من وضوح القصد. يقول الشاعر لمّا مات المعتصم وقام الواثق مقامه:[١]

الحَمْدُ لِلّهِ لا صَبْرٌ وَلا جَلَدُ ... وَلا عَزاءُ إذَا أهْلُ البَلا رَقَدُوا

خَلِيفَةٌ ماتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أحَدُ ... وَآخَرُ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أحَدُ

فَمَرّ هذا وَالشُّؤمُ يَتْبَعُهُ ... وَقَامَ هَذا فَقَامَ الوَيْلُ وَالنَّكَدُ

كان دعبل بهده الأبيات لسان الشعب في التعبير عن موقفه إزاء الحوادث، فنستطيع أن نسمع صوت الشعب قوياً واضحاً، وهو يعلن هذا الرفض في أكثر من صورة وبأكثر من أسلوب، فيتهكم بالحكم والحاكمين. وهذا يدل على أن الشعب سئم من الخليفة وأصبح وجوده وعدمه سيّين عنده. والنموذج الذي ذكرناه «يعد من قمّة الشعر الساخر الذي عرفته عصور الأدب بحيث يعدّ وثيقة لمهزلة حكم السلاطين الذين يموتون فلم يحزن عليهم أحد، وينصبون فلم يفرح بهم أحد، حيث تظلّ أمثلة هذا الشعر الساخر تعبيراً عن الحقائق الإجتماعية التي تتحدث عن أصوات الرأى العام وتصوراتهم للسلاطين».[٢] إنّا نستنبط ممّا سبق نقطتين هامتين:

الأولى: ليس للسلطة العباسية مشروعية دينية، لأنّها قامت على أساس الخديعة وأغتصبت السلطة من أصحابها الحقيقيين وهم أهل البيت عليهم السلام.

الثانية: أن الحكومة لدى العباسيين لا تتمتع بميزة المقبولية عند جمهور الشعب، فلذلك لم يحزن أحد لفقد الخليفة. فالشاعر لم يكن يستطيع التعبير عن هذه النقطة بألفاظ أخرى، وهذه الأبيات تؤدي مدلولها بصورة دقيقة.

وهل هناك هجاء أقسى من وصف الخليفتين بأهل البلاء؟ يقول الشاعر إنّنا نشعر بالرّاحة إذا مات أهل البلاء، ووضعوا في القبور. ثمّ كنّى الشاعر بجملة "خليفة مات" عن المعتصم، وبجملة "وآخر قام" عن الواثق الذي قام مقام المعتصم. غير أنّ المسألة الهامّة التي تلفت

---

١. السابق، ص١٦٨.

٢. البستاني، محمود، ٥٢٥.

انتباهنا هى أنّ الشاعر حاول في هذه الصّورة الهجائيّة أن يعتني بالصياغة والألفاظ أكثر من اعتنائه بأىّ شيٍ آخر، فلذا تتتابع الكنايات واحدة إثر الأخرى، فقال بعد ذكر المعتصم إنّه لم يحزن له أحد، وهذا معناه عدم الحزن وعدم التأثر بموته، وقال بعد ذكر الواثق إنّه لم يفرح به أحد، وهذا يعني عدم سرورهم بقيام الخليفة الجديد. وبعد أن هجا الشاعر المعتصم هرب إلى أسوان في مصر وهجاه من هناك بقوله:[1]

**وَإنَّ أمْــرأً أمْسَــتْ مَسَــاقِطُ رَحْلِــهِ بِأسْـوَانَ لَـمْ يَتْـرُك لَـهُ الحِـزصُ مَعْلَمَـا**[2]

**حَلَلْــتُ مَحَــلَّاً يَقْصُــرُ البَــرْقُ دُونَــهُ وَيَعْجِــزُ عَنْــهُ الطَّيْــفُ أنْ يَتَجَشَّــمَا**

وأحياناً نرى دعبل الخزاعي يعارض شعراء السلطة العباسية الذين مدحوا خلفاء بني العباس، فيناقض أشعارهم في مديحهم على غرار ما فعله في معارضة رثاء ابن الزيات الذي أعلن حزنه على موت المعتصم في أبياتٍ له يقول فيها:[3]

**قَــدْ قُلْــتُ إذْ غَيَّبُــوهُ وَانْصَــرَفُوا فِــي خَيْــرِ قَبْــرٍ لِخَيْــرِ مَــدْفُونِ**

**لَــنْ يَجْبُــرَ اللــهُ أمَّــةً فَقَــدَتْ مِثْلَــك إلّا بِمِثْــلِ هــارُونِ**

وردّ على أبياته بقوله:[4]

**قَــدْ قُلْــتُ إذْ غَيَّبُــوهُ وَانْصَــرَفُوا فِــي شَــرِّ قَبْــرٍ لِشَــرِّ مَــدْفُونِ**

**إذْهَــبْ إلَــى النّــارِ وَالعَــذابِ فَمَــا خِلْتُــك إلّا مِــنَ الشّــيّاطينِ**

**مــا زِلْــتَ حَتّــى عَقَــدْتَ بَيْعــةَ مَــنْ أضَــرَّ بِالمُســلِمينَ وَالــدّينِ**

رسم دعبل صورة بسيطة في هجاء الخليفة واعتبره رغم موته صورةً للطاغية المستبدّ الشرير وطلب له العذاب في نار جهنّمَ التي يستحقّها الشياطين والطغاة والظالمون.

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٧٧.

٢. المعلم: ما يستدلّ به.

٣. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ٢٠، ص١٥٨.

٤. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٩٩.

## هجاء الواثق

تولّى الواثق الخلافة بعد المعتصم فأرسل إليه دعبل بطاقة تهنئة بمناسبة تسلمه منصبه الجديد على طريقته الخاصة في السخرية ضمَّنها أبياتاً في كتابٍ وسلّمه إلى الحاجب وقال له: بلّغ أمير المؤمنين السلام وقل له هذه أبياتٌ امتدحك بها دعبل:

**الحَمْدُ لِلّهِ لا صَبْرٌ وَلا جَلَدُ ... وَلا عَزاءٌ إذَا أهْلُ البَلا رَقَدُوا**

**خَلِيفَةٌ ماتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أحَدُ ... وَآخَرُ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أحَدُ**

**فَمَرّ هذا وَالشُّؤمُ يَتْبَعُهُ ... وَقَامَ هَذا فَقَامَ الوَيْلُ وَالنَّكَدُ**

فلما قرأها الواثق أمر بالقبض عليه بكلّ وسيلة فلم يقدر لأنّه اختفى حين سلّمها للحاجب وظلّ مختفياً حتى مات الواثق.

## هجاء المتوكل

حين ولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ه كان دعبل قد أسنَّ وجاوز الثمانين إلّا أنّ هذا لم يعقه من الهجاء والصراع السياسي مع السلطة الحاكمة. فلمّا سمع أنّ المتوكل أخذ يتعقّب الشيعة ويعاقب شعراءهم ويضيق الخناق عليهم بهدم قبور أهل البيت عليهم السّلام في كربلاء والنجف وتسويتها بالأرض وحراثتها ومنع النّاس من زيارتها، خرج الشاعر بشعر يشتم فيه المتوكل ولكنّ هذا الشعر ضاع كلّه ولم يبق بين أيدينا إلّا بيتٌ واحد:[1]

**وَلَسْتُ بِقائلٍ قَذْعَاً وَلكنْ ... لِأمرٍ مَا تَعَبَّدَكَ العَبِيدُ**[2]

ويتّصل بمضمون الهجاء السياسي عند دعبل ما يُعرَف بالهجاء المقذع الساخر، فإنّه خرج في بعض هجائه السياسي عن حدود الآداب المعروفة عند الشعراء ودخل في باب سبابٍ غير لائق كما نرى في البيت السابق، ونعلّل ذلك بطبيعة الشاعر الصريحة في فضح السلطة الحاكمة بمعانٍ مخزية. ولعلّه فعل ذلك عندما نفد صبره وضاق صدره، فأضحك النّاس على

---

١. السابق، ص١٧١.

٢. القذع: الفحش. تعبّده: صيّره كالعبد. وفي البيت تلميح عن الأُبنة.

خصوم الشيعة وحطّ من شأنهم واستهزأ بهم «ومن دأب أصحاب هذه الطبائع النافرة الملول، وترقق حواشي البغضاء وبالعقيدة التي يتخذونها من قوة، ما تجيش بقلوبهم من السّخط والكراهية؛ وأنّ الذي لا شك فيه أنّ الهجاء يكون مقبولاً حين يعبّر بذكاء وقوّة وعاطفة عميقة عن سخط الجنس البشري عامّةً وعن شرور معيّنة وأفراد معينين».[١] فجاء هجاؤه تعبيراً عن تمرّده على الواقع وعجزه عن الرّضا به وسخطه على الباطل؛ وتركز هجاؤه المقذع في اتّجاه يفوق حدّ الوصف من سبّ بالزنا، وهتك للأعراض، وشك في النسب، وتصريح بالعورات في صراحة مخلّة، وإن صورها في صورة فنيّة حيّة متحركة انتزعها من الحياة العادية، وعبّر عنها ببساطة دون تكلّف، كأنّما يقرّر حقيقة بسيطة عادية يعرفها كلّ البشر. يصوغها في بحور قصيرة تروي في غير كلفة، يردّدها النّاس بل ويحفظها الصبيان والمارّة والسّفل، تجري على ألسنتهم جرياً وأحياناً يتغنّون بها، ليصل إلى هدفه من هجوم خصمه وتحطيم معنوياته[٢] وذكرت كتب التاريخ أنّ المتوكل لمّا منع النّاس من زيارة قبر الإمام الحسين عليه السّلام قال دعبل كلمته المشهورة:[٣]

**زُرْ خَيرَ قَبْرٍ بِالعِراقِ يُزَارُ وَأَعْصِ الحِمَارَ فَمَنْ نَهَاكَ حِمارُ**

وجدير بالذكر أنّ المتوكل كان آخر خليفة من خلفاء بني العباس تعرّض لهجاء دعبل كما أنّ وزراءه وعمّاله لم يسلموا من هجوه أيضاً. وهكذا أخمدت النّار التي أشعلها الشاعر قرابة قرن كامل في وجه خلفاء بني العباس ووزرائهم وكلّ من آذى آل البيت عليهم السّلام.

## هجاء ابراهيم بن المهدي

وصل دعبل بغداد فوجد الأوضاع مضطربة ورأى النّاس منقسمين على أنفسهم، فريق حزين لمقتل الأمين على يد قائد المأمون طاهر بن الحسين، وفريق منهم ساخط على تأييد

---

١. العقّاد، عباس محمود، مراجعات في الآداب والفنون، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦م، ص١٣٥.

٢. انظر: عويضة، ص١٦٠.

٣. المطهري، مرتضى. الملحمة الحسينية، الطبعة ١٤، انتشارات صدرا، ١٣٦٨ش، ج ٣ ص٣٤٤.

المأمون للشيعة لأنّه اتّخذ من الإمام الرضا (ع) وليّاً للعهد. رأى أهل بغداد وقد خلعوا المأمون وبايعوا عمّه ابراهيم بن المهدي خليفةً لهم، وفي مطلع عام ٢٠٢ه اعتلى عرش الخلافة ونتيجة لذلك خلعوا المأمون المقيم في مرو، وقد غضبوا عليه حين أمر النّاس بترك لباس السّواد شعار بني العباس وارتداء الخضرة شعار الشيعة وتحويل سرير الخلافة إلى مدينة مرو عاصمة خراسان.[١]

بعد أن أخذ ابراهيم بن المهدي يمارس أعمال الخلافة في بغداد اعترضته المشاكل منها: قلة في المال، تمرّد على الخلافة، ضعف في تسيير أمور الناس، ممّا أدّى إلى إساءة الأحوال وتحرّك خصومه ضدّه. حدث كلّ هذا في مدينة بغداد ودعبل الخزاعي كان يراه ويسمعه، وهكذا وجد فرصةً صالحة للنيل من هيبة الخلافة العباسية. فهجا الخليفة إبراهيم بن المهدي ساخراً ناقداً:[٢]

**نَعَرَ ابنُ شَكلَةَ بِالعِراقِ وَأهلِهِ ... فَهَفَا إليهِ كلُّ أطْلَسَ مَائقِ**[٣]

**إنْ كانَ ابرَاهيمُ مُضْطَلِعاً بِهَا ... فلْتَصلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لمُخَارِقِ**

**وَلْتَصلُحَنْ مِنْ بَعدِ ذَلكَ لِزَلْزلٍ ... ولْتَصلُحَنْ مِنْ بَعدِهِ لِلْمَارِقِ**[٤]

**أنّى يَكونُ وَلَيسَ ذَاكَ بِكائِنٍ ... يَرِثُ الخِلافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ**

فقد هاجم دعبل كُلّ من بايع إبراهيم، واتّهمهم بالطيش والحمق، وأنكر عليهم تسليم الخلافة لفاسق؛ ويعتقد أن معظم الخلفاء العباسيين فاجرون فاسقون، وأمّا البيتان الأخيران فهما بيتا هزء وسخرية فإذا صحّت الخلافة لإبراهيم، فولاية العهد تكون لمخارق، وتصلح

---

١. انظر: المسعودي، مروج الذهب، جـ ٥ ص١٨٤.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٤٤.

٣. نعر: صوت وصاح، ويقال: نعر فلان في الفتنة إذا قام فيها. هفا: أسرع. الأطلس: أصله الذئب في لون غبرة إلى السّواد، ويريد به الأسود أو الأمرد. المائق: الأحمق.

٤. مخارق بضمّ الميم وفتح الخاء المعجمة ابن يحيى بن ناوس الجزار مولى مملوك. زلزل: بفتح الزايين المعجمتين منصور الضارب الذي أحدث العيدان الشبابيط.المارق . لا أدري من هو . هؤلاء الثلاثة كانوا من المغنين في ذلك العصر (ابن خلكان ١: ٤٠).

فيما بعد لزلزل والمارق، وكلهم من مغني ذلك العصر، وقد استمدّ الشاعر جرأته من تشيّعه وحبّه لآل البيت، وهي دافع أساسي وراء هذه السخرية.

ونرى دعبلاً يتناول تلك المسألة في مقطوعة أخرى، وكأنّه يريد أن يحطم هيبة الخلافة العباسية ويقرنها بالعبث والفسق والانحلال، ويحيل خلافة بني العباس التي زعموا أنّها جاءت لنصرة الدين خلافةً كتابها المزهر والبربط. اسمعه يقول:[1]

**يا مَعْشَرَ الأجْنادِ لاتَقْنَطُوا ... وَأرْضَوا بِمَا كانَ وَلا تَسْخَطُوا**[2]

**فَسَوْفَ تُعْطَوْنَ حُنَيْنِيَّةً ... يَلْتَذُّها الأمْرَدُ وَالأشْمَطُ**[3]

**وَالمعْبَدِيّاتُ لِقُوّادِكم ... لا تَدْخُلُ الكِيْسَ وَلاتُرْبَطُ**[4]

**وَهَكَذا يَرْزُقُ أصْحَابَهُ ... خَلِيفَةٌ مُصْحَفُهُ البَرْبَطُ**

**قَدْ خَتَمَ الصَّك بِأرْزاقِكم ... وَصَحَّحَ العَزْمَ فَلَمْ تُغْمَطُوا**

**بَيْعَةُ ابْراهِيمَ مَشْؤُومَةٌ ... تُقْتَلُ فِيها الخَلْقُ أوْ تُقْحَطُ**

ولمّا وصلت القصيدة إلى الخليفة غضب على دعبل غضباً شديداً وأقسم لينتقمنَّ منه شرّ نقمة إن وجده لأنّه جعله في زمرة المغنّين الماجنين الفاسقين. لم يَخَف الشاعر من غضب الخليفة وكيف يخاف وهو لم يخف من كان أشدّ منه سطوةً. وقد استغلّ الشاعر هياج الجنود وغوغاء الرعية فنظم الأبيات المذكورة، وروى عن اسحق الموصلي أنه قال: «أنشدني دعبل هذه الأبيات فوالله لاأرضى أن أكون خليفةً وتكون هذه الأبيات في حقّي».[5] وقد روى صاحب الأغاني أنّ الجنود والرعية اجتمعوا حول قصر الخليفة يطالبونه بالمال فأحبس عليهم العطاء ثمّ خرج إليهم رسوله وهم في هياج فصرخ لهم بأنّ الخليفة لا يملك المال لإرضائهم فقال

---

١. السابق، ص٢١٩.

٢. قنط: يئس.

٣. حنينية: أي ألحاناً حنينية نسبة إلى (حنين الحيرى) المغنّي. الشمط: الشيب.

٤. المعبديات: نسبة إلى معبد المغنّي.

٥. ابن خلكان، ج ٥ ص٢٤٨.

قومٌ: «اخرجوا إلينا خليفتنا ليغنّي لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هـذا الجانـب ثلاثـة أصوات فتكون عطاءً لهم».[١]

هذه هى حكاية دعبل الخزاعي مع الخليفة في قصيدته الطائية التي هى غاية في الهجـاء الساخر والمرارة الناقدة الممضّة، وباعتقادنا أنّ السبب الرئيس لهجاء ابن المهدي يرجع إلى أنّه ثبت لدعبل أنّ الخليفة كان يبغض العلويين بغضاً شديداً.

يأتي هجاء دعبل الخزاعي للخلفاء العباسيين على أساس الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ١ هجاء الخلفاء

| ا | الخليفة | القالب الشعري | عدد | الص |
|---|---|---|---|---|
| ١ | هارون الرشيد | قصيدة | ٢٤ | ١٩ |
| | | قصيدة | ١٦ | ٢٨ |
| ٢ | المأمون | مقطوعة | ٧ | ١٧ |
| ٣ | المعتصم | قصيدة | ١٢ | ١٠ |
| | | مقطوعة | ٣ | ١٦ |
| | | مقطوعة | ٣ | ٢٩ |
| | | مقطوعة | ٤ | ٣٠ |
| ٤ | الواثق | مقطوعة | ٣ | ١٦ |
| ٥ | المتوكل | مقطوعة | ١ | ١٧ |
| ٦ | ابراهيم بن | مقطوعة | ٦ | ١٩ |

١. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٦٤.

| | المهدي | مقطوعة | ٧ | ٢٨ |
|---|---|---|---|---|

## هجاء الوزراء

يعدّ الوزير ساعد الخليفة الأيمن ونائباً عنه في حكم البلاد، وكان يعيّن الولاة ويشرف على الضرائب ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية، وكان صاحب المشورة يرشد بها الخليفة. عندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ومنها الوزارة، وكان أول وزير للعباسيين أبا سلمة الخلال وكان ذلك في سنة ١٣٢هـ حينما أظهر الدّعاة أباسلمة الخلال في الكوفة وسلّموا إليه الرياسة وسمّوه وزير آل محمد[١] لكن معالم الوزارةلم تتحدد في عهده، كما أنّها كانت بسيطةً و«لم يكن أبوسلمة الخلال سوى مشاور متنفذ بحكم ظروفه، وكانت الدواوين المهمة بيد غيره مثل ديوان الجند وديوان الخراج»[٢]وعلى الرغم من استوزار السفاح لأبي سلمة لم تكن وظائف الوزارة محددة المعالم في ذلك الحين، إلّا أنّ دورها في تسيير مقاليد الحكم برزت بعد استقرار الأوضاع السياسية للخلفاء العباسيين وظهور الوزراء الأقوياء الذين ساهموا في تثبيت مفهوم الوزارة وإعطائها السلطات الواسعة فيما بعد.

وصف صاحب الفخري الوزارة في عهد المنصور بقوله: «لم تكن الوزارة في أيّامه طائلة لاستغنائه برأيه وكفاءته على أنّه كان يشاور في الأمور دائماً وإنّما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء، وكانوا لايزالون على وجلٍ منه وخوف فلايظهر لهم أبهة ولا رونق».[٣] ويرى أحد الباحثين أنّ الوزارة في عهد المنصور كانت وزارة تنفيذ ولم تتعدّ مهمة الوزير المشورةَ وتنفيذ

---

١. انظر: ابن خلدون، أحمد بن محمد. تاريخ ابن خلدون، منشورات مؤسسة الأعلمي، لبنان، ١٩٧١م، ج ٣ ص١٧٣.١٧٦.

٢. الجهشياري، أبوعبدالله محمد بن عبدوس بن عبدالله. الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شبلي، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ١٩٣٨م، ص٨٣.

٣. ابن طباطبا، ص٢١٣.

أوامر الخليفة.[١]

لقد أظهر المهدي اهتماماً كبيراً بالوزارة فأصبحت في عهده ذات أهمية عظمى إذ تولّى الوزير رئاسة الدواوين والجيش فاتسعت بذلك سلطة الوزير وصلاحيّاته[٢] وجدير بالذكر أنّ الوزارة مع اهتمام المهدي البالغ بها لم ترسخ ولم تتسع سلطاتها، بل كان الخليفة يستطيع عزل الوزير متى أراد دون تردد أو حذر، وعلينا أن ندرك أنّ الوزراء كانوا «كتاباً بالدرجة الأولى بثقافتهم ومؤهلاتهم».[٣]

ولمّا أفضت الخلافة إلى الهادي تابع سياسة أبيه «ولم يكن له وزير»[٤] فقام بتدبير الأمور بنفسه، ويبدو أنّ قِصَرَ عهده لم يعطِ فرصة لظهور وزراء قاموا بدور بارز في مجريات الأحداث في السلطة العباسية. تعتبر وزارة يحيى بن خالد البرمكي وزارة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة إذ أعطاه هارون الرشيد حق التصرف في التولية والعزل وتدبير أمور الرعية وكانت هذه الأمور من قبل بيد الخليفة، وبذلك أصبحت أسرة البرامكة ذات نفوذ كبير في دولة الرشيد يتصرفون كيفما شاءوا في أمور الدولة. واستمرّ البرامكة على هذا الحال سبعة عشر عاماً حتى تغيّر عليهم هارون الرشيد ونكبهم نكبة عظيمة تعتبر من الأحداث الكبيرة في العصر العباسي الأول.

ولمّا مات هارون الرشيد واستولى الأمين على الخلافة لعب الوزراء دوراً خطيراً في إذكاء نار الفتنة بين الأخوين، فكان الفضل بن الربيع وزيراً للأمين وهو الذي حسَّن له خلع المأمون والبيعة لابنه موسى الهادي.[٥] اشتعلت نار الفتنة بين الأخوين بفعل وزراءهما الذين زيّنوا للطرفين خلع الآخر وكان همّ كلّ وزير مصلحته الشخصية فقط فأجّجوا الفتنة التي انتهت

---

١. انظر: الدوري، عبدالعزيز. النظم الإسلامية، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٩م، ص٢١٩.

٢. اليوزبكي، ص٨٤.

٣. الدوري، ص٢٢١.

٤. اليوزبكي، ص٥٦.

٥. انظر: ابن طباطبا، ص٢٤٣.

بمقتل الأمين في عام ١٩٨هـ كان الفضل بن سهل وزير المأمون قد لعب دوراً هامّاً في نقل الخلافة إليه فأطلق المأمون يده في الأمور ولقّبه بذي الرياستين ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير[١] استوزر المأمون بعد مقتل الفضل بن سهل أخاه الحسن بن سهل وتزوج بابنته بوران ترضية له.[٢] ثمّ استوزر المأمون بعده أحمد بن أبي خالد وجاء بعده دور أحمد بن يوسف الذي كان كاتباً، ولمّا عزله المأمون استوزر بعده يحيى بن أكثم. ثمّ وزر للمأمون بعده أبوعبّاد وقد كان كاتباً أيضاً إلّا أنّه كان به حماقة.[٣] ومنذ عهد المعتصم بدأت الوزارة تضعف وتضمحلّ بسبب تولّي وزراء لاعلم لهم بالإدارة ولا دراية بالحكم ممّا أدّى إلى انتشار الفوضى في المجتمع.

ذكرنا فيما سبق تطوّر منصب الوزارة في السلطة العباسية واتّضح لنا بعد دراسة هذا المنصب حتّى نهاية عهد المأمون نقطتان هامّتان الأولى: أنّ الخلفاء العباسيين لم يتركوا لوزرائهم حريّة التصرف الكامل في شؤون الدولة، بل كانوا يشرفون على الأمور بأنفسهم والثانية أنّ بعض الوزراء الذين تولّوا هذا المنصب كان لهم ميل إلى العلويين والشيعة مثل البرامكة، ولعلّ هذا يفسّر لنا قلّة هجاء الوزراء في شعر دعبل الخزاعي، إذ لا نرى في شعره موقعاً متميّزاً لهجاء الوزراء، وكأنّ مهمّة القضاء والكتابة أصبحت ذات شأن خطير بالنسبة إلى الوزارة. تبدّى لنا بعد دراسة ديوان الشاعر أنّ أحمد بن أبي خالد، وأباعبّاد كانا من الوزراء اللذين تناولهما دعبل بالنقد والهجاء، فنذكر ما أنشده دعبل في هجاءهم:

### هجاء أحمد بن أبي خالد

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل، أحمد بن أبي خالد وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤى وكان أبوه كاتباً لعبيد الله كاتب المهدي، أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن

---

١. انظر: الجهشياري، ص٣٠٥.

٢. انظر: الدوري، ص٢٢٦.

٣. انظر: ابن طباطبا، ص٢٢٦..

سهل وقال له: إنّي كنت قد عزمت ألّا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين الغاية منزلةً يتأمّلها صديقي فيرجوها لي ولايقول عدوّي قد بلغ الغاية وليس إلّا الانحطاط، فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.[١]

ومن عيوب أحمد بن أبي خالد «أنّه كان شرهاً يتقرّب إليه النّاس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح، وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كلّ يوم لمائدته ألف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام النّاس وتمتدّ عينه إلى هديّةٍ تأتيه وكان مع هذا سيّئ اللّقاء عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام».[٢] قال دعبل فيه حين أجرى المأمون عليه ألف درهم في كلّ يوم لمائدته ليكفّ عن قبول الرشاوي والهدايا ولم يقتنع بذلك، وكره منه هذا الموقف وهجاه هجاءً ساخراً كما تناول بالطّعن والده وهجاه هجاءً تصويرياً استطاع أن يجسّد هجاءه تجسيداً مضحكاً فقال:[٣]

**شَكَرْنَا لِلْخَلِيفَةِ إجْرَاءَهُ عَلَى ابْنِ أَبِي خَالِدٍ نُزْلَهُ**[٤]

**فَكَفَّ أذَاهُ عَنِ المُسْلِمِينَ وَصَيَّرَ فِي بَيْتِهِ وَأكلَهُ**

**وَقَدْ كَانَ يَقْسِمُ أشْغَالَهُ فَصَيَّرَ فِي نَفْسِهِ شُغْلَهُ**

يرى الشاعر أنّ الخليفة لمّا أجرى على وزيره طعاماً كثيراً كفّ هو بذلك عن إيذاء المسلمين، وهنا بلغ الشاعر ذروة الهجاء كأنّه يريد أن يقول إنّ الوزير الذي يتوقع منه أن يدير شؤون المجتمع، بلغت حاله حدّاً أصبح الأكل والشرب يصرفانه عن سائر شؤونه. ونرى الشاعر يتناوله في مقطوعةٍ أخرى لمّا ولي الوزارة في أيّام المأمون وهي هجاء مضحك كما يبدو، كما أنّه لايخلو من الإفادة بالتصوير الفني في تشكيله حين يقول مستخدماً التشبيه والكناية

---

١. انظر: الخضري، ص١٦١.

٢. السابق، ص١٦٢.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٦٢.

٤. النزل: الطعام الكثير الوافر.

وترسيم الصور الكاركاتيرية:[١]

**كأنَّ أبَا خَالدٍ مَرْأةٌ إذَا بَاتَ مُتَّخِماً قاعِدا[٢]**

**يَضِيقُ بِأوْلادِه بَطْنُهُ فَيَخْرَاهُمُ وَاحِداً واحِدَا[٣]**

**فَقَدْ مَلأ الأرْضَ مِنْ سَلْحِهِ خَنَافِسَ لاتُشْبِهُ الوَالِدا[٤]**

شبّه الشاعر الوزير بمرأةٍ أصابتها التخمة من كثرة الأكل وهي تضيق ببطنها من كثرة الأولاد فيسلحهم واحداً بعد الأخرى ثمّ شبّه الأولاد بالخنافس وهم لايشبهون أباهم. ولا شك أنّ تشبيه الأولاد بالسلح والخنافس تشبيه قبيح وفي نفس الوقت لاذع. وله مقطوعة ثالثة يهجو فيها أحمد بن أبي خالد ويصف شراهته ويذكر عمرو بن مسعدة ويخرجه من ديوان الكتابة إلى ديوان الشحاذة:[٥]

**لولا تَكُونُ ككاتِبٍ لَكَ رَبْعَةٌ يَقْضِي الحَوائِجَ مُسْتَطِيلَ الرَأسِ[٦]**

**لَمْ تُغْذَ بِالمَلْبُونِ عِنْدَ فِطامِهِ يَوْماً وَلا بِمُطَجَّنِ القُلْقَاسِ[٧]**

**أوْ كَابنِ مَسْعَدَةَ الكَرِيمِ نِجَارُهُ بَيْتِ الكِتابَةِ فِي بَنِي العَبَّاسِ[٨]**

**يَغْدُو عَلَى أضْيَافِهِ مُسْتَطْعِمَاً كالْكَلْبِ يَأكُلُ فِي بُيُوتِ النَّاسِ**

يخاطب الشاعر مهجوّه ويقول: أنت لم تبلغ منزلة كاتب له صندوق يحاول أن يقضي حوائج النّاس، ثمّ يقول إنّك لاتقدر أن تبيت جانب صبيٍّ مرضع فطم عن اللبن، ولاتقدر أن

---

١. السابق، ١٧٣.

٢. المتّخم: الذي أصابته التخمة من شدّة الأكل.

٣. أخرى: سلح، تغوّط.

٤. سلح: تغوّط وهو خاص بالطير والبهائم واستعماله للانسان من باب التساهل على التشبيه. الخُنفُس: دويبة سوداء أصغر من الجُعَل كريهة الرائحة.

٥. السابق، ص٢١٢.

٦. ربعة: صندوقة الكاتب.

٧. الملبون: المغذّي باللبن. المطجن: المقلوّ من الطاجن. القلقاس: أصل نبات يؤكل مطبوخاً.

٨. نجار: الأصل.

تقضي ليلتك مكتفياً بأكل بطاطا مقلية، كما أنك لستَ كابن مسعده الذي كان من بيت أصيل عرف بجودة الكتابة في السلطة العباسية، والذي كان يطلب الطعام من ضيوفه كالكلب الذي يرتزق من بيوت الآخرين.

## هجاء أبي عبّاد

كان أبوعباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي كاتباً حاذقاً بالحساب سريع الحركات، أهوج محمقا كتب للمأمون ووزر له وكان معروفاً بحدّته وتسرّعه وهوجه[١] كان دعبل الخزاعي يكره منه سوء تصرّفه وعدم تقديره للنّاس فهجاه هجاءً مزاً حاول النيل منه. ولمّا «قيل للمأمون إنّ دعبلاً قد هجاك فقال: وأى عجب في ذاك. هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني أنا؟ ومن أقدم على جنون أبي عباد أقدم على حلمي ثمّ قال للجلساء: من كان منكم يحفظ شعره في أبي عباد فلينشدنيه»[٢] فقال بعضهم منشداً هجاء الشاعر في أبي عباد وقد جعل من ديوانه بيتاً للمجانين. أنصت إليه وهو يقول:[٣]

**أوْلَى الأمُورِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادِ ... أمْرٌ يُدَبِّرُهُ أبُو عَبّادِ**[٤]

**خَرِقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ فَكَأنَّهُم ... حَضَرُوا لِمَلْحَمَةٍ وَيَوْمِ جِلَادِ**[٥]

**يَسْطُو عَلَى كُتّابِهِ بِدَوَاتِهِ ... فَمُرمَّلٌ ومُضَمَّخٌ بِمِدَادِ**[٦]

**وَكأنّهُ مِنْ دَيْرِ هِزْقِلَ مُفْلِتٌ ... حَرِدٌ يَجُرُّ سَلاسِلَ الأقْيَادِ**[٧]

**فَأشُدُّ أمِيرَ المُؤمِنِينَ وِثَاقَهُ ... فَأصَحُّ مِنْهُ بَقِيّةُ الحدّادِ**

---

١. انظر: ابن طباطبا، ص٢٢٦.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٥٤.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٨١.

٤. الضيعة: الإهمال والفساد.

٥. خرِقٌ: أحمق. الملحمة: القتال. يوم الجلاد: يوم الشدّة والقوّة.

٦. رمّل الثوب: لطّخه بالدم. ضمّخ جسده وغيره بالطيب وغيره؛ ضمخاً: لطخه به في كثرة.

٧. حرد عليه: غضب وهو حردٌ وحارد. السلاسل: ج السلسلة: حلقات ونحوها يتصل بعضها ببعض. الأقياد: ج القيد: حبلٌ ونحوه يجعل في رجل الدابة وغيرها فيمسكها.

يقول الشاعر إنّ الأمور إذا كان مدبّرها أبا عباد، لاشك أنّها تنتهي إلى الفساد لأنّه ضعيف الرأى لايحسن عمله، والشاهد على ذلك سوء معاملته لجلسائه بحيث يشعرون كأنّهم حضروا في ساحة القتال، ثمّ شبّهه بالوحش وثب على فريسته وجعلها ملطّخةً بدمائها، وقد جعله مجنوناً تخلّص من بيت المجانين حاملاً سلاسل القيد في رجليه.

ودعبل بهذه الأبيات يجرّد أبا عبّاد من الخصائص الإنسانيّة وما تتبعها من تكاليف أمثال العقل والتفكير وينزله إلى مرتبة الدوابّ بل أسفل منها و«استطاع الشاعر في الوصول إلى غرضه من الهجاء أن يستخدم مجموعةً من الصور مثل "خرق على جلسائه، وملحمة ويوم جلاد، ويسطو بدواته، ومضمخ بدم، وكأنّه من دير هزقل مفلت، وحرد يجرّ السلاسل، وأشدد وثاقه»[١] فبيّن دعبل معاني السخرية والخزى والهوان بألفاظٍ أدقّ ومزجها بأشكال تصويرية تتوالى الصور اللاذعة فيها واحدة إثر الأخرى «فأوقع الشاعر بعدوّه ونال منه أشدّ النيل وأعظمه، وأثّر فيه أوقع الأثر وأبلغه. فمادّة الصورة كالعجينة اللينة في يد الشاعر يشكلها كما يريد ثمّ يبثّ فيها من روحه الخاص، ثمّ يقذف بها وجه فريسته فيدميه».[٢]

ونورد هجاء دعبل في الوزراء في الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ٢ هجاء الوزراء

| ا | الوزير | القالب | عدد | الصفحه |
|---|---|---|---|---|
| ١ | أحمد بن أبي خالد | مقطوعة | ٣ | ١٧٣ |
| | | مقطوعة | ٤ | ٢١٢ |
| | | مقطوعة | ٣ | ٢٦٢ |
| ٢ | أبو عبّاد | مقطوعة | ٥ | ١٨١ |

١. عويضة، ص١٥١.

٢. السابق، ص١٥١.

## هجاء القضاة

يُعدّ القاضي عنواناً لعدالة الدولة ورمزاً لإحقاق الحقّ ونصرة المظلومين، فهو أعلى مسؤول في جميع السلطات يسيّر شؤون الرعية في أمورها الدينيّة والدنيوية، لذا ينبغي أن يتحلّى بصفات الورع والتقوى والعدالة التي تؤهله لهذا المنصب الإداري وأن يخلّص نفسه من اتّباع الهوى في أحكامه. ومن المفترض أن يكون القضاة اليد التي تكفّ المظالم عن الناس والتي تقيم العدل، فإذا ظلموا فالمصيبة فيهم مضاعفة. إذن الخيبة في القضاة هي الأشدّ إيلاماً على الإطلاق.

لقد تعرّض القضاة في ظلّ السلطة العباسية للنّقد اللاذع من قبل شعراء الشيعة، ويتّضح من خلال دراسة ديوان دعبل الخزاعي أنّه كرّس قسماً كبيراً من هجائه السياسي إلى القضاة أمثال أحمد بن أبي دؤاد ويحيى بن أكثم، ولم يسلم هؤلاء القضاة من نقده اللاذع، ولم يتهاون الشاعر في فضح حقيقتهم وتمزيق ستار الورع والتقوى المزيف الذي يحتمون به ولم يتورع في السخرية منهم ومن التناقض في شخصيتهم حيث يخفون عكس ما يظهرون، فهم في جوهرهم أسوأ ما يكون، خونةٌ ظالمون مبدّلون للحقائق، ولذلك كانت أعظم مخاوف الشاعر تأتيه منهم، ونحن نتناول هنا هجاء الشاعر في القضاة بالدرس والتحليل:

### هجاء أحمد بن أبي دؤاد

كان أحمد بن أبي دؤاد أكبر قاضٍ تناوله دعبل الخزاعي بالنقد والتجريح، ونرى السبب الرئيس لهجائه أنّه كان يسير في ركب الجهاز الحاكم والسلطة العباسية الزمنية.

لمّا سمع الشاعر أنّه يطعن عليه عند المأمون استشاط غضباً وحقد عليه وأخذ يهجوه ويطعن في شخصه ويغمز في نسبه انتقاماً منه فأخرجه بهجائه عن حدود الآدمية فقطعه عن كلّ أصل وألقاه كما تلقى الأحجار في عرض الطريق، وكأنّ إعانة سلطة الجائر على تسويغ

جوره دفعت الشاعر على هجائه. اسمعه يقول:[1]

**إنَّ هَــــذَا الَّـــــذِي دُؤَادُ أَبُـــــوهُ ... وَإِيَـــــادُ قَـــــدْ أَكْثَـــــرَ الأَنْبَـــــاءَ**

**سَـــــاحَقَتْ أُمُّـــــهُ وَلاطَ أَبُـــــوهُ ... لَيْــتَ شِـعْرِي عَنْــهُ فَمِــنْ أَيْــنَ جَــاءَ**[2]

**جَــاءَ مِــنْ بَــيْنِ صَــخْرَتَيْنِ صَلودَيْــ ... ـــنِ عَقَــامَيْنِ يُنْبِتَــانِ الهَبــاءَ**[3]

**لا سِـــــفَاحٌ وَلانِكَـــــاحٌ وَلا مَـــــا ... يُوجِـــبُ الأُمَّهَـــاتِ وَالآبَـــاءَ**[4]

يقول الشاعر إنّ النّاس كثيراً ما يتحدّثون عن القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وإلى هنا يظنّ القارئ أنّ الحديث يجري حول عدله، لكنّ دعبلاً عاد قائلاً إنّ حديثهم يدور حول ولادته وما شاع بين النّاس من عُقم والديه، ومايعملان من الأفعال الشنيعة، ثمّ يتسائل: إذا لم يكن هناك زواج بين والديه فمن أين ولد ابن دؤاد؟ قدّم دعبل في البيت الثاني نبذةً بسيطة عن سلوك الوالدين ليفهم معنى استفهامه وليعطي الجواب مقدّماً، فهو حين يسأل في الشطر الثاني يقرر أنّ مجيئه كان بطريقةٍ غير مشروعة، ونلاحظ مدى براعة الشاعر في تركيب الجمل وترتيبها ليوصل المعنى الذي يريد أن يقوله صراحةً وذلك عن طريق الاستفهام الإنكاري.

حاول الشاعر في المقطوعة السابقة أن ينال من نسب المهجوّ إذ رأى أنّ انتساب المهجوّ إلى قبيلة إياد غير معترف به، فلذلك اتّبع أساليب الشعراء في الجاهلية وما شاع في هجاءهم من الفحش المقذع واستعمال لغة لاذعة حادّة خرجت عن إطار الخلق القويم. ولعلّ السبب يرجع إلى أنّ أحمد بن أبي دؤاد كان من أدوات وأعوان السلطة العباسية الحاكمة يومئذٍ.

وفي القصيدة الدالية الثانية التي هجاه بها قد استغلّ دعبل أقوال النسابين في قبيلته إياد ـ قبيلة القاضي ـ وقد ندّد بموقفها السلبي من الإسلام إبّان ظهوره، إذ كانت تعاديه أوّل ظهوره

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٩٤.

٢. المساحقة: مداعبة النساء للنساء. لاط الرجل: عمل عمل قوم لوط.

٣. رجل عقيم وعقام: لايولد له. صلود: وصف من صَلَدَ للمبالغة بمعنى الصّلب. الهباء: التراب الذي تُطيره الريح ويلزق بالأشياء. والهباء من النّاس: القليلو العقل. والمراد في البيت هذا المعنى.

٤. السِّفاح: الزنى.

ثمّ انضمّت إلى أعدائه في كثير من المواقف فأخذ يشهّر بتمزّقها بين القبائل: [١]

**أَبَـــا عَبْـــدِ الإلَـــهِ أصِـــخْ لِقَـــوْلِي وَبَعْـــضُ القُـــوْلِ يَصْـــحَبُهُ السَّـــدَادُ** [٢]

**تَـــرَى طَسْـــمَاً تَعُـــودُ بِهَـــا اللَّيَـــالِي إلَـــى الـــدُّنيَا كَمَـــا رَجَعَـــتْ إيَـــادُ** [٣]

**قَبَائِـــلُ جُـــذَّ أصْـــلُهُمُ فَبَـــادُوا وَأوْدَى ذِكْـــرُهُمْ زَمَنَـــاً فَعَـــادُوا** [٤]

بدأ الشاعر قصيدته الهجائية بمخاطبة مهجوّه وقال: اسمع كلامـي فإنّـه مقرون بالسّـداد والصّواب، وبهذا أراد أن يمهّد أرضيةً ملائمة للنّيل منه فتطرّق إلى القبائل البائـدة قبـل قـرون متسائلاً أبا دؤاد هل رجعت طسم إلى الحياة كما رجعـت إيـاد؟ إلّا أنّ الاسـتفهام هنـا إنكـاري فلذلك أنكر الشاعر ذلك المعتقد قائلاً: تلك القبائل انمحت أنسابهم وزالت آثارهم قبـل قـرون عديدة. وجدير بالذكر أنّ قبيلة الشاعر قبيلة عدنانية وليست بائدة ولكنّ دعـبلاً أراد أن يلحقهـا بمن ذهبوا في الزوال والإضمحلال. إنّ هجاء دعبل يتضمن في الواقع فلسفة الهجاء العربـي كلّه بحيث يَعدّه محكم الجوانب ويهيّؤه إلى مـن يسـتحقّه، وهنـا اسـتطاع الشـاعر بتشـبيهاته القريبة وعناصر تشكيله المألوفة أن يوجع عدوّه، ويصيب منه مقتلاً. فحقّر مـن شـأنه، وهـوّن من أمره إذ شبّه قبيلة المهجوّ في كثرة التناسل بالجراد وتبييضه في الرّمل: [٥]

**وَكَـــانُوا غَـــرَّزُوا فِـــي الرَّمْـــلِ بَيْضَـــاً فَأمْسَـــكَهُ كَمَـــا غَـــرَزَ الجَـــرَادُ** [٦]

**فَلَمَّـــا أنْ سُـــقُوا دَرَجُـــوا وَدَبُّـــوا وَزَادُوا حِـــينَ جَـــادَهُمُ العِهَـــادُ** [٧]

---

١. السابق، ص١٦٦.

٢. أبا عبد اله: كنية ابن أبي دؤاد. أصخ: أنصت. السداد: الصواب.

٣. طسم قبيلة من العرب البائدة، قال صاحب مروج الذهب "وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعبيد وطسم وجديس والعماليق ووبار وجرهم ولم يبق من العرب إلّامن كان من عدنان وقحطان، ودخل من بقى ممن ذكرنا من العرب البائدة في عدد قحطان وعدنان فانمحت أنسابهم وزالت آثارهم" (المسعودى مروج الذهب ٢: ٥١).

٤. جذّه ُ جذّاً: كسره، أو قطعه. فهو جذيذ، ومجذوذ. باد ِ يبدأ: هلك وانقرض. أودى: هلك.

٥. السابق، ص١٦٧.

٦. غرزت الجرادة وغرّزت في الأرض: أثبتت بيضها.

٧. العهاد: والمفرد عهد وعَهدَة: أول مطر الربيع.

**هُـــمُ بَـــيْضُ الرَّمَـــادِ يُشَـــقُّ عَـــنْهُم          وَبَعْـــضُ البَـــيْضِ يُشْـــبِهُهُ الرَّمَـــادُ**

واصل الشاعر استخفافه وتحكمه بقبيلة أبي دؤاد واستغل في سخريته استحالات طريفة فقال: إذا رجعت إياد إلى الحياة فستأتي غداً سائر القبائل البائدة مثل جديس وجرهم وعاد، وإذا حدث ذلك تمتلئ المنازل والمدن والأمصار، ومن جرّاء ذلك تضيق الدنيا بسكانها وتصاب بأزمةٍ حادّة، إلّا أنّ هذه الاحتمالات جاءت على سبيل التحقير والازدراء لأنّ الشاعر يراها خلافاً لسنن الحياة وقوانينها. أنصت إليه وهو يقول:[1]

**غَـــدَاً تَأتِيـــكَ إخْـــوَتُهُم جَـــدِيسٌ          وَجُـــرْهُمُ قُصَّـــراً وَتَعُـــودُ عَـــادُ**

**فَتَعْجِـــزُ عَـــنْهُمُ الأمْصَـــارُ ضِـــيقَاً          وَتَمْتَلِـــئُ المَنَـــازِلُ وَالـــبِلادُ**

**فَلَـــمْ أرَ مِـــثْلَهُمْ بَـــادُوا فَعَـــادُوا          وَلَـــمْ أرَ مِـــثْلَهُمْ قَلُّـــوا فَـــزَادُوا**

يرى الباحث أنّ الأبيات الثلاثة أشدّ الأبيات إيلاماً وأوجعها بالنسبة إلى المهجوّ حيث قال:[2]

**تَوَغَّـــلَ فِـــيهِم سَـــفِلٌ وَخُـــوزٌ          وَأوْبَـــاشٌ فَهُـــمْ لَهُـــمُ مِـــدَادُ**[3]

**وَأنْبَـــاطُ السَّـــوَادِ قَـــدْ اُسْـــتَحَالُوا          بِهَـــا عَرَبَـــاً فَقَـــدْ خَـــرِبَ السَّـــوَادُ**[4]

**وَلَـــوْ شَـــاءَ الإمَـــامُ أقَـــامَ سُـــوقَاً          فَبَـــاعَهُم كمَـــا بِيـــعَ السَّـــمَادُ**[5]

نفى الشاعر انتساب المهجوّ إلى قبيلة إياد مذكراً أنّ قبيلة إياد طواها الزمن قبل قرون عديدة فكيف يمكن هذا الانتساب؟ فلذلك شبّههم بسفلة النّاس الذين توغّلوا بينهم وعدّوا أنفسهم منهم ورأى أنّهم ليسوا عرباً في الواقع بل جيلٌ من الأعاجم امتزجوا بالعرب وسبّبوا خراب المدن والقرى. وأخيراً اقترح على الخليفة أن يقيم سوقاً لبيعه كما يباع السّماد. ولا شك

---

١. السابق، ص١٦٧.

٢. السابق، ص١٦٧.

٣. الخوز: لعلّها تعني أهل خوزستان، والأوباش: واحدها الوبش، سفلة الناس وأخلاطهم مثل الأوشاب.

٤. الأنباط: النبط جيل من العجم كانوا ينزلون البطائح بين العراقين.

٥. السّماد: ما يوضَع في الأرض من المخصِبات ليجود زرعها.

أنّ مثل هذه الصور تحتاج إلى البديهة السريعة والجمل القصيرة، والألفاظ الخفيفة السهلة وقد امتلك دعبل كلّ هذه الخصائص في تصويره الهزلي الساخر وأضاف إليها براعته في التخيل الوهمي أو الخيالي الذي يربط بين المتناقضين المتقابلين لإثارة الضحك وتجسيم المعنى. ولمّا تزوّج أحمد بن أبي دؤاد امرأتين من بنى عجل في سنة واحدة، أتاح ذلك لدعبل فرصة التهكم والسخريّة والهجاء، فنظم قصيدته النونيّة الثالثة في هجائه، وأفحش فيه وصوّر الخبر طائراً يغرّد في الخافقين:[١]

| | |
|---|---|
| **أَيَا لِلنَّاسِ مِنْ خَبَرٍ طَرِيفٍ** | **يُغَرِّدُ ذِكْرُهُ فِي الخَافِقِينِ**[٢] |
| **أَعِجْلُ أَنْكَحُوا ابْنَ أَبِي دُوَادٍ** | **وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا فِيهِ اثْنَتَيْنِ** |
| **أَرَادُوا بَعْضَ عَاجِلَةٍ فَبَاعُوا** | **رَخِيصَاً عَاجِلاً نَقْداً بِدَينِ** |
| **بِضَاعَةُ خَاسِرٍ بَارَتْ عَلَيْهِ** | **فَبَاعَكَ بِالنَّوَاةِ التَّمْرَتَيْنِ**[٣] |
| **وَلَوْ غَلَطُوا بِوَاحِدَةٍ لَقُلْنَا** | **يَكُونُ الْوَهْمُ بَيْنَ العَاقِلِينِ** |
| **وَلَكِنْ شَفْعُ وَاحِدَةٍ بِأُخْرَى** | **يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ المَنْصِبَينِ** |
| **لَحَى اللهُ المَعَاشَ بِفَرْجِ أُنْثَى** | **وَلَوْ زَوَّجْتَهَا مِنْ ذِي رُعَينِ**[٤] |
| **وَلَمَّا أَنْ أَفَادَ طَرِيفَ مَالٍ** | **وَأَصْبَحَ رَافِلاً فِي الحُلَّتَيْنِ** |
| **تَكَنَّى وَانْتَمَى لِأَبِي دُوَادٍ** | **وَقَدْ كَانَ اسْمُهُ ابْنَ الفَاعِلِينِ** |
| **فَرُدُّوهُ إِلَى فَرَجِ أَبِيهِ** | **وَزِرْيَابٍ فَأَلأَمُ وَالِدَيْنِ** |

كان زواج ابن أبي دؤاد من بني عجل بمنزلة خبرٍ نادر طار ذكره في الآفاق فلذلك بدأ الشاعر قصيدته بأسلوب النّداء كأنّه يريد أن يستحضر الحدث أمام المخاطب، وهذا من ميزات هجاء دعبل السياسي الذي يوجّهه إلى الجمهور أحياناً كثيرة. ونراه قد عدّ هذا الزواج صفقةً

---

١. السابق، ص٢٩٧.

٢. الخافقين: أفقا المشرق والمغرب، لأنّ اللّيل والنّهار يخفقان فيهما.

٣. بار الشيء بُوراً: كسد وتعطّل.

٤. لحاالله فلاناً: قبّحه ولعنه. ذي رعين: من ملوك حمير يضرب به المثل في النعمة . رعين: حصن له.

تجـاريـة، خسر فيها بنوعجل فلذلك يؤنـب عـجلاً في البيت الثـاني علـى هـذا الإجــراء ويوبّخهم على أنّهم لم يتأمّلوا مغبّته.

وقـد بـلـغ الشاعر في هـجائه السـاخـر مرتـبـةً فنّيـةً رفـيعةً حيث ضخّـم المعايـب وشوّهها إذ يرى هذه الزيجة وإن كانت شرعية قد تمّت لأغراض مادّيّة وشبّهها بصفقةٍ تجاريـة خسر فيها البائع وإن كان الزّبون قاضياً عنده موفور كثير مـن المـال والممتلكـات، لأنّـه فقـد النّقد ولم يحصل على شئٍ.

ولقد تجاوز دعبل في سخريته من أحمد بن أبي دؤاد إلى بني عجل الذين أنكحوه اثنتين، وهجاهم لأنّهم وقعوا في الخطأ ذاته مرّتين، فكان جديراً بهم أن يعرفوا حقيقـة ابـن أبـي دؤاد بعد أن زوّجوه المرّة الأولى، لكنّهم فرّطوا في المرّة الثانية فأصبحوا مثل التّاجر الـذي كسـدت بضاعته وباعها بأبخس الأثمان، مثل الذي أخذ نواة التمرة بالتّمرتين، وفي هذا هجاء عظيم.

ويرى الشاعر أنّ الزواج الأول يمكن تبريره بوقوعهم في الوهم لكنّ الزيجـة الثانيـة كانـت خطأً كبيراً ارتكبه بنو عجل وهذا يدلّ فعلاً على فساد المنصـبين. ولابـدّ أن نعـرف أنّ الشـاعر وإن هجا بني عجل إلّا أنّ الهجاء موجّه إلى ابن أبي دؤاد باعتباره الباعـث الـرئيس لوقـوعهم في الخطأ. وكثيراً ما دخل الشاعر في هجائه باب السّباب والإفحاش وذكر ألفاظاً قبيحـة كمـا نراه البيت السابع وما بعده.

والميزة الهامّة التى نلاحظ في هجاء دعبل لابـن أبـي دؤاد هـى أنّـه يكثـر مـن اسـتخدام الصور ويعتمد في تكوينها على التشكيل والتصوير لا على المعنى والتجريـد ولـم يكـن قصـده من ذلك إلّا لفت انتباه النّاس إلى خطايا المهجوّ وفساده، فلذلك استعان بكل عناصر الفكاهة والهزل، وأضاف بهذه التصاوير السـاخرة معلماً جديـداً عمّـق الإطـار الفكـري والفنـي لهجـوه السياسي.

ولم يكـتف دعـبل بهـذه الـسخـريـة، فـعاد ونظم قصـيـدة كافيّـة فــي نفــس الغــرض وكـأنّـه يـريـد أن يؤكـد هـذا التّهـكم. فلذلك قال يهجوه حين تـزوّج اثنتـين مـن بنـي عجـل

موجِّهاً سخريةً لاذعةً إليه:[١]

**غَصَبْتَ عِجْلاً عَلَى فَرْجَيْنِ فِي سَنَةٍ  أفْسَدْتَهُم ثُمَّ مَا أَصْلَحْتَ مِنْ نَسَبِك**

**وَلَوْ خَطَبْتَ إلَى طَوقٍ وَأُسْرَتِهِ  وَزَوَّجُوكَ لَمَا زَادُوكَ فِي حَسَبِك**

**نِكْ مَنْ هَوِيتَ وَنِلْ مَا شِئْتَ مِنْ نَسَبٍ  أَنْتَ ابنُ زِرْيَابِ مَنْسُوباً إلَى نَسَبِك**

**إنْ كَانَ قَوْمٌ أَرَادَ اللهُ خِزْيَهُم  فَزَوَّجُوكَ ارْتِغَاباً مِنْكَ فِي ذَهَبِك**

**فَذَاكَ يُوجِبُ أَنَّ النَّبْعَ تَجْمَعُهُ  إلَى خِلافِكَ فِي العِيدَانِ أَوْ غَرَبِك[٢]**

**وَلَوْ سَكَتَّ وَلَمْ تَخْطُبْ إلَى عَرَبٍ  لَمَا نَبَشْتَ الَّذِي تَطْوِيهِ مِنْ سَبَبِك**

**عُدَّ البُيُوتَ الَّتِي تَرْضَى بِخُطْبَتِهَا  تَجِدْ فَزَارَةَ العُكْلِيَّ مِنْ عَرَبِك**

نرى دعبلاً في هذه المقطوعة يهجو ابن أبي دؤاد بلغة لاذعة أشدّ ممّا رأيناه في المقطوعة السابقة إذ وصف الشاعر فيها مهجوّه بضعة الأصل وحاول الحطّ من نسبه وما أدّت تلك الزيجة إلى فساد بني عجل. وقد تؤدي كثرة الأوصاف المبتذلة التي تجتمع في سياق واحد إلى اغتيال الحس الساخر، فينشغل الذهن بكثافتها ومراميها. يعتقد الشاعر في البيتين الأول والثاني أنّ زواج ابن أبي دؤاد من بني عجل كان قد تمّ لأغراض مادّية كما ذكره في المقطوعة السابقة، فلذلك أضرّ كلا الطرفين إذ أفسد قبيلة بني عجل، كما أنّه لم ينفع أبا دؤاد، ثمّ افترض الشاعر أنّ أبا دؤاد إن خطب من قبيلة طوق وهي ذات سمعةٍ حسنةٍ فهذا لم ينفع كذلك في نسب المهجوّ.

وقد اقترب الشاعر في البيتين السابقين من أساليب شعراء الهجاء في العصرين الجاهلي والأموي إذ تطرّق إلى الأنساب وذكر المثالب والمعايب واستغلّها للتعبير عن موقف عدائيّ وجرّد مهجوّه من النسب كما أنّنا نشعر أنّ دعبلاً وقف بجانب شعراء النقائض الذين كان غرضهم الأكبر الحطّ من شأن خصومهم وتكبير مثالبهم.

---

١. السابق، ص١١٤.

٢. النبع والخلاف: شجرتان. الغرب: نبت هش ضعيف.

وقد أوصل الشاعر هذه الزيجة بالشؤون المادية وكرّرها أكثر من مرّة مخاطباً الشاعر ابن أبي دؤاد قائلاً: إنّك ابن ذهبك وليس لك نسب إلا الذهب، وكلّ من يريد الزواج منك، لا شك يطمع في ذهبك. ويبلغ الشاعر عمقاً ودقة في البيتين الأخيرين إذ ينصح أبا دؤاد بأن يترك الخطبة من سائر القبائل لتخفى عيوبه والنقص في نسبه، في حين يرى أنّ فزارة العكليّ لعلّها ترضى بزواجه فيها.

كلّ ما يسعى دعبل إلى الحصول عليه في هذه المقطوعة هو أن يمنع من حصول المصاهرة فلذلك عرّض بمصاهرة بني عجل. ثمّ يواصل تشويهها في لوحة أخرى يجمع فيها عناصر متنوعة تدور في نفي انتسابه إلى إياد ونراه يستخف بنسب ابن أبي دؤاد، وينفي عنه أصالته العربية، ويذكر أنها مزيّفة، وكلّ ما يصطنعه من مظاهر ليلحق بالأعراب ادعاء كاذب. اسمعه يقول:[1]

**سَألْتُ أبِي وَكَانَ أبِي عَلِيمَاً ... بِسَاكنَةِ الجَزِيرَةِ وَالسَّوَادِ**

**فَقُلْتُ لَهُ أهَيْثَمُ مِنْ غَنِيٍّ ... فَقَالَ كأحْمَدِ بنِ أبِي دُوَادِ**[2]

**فَإنْ يَكُ هَيْثَمُ مِنْ حَيِّ قَيْسٍ ... فَأحْمَدُ غَيْرُ شَكٍ مِنْ إيَادِ**

**مَتَى كانَتْ إيَادُ تَرِيسُ قَوْمَاً ... لَقَدْ غَضِبَ الإلهُ عَلَى العِبَادِ**[3]

سلّط دعبل هجائه على ابن هيثم وابن أبي دؤاد معاً وجعل سهام سخريته تصبّ على ادّعاءهما النّسب الرفيع وهما حلّ منه وكانت لغته مع الهيثم قاسية، فشكّك في انتسابه إلى أبيه، واعتمد في ذلك على علم الدراية كما يقول، فقد استعان بوالده العارف بالأنساب، حتى لا

---

١. السابق، ص٣٣٠

٢. الهيثم بن عدي : هو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن زيد بن لبيد بن جابر الطائي الكوفي . كان إخباريا، راوية للأشعار، نقل من كلام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً، كان أبوه نازلاً بواسط، وكان فيه خير. كان يرى رأى الخوارج واستعمل على صدقات بني فزارة، أدرك المهدى والرشيد والأمين، ومات في أيام المأمون سنة ٢٠٧هـ، وله تآليف كثيرة في اللغة والأخبار تزيد على الخمسين (انظر: ابن منظور، جمال الدين مكرم، أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومنظوره، قدم له وأشرف على تصحيحه: عمر أبوالنصر، الطبعة ٢، ١٩٦٩م، ١٤٤. ١٤٥).

٣. راس ـ ريساً القومَ: رأسَهم.

يبقى للهيثم حجة في الدفاع عن نفسه أو إبطال ما قاله فيه. وخلاصة القول في هذا الموضوع أنّ دعبلاً ركز في هجاء ابن أبي دؤاد على المثالب والتجاوزات التي تصدر عنه قاصداً تجريده من الفضائل الانسانية التي تدفعه إلى الظلم والجور.

## هجاء يحيى بن أكثم

يعدّ العدل في الأحكام وتجنّب الجور من أهمّ الصفات المطلوبة في القاضي، لأنّ من يشعر بالظلم من الآخرين ينتظر الإنصاف من القاضي، وكلّما أظهر القاضي العدل في أحكامه يكرمه النّاس، ويعلون من قدره ويعظّمونه. لكنّ هناك من القضاة من اشتهر بالجور والظلم مثل يحيى بن أكثم[١] الذي «استوزره المأمون بعد أحمد بن يوسف».[٢]

لقد تعدّدت المثالب والنّواقص التي طالتها ألسنة الشعراء للقضاة، وجاءت أولوية الشعراء في ذمّ القضاة مبتنية على أساس جورهم وجهلهم بالأحكام ونقص درايتهم بالعلوم الفقهية وقلّة فهمهم لأمور القضاء الذى يستدعي كلّ علم.[٣] كان أكثر قضاة السلطة العباسية تردّداً على لسان دعبل الخزاعي يحيى بن أكثم قاضي البصرة زمن المأمون وذلك لما شاع عنه من فساد أخلاقي وسوء معاملة. فكان يتذمّر بعض الشّعراء مثل راشد من ظلمه وتعسّفه بالرعيّة ويصبّ جام غضبه عليه قائلاً:[٤]

**وَكنّا نُرَجّي أنْ نَرَى العَدْلَ ظَاهِرَاً ... فَأعقَبَنَا بَعْدَ الرَّجَاءِ قُنُوطُ**

**مَتَى تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا ... وَقَاضِي قُضَاةِ المُسْلِمِينَ يَلُوطُ**

---

١. يحيى بن أكثم بن عمرو بن أبي رياح، خراساني من مرو، ومن ولد أكثم بن صيفي التميمي، ولي القضاء بالبصرة وبغداد والكوفة وغيرها في أيام المأمون. وكان يحيى من أقرب المقربين إليه. والمعتصم والواثق وعاش إلى أيام المتوكل، وعرف باللّواط واشتهر به حتى إنه كان لا يستخدم في داره إلا المرد. ويقال: إنه زيّن للمأمون ذلك وحبّبه إليه! وليحيى في ذلك غرائب. وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل سنة ٢٤٢هـ (انظر: الخضري ١٦٥).

٢. الخضري، ص١٦٣.

٣. انظر: الشهرستاني، محمد عبدالكريم. الملل والنحل، تحقيق: أمير مهنا و علي فاعور، مراجعة وتقديم: حبيب صادق، الطبعة ١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٩م، جـ ١ ص١٧١.

٤. المسعودي، مروج لاذهب، جـ ٤ ص٢١.

يقول الشاعر إنّنا كنّا نؤمّل العدالة والإنصاف من قاضي القضاة، غير أنّ مُنيَتَنا خابت وأصبحنا يائسين، ثمّ يعلّل ذلك باشتغال قاضي القضاة بعمل اللّواط الشنيع، وهذا أشدّ ما هُجِي به يحيى بن أكثم فهو تعبير صريح موجّه إلى القاضي، ويتّهمه بالجور في قضائه، ونقدٌ يبيّن فساد القضاء، ونحن نعتبر ذلك من الأمراض الاجتماعية التي يصرّح بها الشاعر نيابة عن عامّة الشعب وتلك رسالةٌ اجتماعية.

ومن الأسف البالغ أنّ فساد يحيى بن أكثم في أداء وظيفته قاضياً للقضاة لم تتعرض له الروايات بالتفاصيل، ولكن الذي تواتر في سيرته هو انشغاله بالشذوذ الجنسي، ويروى أنَّ هذا القاضي كان يجاهر بالأفعال الشنيعة كاللواط، ويبدو أنّ راشداً لم يكن وحيداً في هجائه باللّواط بل نجد شاعراً آخر غير شيعيّ يشير إلى نفس المسألة وهو ابن أبي النعيم. أنصت إليه ويقول:[1]

**يَالَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أُكْثَمُهْ ... وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ العِرَاقِ قَدَمُهْ**

**أَلْوَطُ قَاضٍ فِي العِرَاقِ نَعْلَمُهْ ... أَيُّ دَوَاةٍ لَمْ يَلِفْهَا قَلَمُهْ**

وَأَيُّ شِعْبٍ لَمْ يَلِجْهُ أرْقَمُه

إنّ الشاعر يتمنّى بأنّ أم يحيى لم تلده، والشاعر بهذا البيت يدعو عليه بالموت بصورةٍ ضمنية لأنّه أشاع الفساد الأخلاقي في أرض العراق وأصبح اسمه مقترناً بالرّذيلة. ونراه يخصّ له قصيدة أخرى يقول فيها:

**أَنْطَقَنِي الدّهْرُ بَعْدَ إِخْرَاسِ ... لِنَائِبَاتٍ أَطَلْنَ وَسْوَاسِي**

**لا أَفْلَحَتْ أُمَّةٌ وَحَقّ لَهَا ... بِطُولِ نَكْسٍ وَطُولِ اتّعَاسِ**

**تَرْضَى بِيَحْيَى يَكُونُ سَائِسَهَا ... وَلَيسَ يَحْيَى لَهَا بِسَوَّاسِ**

**يَحْكُمُ لِلأَمْرَدِ الغَدِيرِ عَلَى ... مِثْلِ جَرِيرَ وَمِثْلِ عَبَّاسِ**

**فَالحَمْدُ للهِ كَيْفَ قَدْ ذَهَبَ الْـ ... ـعَدْلُ وَقَلَّ الوَفَاءُ فِي النَّاسِ**

---

١. السابق، جـ ٤ ص٢٧.

أمِيرُنَـــــا يَرْتَشِـــــى وَحَاكِمُنَـــــا يَلُــوطُ وَالــرَّأسُ شَــرُّ مَــا رَاسِ
قَــاضٍ يَــرَى الحــدَّ فِــي الزّنَــاءِ وَلا يَــرَى عَلَــى مَــنْ يَلُــوطُ مِــنْ بَـاسِ
مَـا أحْسَـبُ الجُـورَ يَنْقَضِـي وَعَلَـى الْـ أُمَّـــةِ وَالٍ مِـــنْ آلِ عَبَّـــاسِ

إنَّ سوء ما رآه الشاعر من هذا القاضي دفعه ليدعو باللائمة على الأمّة التي ترضى بمثله قاضياً وسائساً، وقد أفسد معايير القضاء وأدخل قوانين جديدة خاصة بذاته إذ لا يرى اللّواط منكراً في حين يعاقب الزّاني ويقيم عليه الحدّ. ونرى الشاعر قد لجأ في هجائه إلى الأسلوب التأليفي وإيجاد علاقات مباشرة بينها فجمع معاني عدّة لخدمة معنى واحد.

اشتدّ ظلم القضاة في خلافة المأمون، وقد ذكر ابن الجوزي شكوى المأمون من قضاة عصره، وكيف أن كلاً منهم كان يختلس الأموال مع كثرة رواتبهم. هذا ما يرويه القاضي بشر بن الوليد أحد المقربين إلى الخليفة المأمون ويبدو فيه بوضوح أنّ المأمون ظلّ راضياً عن فساد يحيى بن أكثم إذ غضّ الطرف عن انحلاله وظلمه وفساده، يقول المأمون: «ولينا رجلًا قضاء الأبلة وأجرينا عليه ألف درهم ولا له ضيعة ولا عقار ولا مال فرجع صاحب الخبر بالناحية أن نفقته في الشهر أربعة آلاف درهم، فمن أين هذه الثلاثة آلاف درهم! وولينا رجلًا ـ أشار به محمد بن سماعة ـ دمشق وأجرينا عليه ألفى درهم في الشهر فأقام بها أربعة عشر شهرًا ووجهنا مَنْ يتتبع أمواله ويرجع إلينا بخبره فصح عنه أنه يملك قيمة ثلاثة عشر ألف دينار من دابة وبغل وخادم وجارية وغير ذلك ... وولينا رجلًا نهاوند فأقام بعد عشرين شهرًا من دخول يده في العمل سبعين بحينا وعشرين بحينا، وفي منزله أربعة خدم خصيان قيمتهم ألف وخمسمائة دينار».[١] وجاء في ثنايا كلام المأمون إشارة إلى القاضي القضاة في عهده وهو يحيى بن أكثم: «أمّا يحيى بن أكثم فما ندري ماعيبه! أمّا ظاهره فأعفّ خلق الله».[٢]

---

١. ابن الجوزي، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد. المنتظم، دراسة وتحقيق: عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، راجعه وصححه: نعيم رززور، الطبعة ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، جـ ١٠ ص٦١.٦٢.

٢. السابق، جـ ١٠ ص٦٢.

أوصى المأمون بطرد يحيى بن أكثم بسبب مخالفة يحيى للمأمون في موضوع خلق القرآن، فظلّ يحيى في خلافة المعتصم بعيداً عن سطور التاريخ، ثمّ عاد إلى الأضواء في خلافة المتوكل الذي أعاد سطوة أهل الحديث وأهل السنة. فعزل المتوكل القاضي المعتزلي ابن أبي دؤاد عن المظالم عام ٢٣٧ه وولّى يحيى بن أكثم المظالم وقضاء القضاء.[١]

ولمّا غضب المتوكل على القاضي يحيى بن أكثم وعزله من القضاء بسبب ظهور فساده ونفاه إلى مكة، استغلّ دعبل هذه المناسبة فهجاه هجاءً قبيحاً إذ سمّاه كلباً لا ينفع فيه الصنيع، فقال يهجوه وقد أظهر قدرةً لغويةً وفنيّةً كبيرةً في تصوير مهجوّه:[٢]

**رُفِعَ الْكَلْبُ فَاتَّضَعْ ... لَيسَ فِي الْكَلْبِ مُصْطَنَعْ**

**بَلَغَ الغَايَةَ الَّتِي ... دُونَهَا كُلُّ مُرْتَفَعْ**

**إنَّمَا قَصْرُ كُلِّ شَيْ ... إذَا طَارَ أنْ يَقَعْ[٣]**

**قُلْ لِيَحْيَى بْنِ أكْثَمٍ ... إنَّ مَا خِفْتَ قَدْ وَقَعْ**

**لَعَنَ اللهُ نَخْوَةً ... كَانَ مِنْ بَعْدِهَا ضَرَعْ[٤]**

شبّه الشاعر قاضي القضاة بالكلب، وفي ذلك منتهى التحقير له، ثمّ يحذّر النّاس منه ويقول: إنّ الكلب ليس لديه عمل محمود، فلذلك يجب أن يتحاشى منه، ثمّ يشير إلى أنّ مهجوّه قد بلغ الذروة ووقع كلّ شئ تحت رجله، وهذا كنايةٌ عن شدّة قدرته واستطاعته على العمل. ولابدّ أنّ غاية كلّ شئ إذا بلغ القمّة، أن ينزل ويستقرّ في مكانه الأول. وهنا يبشّر دعبل القاضي بأنّ ذلك قد حدث له وسقط من الأوج إلى نهاية الحضيض والرذالة.

وهجاء دعبل السياسي في يحيى بن أكثم كان ناجماً عن الإحساس بالقهر والظلم فلذلك دخل في غرضه مباشرة ولم يلتزم بأيّ لون من ألوان المقدّمات المعروفة كذكر الأطلال أو

---

١. انظر: الطبري، جـ ٨ ص١٨٥-١٨٧.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٢٣.

٣. قصر كلّ شيء: غايته.

٤. الضّرَع: الذّلّ.

النّسيب وما يتلوه من وصف الناقة والصحراء والرحلة، ولم يتأنّق في أشعاره، وابتعد عن القوالب الغريبة، ونظم أشعاره على الأوزان القصيرة. وأحياناً استغلّ دعبل في صورته الساخرة النقائص الجسمية والعيوب الخلقية في هجائه الساخر ليحيى بن أكثم حين ولى رجلين أعورين قضاء الجانبين الغربي والشرقي في بغداد. أنصت إليه وهو يقول:[١]

| | |
|---|---|
| **رَأيتُ مِنَ الكبَائِرِ قَاضِيينِ** | **هُمَا أحدُوثَةٌ فِي الخَافِقِينِ**[٢] |
| **هُمَا أقْتَسَمَا العَمَى نِصْفَينِ قَدْرَاً** | **كمَا أقْتَسَمَا قَضَاء الجَانِبَينِ** |
| **وَتَحْسَبُ مِنْهُمَا مَنْ هَزَّ رَأسَاً** | **لِيَنْظُرَ فِي مَوارِيثٍ وَدَينِ** |
| **كأنّك قَدْ جَعَلْتَ عَلَيْهِ دَنَّاً** | **فَتَحْتَ بُزَالَهُ مِنْ فَرْدِ عَينِ**[٣] |
| **هُمَا فَأْلُ الزَّمَانِ بِهُلْكِ يَحْيَى** | **إذْ أفْتَتَحَ القَضَاءَ بِأعْوَرَيْنِ**[٤] |

يصوّر الشاعر في المقطوعة المذكورة حال المجتمع وما انتهى إليه أمره في ظلّ حكامها وسوء سياستهم الإدارية، كما أنّ الأبيات تحمل في مضمونها دعوةً صريحةً من الشاعر إلى الحكام نحو الإصلاح وتغيير عناصر الفساد ومنهم هذان القاضيان اللذان يمثّلان سياسة الحكام الذي عيّنهما يحيى بن أكثم فأطلق لنفسه العنان لتعيين الفاسدين على إدارة شؤون النّاس. ولا نشك بما سبق أن دعبلاً كان على حقٍّ فيما أظهر من مساوئ ومفاسد بعض القضاة.

سبق أن أشرنا إلى الحديث الذي جرى بين المأمون وبين القاضي بشر بن الوليد لنستدلّ على أنّ المأمون كان راضياً عن يحيى بن أكثم، والذي نريد أن نقول هنا هو أنّ المأمون قال في نهاية ذلك الحديث: «وددت أن يتأتى مائة قاضٍ مرضيين وأنّي أجوع يوماً وأشبع يوماً».[٥]

---

١. السابق، ص٣٥٨.

٢. الأحدوثة: ما يُتَحدّث به، ويقال: صار فلان أحدوثة: كثر فيه الحديث، والحديث المضحك أو الخرافة.

٣. الدنّ: وعاء ضخم للخمر ونحوها. البُزال: موضع البزل من إناء الخمر.

٤. الفأل: ضدّ الشؤم.

٥. ابن الجوزي، جـ ١٠ ص٦١،٦٢.

فهذا يدلّ دلالة واسعة على الجور والفساد اللذين كانا شائعين آنذاك. أمّا الذى نريد أن نستنتج مما ذكرنا هو أنّ الاستبداد السياسي هو الأصل في انحراف القضاة وانحلالهم أى إنّ المستبد هو المسؤول الأول عن ضياع العدل في دولته طالما استبدّ بالأمر فإنّ هذا الظلم سيمتدّ إلى أعوانه وفي مقدمتهم القضاة الذين يكون تحقيق العدل بين النّاس منوطاً بهم في القضايا العادية. والمأمون الذي يتباكي لضياع العدل وانتشار الفساد ويحمّل القضاة مسؤوليته، ينافق ويكذب لأنّه كان يستمتع بأن تذكر سيرته الشخصية أمام النّاس لتشيع بينهم، لأنّه قال عن نفسه أمام الناس في إحدى جلساته: «أنا والله أستلذّ العفو حتّى أخاف أن لا أؤجر عليه، ولو عرف الناس مقدار محبتي للعفو لتقرّبوا لي بالذنوب».[١] هذا المأمون هو نفسه الذي قتل في شهر ذى القعدة يحيى بن عامر بن اسماعيل لأنّه أغلظ وقال له أنت أمير الكافرين.[٢]

وقد حملت بعض المقطوعات الشعرية بعداً سياسياً واجتماعياً في آنٍ واحدٍ، وليس هناك ما يفصل السياسة عن المجتمع، وكثيراً ما يتداخل الاثنان ويختلطان، وقد أظهر دعبل الخزاعي من خلالها فساد أمور الحكم لتولّي مناصبه عناصر قضائية لا تستحقّه. ونرى الشاعر أبدى في هجائه السياسي لأوضاع المجتمع في شؤون القضاء قلقاً وامتعاضاً لسيطرة بعض العناصر وتحكمهم في حياة الناس.

يأتي هجاء دعبل للقضاة على أساس الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ٣ هجاء القضاة

| ا | القاضي | القالب | عدد | الصفحه |
|---|---|---|---|---|
| ١ | أحمد بن أبي دؤاد | مقطوعة | ٤ | ٩٤ |
| | | مقطوعة | ٧ | ١١٤ |

١. السابق، جـ ١٠ ص٦٥.

٢. السابق، جـ ١٠ ص٨٦.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | قصيدة | ١٢ | ١٦٦ |
| | | قصيدة | ١٠ | ٢٩٧ |
| | | مقطوعة | ٤ | ٣٣٠ |
| ٢ | يحيى بن أكثم | مقطوعة | ٥ | ٢٣٣ |
| | | مقطوعة | ٥ | ٣٥٨ |

### هجاء الكتّاب

ونقصد بالكتّاب اولئك الذين عملوا في دواوين السلطة العباسية، وذلك منصب إداري خطير. إذا كانت مكانة الكتّاب الحساسة في السلطة العباسية موضع مدح الشعراء وثنائهم، فإنّ بعضهم لم يسلم من لسان دعبل، فغدا موضع هجائه ونقده لأسباب كثيرة. منها سوء أفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم. أشهر كتّاب هجاهم دعبل هم بنو وهب وخاصة الحسن بن وهب، وآل بسّام.

### الهجاء السياسي الجَماعي

لا بدع إذا قلنا إنّ الأدب العربي عرف الهجاء السياسي الجماعي لأول مرّة عند دعبل الخزاعي، فنرى الشاعر يوجّه سهام نقده وهجائه إلى مجموعةٍ من الكتّاب أمثال الحسن بن رجاء وأبيه، وابنى هشام أحمد وعلى ودينار بن عبدالله ويحيى بن أكثم وكانوا ينزلون المخرم ببغداد، وهذا لايدلَ إلّا على براعة دعبل في الهجاء السياسي. اسمعه يقول:[1]

**أَلَا فَاَشْتَرُوا مِنّي مُلُوكَ المخَرَّمِ ... أبِعْ حَسَناً وَابْنَيْ هِشَامٍ بِدِرْهَمِ**[2]

**وَأَعْطِ رَجَاءً فَوْقَ ذَاكَ زِيَادَةً ... وَاَسمَحْ بِدِينَارٍ بِغَيْرِ تَنَدُّمِ**

**فَإنْ رُدَّ مِنْ عَيْبٍ عَلَيَّ جَمِيعُهُم ... فَلَيْسَ يَرُدُّ العَيْبَ يَحْيَى بْنُ أكْثَمِ**

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٥٣.

٢. المخرّم: محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلّى.

نرى دعبلاً قد شبّه هؤلاء الكتّاب بملوك المخرّم وقد أقام سوقاً لبيعهم بأبخس الأثمان ويذكر أنّه لن يندم على بيعهم بل هو مستعدّ بأن يجود بأكثر من ذلك بنفس راضية ويبيعهم بأقلّ من الثمن المقترح. ونرى الشاعر يتناول بني وهب بنفس الصيغة، مستخدماً لغةً لاذعةً في هجائهم، ولا يأبى الإقذاع في تصويرهم بأقبح النقائص. اسمعه يقول:[1]

**إِذَا رَأَيْتَ بَنِي وَهْبٍ بِمَنْزِلَةٍ ... لَمْ تَدْرِ أَيُّهُم الأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ**

**قَمِيصُ أُنْثَاهُمُ يَنْقَدُّ مِنْ قُبُلٍ ... وَقُمْصُ ذُكْرَانِهِم تَنْقَدُّ مِنْ دُبُرِ**[2]

**مُحَنَّكُونَ عَنِ الفَحْشَاءِ فِي صِغَرٍ ... مُحَنَّكُونَ عَنِ الفَحْشَاءِ فِي كِبَرِ**[3]

**مُحَنَّكُونَ وَلَمْ تُقْطَعْ تَمَائِمُهُم ... مَعَ الفَوَاطِمِ وَالدَّايَاتِ بِالكِبَرِ**[4]

أراد دعبل في المقطوعة المذكورة أن يطعن في رجولة بني وهب، وقد استخدم للوصول إلى غرضه مجموعة من الصور اللاذعة مثل: انشقاق قميص أنثاهم من قبل، وانشقاق أقمصة ذكورهم من دبر، واتّصافهم بالخبرة في الفحشاء.

نرى أنّ الهجاء السياسي عند دعبل إذا فقد في بعض جوانبه كثيراً من جماليّته بسبب خلوّه من الخيال إلّا أنّه استطاع أن يتدارك ذلك بصوره المكثّفة التي تخرج هجائه من الرتابة والجمود، وتعطيه الحيويّة والنشاط كما نلاحظه فيما سبق. قال دعبل يهجو الحسن بن وهب لمّا ولي البريد:[5]

**أَلَا أَبْلِغْ أَميرَ المُؤمِنِينَ مُحَمَّدَاً ... رِسَالَةَ نَاءٍ عَنْ جَنَابَيْهِ شَاحِطِ**[6]

**بِأَنَّ ابْنَ وَهْبٍ حِينَ يَشْحَجُ شَاحِجٌ ... يُمِرُّ عَلَى القِرْطَاسِ أَقْلامَ غَالِطِ**[7]

---

١. السابق، ص٢٠٧.

٢. انقدّ: انشقّ.

٣. المحنك: الذي أحكمته التجارب، وحنكته الأمور: جعلته حكيماً.

٤. التمائم: جمع تميمة وهي عوذة تعلق على الصغار مخافة العين.

٥. السابق، ص٢٢٣.

٦. الجناب: الناحية، وما قرُب من محلّة القوم. شحط: بعُد.

٧. شحج البغل: صوّت. الشاحج: الحمار الوحشيّ. القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها. الغالط: الذي لم يعرف وجه

أَحَبَّ بِغَالَ البُرْدِ حُبّاً مُداخَلاً ... وَعَادَ إلى غِشْيانِها في المَرَابِطِ[١]

وَلَوْلا أميرُ المُؤمِنِينَ لَأضْبَحَتْ ... أيُورُ بِغَالِ البُرْدِ حَشْوَ الخَرائِطِ[٢]

وصف دعبل مهجوّه بأنّه يحبّ البغال حبّاً شديداً بحيث إنّه لمّا يسمع صوتها يغلَط في الكتابة، وما أقسى هذه السخرية وأشدّها لمن يتولّى الكتابة والبريد خصوصاً في البيت الأخير الذي بالغ الشاعر في هجائه وشوّه وجه ابن وهب فيه. وله مقطوعة أخرى قالها بالمناسبة نفسها:[٣]

مَنْ مُبْلِغٌ إمامَ الهُدَى ... قَافِيَةً لِلعِرْضِ هَتَّاكَهْ

هَذا جَنَاحُ المُسْلِمِينَ الذِي ... قَدْ قَصَّهُ تَوْلِيَةُ الحَاكَهْ[٤]

أضْحَتْ بِغَالُ البُرْدِ مَنْظُومَةً ... إلَى ابْنِ وَهْبٍ تَحْمِلُ النَّاكَهْ

ويهجو آل بسّام وكانوا من كبار رجال الدولة وكبار كتّابها في السلطة العباسية في بغداد ، ونراه يستغلّ اسمهم في تصوير هجائهم، فيقول:[٥]

يَا آلَ بَسَّامٍ فِي المَخَازِي ... وَعَابِسِى الوَجْهِ فِي السُّؤَالِ

حَوَاجِبٌ كالجِبَالِ سُودٌ ... إلَى عَثَانِينَ كالمَخَالِي

وَأوْجُهٌ جَهْمَةٌ غِلَاظٌ ... عُطْلٌ مِنَ الحُسْنِ وَالجَمَالِ[٦]

فالشاعر يسخر من مهجوّيه سخريةً لاذعة ويركز على نقطة الضعف التي تسلبهم فضائلهم الخلقية فيرسم ثلاث صور للدلالة على دناءة المهجوين وبخلهم وقباحتهم، ففي البيت الأول

---

الصواب.

١. البُرد: مفردها البريد، المسافة. المرابط: مفردها المربط، موضع ربط الدّواب.

٢. الخرائط: مفرده الخريطة، الكيس ونحوه.

٣. السابق، ص٢٥٠.

٤. كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يتطاير به من الأخبار، ولما ولي الحسن بن وهب بريد الحضرة قال فيه دعبل (الأبيات) فبلغت المتوكل فأمر بعزله (الثعالبي ١٣٢).

٥. السابق، ص٢٧١.

٦. جهمة: عابس الوجه. عطل: خالية. غلاظ: مفردها غليظ، الخشن.

يصف لنا ذلّهم وهوانهم كما أنّه يصف بخلهم وخساستهم، وفي البيت الثاني يرسم صورة كاريكاتيرية إذ شبّه حواجبهم السود بالحبال وشبّه لحاهم بمخالي الدوابّ وفي البيت الثالث لايزال يصوّرهم بغلظة الوجوه وخلوّها من الحسن والجمال. ولا شك أنّ دوافع الهجاء الجماعي عند دعبل "نابعٌ من موقفه العامّ للمجتمع ورؤيته الخاصّة المذهبية وشعوره بالظلم والاضطهاد" (عويضة ١٤٢).يأتي هجاء دعبل للكتّاب على أساس الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ٤ هجاء الكتّاب

| ا | الكاتب | القالب | عدد | الصفحة |
| --- | --- | --- | --- | --- |
| ١ | بنو وهب | مقطوعة | ٤ | ٢٠٧ |
| | | مقطوعة | ٣ | ٢٥٠ |
| ٢ | الحسن بن وهب | مقطوعة | ٤ | ٢٢٣ |
| ٣ | آل بسام | مقطوعة | ٣ | ٢٧١ |
| ٤ | حسن بن رجاء | مقطوعة | ٣ | ٣٥٣ |

## هجاء الأمراء والولاة

من كبار السلطة العباسية ومسؤوليها الذين هجّاهم دعبل الأمراء والولاة، فقد دفع سوء استخدامهم لمناصبهم وتضييقهم على النّاس الشاعر إلى نقدهم. أهم هؤلاء الولاة الذين هجاهم دعبل هم:

## هجاء المطّلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي[١]

عندما رجع دعبل من مصر إلى بغداد وجد الصراع بين الأخوين المأمون والأمين لايزال محتدماً لأنّ جيش المأمون حاصر بغداد بقيادة طاهر بن الحسين، وهذا القائد قد عاث في المدينة فساداً إذ رماها بالنّبال وخربها وتركها للعيارين والشطّار ينهبون ويخربون دون عائق. اختفى الشاعر عن الأنظار ولم يدخل في غمار هذه الأحداث، بل توجّه إلى بيت الله الحرام حاجّاً وقد كان أخوه رزين مصاحباً له، ولمّا سمع أنّ المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي كان والياً على مصر للمأمون تزوّد بكتب توصية من أصدقاء المطلب في بغداد لأنّه أحبّ أن يعرج على مصر لزيارة المطلب بعد أداء فريضة الحج.[٢] ويبدو أنّ الشاعر كان يطمع في أن يولّيه المطلب ولاية مدينة من مدن مصر على غرار ما فعل الفضل بن العباس بالأشعث الخزاعي حين ولّاه سمنجان[٣] وقد سبقت له تجربة الولاية وكان ناجحاً في إدارتها.

ولّى المطلب دعبلاً أسوان ولاندري كم مكث دعبل في هذه المدينة والياً، ويغلب الظنّ أنّه لم يمكث إلّا زمناً يسيراً لم يتجاوز سنةً واحدة. كان دعبل قبل أن يذهب لعمله الجديد في أسوان قد تعرّض لحادثة مشينة أذلّت كبرياءه وملخصها ما حكاه صاحب الأغاني أنّ رجلاً من العلويين ظهر في طنجة أخذ يبث دعاته في مصر ضدّ الخلافة العباسية، خافه المطلب الخزاعي فوكل بالأبواب من يمنع الغرباء من الدخول فلمّا جاء دعبل منعوه من الدخول وضربوه بالسوط وحبسوه، فمضى رزين أخوه إلى المطلب فأخبره بذلك فأمر بإطلاق دعبل

---

١. المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي، ولِيَ مصر للمأمون في ربيع الأول سنة ١٩٨هـ ثمّ صُرف عنها في شوّال من نفس السنة، ثمّ وليها في المحرم سنة ١٩٩هـ ثانية بمعاونة الجند وأقرّه المأمون عليها إلى سنة ٢٠٠هـ حيث وقعت بينه وبين السرّي بن الحكم مولى بني ضبّة وقائع ألحقت الهزيمة بالمطلب فاضطرّ إلى تسليم الأمر إلى السرّي بعد طلبه الأمان، وخرج من مصر في بحر القلزم إلى مكة (الكندي، أبوعمرو محمد بن يوسف، الولاة، تحقيق: الدكتور حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م، ص١٨٠-١٨٦).

٢. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ٢٠ ص١٧٤.

٣. سمنجان مدينة من مدن طخارستان التي هى ولاية واسعة من نواحي خراسان (الحموي معجم البلدان ٣:٢٥٢).

ودعا به وخلع عليه وولّاه أسوان.[١]

غادر دعبل أسوان متّجهاً نحو بغداد فاستشاط غضباً وأنشد قصيدةً لامية في هجاء المطلب ونرجّح أن يكون باعثه تضييقه على العلويين ومنعهم من دخول المدينة. اسمعه يقول:[٢]

أمُطَّلِبُ أنتَ مُستَعذِبٌ ... حُمَاتِ الأفاعِي وَمُستَقبِلُ[٣]

فَإنْ أشْفِ مِنكَ تكنْ سُبَّةً ... وَإنْ أعْفُ عَنكَ فَمَا تَعْقِلُ[٤]

سَتَأتِيك إمّا وَرَدْتَ العِراقَ ... صَحَائِفُ يَأثِرُها دِعْبِلُ

مُنَمَّقَةٌ بَينَ أثْنَائِها ... مَخَازٍ تَحُطُّ فَلا تَرْحَلُ

وَضَعْتَ رِجَالاً فَمَا ضَرَّهُم ... وَشَرَّفْتَ قَوْماً فَلَمْ يَنْبُلُوا

وَأيُّهُمُ الزَّيْنُ وَسْطَ المَلا ... عطِيَّةُ أمْ صَالِحُ الأحْوَلُ[٥]

أمِ البَاذْجَانِيُّ أمْ عَامِرٌ ... أمِينُ الحَمَامِ الّتي تُزْجَلُ

تُعْلِقُ مِصْرُ بِكَ المُخزِياتِ ... وَتَبصُقُ فِي وَجْهِكَ المُوصِلُ

وَيَوْمَ السُّراةِ تَحَسَّيْتَها ... يَطِيبُ لَدَى مِثْلِها الحَنْظَلُ

تَوَلَّيتَ رَكضَاً وَفِتْيَانُنَا ... صُدُورُ القَنَا فِيهِمُ تَغسِلُ

إذَا الحَرْبُ كُنتَ أمِيراً لَهَا ... فَحَظُّهُمُ مِنكَ أنْ يُقْتَلُوا

فَمِنكَ الرُّؤُوسُ غَدَاةَ اللِّقَا ... وَمِمَّنْ يُحَارِبُكَ المُنْصُلُ

شِعَارُكَ فِي الحَرْبِ يَوْمَ الوَغَى ... إذَا أنْهَزَمُوا عَجِّلُوا عَجِّلُوا

---

١. انظر: السابق، ص جـ ٢٠ ص١٧٨، ١٧٩.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٥٣.

٣. الحمة: السمّ أو اللدغة. الأفاعي: ج الأفعي.

٤. السُّبّة: العار.

٥. عطيّة وصالح وآخرون: هم موالي المطلب وأعوانه.

**هَزَائِمُـــــك الغُـــــزُ مَشْـــــهُورَةٌ يُقَـــرْطِسُ فِـــيهنَّ مَـــنْ يَنْضِـــلُ**[١]
**فَأنْـــــتَ لِأَوَّلِهِـــــم آخَـــــرٌ وَأنْـــــتَ لآخِـــــرِهِم أوَّلُ**

كانت هذه الأبيات كلمات مريرة تخرج من قلب الشاعر ينفثها غاضباً مبيناً مدى ظلم هـذا الأمير الذي كان كالسيف الذي سلِّط علـى النـاس ظلمـاً وفسـاداً، إذ جعـل الشـاعر مـن سـمّ الأفاعي شراباً مستساغاً في فم المطلب، كما أنّه يشير إلى سخف ما يقـوم بـه هـذا الأميـر مـن تعيينات، ويرى أنّه لن يستطيع أن يحطّ من مكانة من يستحقّ الرِّفْعة وإن أبعده وأقصـاه، ولـن يرفع الوضيع وإنْ قرّبه وأصبح من رجاله. ونرى الشاعر قد كشف عن جبن المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي وجعل حظّ جنوده القتل بسبب إمارته عليهم، وحظّ أعدائهم حمل السـيف، ثمّ جعل شعاره في معركة الحرب الفرار، ولهذا تجده آخر من يواجه وأول من يفرّ مـن المعركـة. ويلاحظ سهولة هذا النوع من الهجو، فلا نجد صعوبة في الوصول إلى معاني الشاعر ومراميه، فنشعر كأنّ أبياته تتدفق على السجية دون التواء أو إمعان، ولعلّ هذا يعكـس صـورته النفسـية المليئة بالكره والحزن ضدّ أعدائه، فتظهر مشاعره دون إعمال للذهن ودون مواربة. فهـو كمـا نرى هجاء صعب لا يقتصر الشاعر فيه على الشتيمة ولكنه يصوّر مواقـف مخزيـة تظـل قائمـة في أسماع الناس ومنشورة على ألسنة الرواة.بعد أن غادر دعبـل أسوان تناقلـت الأنبـاء عـزل المطلب وهزيمته أمام جيوش منافسه السريّ بن الحكم[٢] مولى بني ضبّة وقـد هـرب المطلـب على أثرها إلى مكة حاجاً فصوّر الشاعر هزيمته بأسلوب لاذع قائلاً:[٣]

**أمُطَّلِــــبُ دَعْ دَعَـــاوِي الْكمَـــاةِ فَتِلْـــــك نَحِيـــــزَةٌ لَا رُتْبَـــــهْ**[٤]

---

١. قرطس: أصاب الهدف. ينضل: يسبق في النضال.

٢. السرى بن الحكم بن يوسف البلخي (مولى بني ضبة) من ولاة العصر الذين أقاموا لأنفسهم في مصر سلطاناً شبه الملك، ولي مصر بعد عزل المطلب ( ابن تغري بردي ٢:١٦٣).

٣. السابق، ص١٠٩.

٤. الكماة: ج الكامي، وهو الذي يستر نفسه بالدرع والبيضة. النّحيزة: الطبيعة.

فَكَيْـــفَ رَأَيْــتَ سُــيُوفَ الحَــرِيشِ وَوَقْعَـــةَ مَـــوْلَى بَنِـــي ضَـــبَّهْ[١]

أحَجَّتْـــكَ أسْـــيَافُهُم كارِهـــاً وَمَـــا لَـــكَ فِـــي الحَـــجِّ مِـــنْ رَغْبَـــهْ[٢]

وَمَـــا المَـــالُ جَـــاءَكَ مِـــنْ مَغْـــنَمٍ وَلا مِـــــنْ ذَكَـــــاءٍ وَلا كسْـــــبَهْ

عَطَايَـــاكَ تَغْـــدُو عَلَـــى سَـــابِحٍ وَطَـــوْراً عَلَـــى بَغْلَـــةٍ نَدْبَـــهْ[٣]

فَلَـــوْ خُـــصَّ بِـــالرِّزْقِ نَجْـــلُ الْكِـــرَا مِ لِمَـــا نِلْـــتَ خَيْطَـــاً وَلا هُدْبَـــهْ

وَلَـــوْ رُزِقَ النَّـــاسُ عَـــنْ حِيلَـــةٍ لَمَـــا نِلْـــتَ كفَّـــاً مِـــنَ التُّرْبَـــهْ

وَلَـــوْ يَشْـــرَبُ المَـــاءَ أهْـــلُ العَفَـــا فِ لَمَـــا نِلْـــتَ مِـــنْ مَـــائِهِم شَـــرْبَهْ

وَلَكِنَّـــهُ رِزْقُ مَـــــنْ رِزْقُـــــهُ يَعُـــمُّ بِـــهِ الكلْـــبَ وَالكلْبَـــهْ

يهجو الشاعر المطلب بأنّ سيوف بني ضبة أجبرته على زيارة بيت الله الحرام وهو لم يكن يرغب في زيارته، ثمّ جرّد مهجوّه من الذكاء والفطنة وأخرجه من دائرة أصحاب الحيلة وأهل العفّة وجعله عاجزاً لا يعرف العفاف.

### هجاء غسّان بن عباد[٤]:

كان غسّان بن عباد من أمراء السلطة العباسية الذين صبّ دعبل جام غضبه على رأسهم، إلّا أنّ ديوان الشاعر لم يحفظ من هجائه إيّاه إلّا المقطوعة التالية التي يقول فيها:[٥]

لَنَقْـــلُ الرِّمَـــالِ وَقَطْـــعُ الجِبَـــالِ وَشُـــرْبُ البِحَـــارِ الّتِـــي تَصْـــطَخِبُ

وَكشْـــفُ الغِطَـــاءِ عَـــنِ الجِـــنِّ أوْ صُـــعُودُ السَّـــمَاءِ لِمَـــن يَرْتَغِـــبُ

وَإحْصَـــاءُ لُـــؤْمِ سَـــعِيدٍ لَنَـــا أوِ الثّكْـــلُ فِـــي وَلَـــدٍ مُنتَجَـــبُ

---

١. الحريش: بطن من بني كعب بن ربيعة.

٢. أحجتك: بعثتك للحج.

٣. السّابح: الجواد السريع. الندبة: من كلّ حافر وخُف لاتثبت على حالة واحدة.

٤. غسان بن عباد ابن أبي الفرج وال من رجال المأمون العباسي و ابن عمّ الفضل بن سهل. ولي خراسان من قبل الحسن بن سهل، ثمّ ولاه المأمون السند سنة ٢١٣هـ ( الزركلي ٥: ٣١١).

٥. السابق، ص١٢١.

**أخَفُّ عَلَى المرءِ مِنْ حَاجَةٍ يُكلِّفُ غَسَّانَها مُرتَقِبُ**
**لَهُ حَاجِبٌ دُونَهُ حَاجِبٌ وَحَاجِبُ حَاجِبِهِ مُحتَجِبُ**

يعتقد الشاعر أنّه يسهل على الانسان أن يقوم بنقل الرّمال من مكانها، ويقطع أحجار الجبال، ويشرب ماء البحار، ويكشف غطاء الجنّ، ويتسلّق السماء. لكنّ هذه الأعمال أسهل وأخفّ من أن يطلب الإنسان شيئاً من غسّان بن عباد.

## هجاء ابن عمران

أضاف دعبل في هجائه السياسي صورة جديدة إلى صنعته الفنيّة إذ استخدم الفنّ القصصي حتى يصل إلى غايته من تصوير مخازي مهجوّه، كما نراه في هجاء ابن عمران الذي «يفضل الشاعر بين عناصر الصّورة، وينسّق بين الخطوط حتى تبدو مجموعة الصور في النّهاية كأنّها لوحة مركبة من صور مرتبةٍ منطقيّاً، تعتمد اللاحقة فيها على السابقة».[١] من تلك الصور القصصيّة في هجاء دعبل لوحته لابن عمران رمز البخل حين يقول:[٢]

**أتَيتُ ابنَ عِمرَانَ فِي حَاجَةٍ هُوَيِّنَةِ الخَطبِ فَالتَاثَها[٣]**
**تَظَلُّ جِيَادِي عَلَى بَابِهِ تَرُوثُ وَتَأكُلُ أروَاثَها[٤]**
**غَوَارِثَ تَشكو إلَىَ الخَلَا أطَالَ ابنُ عِمرانَ إغرَاثَها[٥]**

يرى الشاعر أنّ ابن عمران إنسان يريد كلّ شيءٍ لمصلحته، إذا كان شَبِعاً لايتذكر أحداً ولكنّه إذا أصيب بمكروه يتوقع مساعدةً من الآخرين وهو في ذروة البخل لايبالى بمن أصبح جائعاً إذ بلغ بخله إلى حدٍّ يشكو الحيوان منه وتضطرّ الجياد أن تأكل روثها، فما بال الإنسان الذي يقصده في أمرٍ ما؟ لن يجيب ابن عمران إلى طلبه بلا ريب. فصاغ دعبل سخريته في

---

١. عويضة، ص١٨٢.
٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٥٦.
٣. التاث: التوى قضائها. التاث في العمل: أبطأ.
٤. راث ذو الحافر: روثاً: ألقى روثه. الأرواث: ج الروث.
٥. الغوارث: ج الغارثة: الجائعة.

شكل قصّة، ومهّد لها بالحديث عن الحاجة والجياد والروث والخلا والشكوى وبالغ في عرْضها، واستخدم بعض عناصر فنّ القصّة في شعره مثل سرد الأحداث والشخصيّات وترتيب المشاهد المتتالية بحيث يشكل صورة تدلّ على قدرة الشاعر في إضفاء طابع قصصي على هجوه كما أنّها تدلّ على حساسية فنيّة مرهفة لديه.

## هجاء مالك بن طوق التغلبي[١]

كان مالك بن طوق التغلبي من الولاة في الدولة العباسية هجاه دعبل مرّات عديدة على ما يظهر من ديوانه. والملاحظة الهامّة في هجاء مالك هى أنّ الشاعر ركز على نسب المهجوّ وأفحش فيه كما يتّضح من البيتين التاليين:[٢]

**صَدِّقْهُ إنْ قَالَ وَهُوَ مُخْتَفِلٌ — إنِّي مِنْ تَغْلِبٍ فَمَا كَذَبَا**

**مَنْ ذَا يُنَاوِيهِ فِي مَنَاسِبِهِ — فَمَا اُستُ كلبٍ يَرْضَى بِذَا نَسَبَا**

وله مقطوعة أخرى في هجاء مالك تناول انتسابه إلى قبيلة تغلب كما وصفه بأنّه يتكلّم بجودة ويعد الإنسان مواعد طيّبة إلّا أنّ مواعده خاليةٌ من الفعل. اسمعه يقول:[٣]

**لَا خَيْرَ فِيكَ سِوَى كَلَامٍ طَيِّبٍ — وَمَوَاعِدٍ تُدْنِي وَفِعْلٍ يُبْعِدِ**

**وَأبُوَّةٍ فِي تَغْلِبٍ لَوْ أنَّهَا — لِلْكلْبِ كَانَ الكلْبُ فِيهَا يَزْهَدُ**

فالشاعر يظهر في تلك الأبيات سخرية مؤثرة كتهكمه في ألفاظ"مواعد تدني وفعل يبعد، أبوّة في تغلب كان الكلب يزهد فيها "وهنا تكمن قوّة الهجاء في ألفاظ القصيدة. ولم يسلم مالك من نقمة دعبل وغضبه وإبراز مساوئه والتشهير بسيرته وسيرة قبيلته. هذا ما عبّر عنه

---

١. مالك بن طوق بن عتاب التغلبي صاحب الرّحبة . مدينة أحدثها مالك على الفرات بين الرقة وبغداد أسفل قرقيسيا وكانت بالأصل أرضاً لا أثر فيها، أقطعها هارون الرشيد له . هجاه دعبل مرّات هجاءً حمل مالكاً على تدبير الانتقام منه وتوفي مالك سنة ٢٥٩هـ (الحموي معجم البلدان ٣:٣٤).

٢. السابق، ص١٠٨.

٣. السابق، ص١٦٩.

دعبل في المقطوعة التالية: [١]

إنَّ ابْـــنَ طَـــوْقٍ وَبَنِـــي تَغْلِـــبٍ لَـــوْ قُتِّلُـــوا أوْ جُرِّحُـــوا قَصْـــرَهْ [٢]

لَـــمْ يَأخُـــذُوا مِـــنْ دِيَـــةٍ دِرْهَمَـــاً يَوْمَـــاً وَلا مِـــنْ أَرْشِـــهِمْ بَعْـــرَهْ [٣]

دِمَـــاءُهُم لَـــيسَ لَهَـــا طَالِـــبٌ مَطْلُولَـــةٌ مِثْـــلُ دَمِ العُـــذْرَهْ

وُجُـــوهُهُم بِـــيضٌ وَأحْسَـــابُهُم سُـــودٌ وَفِـــي آذَانِهِـــم صُـــفْرَهْ

هجاهم دعبل بأنّهم دائماً عاجزون وإن قُتِلوا أو أصيبوا بجراح، فلايأخذون من أجل ذلك ديةً لأنّ دماءهم لا قيمة لها كما أنّ دم القلفة لا قيمة له، ثمّ هجاهم ببياض الوجوه وسواد الأحساب وصفرة الآذان، وفي هذا هجاء لاذع. والملاحظة الهامّة هنا هى أنّ دعبلاً اقترب من أساليب شعراء الجاهلية والأموية، ولو كنّا لانعلم أنّ هذه الأبيات لدعبل وسُئِلنا عن صاحبها لا شك أنّنا نظنّ أنّ الأبيات لشاعر جاهليّ أو أموي. عاد الشاعر مرّة أخرى وتشكك في نسب المهجوّ قائلاً: [٤]

إنَّ بَنِـــي طَـــوْقٍ لَأعْجُوبَـــةٌ تَحَـــارُ فِـــي وَصْـــفِهِمُ الفِكْـــرَهْ

أَبُـــوهُمُ أسْـــمَرُ فِـــي لَوْنِـــهِ وَالقَـــوْمُ فِـــي أَلْـــوَانِهِم شُـــقْرَهْ

أَظُنُّـــهُ حِـــينَ أَتَـــى أمَّهُـــم صَـــيَّرَ فِـــي نُطْفَتِـــهِ مَغْـــرَهْ [٥]

فالمقطوعة واضحة تمام الوضوح ولا تحتاج إلى أيّ تعليق، إلّا أنّها تكون في ذروة السخرية والإفحاش والتجريح. وأعاد دعبل أكثر من مرّة تشكيكه في نسب المهجوّ وانحدر إلى درجة السبّ والشتم زيادةً في تحقيره قائلاً: [٦]

---

١. السابق، ص١٩٢.

٢. القصرة: التقصير، وكأنّه يريد أن يقول: إنهم في موضع التقصير إن سيموا تقتيلاً وتجريحاً.

٣. الأرش والدية واحد. البعر: رجيع ذوات الخفّ وذوات الظلف إلّا البقر الأهليّ.

٤. السابق، ص١٩٣.

٥. المغر: طين أو شبيه به أحمر يصبغ به.

٦. السابق، ص٢٨٢.

النَّـــاسُ كلُّهُـــم يَسْـــعَى لِحَاجَتِـــهِ     مَــا بَــيْنَ ذِي فَــرَحٍ مِــنْهُم وَمَهْمُــومِ
وَمَالِــكٌ ظَــلَّ مَشْــغُولاً بِنِسْــبَتِهِ     يَــرُمُّ مِنْهَــا خَرَابَــاً غَيْــرَ مَرْمُــومِ
يَبْنِــي بُيُوتَــاً خَرَابــاً لا أَنِــيسَ بِهَــا     مَـا بَـيْنَ طَـوْقٍ إِلَـى عَمْـرِو بْـنِ كلْثُـومِ

ولابدّ أن نعترف أنّ هجاء دعبل في مالك بن طوق يتّسم بالرتابة فيدور فـي اتّجـاه واحـد إذ اتّهمه في أكثر من مقطوعة بزيف نسبه، وتشتدّ لغته أحياناً فيترك الكلام الغامض وراء الأستار ويذكر ما يقصده بوضوح:[١]

سَــأَلْتُ عَــنْكم يَــا بَنِــي مَالِــكٍ     فِــي نَــازِحِ الأَرْضِــينَ وَالدَّانِيَــة
طُــرّاً فَلَــمْ تُعْــرَفْ لَكــم نِسْــبَةٌ     حَتَّــى إذَا قُلْــتُ: بَنِــي الزَّانِيَــهْ
قَــالُوا فَــدَعْ دَاراً علَــى يَمْنَــةٍ     وَتِلْكهَــا دَارُهُــمُ ثَانِيَــهْ

لم يترك دعبل أيّة فرصة دون أن يستغلّها لتحقير مالك والإزراء به وإظهـاره بأبشـع صـورة. فكأن عدائه له دفع الشاعر إلى ذمّه والسخرية منه والزراية به إلى الحدّ الذي وصلت فيه معاني الهجاء إلى وصف أمّه بالزنا:[٢]

لاحَــدَّ أَخْشَــاهُ عَلَــى     مَــنْ قَــالَ أُمُّــك زَانِيَــهْ
يَــا زَانِــيَ ابْــنِ الزَّانِــيَ ابْــ     ــنِ الزَّانِــي ابْــنِ الزَّانِيَــهْ
أنْــتَ المُــرَدَّدُ فِــي الزِّنَــا     ءِ عَلَــى السِّــنِينَ الخَالِيَــهْ
وَمُــرَدَّدٌ فِيــهِ عَلَــى     كَــرِّ السِّــنِينَ البَاقِيَــهْ

وهل هناك صورة أبشع من تلك الصور التي وصفه فيها بالزنا؟

## هجاء اسماعيل بن جعفر بن سليمان العباسي

اسماعيل بن جعفر بن سليمان بن عليّ بن عبدالله بن عباس، من أمراء بني العباس، ولي الأهواز في عهد المأمون، وكان ممن شملهم أمان المأمون، هجـاه دعبـل فتوعّـده اسـماعيل

---

١. السابق، ص٣١٢.

٢. السابق، ص٣١٣.

بالمكروه وشتمه. فقال دعبل يُعيِّره بهربه من زيد بن موسى بن جعفر بن محمد لما ظهر، وزيد بن موسى بن جعفر أخو الامام عليّ بن موسى الرضا، يلقب بِزيد النّار لإحراقه دور بني العباس بالبصرة، ولّاه محمد بن محمد بن يحيى بن زيد الخارج في الكوفة، الذي خلف محمد بن إبراهيم بن طباطبا، الأهواز، ووافى البصرة سنة ١٩٩ه فهاجمها وهزم واليها وأحرق دور بني العباس فيها فلقِّب بذلك وسُمِّيَ زيد النّار.[١]

**لَقَدْ خَلَّفَ الأهْوَازَ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ ... وَزَيدٌ وَرَاءَ الزَّابِ مِنْ أرْضِ كسْكرِ**

**يُهَوِّلُ اسْمَاعِيلُ بِالبِيضِ وَالقَنَا ... وَقَدْ فَرَّ مِنْ زِيدِ بنِ موسى بنِ جَعْفَرِ**

**وَعَايَنْتُهُ فِي يَوْمِ خَلَّى حَرِيمَهُ ... فَيَا قُبْحَهَا مِنْهُ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ**[٢]

يأتي هجاء الشاعر للأمراء والولاة على أساس الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ٥ هجاء الأمراء والولاة

| ١ | الأمراء والولاة | القالب | عدد | الصفحه |
|---|---|---|---|---|
| ١ | المطلب بن عبدالله | قصيدة | ٩ | ١٠٩ |
| | | قصيدة | ١٥ | ٢٥٣ |
| ٢ | غسان بن عباد | مقطوعة | ٥ | ١٢١ |
| ٣ | ابن عمران | مقطوعة | ٣ | ١٥٦ |
| ٤ | مالك بن طوق | مقطوعة | ٢ | ١٠٨ |
| | | مقطوعة | ٢ | ١٦٩ |
| | | مقطوعة | ٦ | ١٩٢ |

١. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، جـ ٤ص٥٣٣.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٠٦.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | مقطوعة | ٣ | ٢٨٢ |
| | | مقطوعة | ٧ | ٣١٢ |
| ٥ | اسماعيل بن | مقطوعة | ٣ | ٢٠٦ |

## هجاء القوّاد

أحياناً نرى في شعر دعبل هجاء القوّاد وهذا لم يكن إلّا لمساعدتهم السلطة العباسية. اتّضح بعد دراسة شعره أنّه هجا اثنين من قوّاد العباسيين وهما:

## طاهر بن الحسين

لمّا قتل طاهر بن الحسين الأمين ظنّ دعبل أنّه سيكون معواناً للشيعة في تحقيق مآربهم وإذا به يفاجأ بأنّه أصبح والياً على خراسان سنة ٢٠٥ه.[١] رضى بهذه الولاية فهجاه هجاءً قبيحاً وصل إلينا بعضاً منه وضاع الباقي. قال يهجوه:[٢]

**وَذِي يَمِينَـــينِ وَعَـــينٍ وَاحِـــدَه ... نُقْصَـــانُ عَـــينٍ وَيَمِـــينٍ زَائِـــدَه**

**نَـــزْرُ العَطِيّـــاتِ قَلِيـــلُ الفَائِـــدَه ... أَعَضَّـــهُ اللـــهُ بِبَظْـــرِ الوَالِـــدَه**[٣]

وفي سنة ٢٠٧ه عاد دعبل إلى هجاء طاهر وقد جمع معه أولاده في قصيدة هجاء مطلعها:[٤]

**تَـــوَلَّى طَـــاهِرٌ مِـــنْ بَعْـــدِ أَنْ قَـــدْ ... أَقَـــامَ فَـــلَا يُسَـــامُ وَلا يَسُـــومُ**

**وَأبْقَـــى طَـــاهِرٌ فِينَـــا ثَلَاثَـــاً ... عَجَائِـــبَ تُسْـــتَخَفُّ لَهَـــا الحُلُـــومُ**

**ثَلَاثَـــــةَ أَعْبُـــــدٍ لِأبٍ وَأمٍّ ... تَمَيَّـــزُ عَـــنْ ثَلَاثَـــتِهِم أَرُومُ**[٥]

---

١. الطبري، جـ ١٠ ص٢٦٥.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٢٨.

٣. النزر: يقال: شيء نزر: قليل تافه.

٤. السابق، ص٢٧٣.

٥. الأروم: جمع أرومة وهي الأصل. وأولاد طاهر ثلاثة: طلحة، وكان والياً على خراسان سنة ٢١٣ه، عليٌّ خلف أخاه طلحة على خراسان قليلاً، عبدالله ولّاه المأمون الشام سنة ٢٠٩ه ونقله إلى مصر سنة ٢١١ه ثمّ ولّاه خراسان سنة

فَبَعْضُـــهُم يَقُـولُ قُـــرَيشُ قَـــوْمِي وَيَدْفَعُـــــهُ المَـــــوَالِي وَالصَّـــمِيمُ
وَبَعْــضٌ فِـــي خُزَاعَـــةَ مُنْتَمَـــاهُ وِلَاءٌ غَيـــــرُ مَجْهُـــولٍ قَـــدِيمُ
وَبَعْضُـــــهُمُ يَهُـــشُّ لآلِ كِسْـــرَى فَيَـــــزْعَمُ أَنَّـــــهُ عِلْـــجٌ لَئِـــيمُ[1]
لَقَـــدْ كَثُـــرَتْ مَنَاسِـــبُهُم عَلَيْنَـــا فَكلُّهُـــــم عَلَـــى حَـــالٍ زَنِـــيمُ

ولانعـرف متـى سـاءت صلتـه بعبدالله وبآل طاهر، والـذي نعـرفه أنّـه جـزاهم مـن أجـل بعض تـقصيرهم هجاءً مزاً، وأغلب الظنّ لأجـل مـوالاتهم لخلفـاء بنـي العبّاس، وقـد هجّـن أحسابهم وأنكر إكرامهم له.

## هجاء دينار بن عبدالله

كان دينار بن عبدالله من القوّاد زمن المأمون، الذين هجاهم دعبـل الخزاعـي وكـان مـن موالي الرشيد، ولي كور الجبل وغيره ثم سخط عليه المأمون فاقتصر به على ماء الكوفة، وكان له أخ اسمه يحيى:[2]

مَـــا زَالَ عِصْـــيَانُنَا لِلّـــهِ يُسْـــلِمُنَا حَتَّـــى دُفِعْنَـــا إِلَـــى يَحْيَـــى وَدِينَـــارِ
إِلَـــى عُلَيْجَـــيْنِ لَـــمْ تُقْطَـــعْ ثِمَارُهَمـــا قَـــدْ طَالَمَـــا سَـــجَدَا لِلشَّـــمْسِ وَالنَّـــارِ

يهجو الشاعر القادة لاقتناعه أنّهم امتداد للسّلطة العباسية والمنفّذين للسياسة الغادرة فـي نظره، وتولّيهم أمور الدولة التي لايرضى عنها وكان يودّ أن تكون في أيدي أحبّائه من العلويين. يأتي هجاء دعبل للقواد على الجدول التالي:

جدول رقم ٥ـ٦ هجاء القواد

| ا | القائد | القالب | عدد | الصفحه |
|---|---|---|---|---|
| ١ | طاهر بن الحسين | مقطوعة | ٧ | ٢٧٣ |

٢١٣هـ وبقي فيها حتى مات (انظر: الطبرى ١١: ٢٣١).

١. هشّ الرجلُ هشّاً: صال بعضًا. العِلج: كلّ جافٍ شديدٍ من الرجال، الحمار السمين القوي، وهو المراد في البيت.

٢. السابق، ص٣٣٨.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | مقطوعة | ٢ | ٣٢٨ |
| ٢ | دينار بن عبدالله | مقطوعة | ٢ | ٣٣٨ |

كان هجاء دعبل بالنسبة للأشخاص الذين سبق ذكرهم بدافع ديني وسياسي إذ هجا بعض الولاة والقوّاد الذين عاثوا فساداً في زمانهم واصفاً سوء أخلاقهم وخبثهم، وكل ذلك الهجاء كان نابعاً من غضبه عليهم لأنّهم كانوا يواكبون سلطة العباسيين الزمنية، وكانوا ممثلين لرغبات حكامهم، «وخلاصة ما مرّ أن أسلوب دعبل في الهجاء السياسي يكاد يكون فريداً. فهو الوحيد من الشعراء الإسلاميين الذي لم تسكن قوافيه عن هجاء كل خليفة عاصره، وترى غيره من الشعراء عندما يهجو خليفة إنما ينتقده لموقف معين ولا ينقد شخصيته الحاكمة الثابتة، أي لا يقيّم سياسته وأسلوب حكمه الذي ينهجه بينما ترى دعبلاً يقيّم سياسة الملوك العباسيين تقييماً ينمّ عن وعي لشخصية الحاكم المسلم التي استقاها من معايشته الأئمة (ع). كما أن النقد عنده منهج ثابت في حياته يعبر فيه عن رفضه لكل الحكام الذين توالوا على منصب الخلافة وأنهم نمط واحد لا يختلفون عن بعضهم وهو يربط هؤلاء الحكام بالحكام الأمويين ويجعلهم امتداداً لهم كما لاح من النماذج القليلة التي مرت بنا من شعره، ويتألم للأمة الإسلامية التي كتب عليها خنوعها أن تخضع لهذه النماذج الحاكمة الغريبة عن النموذج القرآني للحاكم».[١] ونذهب مع محمد زغلول إلى أنّ السبب الأكبر في هجاء دعبل للسلطة العباسية هو «تعصبه لآل البيت نتيجة تلقّيه الثقافة الشيعية، وهو يرى أنّ العباسيين سرقوا الخلافة من آل البيت وأنّ آل البيت أحقّ منهم بها».[٢]

## السخرية السياسية في شعر دعبل

لدعبل الخزاعي في هجائه السياسي ميزات وأساليب خاصّة، ولعلّ أهمّها انطباعه بالسخرية. ندرس هنا بشكلٍ مفصّل بعد أن نشير إلى خلفية الهجاء الساخر في الأدب العربي.

---

١. موسى، ص٣٢.

٢. زغلول، ص٥٥٠.

## الهجاء الساخر السياسي قبل دعبل

لعب الهجاء المطبوع بطابع السخرية في ميدان السياسة دوراً خطيراً بما تملكه من تأثير وقدرة على لفت الأنظار وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة في نظم الحكم أو أخلاق بعض الساسة وانحرافاتهم. وقديماً قال صاحب كتاب العمدة إنّ «الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب وعلوقه بالنفس».[1] لقد عرف الأدب العربي هذا النوع من السخرية والتهكم قبل العصر العباسي، فنجد بعض الشعراء يسخرون سخريات سياسية من الخلفاء والوزراء وسوء مسلكهم ،كما نجده عند عتبة الأسدي يهجو معاوية:[2]

**مُعَاوِيَ إنَّنَا بَشَرٌ فَأسْجَحْ ... فَلَسْنَا بِالجِبَالِ وَلَا الحَدِيدِ**[3]

**أكلتُم أرْضَنَا وَجَذَذْتُمُونَا ... فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أوْ مِنْ حَصِيدِ**

**فَهَبْنَا أمَّةً هَلَكَتْ ضِيَاعَاً ... يَزِيدُ أمِيرُهَا وَأبُو يَزِيدِ**

**أتَطْمَعُ بِالخُلُودِ إذَا هَلَكنَا ... وَلَيسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خُلُودِ**

**ذَرُوا خَوْلَ الخِلافَةِ وَأسْتَقِيمُوا ... وَتَأمِينَ الأرَاذِلِ وَالعَبِيدِ**

وكانت هذه صيحةً، كثيراً ما كان يردّدها العرب في المطالبة السياسية بالحقوق والتساوي والبعد عن تقريب الأراذل والعبيد، ولكنّها منبثقةٌ من خلق العربي على كل حال، فهو لا يرتضي الذلّ والانقياد والضياع.

ومن الشعراء من سخر لأهداف سياسيةٍ بحيث سَعوا إلى وضع حدّ لممارساتٍ سياسيةٍ ودينيةٍ غير مقبولة والتحريض عليها بهدف القضاء عليها وتنقية المجتمع من آثارها السلبية. هذا بشّار بن برد يسخر من الخليفة المهدي وضياع الأمر من يده إلى يعقوب بن داود. نراه

---

١. ابن رشيق، جـ ٢ ص ١٨٩.

٢. الدهان، ص٦٠.

٣. سجح: سهل ولانَ. جذّه: قطعه وكسره. هنا كناية عن الجور.

يقول:[1]

بَنِـــي أمَيَّـــةَ هُبُّـــوا طَـــالَ نَـــوْمُكم إنَّ الخَلِيفَـــةَ يَعْقُـــوبُ بْـــنُ دَاوُدِ[2]

ضَـــاعَتْ خِلافَـــتُكم يـــا قَـــومُ فَالْتَمِسُـــوا خَلِيفَـــةَ اللـــهِ بَـــيْنَ الـــزِّقِّ وَالعُـــودِ

يسخر بشّار من ضعف الخليفة لاستيلاء الوزير على مقاليد الدولة، وكأنّه يستنهض الأمويين لاستعادة الخلافة وهذا لا يعني أنّه يتمنّى عودة الخلافة إلى الأمويين، بل يريد أن يبالغ في الإيلام والإيجاع للعباسيين حتّى يسيطر الخليفة على كلّ شئ.

لا شك أنّ السخرية السياسية لدى هؤلاء الشعراء وقفت عند حدود ضيّقة ولم تتجاوز أبيات قليلة تأتي من حين إلى آخر، كما أنّ شعرهم لم يبلغ إلى مرحلةٍ ناضجةٍ فنيّاً وبياناً. لكنّ دعبلاً فاق الشعراء العرب حتى نهاية العصر العباسي من حيث أسلوبه الساخر لما عرف عنه من جرأة وصراحة.

## الهجاء الساخر عند دعبل

الهجاء الساخر يعتبر طريقة تعبيرية متطورة لنقد الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفردية، وهو بذلك محاولة إلى تجاوزها إلى ما هو أفضل وذلك بالإصلاح والتغيير وكشف الزيف ومواجهة التشويه. ولابدّ أن نشير إلى أنّ أغراض الشعراء تختلف من ممارسة السخرية فنرى فريقاً منهم يلجأون إليها بهدف التلّهي والضحك ودفع السأمة والملل ورفع كابوس الهمّ والحزن، وإبعاد النفس عن الحياة الرتيبة بإطلاقها من أسر الجدّ واصطباغها بصبغةٍ هزليّةٍ، كما نرى عند أبي دلامة. إلّا أنّ فريقاً آخر من الشعراء وعوا مسؤوليتهم الاجتماعية وموقعهم المميز فأشاروا إلى مواضع الفساد والإفساد والتزلّف والجهل وغير ذلك بهدف إصلاح المجتمع والقضاء على مظاهر الفساد فيه، مستخدمين نفس الأسلوب الساخر، ونرى دعبلاً يلمع اسمه في هذا الاتجاه باعتباره رائداً لهذا الفنّ.

---

١. بشار، الديوان، جـ ٣ ص ٩٤.

٢. هبّ من النّوم: انتبه واستيقظ. الزقّ: جمع زِقَقة وهو الخمر. العود: آلة من المعازف يُضرَب بها.

لعلّنا لانبعد عن الموضوعيّة إذا ادّعينا أنّ دعبل الخزاعي رائد الهجاء السياسى في العصر العباسي الأول كما يرى أحد الباحثين[١] إذ هو شاعر متمرّد من طراز خاصّ، ولشعره خصائص متفردة قد لا تتوافر لغيره، ولعلّ الطابع الساخر أهمّ وأبرز هذه الخصائص في أسلوبه. اتخذ هذا الشاعر الفذّ السخرية منهجاً فكرياً ولغوياً يؤثر في مضمونه وفي أسلوبه على السواء وهى عنده نوع من الضحك الكلامي أو التصويري الذي يعتمد على العبارة البسيطة أو على الصورة الكلامية مع التركيز على النقاط المثيرة فيها.

يتمتّع دعبل بقدرةٍ خلّاقةٍ في هجائه السياسي إذ منح كلّ اهتماماته وكلّ امكانياته للمجتمع وأُعطي لساناً طلقاً حادّاً في النقد والمعارضة والمقاومة والكفاح، ونرى أنّه انسان ثوري التكوين وإن لم يستخدم الاسلحة المعروفة المستخدمة في الحرب، بل كانت الموهبة والقدرة الخلابة على مواجهة المفاسد والمثالب سلاحاً له لمعرفة عناصر الانحراف في المجتمع وعلى صياغة الأساليب المناسبة لكشفها وابرازها ووضعها في الضوء العام لتكون بمرأى ومسمع من الناس.

عاش دعبل ما يقرب من مائة سنة تقريباً وبذلك قدِّر له أن يستوعب جوانب مختلفة من تاريخ الدولة العباسية في إطار زمنيٍّ موسّع وأن يدرس مجتمعه دراسة وافية. يتّضح من خلال دراسة حياة الشاعر أنّه كان معاصراً لستّة من الخلفاء العباسيين وهم: هارون والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. هؤلاء الخلفاء وإن اتّخذوا سياسةً واحدةً إزاء الشيعة إلّا أنّ دعبلاً استخدم لغةً متفاوتة إزاءهم كما أنّها تظهر في نقده للوزراء والحكام والكتّاب الذين أنجزوا ما أملاه عليهم الخلفاء. وهنا نريد أن ندرس أسلوب الشاعر ولغته ونحلّله فيما يتعلّق بالهجاء السياسي بصورة موجزة مستخرجين ميزاته الخاصة.

## أسلوب دعبل في هجائه السياسي

أصبحت المضامين السياسية الساخرة في شعر دعبل ظاهرة تلحّ علينا في الوقوف عليها

---

١. انظر: الشكعة، ص٣٢٧.

ومتابعتها، ولم يكن هو أوّل من أحدث هذا الفن الساخر الناقد، لأنّ السخرية أو النقد الساخر من الفنون التي أنضجتها عوامل التطور والتجديد في العصر العباسي. لكننا نقول إنّ دعبل الخزاعي كان من كبار شعراء العصر العباسي الأول الذين أدخلوا السخرية في الهجاء السياسي من حيث كثافتها وتركيزها وتوجيهها على كافّة الشخصيات والشؤون السياسية. لقد شمل هجاؤه السياسي قضايا متعددة، كما أنّه تبدّى في أساليب متنوعة، فرأينا أن ندرسها في إطار الأساليب التالية تسهيلاً للدراسة:

## السخرية

تعدّ السخرية من أبرز ملامح التحول في الموقف الشعري عند الشعراء العباسيين، فالصدام بين هؤلاء الشعراء ومجتمعاتهم وتقاليد الحياة في عصورهم وصل حد الرفض والإنكار والثورة أحياناً[١] وهذا عائد إلى الظروف التي غيّرت وجه المجتمع ومنحته شكله الجديد لما نشأ من صراع سياسي وآخر شعوبي واضطراب في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ثم تطور الحياة الفكرية والعقلية.[٢]

دعبل بوصفه شاعراً عاش في الفترة العباسية لم يتخلّف عن مواكبة هذا الفنّ الشعري بل استخدم السخرية في جوانب مختلفة من شعره خاصة في شعره السياسي فجاءت السخرية عنده نتيجة لصراع بين عالمه الداخلي وبين قوة خارجية يرفضها ويقاومها. يرى بعض الباحثين أنّ الشاعر قد يلجأ إلى السخرية عندما لا يكون قادراً على إبراز غضبه، فتصبح السخرية ملاذاً نفسياً يحقق انفعال الأديب ويستوعب حدّته وثورته كما يرى الحوفي «أنّ الشعراء يلجأون إلى استخدام الأسلوب الساخر نتيجة لعوامل متعددة لعل أهمها الخوف من السلطة الحاكمة».[٣]

---

١. انظر: عطوان، ص٣٣٩.

٢. انظر: العشماوي، محمد زكي. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت، ص١٢٨.

٣. الحوفي، ص١٥.

إنّنا حين ندرس حياة دعبل ونسمع كلمته المشهورة التي يقول فيها: أحمل خشبتي منذ خمسين سنة على عاتقي ولا أجد أحداً يصلبني عليها، سرعان ما ندرك بوضوح أنّ السبب في لجوءه إلى السخرية لم يكن خوفه من السلطات الحاكمة بل يعود إلى أنّ الشاعر أراد بها أن يقارع الحكومة العباسية الزائفة، وأن يهيّئ الأجواء حتّى ينتشر هجاؤه السياسي أكثر فأكثر، لأنّ الكلام إذا امتزج بالسخرية يتعلّق بالنفس بسرعةٍ بالغة ويبقى أمداً طويلاً.

والملاحظة الهامّة التي تجدر بالإشارة هى أن خلفاء بني العباس كانوا يحاولون اجتذاب الشعراء والأدباء لدعم سلطتهم وتأييد نظريتهم الوراثية في الخلافة من جانب، وليكونوا بمنأى عن خصوم الخلافة من جانب آخر، وكان هارون الرشيد في طليعة اولئك، فلمّا فطن دعبل لخطّة الرشيد سرعان ما انقلب وكشف حقيقة خطّته بقوله:[1]

**وَعاشَتْ بَنُو العبّاسِ فِي الدّينِ عَيْشَةً ... تَحَكّمَ فِيهِ ظَالِمٌ وَظَنِينُ**

**وَسَمُّوا رَشِيداً لَيسَ فِيهِم لِرُشْدِهِ ... وَهَا ذَاك مَأمُونٌ وَذاك أمِينُ**

**فَمَا قُبِلَتْ بِالرُّشْدِ مِنهُم رِعايَةٌ ... وَلَا لِوَلِيٍّ بِالأمَانَةِ دِينُ**

**رَشِيدُهُم غَاوٍ وَطِفْلاهُ بَعْدَهُ ... لِهَذَا رَزَايَا دُونَ ذَاك مُجُونُ**

وأيّ سخريةٍ أبلغ وأقسى من هذا؟ فالشاعر لا يسخر في الأبيات السابقة من قضية عدم النضج السياسي عند هارون الرشيد فقط، بل تتعدى سخريته إلى الوضع الذي آلت إليه الأمور، فالخليفة ضالٌ وكذلك ابناه، وهما يخونان الدين الذي هو أمانة بأيديهما. كل ذلك أدّى إلى تدهور الأمور والبلاد، وأين الشعب من كل ذلك؟ الشعب في حالة ضياع وظلم، فكيف يستطيع هذا الشعب أن يشكو أمره وأن يبلغ سؤله، وسلطانه لم يبلغ بعد. كانت هذه السخرية سلاحاً في محاربة الظلم والفساد ومقاومة الجور والطغيان أو على الأقل كانت تلفت الحكام إلى مثل هذه الأوضاع.

ومن الأحداث الخطيرة التي واجهها هذا العصر وظفرت باهتمام المؤرخين خلافة ابراهيم

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٨٩.

بن المهديّ. بعد أن قُتِلَ الأمين في بغداد كان المأمون لا يزال في طوس التي اتخذها عاصمة له فرشّحت حاشية القصر في بغداد عمّ المأمون المغنّي المشهور إبراهيم بن المهديّ للخلافة. نرى دعبلاً يصوّر هذه الحادثة في شعره قائلاً:[1]

**نَعَرَ ابنُ شَكْلَةَ بِالعِراقِ وَأَهْلِهِ … فَهَفَا إِلَيهِ كُلُّ أَطْلَسَ مَائِقِ**[2]

**إِنْ كانَ ابْرَاهِيمُ مُضْطَلِعاً بِها … فَلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ**[3]

**وَلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعدِ ذَلِكَ لِزَلْزِلٍ … وَلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعدِهِ لِلْمَارِقِ**

**أَنَّى يَكُونُ وَلَيسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ … يَرِثُ الخِلافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ**

فقد هاجم دعبل كُلّ من بايع إبراهيم، واتّهمهم بالطيش والحمق، وأنكر عليهم تسليم الخلافة لفاسق، ويعتقد أن معظم الخلفاء العباسيين فاجرون فاسقون، وأمّا البيتان الأخيران فهما بيتا هزء وسخرية فإذا صحّت الخلافة لإبراهيم، فولاية العهد تكون لمخارق وتصلح فيما بعد لزلزل والمارق، وكلهم من مغني ذلك العصر، وقد استمدّ الشاعر جرأته من تشيّعه وحبّه لآل البيت، وهو دافع أساسي وراء هذه السخرية.

ونرى دعبل يتناول تلك المسألة في مقطوعة أخرى، وكأنّه يريد أن يحطم هيبة الخلافة العباسية ويقرنها بالعبث والفسق والانحلال، ويحيل خلافة بني العباس التي زعموا أنّها جاءت لنصرة الدين خلافةً كتابها المزهر. اسمعه يقول:[4]

**يا مَعْشَرَ الأَجْنَادِ لاتَقْنَطُوا … وَأَرْضَوا بِمَا كانَ وَلا تَسْخَطُوا**

**فَسَوفَ تُعْطَونَ حُنَيْنِيَّةً … يَلْتَذُّها الأَمْرَدُ وَالأَشْمَطُ**[5]

**وَالمعْبَدِيّاتُ لِقُوّادِكم … لا تَدْخُلُ الكِيسَ وَلاتُرْبَطُ**

---

١. السابق، ص٢٤٤.

٢. نَعَرَ: صاح.ابن شكلة: ابراهيم بن المهدي عمّ المأمون. هفا: أسرَعَ. أطلس: الأسود أو الأمرد. مائق: الأحمق.

٣. مُخارِق، زلزل، المارق: هؤلاء الثلاثة كانوا من المغنين في العصر العباسي (انظر: ابن خلكان ١: ٢١).

٤. السابق، ص٢١٩.

٥. حنينية: يعني ألحاناً حنينية (نسبة إلى حنين الحيري) المغنّي. الشمط: الشّيب.

وَهَكَــــذا يَــــــرزُقُ أصْـــــحَابَهُ    خَلِيفَـــــــةٌ مُصْـــــــحَفُهُ البَــــــربَطُ[1]

قَــــدْ خَــــتَمَ الصَّــــك بِــــأرزاقِكم    وَصَــــحَّحَ العَــــزْمَ فَلَــــمْ تُغْمَطُــــوا

بَيْعَـــــــةُ ابْـــــــراهِيمَ مَشْــــــؤُومَةٌ    تُقْتَــــــلُ فِيهــــا الخَلْــــقُ أوْ تُقْحَـــــطُ

فبمثل هذه الأبيات الخفيفة الطريفة التي تثير ضحك الناس، وتقوّي من استهانتهم بالنظام القائم، وتسير على ألسنتهم لخفّتها وسهولتها وطرافة معانيها وسطوع موسيقاها، كان يحرّض الناس على الخلافة. تعدّ هذه المقطوعة من أجمل سخريات دعبل اللاذعة حيث يصوّر الجنود والنّاس يطالبون برواتبهم من الخليفة المغنّي (ابراهيم بن المهديّ) قبل أن يتنازل عن الخلافة للمأمون. أصيبت الدولة زمن خلافته بعجزٍ مالى فاجتمع الناس والجنود والضباط أمام القصر وهم يطلبون رواتبهم، وظهر مندوب الخليفة قائلاً لهم إن الخليفة ليس عنده مال يدفعه لكم. فالشاعر أراد أن يقول إن الذين اجتمعوا، قد رضوا بأن يغنّي الخليفة لهم بدلاً من أن يدفع لهم رواتبهم. وقد ركز الشاعر في الأبيات السابقة على المفارقة البارزة. و«ما من شك في أن للصورة الفنية الساخرة في شعر دعبل قيمة وهدفاً فلم تكن حشواً ولا هزلاً خالصاً، بل كانت تساعد على تجديد النشاط وتوليد الشعور السليم وإزالة الانقباض وتجديد الراحة وتزيل التوتر والانقباض وتشرح الصدور وتقوّم الأخلاق، تحافظ على التقاليد وأوضاع المجتمع وتصحيح الإعوجاج وتربي ملكة النقد وتوقظ التنبه إلى الأخطاء وتجسيم النقائض ليضحك الناس من كلّ ما يلحظون فيه مخالفة للمألوف».[2] بدأت سيطرة الأتراك على زمام الأمور منذ بداية خلافة المعتصم وهؤلاء عاثوا في البلاد عيثةً، فنرى دعبلاً لم يسكت أمام هذا الأمر بل نظم اشعاراً كثيرة فيه، لعلّ ما نذكره أصدق وصف لتلك الحالة التعسة التي مرّ بها الخلفاء العباسيون. فنرى الشاعر يشير في قصيدة له تبلغ اثنى عشر بيتاً إلى ما بيّناه سابقاً

---

١. المعبديات: نسبة إلى معبد المغنّي المشهور.

٢. عويضة، ص١٧٧.

قائلاً:[١]

لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النّاسِ إذْ سَاسَ مُلْكَهُم وَصِيفٌ وَأشْناسٌ وَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ[٢]

وَفَضْلُ بنُ مَروانٍ سَيَثْلَمُ ثلْمَةً يَظَلُّ لَهَا الإسْلامُ لَيسَ لَهُ شِعْبُ

وَهَمُّكَ تُركِيٌّ عَلَيه مَهانَةٌ فأنتَ لَهُ أمٌّ وَأنتَ لَهُ أبُ

إنّ هذه السخريات لفتات مستمرة تنبّه الأذهان إلى الأوضاع الفاسدة السائدة وتجدد مشاعر الكراهية للخلفاء وتذكى نار الغضب، كما أنّها تدلّ على تذمّر الشاعر من حال الحكم وتسلّط الأتراك على الخلافة وتسيير الخلفاء حسب أهوائهم، فلذلك يقول إنّ الناس ضاعت أمورهم، وهذه لمأساة عظيمة.

لم يقصد دعبل من الأبيات المذكورة الجمال والمتعة الفنية، بل يصوّر آلاماً لاذعة وأحزاناً تجيش في صدره بسبب ما آلت إليه الخلافة من التفكك والضعف، والتي يجب أن تراعى فيها مصالح الشعب. يعتقد دعبل أنّ الخليفة أصبح العوبةً بيد الأتراك وقادتهم. أكد على ذلك القول أحد المؤرخين مبيّناً ذلك في قوله «أخذ نفوذ الأتراك يتزايد يوما بعد يوم حتّى استبدّوا بأمور الدولة، وطغى سلطانهم على سلطان الخليفة، فقد كان الخليفة بمعزل عن النصير أسيراً في قصره، وإذا حاول الإبقاء على شئ من جلال الملك وهيبته تآمروا عليه وقتلوه على مرأى ومسمع من أهل بيته وذويه، أما الدولة فقد اعتراها الكساد والفساد وهجر العلماء والأدباء بغداد إلى أقاليم أخرى حيث الأمن والسلامة».[٣] ونرى الشاعر يرسل إلى المعتصم أبياتاً بعد خروجه من بغداد مغضباً وفيها نشعر بالسخرية بوضوح تامّ. اسمعه يقول:[٤]

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٠٣.

٢. وصيف وأشناس: غلامان من الأتراك الذين جلبهم المعتصم ليستعين بهم على العرب والفرس، وقد صارا فيما بعد من قوّاده المتنفذين.

٣. حجاب، محمد نبيه. معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول، الطبعة ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٠.

٤. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٠٧.

بَغْــــدَادُ دَارَ المُلُــــوك كانَــــتْ حَتّـــى دَهَاهـــا الَّـــذِي دَهَاهَـــا[١]

مـــا غَـــابَ عَنْهـــا سُـــرورُ مُلْـــكٍ عَـــادَ إلَـــى بَلْـــدَةٍ سِـــوَاهَا

لَـــيسَ سُـــرورٌ بِسُـــرَّ مَـــنْ رَأى بَـــلْ هـــي بُـــؤسٌ لِمَـــن يَرَاهـــا

عَجَّـــلَ رَبّـــي لهـــا خَرَابَـــاً بِـــرَغمِ أنْـــفِ الّـــذي ابْتَنَاهـــا

وأحياناً نرى دعبلاً أخذ يصوغ سخريته السياسية في ثوبٍ جديد قد يكون رمزياً يحمل كلّ مظاهر الاستخفاف والتحقير، فلمّا مات المعتصم وتولّى الواثق الخلافة نرى الشاعر يصوّر فراغ الخلافة من معانيها كلّها ونفض الناس أيديهم منها وإدارة ظهورهم لها، وهو أمضّ ما بلغ هجاؤه السياسي من وضوح القصد في ثوب رمزي. يقول الشاعر لمّا مات المعتصم وقام الواثق مقامه:[٢]

الحَمْـــدُ لِلّـــهِ لا صَـــبْرٌ وَلا جَلَـــدُ وَلا عَـــزاءٌ إذَا أهْـــلُ الـــبَلا رَقَـــدُوا

خَلِيفَـــةٌ مـــاتَ لَـــمْ يَحْـــزَنْ لَـــهُ أحَـــدُ وَآخَـــرٌ قَـــامَ لَـــمْ يَفْـــرَحْ بِـــهِ أحَـــدُ

فَمَـــرَّ هـــذا وَالشُّـــؤمُ يَتْبَعُـــهُ وَقَـــامَ هَـــذا فَقَـــامَ الوَيْـــلُ وَالنَّكَـــدُ

لما كان الخلفاء في العصر العباسي فاسدين وظالمين، كان من الطبيعي أن يسري السوء إلى الوزراء والعمّال والكتّاب وينتشر بينهم. كان دعبل يرصد أعمال هؤلاء المنتمين إلى السلطة العباسية، فلذلك نراه لاحق كاتب المأمون أبا عبّاد وسفّهه، وجمع إلى فشله في عمله بشاعة في صورته، فتركه عارياً ملطّخاً بالحبر، وحوّل الصورة إلى مشهدٍ متحرّك، فجعله هائجاً يجرّ السلاسل خلفه. يقول:[٣]

أوْلَـــى الأمُـــورِ بِضَـــيْعَةٍ وَفَسَـــادِ أمْـــرٌ يُـــدَبِّرُهُ أبُـــو عَبّـــادِ

خِـــرِقٌ عَلَـــى جُلَســـائِهِ فَكَـــأنَّهُم حَضَـــرُوا لِمَلْحَمَـــةِ يَـــوْمِ جِـــلادِ

---

١. دها: من الداهية أي المصيبة والشدّة. يريد أنّها أصيبت بالنّائبة وأصبحت خربة.

٢. السابق، ص١٦٨.

٣. السابق، ص١٨١.

يَسْطُو عَلَى كتّابِهِ بِدَواتِهِ فَمُمَضَّخُ بِدَمٍ وَنُضْحِ مِدادِ
وَكأنَّهُ مِنْ دَيرِ هِزْقِلَ مُفْلِتٌ حَرِدٌ يَجُرُّ سَلاسِلَ الأقْيادِ[١]
فَاشْدُدْ أميرَ المؤمِنينَ وَثاقَهُ فَأصَحُّ مِنهُ بَقيّةُ الحدادِ[٢]

ودعبل بهذه الأبيات يجرّد أبا عبّاد من الخصائص الإنسانيّة وما يتبعها من تكاليف أمثال العقل والتفكير، وينزله إلى مرتبة الدوابّ بل أسفل منها. استطاع الشاعر في الوصول إلى غرضه من الهجاء أن يستخدم مجموعةً من الصور مثل «خرق على جلسائه، ملحمة ويوم جلاد يسطو بدواته، مضمخ بدم، كأنّه من دير هزقل مفلت، حرد يجرّ السلاسل، أشدد وثاقه».[٣]

**التهديد**

من المبادئ التي آمنت بها الشيعة التمرد على الظلم ومناجزة الظالمين، فقد انطلق دعبل من هذا المبدأ إلى مقارعة الظلم، وكثيراً ما نراه يستخدم في هجائه السياسي التهديد كأسلوب لمواجهة السلطة العباسية، وقد حدث هذا الموقف بكثرة في وقوفه أمام المأمون، غير أنّ بعض الباحثين حاولوا التقليل من أهمية مواقف دعبل السياسية إبّان خلافته ووصفوه بالمبالغة في العفو، فلذلك ذكروا أنّ هذه الصفة «دفعت الشاعر إلى التطاول عليه والتّمادي في هجائه ونقده ومعارضته في جرأة مكشوفة في مواقف عديدة، كأنّما كان يضمن عفوه».[٤]

ذكرت المصادر التاريخية أن المأمون لمّا حصل على الخلافة، أمر بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين إرضاءً لهم، غير أنّ تطوّر الظروف في بغداد سرعان ما جعله يتراجع عن مواقفه إزاء الشيعة فتغيرت علاقته بالعلويين بتمزيق الخضرة شعار العلويين، فكان طبيعياً أن يتغير دعبل ويتخذ موقفاً مخالفاً لما كان من قبل. لذلك نراه يتفجّر غضباً

---

١. دير هزقل: دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم (الحموي معجم البلدان ٢: ٥٤٠). ويضرب به المثل لمجتمع المجانين، ويقال للمجنون كأنّه من دير هزقل.

٢. بقيّة الحداد: على سبيل النسبة أو الإضافة. الوثاق: ما يشدّ به من قيد وحبل ونحوهما.

٣. عويضة، ص١٥١.

٤. السابق، ص١٣.

ويصبّ حمم غضبه على المأمون قائلاً:[١]

**أيَسُـــومُني المــأمونُ خِطّــةَ عــاجِزٍ أوَمــا رأى بِــالأمسِ رأسَ مُحمَّــدِ[٢]**

**تُــوفِي عَلــى هــامِ الخَلائِــفِ مِثلَمــا تُــوفِي الجِبــالُ عَلــى رُؤوسِ القَــردَدِ**

وفي هذه الأبيات تتجلّى ثورة الشعر لدى دعبل في أسلوب تهكميّ ساخر يفضح حكم المأمون الذي لم يحقّق للشعب أيّ منجزٍ يذكر، بل كان أداة هدم و خراب، إلّا أنّ الحساب قادمٌ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. وهو بعد ذكر هذه الأبيات التي تشبه مقدمةً تمهّد الأرضية للتطرّق إلى الموضوع الرئيس ينشد أبياتاً يدرس فيها العوامل التي أدّت إلى تولّيه الخلافة، فيشتدّ غضبه فيقول مهدداً:[٣]

**إنّــي مِــنَ القَــومِ الّــذينَ سُــيُوفُهم قَتَلَــتْ أخَــاك وشَــرَّفَتْك بِمقعَــدِ**

**رَفَعُــوا مَحَلّــك بَعــدَ طُــولِ خُمُولَــهِ وَاســتَنْقَذُوك مِــنَ الحَضــيضِ الأوْهَــدِ**

إنّ الشاعر يريد أن يكشف عن أيادٍ لها المنة العظمى على المأمون في الوصول إلى الخلافة، فيذكره بمكانته قبل الخلافة. غير أنّ نقطة هامّة مخبوءة وراء هذين البيتين، وهي أن الشاعر يهدده بأنه يسهل عليه أن يكرر الموقف الذي كان أخوه فيه، يعني يسهل عليه تغيير الوضع السائد. ثمّ يحذر المأمون من أن يتمادى في غيّه فيقول:

**إنَّ التِّــراتَ مُســهَّدٌ طُلّابُهــا فَــاكفُفْ لُعابَــك عَــن لُعــابِ الأسـوَدِ[٤]**

**لا تَحسَــبَنْ جَهلِــي كحِلــمِ أبــي فَمــا حِلــمُ المَشــايخِ مِثــلَ جَهــلِ الأمــرَدِ**

وهكذا استمرّ دعبل متمسكاً بمبادئه ومصرّاً على الإطاحة بحكم المأمون وازدادت ثورة الشعر أجيجاً ولهيباً لتنطلق صيحةً في وجه المأمون رافضةً لحكمه. ألسنا نجد في هذه

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٧٥..

٢. رأس محمد: يعنى محمداً الأمين ابن زبيدة الذي حاربه طاهر بن الحسين. هام: مفردها هامة وهى رأس كلّ شئ. القردد: ما ارتفع من الأرض وغلظ.

٣. السابق، ص١٧٦.

٤. التّرات: مفردها ترة، الثأر. الأسود: الحيّة العظيمة.

الأبيات روح التحدي والإباء؟ فطلّاب الثأر لا ينامون كناية عن استعدادهم للانتقام والنيل ممن أوقع بهم عدواناً ويحذر من أن ظلمه لا يوازي خطر الحية العظيمة، ويعرفه بأن حلم الكبار يختلف عن طيش الشباب وتمردهم متوسلاً بلون من المقابلة بين الجهل والحلم وبين الشيخ والأمرد.

## استلهام واستدعاء التراث القرآني

لقد أصبح استلهام التراث واستدعاء الشخصيات القرآنية ظاهرة هامّة عند الشعراء الإسلاميين، ودعبل بوصفه شيعيّاً ممتازاً حاول قدر المستطاع أن يوظف التراث الديني في هجائه الساخر السياسي، فنراه قد اعتمد في تشكيل الصورة الشعرية على عناصر متعدّدة من التراث الديني في أشكاله المختلفة واغترف من معين الثقافة الإسلامية والقرآنية في نظمه السّاخر الذي اشتمل على جوانب معنوية وحسية، وجاء بعضه في إطار المقارنة التي تهبط بالمهجو، وتجعله الطّرف الناقص في حمل تلك الصفة، بينما في بعضه الآخر حمّل الشاعر المهجو الصفة الموظَّفة، بغرض إثبات النقص عنده بطريقه الهزل والتلاعب. اتّخذ استدعاء التراث عند دعبل اتجاهين:

أ.الإتجاه الأول لفظيٌّ ومعنويٌّ، إذ يذكر ألفاظاً ويستحضر بعض المعاني، فنراه يستحضر أهل الكهف وكلبهم أثناء استهزائه بالمعتصم الخليفة الثامن عند العباسيين:[1]

**مُلُوك بَنِي العَبّاسِ فِي الكتْبِ سَبْعَةٌ ... وَلَمْ تَأتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُم الكتُبُ**

**كَذَلِك أهْلُ الكهْفِ فِي الكهْفِ سَبْعَةٌ ... كِرامٌ إذَا عُدُّوا وَثامِنُهُم كلْبُ**

**وَإنّي لَأعلِي كلْبَهُم عَنك رِفْعَةً ... لِأنّك ذُو ذَنْبٍ وَلَيسَ لَهُ ذَنْبُ**

**كأنّك إذْ مُلِّكتَنا لِشَقائِنا ... عَجُوزٌ عَلَيهَا التّاجُ وَالعِقْدُ و الإتْبُ**[2]

لا شك أن هذه الأبيات مستوحاة من التراث القرآني، وقد أدّاها بصورةٍ فكاهية ظريفة

---

١. السابق، ص١٠٢.

٢. الإتب: بردٌ يشقّ فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمّين.

زادت من جمال اسلوبها، فقد شبه خلفاء بني العباس بأهل الكهف، والمعتصم بالكلب المرافق لهم، ثمّ يعلي مكانة كلب الكهف البرئ من الذنوب على مكانة المعتصم ذي الذنوب الكثيرة، ثمّ يصور المعتصم في صورة عجوز تضع على رأسها التاج وتلبس في صدرها العقد وتلبس الثياب الجميلة ساخراً من الخليفة الذي احتلّ مكاناً لايستحقه وتصدّر منزلاً لا صلاحية ولا أهليّة له في تصدّره وتتزيّن هذه العجوز كما تتزيّن الفتيات لتخفى عيوبها. ولقد وفّقَ الشاعر في توظيفه لقصّة أهل الكهف واستطاع أن يوجد معها علاقة مباشرة أقامها على التعليل. ولم يكن استلهام التراث عند الشاعر صدفةً بل كان كما يرى أحد الباحثين هادفاً و«اتّساقاً مع أصحاب الكهف الذين كان ثامنهم كلبُهم، وهذا يعني أنّه انتخب من أقصوصة أهل الكهف ما يتناسب وهدفه».[١]

ب. أمّا الاتجاه الثاني من استدعاء التراث الديني الذي جاء في إطار القصة القرآنية، فنرى دعبلاً الخزاعي يستعين بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسها، فولّى هارباً إلى الباب، فقدّ قميصه من دُبر، وأراد من هذه القصّة الطعن في رجولة بني فضل. اسمعه يقول:

| | |
|---|---|
| إذَا رَأَيْـتَ بَنِـي وَهْـبٍ بِمَنْزِلـةٍ | لَمْ تَـدْرِ أَيُّهُـم الأُنْثَـى مِـنَ الـذَّكرِ |
| قَمِـيصُ أُنْثَـاهُمُ يَنْقَـدُّ مِـنْ قُبُـلِ | وَقُمْـصُ ذُكْـرَانِهِم تَنْقَـدُّ مِـنْ دُبُـرِ |
| مُحَنَّكُـونَ عَـنِ الفَحْشَـاءِ فِـي صِـغَرٍ | مُحَنَّكُـونَ عَـنِ الفَحْشَـاءِ فِـي كِبَـرِ[٢] |
| مُحَنَّكُـونَ وَلَـمْ تُقْطَـعْ تَمَـائِمُهُم | مَـعَ الفَـوَاطِمِ وَالـدَّايَاتِ بِـالكِبَرِ |

ولجأ دعبل هنا إلى نقل الأدوار ومبادلتها، ففي العادة الرجل هو الطالب، والمرأة هي المطلوب، ولذلك فإن قميص الأنثى ينقد من دبر نتيجة التمنّع والإدبار لكنَّ دعبلاً نقل الأدوار ليؤكد ما ذهب إليه في البيت الأول.

---

١. البستاني، محمود، ص٥٢٣.

٢. المحنّك: الذي أحكمته التجارب، وحنكته الأمور: جعلته حكيماً.التمائم: مفرده تميمة، وهي عوذة تعلق على الصغار مخافة العين.

والملاحظة الهامّة التي يجب أن نتنبه إليها هي أنّ الشاعر باستلهام واستدعاء هذه الشخصيات كموروث ديني، قصد ربطه بدلالاتٍ أساسية لا تخرج عن نطاق فكرة الصراع والثورة كما أنّه قصد الكشف عن حقائق ووقائع طالما استترت برداءٍ زائف، فأراد تعريتها وكشف وجهها الحقيقي بطريقةٍ تلميحية بعيداً عن المباشرة والتقريرية.

## الصورة الاستدلالية

من الأساليب الرائعة التي استخدمها دعبل في هجائه السياسي اقتران السخرية بالصور الاستدلالية، وإن لم يبلغ في قدرته وعمقه الدرجة التي عرفناها عند الكميت الأسدي شاعر الشيعة في العصر الأموي، وهذا لايعني أنّ الشاعر لم يستطع أن يرسم صورةً منطقية، بل السبب يعود إلى أنّ باب الهجاء أضيق قلّما يحتاج إلى الاستدلال المنطقي، وعلى الرغم من ذلك حاول دعبل أن يأتي أحياناً بأدلّة منطقية وإن وقف عند حدود ضيّقة. يقول في هجاء ابراهيم بن المهدى عمّ المأمون عندما اختاره أهل بغداد خليفة لهم في حين كان المأمون خليفة لهم في مدينة طوس:[1]

**نَعَرَ ابنُ شَكلَةَ بِالعِراقِ وَأهْلِهِ ... فَهَفَا إلَيهِ كُلُّ أطْلَسَ مَائقِ**

**إنْ كَانَ ابرَاهيمُ مُضْطَلِعاً بَهِا ... فلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لمُخَارِقِ**

**وَلْتَصْلُحنْ مِنْ بَعدِ ذَلك لِزَلزلٍ ... ولْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعدِهِ لِلْمَارِقِ**

**أنّى يَكونُ وَلَيسَ ذَاك بِكَائِنٍ ... يَرِثُ الخِلافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ**

يرى الشّاعر أنّ ابراهيم بن المهدي الذى دعا الخلافة لنفسه لايليق أن يكون خليفةً وهى لاتصلح له، لأنّه مغنٍّ لايعرف أصول الحكومة والإدارة، وهنا يستهزئ الشاعر بالسلطة العباسية الزمنية التي انحطّ شأنها إلى درجةٍ يدّعى فيها مغنٍّ الخلافة. ثمّ يفترض دعبل ويقول: إذا كانت الخلافة جديرةً بمغنٍّ، فأولى أن تكون الخلافة بعده لمخارق وزلزل، وهما مغنّيان مشهوران في العصر العباسي. وهذا استدلال منطقي إلّا أنّه أُقترن بالسخرية وزادت

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٤٤..

من شدّته ولذعته. وكذلك سخر من الخليفة الذي أصبحت الموسيقى مصحفه، ومركز اهتمامه الأوّل. وتشير أبيات دعبل إلى مفارقة واضحة في حياة الناس، فمنهم من يطرقُ الأبواب ليوفّر لقمة العيش لأطفاله، ومنهم من يعيش حياة اللهو والتّرف ولا يعرف شيئا عن غيره.

ولا بدّ أن نعترف أنّ الشاعر هنا غلبت على شعره المباشرة والخطابية، وهذا أدّى إلى أن تفقد قصيدته الكثير من جماليّتها، فلقد كان دعبل بصدد خطاب جماهيري يستعرض الظروف السياسية السائدة ويعالج واقعها عبر أبيات قصيدته. لذلك كان يهتم بالحدث أكثر من إهتمامه بالناحية الفنية كما إنه كان يحاول لفت أنظار الأُمة إلى حقيقة ما يدور في الساحة السياسية العباسية بأقصى درجات الوضوح. وأراد أكثر من ذلك أن يحاول الإحاطة بالموقف السياسي من جميع جوانبه على حساب المعيار الفني للقصيدة. وكان من مواقفه البطولية التي استفاد فيها من قوّته المنطقية والاستدلالية هجاؤه للرشيد حينما جاء المأمون بجثمان الإمام الرضا عليه السلام فدفنه بجوار أبيه، وقد سئل عن ذلك فقال: ليغفر الله لهارون بجواره للإمام الرضا فقال دعبل رادّاً عليه:[1]

**أَربِعْ بِطُوسٍ عَلى قَبْرِ الزَّكي بِها ... إنْ كُنْتَ تَرْبَعُ مِنْ دينٍ عَلى وَتَرٍ**[2]

**قَبْرانِ فِي طُوسَ خَيرُ النّاسِ كلِّهِم ... وَقَبْرُ شَرِّهِم هَذا مِنَ العِبَرِ**

**ما يَنْفَعُ الرّجْسَ مِنْ قُربِ الزكيِّ ولا ... عَلَى الزكيِّ بِقُربِ الرِّجْسِ مِن**

**هَيهَاتَ كُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِما كَسَبَتْ ... لَهُ يَداه فَخُذْ ما شِئتَ أوْ فَذَرِ**

يشير الشاعر في الأبيات السابقة إلى أنّ مدينة طوس تتضمّن قبرين اثنين هما قبر الإمام الرضا عليه السّلام وقبر هارون الرشيد، إلّا أنّ هناك مفارقة كبيرة بينهما إذ أحدهما قبر خير النّاس كلّهم والآخر لشرّ النّاسِ ثمّ يرى الشاعر هذا من عجائب الأمور ويقول: لاينفع الرشيد شيئاً جوار قبره إلى قبر الإمام الرضا، كما أنّه لايضرّ الإمام الرضا (ع) جوار قبره إلى قبر هارون

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٩٨.

٢. اربع: قِف. الوطر: الحاجة.

شيئاً. كما أبنّا آنفاً أنّ الشاعر قصد أن يقارن بين قبر الإمام الرضا عليه السلام وقبر هارون الرشيد، ونراه استخدم صوراً تضمينية واستدلالية في الحصول على غرضه الأصلي، أمّا الصورة التضمينية فتتمثّل في البيت الأخير: هيهات كلّ امرئ رهن بما كسبت له يداه حيث ضمّن الشاعر لفظاً ومعنى الآية القرآنية التالية (كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ)[1] وأمّا الصورة الاستدلالية فتتمثّل في قوله: ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ـ ولا على الزكيّ بقرب الرّجس من ضرر. ونرى أنّ الشاعر حصل على ما أراد تصويره ونجح لأنّ «نجاح هذه الصور يتجسّد في ركونها إلى الاستدلال القائم على أنّ تجاور قبرين يفترقان في هويّتهما إيجاباً وسلباً، لا يعني تماثلهما من جانب، كما لا ضرر على ذلك من جانب آخر، وهو استدلال فنّي ممتع كلّ الإمتاع دون أدنى شك، مادام الهدف هو إبراز الحقيقة التي تشير إلى الفارقية بين الإمام عليه السّلام وسلطان الدّنيا».[2]

وعكست في كتب التاريخ أصداء هذه الأبيات حيث ذكرت أنّ المأمون «ضرب بعمامته الأرض حين استمع إلى هذه الأبيات وفيها مقارنة بين الإمام الرضا عليه السلام ووالده الرّشيد وقال: صدقت. هذا يعنى أنّ الشاعر نجح فنيّاً من خلال الصورة الاستدلالية وسائر الصور التشبيهيّة والاستعارية والتضمينية التي وردت في هذه الأبيات، وهو أمر يعود من جانب إلى الصدق الموضوعي في هذه الصّور ثمّ الصدق الفنّي من جانب آخر، حيث يضطرّ حتّى العدوّ إلى التسليم بالحقيقة التي أفرزها التعبير الفني لدى هذا الشاعر».[3]

## الطابع القصصي

يضيف دعبل الخزاعی في هجائه السياسي أسلوباً جديداً إلى صنعته الفنيّة يدخل في إطار قصصيٍّ وفي هذا الأسلوب «يتولى الشاعر نقل ما يجري بمفرده، ولا تخرج لغة الخطاب من

---

١. الطور، الآية: ٢١.

٢. البستاني، محمود، ص٥٢٤.

٣. السابق، ص٥٢٥.

زمامه، وهذا أسلوب تسجيلي تصويري».[١] اسمعه يقول في هجاء ابن عمران:[٢]

| | |
|---|---|
| أَتَيْـــتُ ابْــنَ عِمْــرَانَ فِـــي حَاجَــةٍ | هُوَيِّنَـــةِ الخَطْـــبِ فَالتَاثَهــا |
| تَظَــلُّ جِيَــادِي عَلَــى بَابِــهِ | تُـــرُوثُ وَتَأْكُـــلُ أَرْوَاثَهــا |
| غَــوَارِثَ تَشْــكُو إِلَـــى الخَــلَا | أَطَــالَ ابْــنُ عِمْــرَانَ إِغْرَاثَهــا |

ويلاحق دعبل في سخريته ابن عمران ولا يترك أملاً يتحقق عنده ، وإن كان سهلاً هيّناً، فمن يقصده في أمرٍ ما، يظل واقفاً على بابه زمناً طويلاً، يعاني من شدة الجوع والعطش. وأشد من هذا معاناة جواده الذي يضطر لأكل روثه طلباً للحياة بعد أن حُرِم الطعام. ونرى الشاعر هنا يستخدم بعض عناصر فنّ القصّة في شعره مثل الحدث والشخصيّات وترتيب المشاهد المتوالية حتى يشكل صورة تدلّ على حساسية فنيّة ظريفة إذ يفضل الشاعر العناصر المكوّنة للصّورة بعضها من بعض آخر، وينسّق بين الإطارات حتى تتجلّى مجموعة الصور في النّهاية كأنّها لوحة مركبة من صور مرتبةٍ منطقيّاً تعتمد اللاحقة فيها على السابقة.

---

١. عويضة، ص١٥٨.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٥٦.

# الفصل الخامس : الهجاء السياسي في شعر ديك الجن الحُمصي

## عبد السلام بن رغبان

ليس عبدالسّلام بن رغبان من شعراء الأعاجم كما ظنّ بعض الباحثين[١] بل ينتسب إلى قبيلة تميم و «كان جدّه تميم ممن أنعم الله ـ عزّ وجلّ ـ عليه بالإسلام من أهل مؤتة على يدىْ حبيب بن مسلمة الفِهريّ».[٢] وتميم أوّل من أسلم من أجداده على يد حبيب بن مسلمة الفهريّ وأخذ محارباً وكان يفخر على العرب.[٣]

ينتمي الشاعر إلى أسرة معروفة برز منها رجال كثيرون استطاعوا أن يتولّوا منصب الكتابة فـ «كان حبيب بن عبدالله بن رغبان كاتباً في أيّام الخليفة المنصور، وكان يتقلّد له الإعطاء، وإليه ينسب مسجد ابن رغبان في مدينة السّلام».[٤] ولسنا نعرف عن أسرة الشاعر شيئاً كثيراً، فكلّ ما بأيدينا أنّه تزوّج وأنجب وكان يكنّى أبا محمد ثمّ فُجع بابنه رغبان فبكاه طويلاً.[٥]

## حياة الشاعر

ولد عبد السّلام أبو محمد بن رَغبان بنِ عبد السلام بنِ حبيب بن عبدالله بنّ رغبان بن يزيد بن تميم بن مجد[٦] الكلبيّ الحمصيّ[٧] سنة ١٦١ه في مدينة حمص التي ظلّت مدى حياته

---

١. انظر: الشكعة، ص٧.

٢. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ١٤ ص٥٢.

٣. انظر: ابن خلكان، جـ ٣ ص١٨٤.

٤. الجهشياري، ص١٠٢.

٥. انظر: ابن خلكان، جـ ٤ ص١٨٤-١٨٧.

٦. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ١٤ ص٥٢؛ والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، جـ ٣ ص٩٨.

٧. الأمين، جـ ٨ ص١٢.

تحت مظلّة الحكم العباسي وعاش فيها مايقرب خمسة وسبعين عاماً.

عبد السَّلام بن رغبان الحمصي شاعر غلب عليه لقبه ديك الجنِّ أكثر من اسمه ونحن سنتحدث عن لقبه وأسباب تسميته بذلك. عاش كما ذكرنا في الفترة مابين ١٦١ه إلى ٢٣٦ه فيكون بذلك معاصراً لخمسة من أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهم: الإمام الكاظم والإمام الرِّضا والإمام الجواد والإمام الهادي والإمام الحسن العسكريّ عليهم السّلام جميعاً. لم تذكر المصادر التاريخية والأدبية أنَّه التقى بواحد منهم، ومع ذلك فإنّ أطول قصائده في أهل البيت (ع) مادحاً وراثياً، وهي قصائد ينوح بها الشيعة وقد ركَّز فيها على مكانتهم في الإسلام ومناقبهم وحقَّهم في الخلافة، وعلى المعتقدات الشِّيعيَّة ـ على حدِّ تعبير أبي الفرج الأصفهاني ـ إلاَّ أنَّ الزَّمن ضيَّع من قصائده ما ضيَّع، وانفلتتْ من قبضته بضع قصائد.

عُرف عبدالسّلام بن رغبان في الأوساط الأدبية وبين الباحثين بلقبه ديك الجنّ وقلّما نرى مصدراً من المصادر الأدبية والتاريخية يتحدّث عنه باسمه إذ غلب لقبه على اسمه. أوردت هذه المصادر في اشتهاره بهذا اللّقب قصصاً أكثرها إلى الأسطورة أقرب منها إلى الحقيقية لأنّنا بعد دراسة هذه القصص لن نجد فيها أدلّة مقنعة. أهمّ هذه القصص ما يلي:

**القصّة الأولى:** ما ذكره صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى من أنّ «ديك الجنّ دويّبة توجد في البساتين، إذا أُلقيت في خمرٍ عتيقٍ حتّى تموت، وتترك في محارة، ويُسَدّ رأسها وتُدفَن في وسط الدّار، فإنّه لايرى فيها شيٌ من الأرَضة».[١] يعتقد الدّارس أنّ ما ذكره الدّميري لايمتّ بصلةٍ إلى تلقيبه بديك الجنّ لأنّه إلى الإيضاح والشّرح أقرب منه إلى التعليل.

**القصة الثّانية:** قد جعلت من تلوّن عينى الشاعر ذريعة لتلقيبه بديك الجنّ. جاء في تاج العروس «والدّيك أيضاً الرّبيعُ في كلامهم، كأنّه لتلوّن نباته، فيكون على التّشبيه بالدّيك.

---

١. الدميري، كمال الدين. حياة الحيوان الكبرى، الطبعة ٤، انتشارات ناصر خسرو، تهران، ١٣٧٣ه.ش، جـ ١ ص٤٨٧.

وديك الجنّ لقب عبدالسّلام بن رغبان الحمصي الشاعر المشهور». [1] ونرى نفس التعليل في كتاب تاريخ دمشق حيث جاء فيه: «وكانت عيناه خضراوين ولذلك سمّي ديك الجنّ». [2] ونرى صاحب الأعلام يقول وكأنّه قبل هذا الوجه من التسمية: «سمِّيَ بديك الجنّ لأنّ عينيه كانتا خضراوين». [3] ونحن نميل إلى هذه التسمية ونعلّل ما نذهب إليه بما كان شائعاً في الأدب العربي عبر عصوره المختلفة من تلقيب الشعراء والأدباء لميزة جسديّة كانت فيهم.

**القصة الثالثة:** وتبدو أضعف القصص والأسباب، علّلت تسميته لذكره الدّيك في شعره. جاء في كتاب سرور النّفس: «عبدالسلام بن رغبان ديك الجن يرثي ديكاً لأبي عمرو عُمير بن جعفر، كان له عنده مدّة، فذبحه وعمل عليه دعوةً، وبها لقب ديك الجنّ». [4] ثمّ يذكر الأبيات ومنها:

**دَعانَا أبُوعَمرٍو عُمَيرُ بنُ جَعْفَرِ ... عَلَى لَحْمِ دِيك دَعْوَةً بَعْدَ مَوْعِدِ**

**فَقَدَّمَ دِيكاً عُدْمُلياً مُلَدَّحَا ... مُبَرْنَسَ أثيابٍ مُؤَذِّنَ مَسْجِدِ**

هذا الوجه لايستطيع باعتقادنا أن يكون مقبولاً، لأنّ ذكر الحيوانات والطيور أمر تقليديّ عند شعراء العرب بحيث يصعب علينا ألّا نعثر على ديوانٍ في العصر العباسي لم يرد فيه ذكر للماشية والطّيور.

**القصة الرابعة:** ترى جنون الشاعر سبباً لتلقيبه بهذا وهذا الوجه ورد في كتاب نفحة اليمن وهو باعتقادنا أتفه الأسباب. جاء في هذا الكتاب أنّ هارون الرشيد لقيَ غلاماً ذميماً ضعيف البدن يحفظ ثياب رفاقه وينشد شعراً ومنه:

---

١. تاج العروس، مادة ديك.

٢. الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السّلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، جـ ٤٢ ص٢٣٩.

٣. الزركلي، خيرالدين، الأعلام، الطبعة ٤، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، جـ ص١٢٨.

٤. التيفاشي، أحمد بن يوسف. سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، طبع المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص١١٦.

قُولِي لِطَيْفِكِ يَنْثَنِي عَنْ مُقْلَتِي عِنْدَ الهُجُوعِ

ويذكر أنّ الرشيد أعجبه الغلام وشعره، وسأله تغيير القافية لأنّه شك أن يكون الشّعر له فلمّا غيّرها مرّتين سأله عن اسمه، فحمل ثياب رفاقه وصاح: قاق قاق «فعلم الرشيد أنّه ديك الجنّ».[١] ونرى جامع ديوانه يرى أنّ هذه الرواية من صنع المتأخرين لأنّه لم يروِ أحدٌ خبراً عن ضعف جسم ديك الجنّ أو جنونه، وأنّه لم يدخل بغداد قطّ.[٢]

وفي رأينا أنّ السبب الثاني يمكن أن يكون أصحَ الآراء وأرجحها في تسمية الشاعر بديك الجنّ لأنّنا نتذكر مثل هذه التسمية للشعراء في العصور السابقة للشاعر.

وأمّا بالنسبة إلى سيرة الشاعر فيقول صاحب الأغاني إنّ ديك الجن قتل غلامه وجاريته لأنّ الغلام خانَهُ في الجارية.[٣] ويقول صاحب كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشاق في رواية تختلف عمّا ذكره صاحب الأغاني إنّ ديك الجن «أحبّ غلاماً وجارية واشتدّ بهما كلفه وهام في حبّهما وكان يضع الجارية عن يمينه والغلام عن يساره ويشرب الخمر ويلثمهما».[٤] ونحن نرى كثيراً من المصادر التاريخية والأدبية للقدامى والمعاصرين تتضارب رواياتهم حول سيرة الشاعر.

نحن لا نريد هنا أن نقول شيئاً على حساب العصبية وننفي كلّ ما قاله اولئك الباحثون عن سيرة الشاعر، بل نقول إنّ تناقض الروايات فيما يتعلق بسيرة ديك الجنّ يدلّ على عدم صحة الكثير من تلك الروايات وابتعادها من الواقعية. وبرأينا أنّه هناك أسباب متعددة يمكن أن تساعدنا على أن نبرّر الشاعر من بعض تلك التّهم الموجّهة إليه:

**الأول:** إنّ ديك الجنّ كان شاعر أهل البيت عليهم السّلام وله قصائد عديدة في ديوانه

---

١. الشيرواني، أحمد بن محمد. نفحة اليمن، الناشر: حسين شرف و محمد أمين الخانجي، طبع المطبعة الشرقية، ١٣٢٤هـ، ص٣٤.

٢. انظر: الحجي، ص٨.

٣. انظر: أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ١٤ ص٥٧.

٤. أنطاكي، داود. تزيين الأسواق في أخبار العشاق، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٠٢.

مدحهم ورثاهم وهجا أعدائهم ودافع عن حقوقهم، فلذلك كان من الطبيعي أن يدسّ أعداؤه عليه الدسائس ويحوكوا حوله قصصاً بعيدة عن روح الشاعر الدينية.

**الثاني:** كان ديك الجن على مطارداً من قبل السلطات العباسية، ولم تكن جريمته شيئاً إلّا ولائه لآل البيت عليهم السّلام وحبّه لهم، كما أنّه كان يبغض بني العباس والأمويين. وما نذكره من الأبيات ربّما تكون أكبر دليل على ما ندّعي:[1]

**جَاؤُوا بِرَأسِك يَا بْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ... مُتَرَمِّلاً بِدِمائِهِ تَزمِيلا**
**وَكأنَّما بِك يَا بْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ... قَتَلُوا جِهَاراً عَامِدِينَ رَسُولا**
**قَتَلُوك عَطْشَاناً وَلَمَّا يَرْقُبُوا ... فِي قَتْلِك التَّنْزِيلَ وَالتَّأوِيلا**
**وَيُكبِّرُونَ بِأنْ قُتِلْتَ وَإنَّمَا ... قَتَلُوا بِك التَّكبِيرَ وَالتَّهْلِيلا**

والقصيدة التي يقول فيها:[2]

**أصْبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ ... وَأبِيتُ مُنْطَوِيَاً عَلَى الجَمْرِ**
**إنْ بُحْتُ يَوْمَاً طُلَّ فِيهِ دَمِي ... وَلَئِنْ كتَمْتُ يَضِقْ بِهِ صَدْرِي**
**مِمَا جَنَاهُ عَلَى أبِي حَسَنٍ ... عُمَرٌ وَصَاحِبُهُ أبُوبَكرِ**
**طَلَبَ النَّبِيُّ صَحِيفَةً لَهُم ... يُمْلِي لِيَأمَنَهُم مِنَ الغَدْرِ**
**فَأبَوْا عَلَيهِ وَقَالَ قَائِلُهُم ... قُوُمُوا بِنَا قَدْ فَاهَ بِالهُجْرِ**
**وَمَضَوْا إلَى عَقْدِ الخِلافِ وَمَا ... حَضَرُوهُ إلا دَاخِلَ القَبْرِ**
**جَعَلُوك رَابِعَهُم أبَا حَسَنٍ ... ظَلَمُوا وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالوَتْرِ**
**وَعَلَى الخِلافَةِ سَابَقُوك وَمَا ... سَبَقُوك فِي أحِدٍ وَلا بَدْرِ**
**عَمَّتْ مُصِيبَتُك الهُدَى فَغَدا الـ ... إسْلامُ لا يَدْرِي بِمَا يَجرِي**
**وَتَشَعَّبَتْ طُرُقُ الضَّلالِ فَلَوْ ... لاكُمْ مَشَوْا بِالشِّرْك وَالكفْرِ**

---

١. ديك الجن، الديوان، ص١٩١.

٢. السابق، ص١٤٦.

| | |
|---|---|
| **أنــــتُم أدِلّاءُ الهُــــدَى وَبِكــــم** | **قَــدْ سِــيرَ فِــي بَــرٍّ وَفِــي بَحْــرِ** |
| **وَدَعَــــائِمُ التَّقْــــوَى وَقَادَتُهَــــا** | **لِلْفَــوْزِ يَــوْمَ الحَشْــرِ وَالنَّشْــرِ** |
| **وَالعَــارِفُو سِــيمَا الوُجُــوهِ عَلَــى الْــ** | **أعْــرَافِ مَعْرِفَــةً بِــلا نُكْــرِ** |
| **وَمَقَاسِــمُ النِّيــرَانِ أنــتَ لِمَــنْ** | **أخَــذُوا العُهُــودَ بِعَــالَمِ الــذَّرِّ** |
| **فَتَقُــولُ يَــا نَــارُ أتْرُكــي لِــي ذَا** | **وَلِــذَا خُــذِي فَتَــدِينَ لِلْأمْــرِ** |

تطرّق الشاعر في القصيدة التي ذكرناها إلى الخلافة ومغتصبيها وهجاهم بلغة لاذعة، وليس غريباً أن تُطارده السلطة العباسية من أجلها وليس غريباً أن تنسب إليه قصص غرامية خارجة عن إطار العفة والكرامة الإنسانية. وليس كلّ هذا باعتقادنا إلّا لتشويه سمعة هذا الشاعر المحبّ لآل البيت عليهم السّلام من قبل الموالين للسلطة العباسية وغيرها.

**الثالث:** إذا كان الشاعر تحدّث عن الخمر ووصف مجالس الخمر فهل يدّل هذا على انغماسه في اللهو والمجون؟ كثيراً ما نرى مصادر تاريخية تشير إلى انغماس خلفاء بني العباس على الخمر والمجون فأين كان هؤلاء المؤرخون الذين اتّهموا ديك الجنّ بذاك؟ نقول إنّ هذا لا يدلّ فعلاً على أنّه كان يتعاطى شرب الخمر، وهذا شئ نراه عند بعض الشعراء الجاهليين. نحن نرى ـ والله أعلم ـ أنّ الشاعر أراد أن يثبت مقدرته الفنية في هذا الغرض الشعري، هذا من جانب ومن جانب آخر ربّما تناول ديك الجن الأوضاع الاجتماعية في المجتمع العباسي وما انتشر فيه من مجون ولهو وشؤون لا أخلاقية، وإلّا فبعيد من شاعرٍ شيعيَ مدح آل البيت ورثاهم أن يميل إلى المنكرات وما نهى عنه الله ورسوله، لأنّ ذلك يتعارض مع رسالية الشعر الشيعي.

## وفاة الشاعر

توفي ديك الجنّ سنة ٢٣٦ه في مسقط رأسه مدينة حمص أيّام خلافة المتوكل العباسي في حين عاش قرابة خمسة وسبعين عاماً. «ولم يذكره أحد من معاصريه بكلمة رثاء».[1] نحن

---

١. نورالدين، ص ٤١.

نرى أنّ السبب في ذلك يعود إلى الاختناق السائد في العصر العباسي وخاصة عصر المتوكل الذي عرف بتشدّده حيال الشيعة وحرث مدفن الإمام الحسين عليه السّلام، فلذلك لم يجرأ أحد من الشعراء المعاصرين له أن يرثيه على الرغم من أنّه كان استاذاً لبعض معاصريه. ونرى صاحب وفيات الأعيان قد تشكك في سنة وفاته قائلاً إنّه «توفّيَ في أيّام المتوكل سنة خمس أو ستّ وثلاثين ومأتين».[١]

## بيئة الشاعر

ولمّا تحوّلت عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق الموالية للأمويين إلى بغداد الموالية للعباسيين أصبحت مدينة حمص، مسقط رأس الشاعر مركزاً من مراكز المعارضة السياسية للسلطة العباسية، وكان هذا الأمر قد حدث في أكثر مدن الشام التى أصابها الضُّر بسبب انتقال عاصمة الخلافة عنها إلى بغداد، فأصبحت مدينة مضطربة دائمة الرَفض دائمة الثورة. إنّ كتب التاريخ مليئة بالثّورات التي أجّج نارها أهل حمص في وجه ولاة العباسيين والتي كانت تشهد دائماً ثورات مسلّحة ضدّ الحكومة الفاسدة. لقد عايش ديك الجن بعض هذه الثورات الدّامية فتركت في نفسه ما تركت من آثارها فكان من أكثر أبناء حمص عنفاً وانفجاراً.[٢]

عاش ديك الجن في العصر العباسي الأول الممتدّ من سنة ١٣٢ه إبّان خلافه أبي العباس السفاح أول خليفة عباسي إلى سنة ٢٣٢ه بدء خلافة المتوكل بن المعتصم. وإذا لاحظنا تاريخ ولادة الشاعر وهى سنة ١٦١ه فإنّه قد شاهد خلافة عددٍ من خلفاء بني العباس.

شهد عصر ديك الجنّ تحولات هامّة على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية، فالخلافة في غير أيدي أصحابها الحقيقيين وهؤلاء يضطهدون ويقتلون وهم أصحاب الحق فيها. والشعراء في الغالب يمدحون ويتزلّفون مرتزقين من بلاط السّلطة أو من ولاة الدولة. وقد أصبحت الاتهامات بالزندقة ذريعة بأيدي السلطات العباسية للبطش بالخصوم

---

١. ابن خلكان، ج ٣ ص١٨٥.

٢. انظر: الحجي، ص٢٥.

والمعارضين وإسكاتهم.

يتميز عصر ديك الجنّ بسيطرة العباسيين على مقاليد الخلافة وإبعاد آل البيت عليهم السّلام عن حقّهم نهائياً، وانتقال العاصمة من دمشق الى العراق، كما أنّه يتميز بالتطور الإجتماعي إذ انتقل الناس من حياة البداوة إلى الحضارة، فامتزجوا بالشعوب غير العربية ثقافة وزواجاً، فتأثروا في جانب كبير من حياتهم بتقاليدهم وسننهم.

وكما شهد المجتمع تقدماً في العلوم والآداب، كذلك شهد تطوراً بارزاً في الحياة، فانحرف كثير من أفراده وعاشوا عيشة مجون وخلاعة وانعكست أصداء ذلك على الأدب عامة، والشعر خاصة، فاختلف عمّا كان عليه في العصور السابقة، سواء أكان في طريقة النظم أم في ابتكار المعاني أم في بيان موضوعات جديدة إذ نبغ فيه شعراء مجددون كبار أمثال أبى نواس وديك الجن وأبي تمام.

## عقيدة الشاعر

يتّضح من دراسة ديوان الشاعر أنّه وعى أحداث التّاريخ وقرأه قراءةً متأنيّةً، ووقف طويلاً عند تاريخ الدّعوة الإسلاميّة عامّةً وتاريخ الشيعة خاصةً، وبعيدٌ أن يجهل هذه المادة التي كان لها رواج كبير في عصره. وقف الشاعر وقوفاً أطول عند آل البيت ـ وهو شيعيّ المذهب ـ فاستوعب أخبارهم وصراعهم الطويل من أجل حقّهم المغتصب، كما أنّه وعى مصارعهم التي تركت في قلبه حزناً وشجوناً.

يقول أبوالفرج في ترجمته: «وكان يتشيّع تشيّعاً حسناً، وله مراثٍ كثيرة في الحسين بن عليّ عليهما السّلام، منها قوله:

**يَا عَينُ لا لِلْغَضَا وَلا الكُتُبِ ... بُكا الرَّزَايَا سِوَى بُكا الطَّرَبِ**

وهى مشهورة عند الخاصّ والعام يناح بها، وله عدّة أشعار في هذا المعنى».[1]

وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الباحثين يصفه بالمجون ومخالطة أهل الخلاعة، ويرى

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٤ ص ٥١.

أنّه على رغم مجونه وخلاعته وانحرافه عن الجادة كان متشيعاً مستمسكاً بحبّ آل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.[1]

ويرى آخرون أنّ ديك الجنّ رغم تشيّعه لم يكن إنساناً متديّناً بل كان هناك انفصال تامّ بين انتمائه السياسي ومواقفه الدينية.[2] يستدلّ هؤلاء بالأبيات التالية:[3]

**أَنَـــا مَـــالي وَلِلصِّـــيامِ وَقَـــدْ حـــا ... نَ عَلَـــى المُسْـــلِمينَ شَـــهْرُ الصِّـــيامِ**

**تَارِكـــاً لِلجِهـــادِ وَالحَـــجِّ وَالعُمْــــ ... ـــرَةِ وَالحِـــلِّ رَاغِبـــاً فِـــي الحَـــرَامِ**

**وَاقِفَـــاً بَـــيْنَ فَتْكَـــةٍ وَمُجُـــونٍ ... رَاقِصـــاً فِـــي الصَّـــلاةِ خَلْـــفَ الإمـــامِ**

**أَنَـــا لاأَطْلُـــبُ الحَـــلالَ لِأَنِّـــي ... قَـــدْ وَجَـــدْتُ الحَـــرَامَ خَيْـــرَ طَعـــامِ**

نقول: إنّ منشأ هذه الآراء يعود إلى ما رواه صاحب الأغاني عن لسان ابن أخي ديك الجنّ حيث قال: «كان عمّي خليعاً ماجناً معتكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورث عن آبائه».[4] فصارت هذه الرواية ذريعة بأيدي أعداء الشيعة للهجوم على الشاعر والتشكيك في دينه. إنّنا إذا دقّقنا في الأبيات السالفة والظروف الدينية السائدة في عصر الشاعر ينكشف لنا أنّها كانت نابعة من الشعور بالتّحدي والتصدّي للوعاظ المتزلّفين الذين كانوا كاذبين في شؤونهم الدينية وبالتالي كان هجاءً لمعتقداتهم، وإلّا يستبعد من إنسان كديك الجنّ الذي أنشد قصائد كثيرة في رثاء أهل البيت وهجاء أعدائهم أن يكون رقيق الدّين منكراً الحلال والفرائض الدينية التي أوجبها الله على عباده. نحن لا نتفق مع الدكتور شوقي ضيف[5] حين نسبه إلى غلاة الشيعة لقوله:

**نَحْـــنُ نُعَزِّيـــكَ وَمِنْـــكَ الهُـــدَى ... مُسْـــتَخْرجٌ وَالنّـــورُ مســـتَقْبَلُ**

---

١. انظر: الشكعة، ص٥٧٨.

٢. انظر: الحجّي، ص٤١.

٣. ديك الجن، الديوان، ص٢٣٣.

٤. أبوالفرج الأصفهاني، *الأغاني*، جـ ١٤ صـ٥٣.

٥. انظر: ضيف، شوقي، العصرالعباسي الأول، ص ٣٢٥.

**نَقُولُ بِالعَقْلِ وَأَنْتَ الَّذي نَأوي إليهِ وَبِهِ نَعْقِلُ**

**وَأَنْتَ عَلَّامُ غُيُوبِ الثَّنَا يَوماً إذا نَسْأَلُ أَوْ نُسْأَلُ**

**نَحنُ فِداءُ لَكَ مِنْ أُمَّةٍ وَالأرضُ وَالآخِرُ وَالأَوَّلُ**

كان ديك الجنّ ممّن رفع في عصره علم التشيّع عالياً خفّاقاً وتغنّي بآل البيت، وفي عصره نبغ ثلاثة من الشعراء في بلاد الشام أعني العتابيّ، والبحتري وأبا تمّام، وقد اضاف إلى العربية ما يستحق أن نقف عنده وقفة إعجاب وتأمل ودراسة.

## مواقف الشاعر السياسية

كان ديك الجن يعارض السلطة العباسية الزمنية، وكان يراهم منحرفين عن جادّة الصواب. هؤلاء جاروا على الشعب بحيث أصبح الشاعر يتمنّى الإنصاف والعدالة، فيقول: [1]

**نَزَلْنا عَلَى حُكْمِ الزَّمانِ وَأمْرِهِ وَهَلْ يَقْبَلُ النَّصْفَ الأَلَدُّ المُشاغِبُ**

يتّضح موقف الشاعر إزاء السلطة العباسية عندما اعتبرهم مشاغبين داسوا العدالة بأرجلهم. يعتقد الشاعر أنّهم لم يتولّوا السلطة لكي يستتبّ الأمن للشعب بل اتخذوها أداةً للجور والطغيان. عاش ديك الجنّ في عصرٍ مضطرب من الناحية السياسية والفكرية، وساد في المسرح السياسي لتلك الفترة تيّاران سياسيان رئيسان:

«الأول: تيّار السلطة الحاكمة الممثّل ببني العباس. والثّاني: تيّار المعارضة الذي تشعّب إلى تيّارات متعددة، وكان تيّار الشيعة المناصرين لآل البيت العلويّ الهاشميّ وحقّهم في الخلافة أشدّها بروزاً، وكان ديك الجن يقف في الجانب المعارض لبني العباس الذين قوّضوا سلطان الدولة الأمويّة، باسم بني هاشم ثمّ دافعوهم عن الخلافة، واستأثروا بها، وكان ديك الجنّ شيعيّاً مناصراً لآل البيت وحقّهم المغتصب في الخلافة».[2] وقد عدّه صاحب كتاب الفرق الإسلامية فكراً وشعراً أنّ ديك الجنّ من «عمالقة شعراء الشيعة ومن أبرز من دافع عن مبادئ

---

١. ديك الجن، الديوان، ص٤٥.

٢. الحجّي، ص٣٩.

الشيعة ومعتقداتهم وقارع بلسانه المذاهب الأخرى».[1]

كان ديك الجنّ أكبر شاعر شيعيّ في مدينة حمص فكان «واحداً من شعرائهم المخلصين وقد قرأ تاريخ الدولة الإسلامية، ووعاه جيّداً وتأثر بعلم الكلام كغيره من شعراء السياسة، فعرض الحقائق التاريخية بصبغةٍ منطقيّة تثبت حقّ آل البيت في الخلافة مع إبراز مواقف الإمام عليّ في نصرة الإسلام وإبراز مصارع آل البيت وتاريخهم الدّامي».[2]

ولمّا كان الشاعر يرى الفساد السياسي والاجتماعي في العصر العباسي ناتجاً عن الانحراف عن وصيّة الرسول الأعظم دفعه إخلاصه إلى تجريح الصّحابة والتهجّم على مواقفهم من الإمام عليّ عليه السّلام، وكان أبوبكر وعمر أكثرهم تعرّضاً لهجماته، لأنّهما سبقا عليّاً في الخلافة، وهو القائل:[3]

**مـا كـانَ تَـيمٌ لِهاشِـمٍ بَـأخٍ وَلا عَـدِيٌّ لِأحْمَـدٍ بِـأبِ**

**قَامـا بِـدَعْوَى فِـي الظُّلْـمِ غَالِبَـةٍ وَحُجَّـةٍ جَزْلَـةٍ مِـنَ الكَـذِبِ**

«وانسجاماً مع إخلاصه لمذهبه السياسي انقطع لأحمدَ وجعفرٍ[4]، ابني عليٍّ الهاشمي، وخصّهما بمديحه وصداقته الحميمة، وما كان يرى فيهما ممدوحين صديقين، بل كان يراهما إمامين من أئمة الهدى. ولقد بكى إمامه وصديقه جعفرَ بن عليّ بكاءً حارّاً حينما تخطّفته يد الموت في واحدةٍ من عيون قصائد الرثاء حرارةً وصدقاً».[5]

بواعث الهجاء السياسي في شعر ديك الجن

هناك بواعث مختلفة عند الشعراء تدفعهم إلى هجو الوضع السائد سياسياً واجتماعيّاً ودينيّاً وتؤثر في أساليب شعرهم. فديك الجنّ بوصفه شاعراً شيعيّاً عايش أحداثاً مؤلمة كثيرة مثل

---

١. أبوحاتم، نبيل خليل، الفرق الإسلامية فكراً وشعراً، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص١٤٠.

٢. الحجي، ص٣٩.

٣. ديك الجن، الديوان، ص٨٧.

٤. أحمد وجعفر الهاشميان: من وجوه بني هاشم في العصر العباسي وكانت إقامتهما في سَلَمية.

٥. الحجي، ص٤٠.

مصير الثورات الشيعيّة واستشهاد أئمة الشيعة والظروف الاجتماعية الصعبة. يبدو من خلال دراسة شعره أنّ أسباباً عديدة دفع الشاعر إلى هجو السلطات المعارضة للشيعة ونقدها، ولعلّ أهمّها ما يلي:

## إباؤه وعزّة نفسه

كان ديك الجنّ من شعراء الشيعة الكبار فلم يفارق مسقط رأسه ولم يرحل إلى بلاط الخلفاء العباسيين ولم يمدح أحداً منهم على الرغم من أنّه عاش وعاصر عدداً من خلفائهم «ومعنى ذلك أنّه لم يكن متكسباً في شعره فانفرد عن شعراء عصره وتعفّف عن قصد الملوك».[١] اسمعه يقول:[٢]

**لا تَقِفْ لِلزَّمانِ فِي مَنْزِلِ الضَّيْـ ... ـمِ وَلا تَسْتَكِنْ لِرِقَّةِ حالِ**

**وَإِنْ خِفْتَ أَنْ يُرَاهِقَكَ العُدْمُ ... فَعُذْ بِالمُثَقَّفاتِ العَوالِي**

**وَأَهِنْ نَفْسَكَ الكَرِيمَةَ لِلْمَوْتِ ... وَقَحِّمْ بِها عَلَى الأَهْوَالِ**

**فَلَعَمْرِي لَلْمَوْتُ أَزْيَنُ لِلْحَيِّ ... مِنَ الضُّرِّ ضَارِعاً لِلرِّجالِ**

**أيُّ مَاءٍ يَدُورُ فِي وَجْهِكَ الحُرِّ ... إِذَا مَا امْتَهَنْتَهُ بِالسُّؤالِ**

فتدلّ هذه الأبيات على أنّنا أمام شاعر لديه شعور حادّ بالذّات، كما أنّنا نرى مشاهد دقيقة في رسم شخصيته وإظهار اعتزازه بها محدداً بذلك موقفه من الحياة وما حوله. هذا من جانب ومن جانب آخر تفصح الأبيات المذكورة عن التيار القائم في ذاته هذا التيبار القائم على احترام النفس واعتبار الذات والشعور بالقيمة الانسانية وهو تيّارٌ غلب على فكره ووجدانه.

ظلّ ديك الجنّ في عسر مادّي لم تقبل نفسه المساعدة من أحد، فرفض الأموال والجاه، ولعلّ الأبيات السابقة خير دليل على ما ذهبنا إليه. وله أبيات أخرى تثبت ما ادّعيناه منها:[٣]

---

١. نورالدين، ص٤٢.

٢. ديک الجن، الديوان، ص ٢٠٧.

٣. السابق، ص٢٢٩.

**إنَّ العُـلا شِـيَمِي وَالبـأسُ مِـنْ نِقَمِـي وَالمَجْـدُ خِلْـطُ دَمِـي وَالصِّـدْقُ حَشْـوُ فَمِـي**

## ولاؤه لأهل البيت

كان تشيّع ديك الجنّ لآل على بن أبي طالب (ع) أكبر باعث دفعه إلى الهجو السياسي إذكان يرى أنّ آل البيت أحق بالخلافة، وقد صرح برأيه هذا في مواضع كثيرة من شعره، ونرجّح أن يكون هذا الأمر السبب الرئيس الذي أثار عليه سخط السلطة العباسية، أو على الأقل جعله مهملاً مقيماً في مدينته حمص وسلمية.

إنّ من يقرأ ديوان ديك الجن الحمصي يجده وثيق الصلة بآل البيت عليهم السّلام.كان محبّاً لأهل البيت عليه السّلام، وهذا يعني أنّ الشاعر استوعب التعاليم الدينية وما فيها من معانٍ إنسانية سامية تربّي المتلقي وترشده إلى خير سبيل. إنّ الشعر المتبقي منه في ديوانه يعكس بوضوح هذا الولاء والمحبّة لينابيع العلم والمعرفة، والإنسان إذا بلغ هذه الدرجة الرفيعة وإذا بلغت محبّة أهل البيت شغاف قلبه فطبيعيّ أن يرفض الظلم والجور وأن يثور في نفسه نزعة التمرّد والمقاومة أمام الطواغيت. انظر إلى البيتين التاليين اللذين يرى فيهما الشاعر أنّ آل البيت خير المخلوقات:

**وَاللـــهِ رَبِّ المُصْـــطَفَى قَسَـــمَاً بَـرَّاً وَحَـقِّ مِنَـىً وَالبَيْـتِ ذِي الحُجُـبِ**

**وَالخَمْسَـةِ الغُـرِّ أَصْـحَابِ الكسـاءِ مَعَـاً خَيْـرِ البَرِيَّـةِ مِـنْ عُجْـمٍ وَمِـنْ عَـرَبِ**

فكان طبيعيّاً أن يكون صاحب هذه الأبيات معارضاً للسلطة الحاكمة وأن يناقش مشروعية حكومتهم الزائفة.

## فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية

كانت الحياة السياسية والاجتماعية في عهد ديك الجنّ تعجّ بالفوضى والاضطراب، وبالصراع والمنازعات وبالكيد والفساد، وبالظلم والجور والجهل والاستبداد، فكانت أحوال النّاس ومقدراتهم بأيدي من لايرحمون وأموالهم نهباً بأيدي الساسة المتجبّرين. ربّما الأبيات

التالية تعكس هذا الأمر في شعره بصورةٍ واضحة:[١]

**الْكلْــبُ فَــوقَ أنــاسٍ أنــتَ مــالِكهُم ... وَنِعْمَـــةُ أنْـــتَ فِيهـــا عِنْـــدَنَا نِقَـــمُ**

**وَإنَّ دَهْـــرَاً عَلَـــوْتَ النَّـــاسَ كُلَّهُـــم ... فِيـــهِ فَبِالجَهْـــلِ وَالخِـــذْلانِ مُـــتَّهَمُ**

فهذه الأبيات تكشف بوضوح عن الحالة السياسية والاجتماعية الفاسدة إذ عدّ الشاعر وجود الحاكم نقمةً كما اتّهم النّاس بالجهل والهوان، وبهذا رسم صورةً للحياة السياسية والاجتماعية في عصره.

## مظاهر الهجاء السياسي في شعر ديك الجنّ

يتّضح من دراسة شعر ديك الجنّ أنّ هجائه السياسي يشتمل على مسائل سياسية مختلفة طوال فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي، إذ نراه قد تطرّق إلى مسألة الخلافة في طيّات بعض قصائده وناقش مواقف الخلفاء إزاء الخلافة كما نراه قدتناول الحوادث المؤلمة التي شهدتها الشيعة في العصر الأموي والتي كان أهمّها حادثة الطفّ. وإذا كان الشاعر يعيش في العصر العباسي فمن الطبيعيّ أن يهجو السلطة العباسية وهذا قد حدث في شعره وفي مواقف مختلفة منه. ونحن كعادتنا فيما سبق في الفصول السابقة نقسم شعره المرتبط بالهجاء السياسي إلى قضايا مستقلّة تسهيلاً لدراسته:

### ديك الجن ومسألة الخلافة

لاشك أنّ مسألة الخلافة بعد الرسول الأعظم (ص) أهمّ مسألة في الأدب الشيعيّ في عصوره المختلفة، وشعراء الشيعة أكثرهم إن لم نقل جميعهم تناولوا تلك المسألة في شعرهم بالنقد والدراسة، كما أنّهم ناقشوا الخلفاء وأعوانهم وهجوا اولئك الذين اغتصبوا الخلافة من أيدي أصحابها الحقيقيين. فديك الجنّ باعتباره أكبر شاعر شيعيّ في العصر العباسي في بلاد الشّام دخل في هذا الميدان الصعب واشترى لنفسه المتاعب والتّهم الموجّهة إليه من قبل السلطة العباسية وأبدى آراءه فيما يتعلّق بتلك المسألة. ربّما يتسائل سائل فيقول: إنّك تتحدث

---

١. السابق، ص٢٢٣.

عن الخلافة بعد الرسول الأعظم (ص) في حين أنّ ديك الجن كان يعيش في العصر العباسي فأين الملائمة بينهما؟ أو يتسائل فيقول: إنّ ديك الجنّ يتحدث عن الخلافة ويهجو مغتصبيها بعد الرسول الأعظم (ص) فهل هذا يضرّ العباسيين شيئاً؟ نقول: نعم ، لأنّنا نرى أنّ الشاعر حينما يتحدّث عن الخلافة ويراها مغتصبة بأيدي أعداء الشيعة، في الواقع يقول إنّ الانحراف عن وصية الرسول (ص) أوصل الخلافة إلى العباسيين، فإن لم يغتصبها الخلفاء السابقون فالآن كانت الخلافة بأيدي أصحابها الحقيقيين ولم يكن أىّ شأن للعباسيين.

يتصدّر التركيز على الخلافة ومناقشة آراء خصوم الشيعة في كثير من قصائد ومقطوعات هجائية لديك الجن، ولعلّ أهمّها قصيدة تائية في أهل البيت تبلغ خمسة عشر بيتاً تصدّى الشاعر فيها لعدّة مسائل أهمّها مسألة الخلافة. من خلال دراسة هذه القصيدة يتّضح موقف الشاعر من مغتصبي الخلافة بشكلٍ بارز. فلنذكر القصيدة بكاملها ثمّ نحلّلها:[1]

شَرَفِي مُحَبَّةُ مَعْشَرٍ ... شَرُفُوا بِسُورَةِ "هَلْ أَتَى"

وَولاىَ فِيمَنْ فَتْكُهُ ... لِذَوِي الضَّلالَةِ أَخْبَتَا[2]

وَإِذَا تَكلَّمَ فِي الهُدَى ... حَجَّ الغَوِيَّ وَأَسْكَتَا[3]

فَلِفَتْكِهِ وَلِهَدْيِهِ ... سَمَّاهُ ذُوالعَرْشِ الفَتَى

ثَبَتَتْ إذا قَدَما سِوَا ... هُ فِي المَهَاوِي زَلَّتَا[4]

لَمْ يَعْبُدِ الأَصْنَامَ قَطُّ ... وَلا أرَابَ وَلا عَتَا[5]

غَرَسَتْ يَدُ البَارِي لَهُ ... رَبْعَ الرَّشَادِ فَأَنْبَتَا

١. السابق، ٩٥.

٢. فتك الرجل: كان جريئاً شجاعاً يركب ما همّ من الأمور ودعت إليه النفس. أخبت: أخشع وأذلّ.

٣. حجّ: من المحاجاة أى: غلبه بالحجة.

٤. المهاوي جمع المهوى والمهواة: ما بين الجبلين ونحو ذلك.

٥. أراب: جعل فيه ريبةً أى ظنّةً واتّهمه. عتا: استكبر وجاوز الحدّ.

وَأقَامَــــــهُ صِــــــنْوَاً لِأخَــــــ ـــــمَدَ دَوْحُـــهُ لَــــنْ يُنْحَتَـــا[١]

صِـــنْوَانِ هَــــذَا مُنْــــذِرٌ وَافَــــى وَذَا هَــــادٍ أتَـــــى

يَهْـــدِي لِمَـــا أوْفَـــى بِـــهِ حُكْـــمُ الكتَـــابِ وَأثْبَتَـــا

فَهُـــوَ القَـــرِينُ لَــهُ وَمَـــا افْـــ ــــتَرَقَا بِصَـــيْفٍ أوْ شِـــتَا

لكنَّمـــا الأعْـــدَاءُ لَــــمْ يَـــدْعُوهُ أنْ يَتَلَفَّتَـــا

ثِقْـــلُ الهُـــدَى وَكِتَابُـــهُ بَعْـــدَ النَّبِـــيِّ تَشَـــتَّتَا

وَا حَسْـــرَتَا مِـــنْ غَصْـــبِهِ وَسُـــكُوتِهِ وَاحَسْـــرَتَا

طَالَـــتْ حَيَـــاةُ عَـــدُوِّهِ حَتَّـــى مَتَـــى وَإلَـــى مَتَـــى

إنّ القصيدة المتقدمة من القصائد الجيّدة نسبيّاً بخاصة أنّ الشاعر يملك أكثر من تجربة شعرية، ولعلّ أهميّته تعود إلى انسابيّة لغته من جانب، وتوشيحها بعنصر التضمين والاقتباس من القرآن الكريم. لقد بيّنَ الشاعر في البيت الأوّل للقصيدة مذهبه السياسي بشكل واضح إذ استهلّها بوقوفه في الخطّ الرساليّ الممتدّ من الله تعالى إلى أهل البيت عليهم السّلام كما وجّه محبّته إليهم وقد جعل ولاء أهل البيت(ع) شرفاً له:

شَـــرَفِي مُحَبَّـــةُ مَعْشَـــرٍ شَـــرُفُوا بِسُـــورَةِ "هَـــلْ أتَـــى"

فأيّ عزٍّ وشرافة أسمى من محبّة أهل البيت (ع)؟ يشير الشاعر فيما ذكرنا إلى الآية الأولى من سورة الانسان حيث قال الله سبحانه وتعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الانْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكنْ شَيْئاً مَذْكوراً)[٢] ومراده الآيات الكريمة التي نزلت في عليّ وفاطمة والحسنين عليهم السّلام وهي: (ويُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسكيناً وَيَتِيماً وَأسِيراً إنَّما نُطْعِمُكم لِوَجْهِ اللهِ لانُرِيدُ مِنكم جَزاءً وَلا شَكوراً.إنّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوماً عَبُوساً قَمطَرِيراً فَوَقاهُم اللهُ شَرَّ ذلك اليَومِ وَلَقاهُم

---

١. الصّنو: الأخ الشّقيق والابن والعمّ. نحت الدوحة: كناية عن التنقُّص، والمعنى: ليس في نسبه مغمز.

٢. الإنسان، الآية ١.

نَضرَةً وَسُروراً وَجَزاهُم بِما صَبَروا جنّةً وَحَريراً)[١] وبهذا البيت أثبت الشاعر شيئاً ونفى شيئاً آخر، أثبت أنّ الشاعر استوعب التراث الإسلامي خاصّة القرآن حيث امتزج القرآن وآياته بلحمه ودمه، ونفى ادّعاء الموالين للسلطة العباسية واتّهامهم إيّاه بالمجون وتعاطي الخمر.ثم استمرّ الشاعر في إظهار محبّته وولائه لأهل البيت (ع) خاصّة الإمام عليّاً عليه السلام قائلاً:

**وَولاىَ فِيمَنْ فَتكُهُ ... لِذَوِي الضَلالَةِ أخْبَتا**
**وَإذَا تَكلّمَ في الهُدَى ... خَجَّ الغَوِيَّ وَأسْكتَا**

فخصّ الشاعر ولائه ومحبّته بالإمام عليّ عليه السّلام الذى فتك بالضّالين في مواقف مختلفة من حياته وأذلّهم كما أنّه أسكت المغتصبين بحججه القاطعة. نظنّ أنّ الشاعر أراد من البيت الثاني الخطبة الشقشقية ـ والله أعلم ـ ونحن نشعر أنّه يشير بصورة تلويحية إلى غاصبي الخلافة معتقداً أنّ الأعداء اغتصبوها منه، ولعلّ الأبيات التاليه تؤيّد ما ذهبنا إليه. اسمعه يقول:

**ثَبتٌ إذا قَدَما سِوَا ... ه فِي المَهاوِي زَلّتَا**
**لَمْ يَعْبُدِ الأصْنَامَ قَطُّ ... وَلا أرَابَ وَلا عَتَا**

يقول ديك الجنّ إنّ الإمام عليّاً (ع) كان ثبت الجنان راسخاً في الملمّات إذ لم تزلّ قدماه في المعارك ولم يعبد صنماً قطّ بينما زلّ المغتصبون اولئك الذين ذكر التاريخ عبادتهم الأصنام، وفي هذا تعريض للخلفاء الراشدين.

وللشّاعر في إثبات أحقيّة الإمام عليّ عليه السّلام في الخلافة أدلّة مختلفة منها نسبه وقرابته من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ومنها أنّه كان قريناً له في السرّاء والضرّاء:

**غَرَسَتْ يَدُ البَارِي لَهُ ... رَبْعَ الرَّشادِ فَأنْبَتَا**
**وَأقَامَهُ صِنْوَاً لأحْـ ... مَدَ دَوْحُهُ لَنْ يُنْحَتَا**
**صِنْوَانِ هَذَا مُنْذِرٌ ... وَافَى وَذَا هَادٍ أتَى**

١. السابق، الآية ١٢.٧.

**فَهُـــوَ القَـــرِينُ لَـــهُ وَمـــا افْـــ ـــــتَرَقَا بِصَـــيْفٍ أوْ شِـــتَا**

نلاحظ أنّنا أمام هجاء سياسي مذهبي، وهذا من ميزات الهجو عند ديك الجنّ، ولا شك أنّ الهدف الذي كان الشاعر يبغي الوصول إليه هو هدف سياسي، لكنّه استخدم الصبغة الدينية وسيلةً للوصول إلى غرضه واستطاع بذلك أن يهجو خصوم الشيعة ومخالفيهم ويطالب بحقّ الشيعة المغتصب.

ونراه يذمّ ويهجو اولئك الذين اغتصبوا الخلافة ويحمّلهم مسؤولية العدول عن وصّية الرسول (ص) لأنّهم بذلك مهّدوا الطريق إلى نشأة الخلاف في الإسلام وتشتّت الآراء. اسمعه يقول:

**لكنَّمـــا الأعْـــداءُ لَـــمْ ... يَـــدْعُوهُ أنْ يَتَلَفَّتَـــا**

**ثِقْـــلُ الهُـــدَى وَكِتَابُـــهُ ... بَعْـــدَ النَّبِـــيِّ تَشَـــتَّتَا**

**وَا حَسْـــرَتَا مِـــنْ غَصْـــبِهِ ... وَسُـــكوتِهِ واحَسْـــرَتَا**

**طَالَـــتْ حَيـــاةُ عَـــدُوِّهِ ... فَـــإلَى مَتَـــى وَإلَـــى مَتَـــى**

خاطب الشاعر في الأبيات السابقة الخليفتين الأول والثاني إذ هما باعتقاد الشاعر أعداء الشيعة فهجاهما بأنّهما كانا السبب الرئيس لتشتّت الأمور بعد الرسول الأعظم (ص).

كان لحكمة الإمام الرفيعة وترفعّه وعزّته وحرصه البالغ على وحدة المسلمين والاحتفاظ بقيم الرسول(ص) الدينية والسياسية والروحية أن يضع حدّاً لهذا النضال المحتدم، فلذلك منع الامام (ع) من تفاقم الأمر والتنازع بين المسلمين وانشقاقهم، الأمر الذي كان المغرضون يريدون إثارته بين المسلمين، فقد لزم الإمام داره إلى حين وآثر السكوت حرصاً على وحدة المسلمين. فنرى الشاعر يتحسر على ما آلت إليه الخلافة كما يتحسّر على سكوت الإمام حيال اغتصاب الخلافة ومغتصبيها. اسمعه يقول:

**وَا حَسْـــرَتَا مِـــنْ غَصْـــبِهِ ... وَسُـــكوتِهِ واحَسْـــرَتَا**

**طَالَـــتْ حَيـــاةُ عَـــدُوِّهِ ... فَـــإلَى مَتَـــى وَإلَـــى مَتَـــى**

من الناحية الفنيّة، القصيدة بمجملها واضحة بعيدة عن أيّ تكلّف وغموض وهذا من ميزات شعر الهجاء السياسي عامّةً وشعر ديك الجنّ السياسي خاصّةً، ونحن لا نعثر في القصيدة على مفردة غامضة مبهمة يتحيّر القارئ في فهمها. كما أنّها تخلو من المحسّنات البديعية إلا ما جاء عفواً، وهذا «كان اتّجاهاً جديداً حقّاً في الشعر العربي في القرن الثاني، قد تكون قيمته الفنية أقلّ بكثير من قيمته التاريخية والفكرية لأنّه يعني بالاستدلال والوقائع والأسس والنظريّات دون أن يرعى رقّة التعبير ولا جمال الأسلوب والأداء أو رونق الألفاظ».[١]

إنّ القصيدة السابقة وإن غلبت عليها التقريرية والأسلوب الخطابي إلّا أنّها لاتخلو من بعض الصور الجميلة، وهى من القصائد الهامّة من حيث الهجاء السياسي ولعلّ أهميّتها تعود إلى انسابية لغتها من جانب وتوشيحها بعنصر التضمين والاقتباس من القرآن الكريم من نحو (هل أتى) و"سمّاه ذوالعرش الفتى" حيث إنّ إفادته من القرآن الكريم والحديث أكسبت شعره وخاصّة الهجاء أهميّة كبيرة دون شك فضلاً عن أنّها تدلّ على البعد العقائدي الذي تشرّبه من القرآن.

ونلقى في شعر ديك الجنّ تقريراً لمسألة وصاية الرسول الأعظم (ص) للإمام عليّ (ع) يوم غدير خمّ، فله قصيدة أخرى يبلغ عدد أبياتها خمسة عشر بيتاً، ونرى الشاعر فيها يتظلّم للإمام عليّ (ع) ويتصدّى لمسألة الخلافة. نرى أنّ هذه القصيدة إحدى القصائد التي نشمّ منها رائحة الهجاء السياسي لمغتصبي الخلافة من يد أصحابها الحقيقيين. أنصت إليه وهو يقول:[٢]

**أضْبَحَتْ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ        وَأبِيتُ مُنْطَوِياً عَلَى الجَمْرِ**[٣]

---

١. هدارة، ص٣٥٣.

٢. ديک الجن، الديوان، ص١٤٦.

٣. الجمّ: الكثير. البلابل: جمع بلبلة وهى شدّة الهمّ والوسواس. أبيت: من بات يبيت في المكان، أقام فيه الليل. الجمر: هنا النّار والحرارة.

إنْ بُحْتُ يَوْماً طُلَّ فِيهِ دَمِي ... وَلَئِنْ كَتَمْتُ يَضِقْ بِهِ صَدْرِي[١]

مِمَا جَنَاهُ عَلَى أبِي حَسَنٍ ... عُمَرٌ وَصَاحِبُهُ أبُوبَكرٍ[٢]

طَلَبَ النَّبِيُّ صَحِيفَةً لَهُم ... يُمْلِي لِيَأمَنَهُم مِنَ الغَدْرِ

فَأبَوْا عَلَيهِ وَقَالَ قَائِلُهُم ... قُومُوا بِنَا قَدْ فَاهَ بِالهُجْرِ[٣]

وَمَضَوْا إلَى عَقْدِ الخِلافِ وَمَا ... حَضَرُوهُ إلا دَاخِلَ القَبْرِ[٤]

جَعَلُوك رَابِعَهُم أبَا حَسَنٍ ... ظَلَمُوا وَرَبِّ الشَّفْعِ وَالوَتْرِ[٥]

وَعَلَى الخِلافَةِ سَابِقُوك وَمَا ... سَبَقُوك فِي أحِدٍ وَلا بَدْرِ[٦]

عَمَّتْ مُصِيبَتُك الهُدَى فَغَدا الـ ... إسْلامُ لا يَدْرِي بِمَا يَدْرِي

وَتَشَعَّبَتْ طُرُقُ الضَّلالِ فَلَوْ ... لاكُمْ مَشَوْا بِالشِّرْك وَالْكُفْرِ[٧]

أنْتُم أدِلّاءُ الهُدَى وَبِكُم ... قَدْ سِيرَ فِي بَرٍّ وَفِي بَحْرِ[٨]

وَدَعَائِمُ التَّقْوَى وَقَادَتُهَا ... لِلْفَوْزِ يَوْمَ الحَشْرِ وَالنَّشْرِ[٩]

وَالعَارِفُو سِيمَا الوُجُوهِ عَلَى الـ ... أعْرَافِ مَعْرِفَةً بِلا نُكرِ

وَمَقَاسِمُ النِّيرَانِ أنْتَ لِمَنْ ... أخَذُوا العُهُودِ بِعَالَمِ الذَّرِّ

فَتَقُولُ يَا نَارُ أتْرُكِي لِي ذَا ... وَلِذَا خُذِي فَتَدِينَ لِلْأمْرِ[١٠]

---

١. باحَ بالسّر: أظهره. طُلَّ دمه: هُدِرَ ولم يثأر به ولم تؤخذ ديته.

٢. جَنى عليه: أذنب بحقّه. أبو حسن: كنية الإمام عليّ (ع).

٣. فاه بكذا: نطق به. الهجر: الهذيان.

٤. الخلاف: هنا يراد به الخلافة. حضروه: حضروا الرسول الأعظم (ص) بعد دفنه.

٥. الشَّفع: الزوج، خلاف الوَتر. الوتر: الواحد المفرد. والقَسم هنا إشارة إلى الآية الثالثة من سورة الفجر حيث قال تعالى ﴿وَالشَّفْعِ والوتر﴾.

٦. أحُد وبدر: أوّل معركتين في الإسلام اشتهرتا بغزوة بدر وغزوة أحد.

٧. تشعّبت: تفرّقت.

٨. الأدلّاء: جمع دليل وهو المرشد.

٩. الدعائم: جمع دعامة وهي عماد البيت الذي يقوم عليه، ودعامة القوم: سيّدهم.

١٠. تدين: تَخضَعُ وتذلّ.

استهلّ الشاعر قصيدته ببيان ما يجيش في صدره من الكآبة والحزن، وأعلن أنّه بات ليله منطوياً على جمرات النّار، وهذا أسلوب جديد في شعر ديك الجنّ السياسي:

**أصْبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ وَأبِيتُ مُنْطَوِيَاً عَلَى الجَمْرِ**

**إنْ بُحْتُ يَوْمَاً طُلَّ فِيهِ دَمِي وَلَئِنْ كتَمْتُ يَضِقْ بِهِ صَدْرِي**

فالشاعر يتحدّث في هذين البيتين عن هواجسه ويرى نفسه أمام خيارين اثنين: إمّا أن يبوح بسرّه الكامن بين أضلاعه فحينئذٍ يراق دمُه دون أن يثأر له وإمّا أن يكتم سرّه فعند ذلك يزداد قلقاً واضطراباً. ولمّا كان ديك الجنّ يرى خلافة الأمويين والعباسيين نتيجةً لاغتصاب الخلافة فكان من الطبيعي أن تكون إراقة الدّم بانتظار من تتحدث نفسه عن ذلك الأمر. ونراه يوجّه هجائه إلى عمر وأبي بكر قائلاً:

**مِمَّا جَنَاهُ عَلَى أبِي حَسَنٍ عُمَرٌ وَصَاحِبُهُ أبُوبَكرِ**

وبهذا البيت بلغ ديك الجن ذروة هجائه السياسي إذ شبّه مسألة اغتصاب الخلافة بالجناية، وأيّ جناية أكبر من اغتصاب مستقبل المسلمين؟ كما أنّه شبّه المغتصبين بالجاني. والملاحظة الهامّة التي نراها في هجاء ديك الجنّ أنّه استخدم في هجاء الخلفاء الراشدين لغةً صريحة وهذا عكس ما رأيناه عند السيّد الحميري الذى لم يكن يذكر الخلفاء الراشدين باسمهم، بل كان يتحدّث وراء سّتار، وكان يتحدث عن قبائلهما وإن كان المتلقي يدرك بوضوح أنّه يقصد أيَّ شخصٍ. «والشيعة حين تطالب بأحقيّة عليّ بالإمامة تطالب بها على أساس ديني محض، فعليّ في نظر الشيعة كان هو الأفضل وهو الأحق بها من غيره ولا يحق لأحد أن يسبقه إليها، لأنّ هذه الإمامة جاءت بالنص والتعيين وليست بالاختيار، وما دام الرّسول قد نصّ عليها فيجب أن يتسلّمها، ومن حاول أن يتجاوز عليها يعدّ كافراً ضالّاً وعلى هذا الأساس كفر الشيخين لأنّهما قد اغتصبا الخلافة من عليّ اغتصاباً».[1]

وفي الأبيات التالية تناول ديك الجن أيّام حياة النّبيّ الأخيرة وما حدث في تلك الأيام من

---

١. أبوحاتم، ص١٤١.

امتناع بعض الصّحابة من القيام بأوامره:

**طَلَــبَ النَّبِــيُّ صَــحِيفَةً لَهُــم يُمْلِــي لِيَــأْمَنَهُم مِــنَ الغَــدْرِ**

**فَــأَبَوْا عَلَيــهِ وَقَــالَ قَــائِلُهُم قُوْمُــوا بِنَــا قَــدْ فَــاهَ بِــالهُجْرِ**

**وَمَضَــوْا إِلَــى عَقْــدِ الخِــلافِ وَمَــا حَضَــرُوهُ إِلا دَاخِــلَ القَبْــرِ**

هذه الأبيات الثلاث تعدّ من أجمل الهجاء السياسي عند ديك الجنّ إذ صوّر مواقف أعداء الإمام عليّ منه بصورة واضحة، فيرى أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعرف ما في قلوبهم من حقد وعداوة للإمام عليّ (ع) وكان يقدّر ما سيحدث رغم أنّه (ص) صرّح بإمامة عليّ (ع) وخلافته في مواقف شتّى من حياته، فلذلك طلب صحيفة ليكتب ويسجلّ خلافة الإمام (ع) حتىّ يسدّ منافذ الخدعة أمامهم غير أنّهم منعوه عن ذلك وقال أحدهم إنّ الرجل ليهجر، ولمّا التحق النّبيّ (ص) بالرفيق الأعلى غدروا بالإمام (ع) واغتصبوا حقّه، وهذا حدث في حين أنّ جثمان النّبي المطهر لمّا يوضع في مثواه.

ديك الجن باعتباره شاعراً معارضاً للسلطة العباسية والسلطات السابقة قد استوعب التاريخ الإسلامي والتراث الديني، وهذا يتجلّى في هجائه السياسي. اسمعه يقول:

**جَعَلُــوك رَابِعَهُــم أبــا حَسَــنِ ظَلَمُــوا وَرَبِّ الشَّــفْعِ وَالــوَتْرِ**

**وَعَلَــى الخِلافَــةِ سَــابِقُوك وَمَــا سَــبَقُوك فِــي أُحُــدٍ وَلا بَــدْرِ**

تتجلّى دراسة التاريخ الإسلامي في سرد الحوادث التاريخية إذ خاطب الإمام (ع) قائلاً: إنّك كنت الخليفة الأوّل إلّا أنّ أعداءك اغتصبوا حقّك وجعلوك الخليفة الرابع، ثمّ يقول إنّهم إنْ سبقوك في الخلافة إلّا أنّهم لم يسبقوك في الأخطار والغزوات مع الكفّار والمشركين. ويتجلّى استيعابه التراث الديني باستلهامه من القرآن الكريم إذ ضمّن المصرع الثاني الآية الثالثة من سورة الفجر حيث أقسم الله تعالى بـ(وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ).[1]

ثمّ تطرّق الشاعر في الأبيات الستّ الأخيرة إلى منزلة أهل البيت عليهم السّلام ومناقبهم

---

١. الفجر، الآية ٣.

التي جعلتهم جديرين بخلافة المسلمين:

| | |
|---|---|
| **وَتَشَـعَّبَتْ طُـرُقُ الضَّـلالِ فَلَـوْ** | **لاكُـمْ مَشَـوْا بِالشِّـرْكِ وَالْكفْـرِ** |
| **أنْـتُم أدِلّاءُ الهُـدَى وَبِكُـم** | **قَـدْ سِيرَ فـي بَـرٍّ وَفِـي بَحْـرِ** |
| **وَدَعَـائِمُ التَّقْـوَى وَقَادَتُهَـا** | **لِلْفَـوْزِ يَـوْمَ الحَشْـرِ وَالنَّشْـرِ** |
| **وَالعَـارِفُو سِـيمَا الوُجُـوهِ عَلَـى الْـ** | **أعْـرَافِ مَعْرِفَـةً بِـلا نُكْـرِ** |
| **وَمَقَاسِـمُ النِّيـرَانِ أنْـتَ لِمَـنْ** | **أخَـذُوا العُهُـودِ بِعَـالَمِ الـذَّرِّ** |
| **فَتَقُـولُ يَـا نَـارُ أتْرُكِـي لِـي ذَا** | **وَلِـذَا خُـذِي فَتَـدِينَ لِلْأمْـرِ** |

يقول ديك الجنّ إنّ آل البيت عليهم السّلام كانوا أعلام الهداية في البرّ والبحر ولولاهم لتفرّقت النّاس شيعاً مختلفة كما أنّه نعتهم بدعائم التقوى والهادين إلى الطريق السويّ ويرى أنّ الاقتداء بهم ذريعة الفلاح يوم القيامة. ومرّة أخرى استمدّ الشاعر مادّته من التراث القرآني حيث أشار إلى الآية (وَنَادَى أصْحَابُ الأعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفونَهُم بِسيمَاهم)[1] قائلاً: إنّ آل البيت يعرفون محبّيهم ومبغضيهم في الأعراف من وجوههم، والإمام عليّ هو من أصحاب الأعراف. يظهر الاستمداد من التراث من جديد في «مقاسم النّار» حيث يرى الشاعر أنّ الإمام عليّاً عليه السّلام قسيم النّار إذ استمد مادته من الحديث النبوي[2] «يا عليُّ أنتَ قَسيمُ الجَنّةِ وَالنّار وأنتَ تَقرَعُ بابَ الجَنَّةِ وَتُدخِلُها (أحِبّاءَك) بِغيرِ حسابٍ».[3]

نلاحظ أنّ ديك الجن يعني بنحو ملحوظ بعنصر التضمين والاقتباس إلى الدرجة التي نجد من خلالها أنّه ينقل الحديث الوارد عن النّبيّ أو أهل البيت عليهم السّلام شعراً فضلاً عن تضمينه واقتباسه ونقله للنصّ القرآني.

أكد الشاعر أكثر من مرّة على أحقيّة الإمام (ع) ووصيّة النّبيّ (ص) له بالخلافة و«القول

---

١. الأعراف، الآية ٤٨.

٢. انظر كذلك: شيخ محمد بن محمد السبزواري جامع الأخبار ١٥، وإبراهيم القندوزي ينابيع المودّة ٨٦.

٣. الحسيني المرعشي الشوشتري، القاضي نور الله، إحقاق الحق، الطبعة ١، مكتبة آية الله المرعشي، ١٣٤٥هـ.ش، ج ٢ ص١٧٢.

بوصيّة الرسول صلوات الله عليه لعليّ بالإمامة والإشادة بتقواه وصلاحه وورعه، نرى أغلب شعراء الشيعة قد تحدثوا فيها وناقشوها في شعرهم، ورغم الاختلاف بين الشيعة إلّا أنّهم يجتمعون ويتفقون على هذا المبدأ الذى يعدّ من أهم مبادئ الشيعة».[١] فعلى هذا الأساس يدور قصائد عديدة من شعر ديك الجنّ حول هذه المسألة كما أنّه هجا الأمويين والعباسيين لأنّهم غصبوا هذا الحقّ المنصوص عليه من جانب الرسول الأعظم (ص).

له قصيدة أخرى عالج فيها المبدأ الأساسي الذي قامت عليه الشيعة وأكد كما أكد السيد الحميري ودعبل الخزاعي على أحقيّة الإمام عليّ عليه السّلام بالخلافة مشيراً إلى مكانته ومنزلته عند الرسول الأعظم (ص) وكما وضعه السيد الحميري في منزلة هارون من موسى وضعه أيضاً ديك الجنّ في هذه المنزلة:

**إنَّ الرَّسولَ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ ... وَالخَيرُ ما قالَ بِهِ الرَّسولُ**

**إنَّك مِنّي يا عليُّ الأبيُّ ... بحَيثُ مِنْ موساهُ هارونُ النَبيُّ**

**لكنَّهُ ليسَ نَبيٌّ بَعدِي ... فَأنتَ خَيرُ العالمينَ عِندي**

**وَأنتَ مِنّي الزِّر مِن قَميصي ... وَما لِمَنْ عاداك مِنْ مَحِيصِ**

فيقول الشاعر إنّ الرسّول الأعظم(ص) لايزال يؤكد على أحقّيّة الإمام عليّ (ع) بخلافة المسلمين وقد جعل الإمام عليّاً (ع) من النّبيّ (ص) بمنزلة هارون من النّبيّ موسى (ع)، كما أنّه جعل الإمام (ع) كالزرّ من القميص. يشير ديك الجن في الأبيات السابقة إلى عدّة روايات، الأولى ما روى عن الرسّول (ص) أنّه قال: «مَنْ لَمْ يَقُلْ عَلِيٌّ خَيْرُ النّاسِ فَقَدْ كفَر».[٢] والثانية رواية رويت متواترةً عن الرسول الأعظم (ص) واشتهرت بـ «حديث المنزلة».روى ابن عساكر بسنده عن سويد بن غفلة عن عمر بن الخطاب أنّه رأى رجلاً كان يسبّ الإمام عليّاً (ع) فقال له أظنّ أنّك منافق إذ سمعتُ من النبيّ (ص) يقول: يا عليّ إنّك منّى بمنزلة هارون من موسى

---

١. أبوحاتم، ص١٤٣.

٢. صبحي الحسني، محمد. خليفة رسول الله، الطبعة ١، دار المحجة، ٢٠٠٦م، ص١٨٦.

إلّا أنّه ليس نبيٌّ بعدي.[١]

## حادثة الطفّ وهجاء الأمويين

حين ننتهي في تاريخ بني أمية إلى السنوات الثلاث التي حكم فيها يزيد بن معاوية نلاحظ أنّ جاهلية واضحة تجلّت في ثلاثة أحداث هامّة: الأولى استشهاد الإمام الحسين (ع) الثانية إباحة مدينة الرسول (ص) الثالثة رمي الكعبة بالمنجنيق، «وعلى الرغم من أنّ هذه الأحداث تتلاقى جميعاً في دلالتها على معنى الانتكاسة فإن حادث الطفّ هو الذي يستوقفنا منها لأنّه هو الذي يوضح طبيعة العلاقة بين السلطة والمعارضة الشيعية خلال هذه الفترة».

إذا سلّمنا أنّ من فنون البلاغة ما يقال عنه"مدح في صورة الذمّ، أو ذمّ في صورة المدح" فهل يمكن أن نطبّق النظرية نفسها على الأغراض الشعرية فنقول: إنّ المضامين الهجائية ربّما تأتي في طيّات الأغراض الأخرى مثل الرثاء؟

يرى الباحث أنّه يمكن تطبيق تلك النظرية على شعر الشيعة عامّةً وشعر ديك الجنّ خاصّةً، لأنّه لم يمضِ وقت طويل على استشهاد الإمام الحسين (ع) حتى نشأ أسلوب جديد في الشعر على ألسنة شعراء الشيعة كان ظاهره رثاء الإمام (ع) لكنّه في الباطن تناول السلطات الأموية والعباسية بالنقد والهجاء والتجريح، فأصبح هذا الأسلوب من الشعر وسيلة من وسائل ألسنة الموالين لأهل البيت عليهم السّلام والمعارضين للسلطة الحاكمة لتأدية أغراض وغايات المعارضة، ولعلّ أهمّ تلك الأغراض ما يلي:

أـ كان رثاء الإمام الحسين (ع) هو الوسيلة الوحيدة عند الشيعة والموالين له للاعتراض على لسلطة الحاكمة والتعبير عن الرفض والسخط لما أصيب به الإمام وأتباعه في الطفّ.

ب ـ يمثّل رثاء الإمام الحسين (ع) عند الشيعة وشعرائهم طريقاً لتأصيل حقيقة انتصار الدم وخلود الموقف في ذاكرة الأجيال التالية.

ج ـ يمثل الحديث عن الطفّ إعلاماً عقائدياً يهدف إلى نشر ما آمن به الإمام الحسين (ع)

---

١. السابق، ص٢٠٣.

وإبقائه حياً يتمتع بقدرة التأثير في المجتمع كما أنّه يجسّد شهادة تاريخية وقولاً فصلاً في الأمور والأحداث، هذا من جانب ومن جانب آخر لشعر الرثاء الحسيني قيمة في نشر الأفكار الإسلامية الشيعية حيث يعطي تلك الأفكار صبغة مذهبية خالصة إلى حدّ كبير.

نستنتج مما ذكرنا أنّ الهجاء السياسي في شعر الشيعة في العصر العباسي لم يكن متّصلاً بالهجاء فقط "بل كان يتّصل بالرثاء أيضاً لاستثارة النفوس وتأليف القلوب وعطفها نحو العلويين لما يلاقونه من عذاب على أيدي العباسيين الذين لم يرعوا قرابتهم وحرمتهم بل كانوا أشدّ نكالاً عليهم من الأمويين الظالمين في رأيهم" (الهدّارة ۳۸۹).

مع الثقافات العقلية العميقة في العصر العباسي شهد مضمون الهجاء السياسي في شعر ديك الجنّ في ظلّ الحكم العباسي تطوراً هامّاً إذ اتّجه من الجانب الاحتجاجي في كثير من جوانبه إلى الانتفاع بما يعمق التعاطف مع المأساة الشيعية وقد كان هذا في الواقع هو التطور الكبير الذى حدث في المضمون الهجائي في شعره.

إنّ الأدب العربي عرف قبل العصر العباسي أساليب مختلفة للشعراء في هجاء السلطات الحاكمة وتصدّيهم للفساد والانحراف في المجتمع الاسلامي. بعبارة أخرى عبّر الشعراء عن سخطهم للسلطات المضطهدة بطرق عديدة يختلف بعضها عن بعضٍ، ولعلّ القالب الشعريّ الأكثر تداولاً هو الهجاء. ولابدّ أن نتذكر أن الرثاء والغزل كانا من الأغراض الشعرية التي ضمّنهما بعض الشعراء نقدهم للأحزاب والفرق السياسية إذ لا ننسى لجوء عبدالله بن قيس الرقيّات في هجاء الأمويين وخاصة يزيد إلى الغزل والتشبيب بنسائهم وبناتهم فكأنّه رأى أنّ تأثير الغزل في تلك الآونة ربّما يكون أشدّ من سائر الفنون الشعرية.

والملاحظة الهامّة التي لابدّ أن نشير إليها هى أنّه لم يكن بمقدور جميع الشعراء ـ بل المجتمع عامة ـ الوقوف بوجه الحكام المستبدين مباشرة، لذلك أسباب مختلفة لعلّ أهمّها الاحتقان السياسي والاضطهاد السائد من قبل قوى الظلم، وهذا الأمر يصدق على شعراء الشيعة في تصدّيهم للانحراف والفساد في العصور المختلفة من التاريخ الإسلامي. ديك الجنّ

بوصفه أكبر شاعر شيعيّ في الشام في العصر العباسي كان من هؤلاء الشعراء، وهذا لا يعني أنّه تراجع عن هجاء السلطة الحاكمة بل نقول إنّه اتّخذ قالباً آخر للهجاء إذ وجد في حادثة الطفّ مادّةً تعبيرية نافعة سلّط عليها قريحته التي تستمد من عواطفه الصادقة. هذا ما جعله كشاعر ناقم يتجه إلى القوة الموجودة فيها.

وجد ديك الجنّ في الاستناد إلى التاريخ الممتلئ بالظلم تمثيلاً واضحاً لهجاء الطغاة والظلمة، كما أنّه وجد في قضية الظلم الذي حلّ بالإمام الحسين (ع) عزاء وتسلية لهمومه وهموم الشيعة. هذا من جانب ومن جانب آخر أضحت حادثة الطفّ أداة تعبيرية نافعة عند الشاعر للهجوم على الخصوم وجنّبته ما تجرّه عليه التعبير المباشر من نتائج تهدّد حياته ووجوده.

كانت حادثة الطّف ـ وإن أصيبت الشيعة فيها بآلام كبيرة واستشهد الإمام الحسين (ع) فيها ـ مادّة خصبة لشعراء الشيعة في هجاء الأمويين والذين سبّبوا استشهاد ائمّتهم، فعلى هذا الأساس لابدّ أن نعترف أنّ «شعر الشيعة شعر سياسي إذ أنّ جميع أغراضه من مدح وهجاء ورثاء تحريض وتقرير للمذهب والعقيدة لا يستهدف غير الدفاع عن حقّهم المسلوب في الخلافة وحتّى شعرهم الذي ذهب في أغراض أخرى من مديح اضطراري لبني أميّة يمضي في هذه الوجهة أيضاً فقد كان تقية وحفاظاً على الدم من أجل الاستمرار في العمل والتمكين للمذهب والانتصار له. ولهذا نستطيع أن نعدّ شعر الشيعة كلّه شعراً سياسيّ مذهبياً لأنّه يدعو بمختلف الوسائل إلى نظرية اعتقادية في الخلافة وضرورة توارثها في آل البيت».[١]

هناك عدّة قصائد ومقطوعات في ديوان ديك الجنّ تدور حول حادثة الطفّ، أهمّها مقطوعة ذات أربعة أبيات عبّر فيها عن الأجواء التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السّلام. اسمعه يقول:[٢]

---

١. القاضي، ص٣٨٨.

٢. ديك الجن، الديوان، ص١٩١.

**جَاؤُوا بِرَأسِك يَا بْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مُتَزَمِّلاً بِدِمَائِهِ تَزْمِيلا**
**وَكَأنَّمَا بِكَ يَا بْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ قَتَلُوا جِهَاراً عَامِدِينَ رَسُولا**
**قَتَلُوكَ عَطْشَاناً وَلَمَّا يَرْقُبُوا فِي قَتْلِكَ التَّنْزِيلَ وَالتَّأوِيلا**
**وَيُكَبِّرُونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وَإنَّمَا قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلا**

خاطب الشاعر الإمام الحسين (ع) قائلاً: يا بن بنت الرسول جاؤوا برأسك ملطّخاً بالدماء، وكأنّهم بهذا أرادوا قتل الرسول عامدين ثمّ يقول: قتلوك عطشاناً ولم يعملوا بالقرآن، ثمّ ارتفعت أصواتهم بقتلك لكنّهم لم يعلموا أنّهم قتلوا بهذا العمل الشنيع التكبير والتهليل.

فالمقطوعة كشفت أنّ هناك إجراماً وبطشاً وطغياناً، وإذا دقّقنا في الأبيات السابقة لديك الجنّ رأينا أنّه لم يكن يقصد إلى إظهار الحزن والتألم ممّا أصاب الإمام الحسين (ع) فحسب، بل كان يقصد أيضاً إلى إثارة الشعب ضدّ خصوم الشيعة.

لا شك أنّ الهجاء والرثاء موضوعان مختلفان في الأدب إلّا أنّنا نرى تطوّراً كبيراً في فنّ الهجاء على ألسنة شعراء الشيعة إذ صبّوا هجاءهم في قالب الرثاء وبذلك وسّعوا إطار هذا الغرض حتّى يشمل الرثاء، كما فعل ديك الجنّ الحمصي شاعر الشيعة في القرن الثاني والثلث الأول من القرن الثالث إذ استخدم الرثاء طريقاً إلى هجاء خصوم آل البيت عليهم السّلام إضافة إلى تصوير مصائبهم.

يمثّل استشهاد الامام الحسين (ع) في النصف الثاني من القرن الهجري الأول حدثاً كانت له أصداء كبيرة في تلك الفترة التي لم تخل من الحرج، وكانت واقعة الطفّ قد جسّدت احتقاناً سياسياً كان سائداً آنذاك. هذا من جانب ومن جانب آخر كشفت عن نزعةٍ مفرطة في الاستحواذ على السلطة من قبل الأمويين والنظر إليها كأهمّ قضية من قضايا الدين الإسلامي إذ قام الأمويون بتصفية المجتمع من المعارضة السياسية ومن يطمعون في تولّى كرسيّ الخلافة وخاصّة الشيعة أصحابها الحقيقيين، فلمّا بلغ الأمر ذروته باستشهاد الإمام الحسين عليه السّلام الذي عرف بين المسلمين بلقبين ردّدهما الصحابة والتابعون وهما ريحانة

الرسول وسيّد شباب أهل الجنة فكان ذلك عملاً شنيعاً ولم يكن متوقعاً. إذاً فقد كانت الحادثة صدمة مباغتة هزّت وجدان الكثيرين ودفعتهم إلى الاعتراض سراً أو جهراً.

لديك الجن قصيدة رائية[١] رائعة تبلغ سبعة وعشرين بيتاً تناول فيها مسائل مختلفة من تاريخ الإسلام وما أصاب الشيعة من اغتصاب حقّهم وأهمّها مسألة الخلافة وحادثة الطفّ وما أصاب الشيعة على أيدي الأعداء. يستغرق بيتان اثنان منها مقدمة موضوعية تناسب موضوع القصيدة وتستغرق عشرة أبيات منها مسألة الطفّ وثورة الإمام الحسين (ع) ضدّ الطغيان والظلم الأموي، وتتناول خمسة عشر بيتاً منها مسألة الخلافة والحديث عن أحقيّة الإمام عليّ(ع) من خلال النضال الحربي الّذي خاض غمراته على أخطر مستويات البطولة.

تنتمي هذه القصيدة إلى فنون أدبية ثلاثة على الأقلّ طغا عليها الهجاء في بعض جوانبها، فهناك فنّ الغزل وفنّ الفخر وفنّ الهجاء، وإذا كان الأوّل قد ورد كمقدّمة فإنّ الفنّين الآخرين جاءا متلازمين متداخلين يقوّي أحدهما الآخر. فأوّل ما نلاحظه في هذه القصيدة مقدمتها الموضوعية التي تناسب موضوعها وهذا يدلّ على تحرّر الشاعر من التقليدية والاتباع وعدم وقوفه في محاكاة منهج القصيدة القديمة:

**مَا أنتِ مِنّي وَلا رَبعَاك لِي وَطَرُ ... الْهَمُّ أمْلَك بِي وَالشُّوقُ وَالفِكرُ**[٢]

**وَرَاعَهَا أنَّ دَمْعَاً فَاضَ مُنْتَثِرَاً ... لا أوَ لا تَرَى كبِدِي للْحُزْنِ تَنْتَثِرُ**[٣]

والهجاء يبدو يسيراً في البيتين الأولين إلّا أنّه يستطلع معنى هجائياً جديداً بالقول إنّه تأثّر بما أصاب أهل البيت عليهم السّلام.

ونرى الشاعر يتسائل عن الإمام الحسين وبني الحسن ضحايا الظلم الأموي والعباسي ويراهم ضحايا تتشوّق إليهم أركان البيت الحرام والحجر الأسود وتبكيهم آيات القرآن وسوره:

---

١. السابق، ص١٣٥.

٢. ربعاك: مثنّى ربع، وهو الدار والحيّ والموضع الذي يُنزَلُ فيه زمن الربيع. الوطر: الحاجة والبغية.

٣. راعها: أفزعها. الرّوع: الفَزَع.

**أيـنَ الحُسَـينُ وَقَتْلَـى مِـنْ بَنِـي حَسَـنٍ وَجَعْفَـــرٍ وَعَقِيـــلٍ غَـــالَهُم غَمِـــرُ**[١]

**قَتْلَـى يَحِـنُّ إليْهـا البَيْـتُ وَالحَجَـرُ شَـوْقاً وَتَبكـيهُمُ الآيَـاتُ وَالسُّـوَرُ**[٢]

إذا كان البيت الحرام والحجر الأسود يشتاقان إلى الإمام الحسين عليه السّلام وتبكيه سور القرآن وآياته، فهل توجد جريمة أكبر من جريمة ارتكاب مقتلهم؟ أوليس في البيت الثاني هجاء لمرتكبيها؟

ربّما يقول قائل إنّ هذه الأبيات رثاء وليس فيها شئ في هجاء الأمويين والعباسيين. نقول: إنّ هذا المضمون وإن كان في غرض الرثاء إلّا أنّه ينحو منحىً يجعلنا نشبهه إلى حدٍّ كبير بالهجاء السياسي، وهذا المنحى هو التعريض بخصوم الشيعة والذي لا يستهدف شيئاً غير الدفاع عن حقّهم المسلوب في الخلافة. ثمّ إنّ الأبيات المذكورة تلعب دوراً فاعلاً ومؤثراً وقوياً، وتحتفظ بدورها في تصعيد تفاعل الجمهور مع القضية الحسينية، وتحتفظ بكفاءتها العالية في تفجير غضب الجمهور وثورته تجاه الظالمين وتحريك الجمهور ضدّهم.

ليس الحديث عن الإمام الحسين عليه السّلام وما أصاب آل البيت في كربلاء بكائيات خالصة كما ظنّ بعض الباحثين[٣] بل هو مزيج من الهجاء والشكوى والنقد. ولعلّ البيتين التاليين يثبتان صحة ما ذهبنا إليه:

**مَـاتَ الحُسَـينُ بَأيْـدٍ مِـنْ مَغَائِظِهَـا طُـولٌ عَلَيْـهِ وَفِـي إشْـفَاقِها قِصَـرُ**

**لا دَرَّ دَرُّ الأعـادِي عِنـدَما وَتَـرُوا وَدَرَّ دَرُّك مـا تَحْـوِينَ يـا حُفَـرُ**[٤]

وهنا يهجو ديك الجنّ الأمويين الذين كانت لهم قلوب حاقدة. فيرى أنّ هؤلاء الذين

---

١. يريد الإمام الحسين والإمام الحسن وجعفر بن أبي طالب وعقيل بن أبي طالب عليهم السّلام. غالهم: اغتالهم.الغَمِر: الجاهل ذو الحقد.

٢. البيت: بيت الله الحرام. الحجر: الحجر الأسود. الآيات والسّور: آيات القرآن الكريم وسوره.

٣. انظر: القاضي، ص٣٧٣.

٤. الدّر: اللبن. ويقال: لا درّ درّه: لا زكا عمله، فهو دعاء عليه بالشّر. ودرّ درّه: زكا عمله، دعاء له بالخير. ويقال في المدح والتعجب: لله درُّهُ.الوَتر: الظلم، والموتور: مَن قُتِلَ له قتيل ولم يُدرَك ثأرُه. الحُفَر: القُبُور.

قتلوا الإمام (ع) كانوا يحقدون عليه منذ زمن قديم، ولم يكن في قلوبهم أثر من العطوفة والشفقة. ولاشك أنّ الشاعر أراد بهذه الأبيات أن يعلن سخطه واشمئزازه من الأمويين والعباسيين أيضاً الذين كانت سياستهم بالنسبة إلى الشيعة استمراراً لهم. وقد لاحظ الباحثون في هذا المجال «أنّ المستضعفين هم الذين يلجأون إلى الهجاء السياسي ويعتصمون به، لأنّه ـ من وجهة نظرهم ـ يعنى لهم الثأر السلمي العادل الذي لايمتلكون أمضى وأقوى منه».[1]

**لَمَّا رَأَوْا طُرُقَاتِ الصَّبْرِ مُعْرِضَةً إلى لِقَاءٍ وَلُقْيا رَحْمَةٍ صَبَرُوا**
**قَالُوا لِأَنْفُسِهِم يا حَبَّذَا نَهَلٌ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ بَعْدَهُ صَدَرُ**[2]

يرى الشاعر أنّ الأمويين ظلموا أهل البيت واغتصبوا حقّهم فلم يكن لهؤلاء إلّا أن يصبروا، وهذا هو الطريق الذي يوصلهم إلى الرسول الأعظم (ص) والإمام عليّ (ع). والملاحظة الهامّة في شعر ديك الجنّ أنّه يجئ رثاؤه للإمام الحسين عليه السّلام حبّاً خالصاً لآل البيت عليهم السّلام ومعارضة سياسية تعنف بالسلطتين الأموية والعباسية كما أنّه يستخدم لغة التهديد والتوبيخ في هجائهم:

**رِدُوا هَنِيئاً مَرِيئاً آلَ فاطِمَةٍ حَوْضَ الرَّدَى فَارْتَضُوا بِالقَتْلِ وَاصْطَبِرُوا**[3]
**الحَوْضُ حَوْضُهُم وَالجَدُّ جَدُّهُم وَعِنْدَ رَبِّهِم فِي خَلْقِهِ غِيَرُ**[4]

أراد الشاعر من خصوم آل البيت عليهم بالسّلام سياسة العنف والشدّة إزاءهم كما أنّه دعا

---

١. زكريا، إبراهيم. سيكولوجية الفكاهة والضحك، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص٧٤.

٢. النَّهَل: أوّل الشّراب.الصَّدَر: الانصراف عن الماء. محمد بن عبدالله: هو النّبيّ (ص).والمراد من عليّ الإمام عليّ عليه السّلام.

٣. رِدُوا: فعل أمر من وَرَدَ: حَضَرَ، وأشرفَ على الماء. هنيئاً مريئاً: دعاء بأن يكون الشّراب سائغاً ولذيذاً. فاطمة: ابنة الرسول الأعظم (ص). وآل فاطمة: أبناؤها الحسن والحسين عليهم السّلام. الرَّدى: الموت والهلاك.

٤. الجدّ: النّبيّ (ص) جدّ الحسن والحسين عليهما السّلام.

أهل البيت والموالين لهم بالصّبر. وفي هذا هجاء لاذع للأمويين والعباسيين إذ أنّهم سلكوا أسوأ المسالك في معاملة أبناء النّبيّ (ص) إذ لم يكونوا يرتضون إلّا بقتل حفيد الرسول (ص). ثمّ يرى الشاعر الصّبر أحسن الأدواء:

**أبكيكم يا بَنِي التَّقْوَى وَأَعْوِلُكم وَأشْرِبُ الصَّبْرَ وَهْوَ الصَّابُ وَالصَّبِرُ**

**أبكيكمُ يا بَنِي بِنْتِ الرَّسُولِ وَلا عَفَتْ مَحَلَّكم الأنْوَاءُ وَالمَطَرُ**

ديك الجن ينظر إلى الإمام الحسين(ع) بأنّه صوت المظلومين الخالد بوجه الظالمين وأنّه الذي وضع الحدّ الفاصل المميّز بين الحق والباطل، وأنّ دعاة الحقّ هم أصحاب الكلمة الباقية في البشرية مهما اشتدّ عليهم الظالمون.وقد انتقل ديك الجنّ بغرض الرثاء نقلة تحرره من الكلاسيكية المنحوتة والتقليد المملّ عند شعراء الشيعة الآخرين، فظهرت في مراثيه للإمام الحسين (ع)، الكثير من المضامين السياسية القائمة على الهجو والتنديد والسخرية اللاذعة. وعندما يرى الشاعر حادثة الطفّ وما أصاب آل البيت عليهم السّلام استمراراً لسوء تدبير بعض الخلفاء تتدفق عاطفته المليئة بالغضب عليهم ويصب جام سخطه وغيظه عليهم. وفي البيتين التاليين يظهر ذلك الاتّجاه حيث وجد في رثاء الإمام الحسين (ع) مجالاً واسعاً للحديث عن الخلفاء الراشدين والأمويين:

**مالِي فَرَاغٌ إلى عُثْمانَ أنْدُبُهُ وَلا شَجَانِي أبُوبَكرٍ وَلا عُمَرُ**

**لَكم عَدِيٌّ وَتَيمٌ بَلْ أزِيدُكم أمَيَّةٌ وَلَنَا الأغْلامُ وَالغُرَرُ**[1]

فنرى أنّ الأسلوب الرثائي المعهود في قصيدة الرثاء والذي يقوم على الحزن والبكاء يغيب في كثير من أبيات هذه القصيدة فتتحول مباشرةً إلى التحدّث عن غياب الإنسانية في حادثة الطفّ والهجوم على الخلفاء الراشدين والأمويين، كما نلحظ قيام الأسلوب على السخرية والتهكم في بعض المواقف.كان ديك الجنّ ذلك الشاعر الذي ظلّ في شعره وفي مواقف مختلفة منه يركز على حقّ الإمام عليّ عليه السّلام المغتصب. وأحياناً كثيرة يميل الشاعر إلى

---

١. عديّ: رهط عمر بن الخطاب. تيم: رهط أبي بكر .أميّة: رهط معاوية بن أبي سفيان.

العاطفة الانسانية ليحرّك مشاعر الشعب إزاء الحقّ المسلوب:

**أنسَــى عَلِيّــاً وَتَفْنِيـدَ الغُـواةِ لَـهُ ... وَفِـي غَـدٍ يُعْـرَفُ الأفـاكُ وَالأَشِـرُ**[1]

**مَـنْ ذَا الّـذِي كلّمَتْـهُ البِيـدُ وَالشَّـجَرُ ... وَسَـلّمَ التـربُ إذْ نَـاداهُ وَالحَجَـرُ**

**حَتّـى إذَا أبْصَـرَ الأحْيـاءُ مِـنْ يَمَـنٍ ... بُرْهَانَـهُ آمَنُـوا مِـنْ بَعْـدِما كفَـرُوا**

**أمْ مَـنْ حَـوَى قَصَـباتِ السَّـبْقِ دُونَهُـم ... يَـوْمَ القَلِيـبِ وَفِـي أعْنـاقِهِم زَوَرُ**[2]

**أمْ مَـنْ رَسَـا يَـوْمَ أحْـدٍ ثَابِتَـاً قَـدَماً ... وَفِـي حُنَـيْنٍ وَسَـلْعٍ بَعْـدَما عَثَـرُوا**[3]

**أمْ مَـنْ غَـدَا دَاحِيـاً بـابَ القُمُـوصِ لَهُـم ... وَفَاتِحَـاً خَيْبَـراً مِـنْ بَعْـدِما كسِـرُوا**

**أَلَـيْسَ قَـامَ رَسُـولُ اللـهِ يَخْطُـبُهُم ... وَقَـالَ مَـوْلاكمُ ذَا أيُّهـا البشَـرُ**

**أضَـبْعَ غَيْـرِ عَلِـيٍّ كـانَ رَافِعَـهُ ... مُحَمَّـدُ الخَيْـرِ أَمْ لا تَعْقِـلُ الحُمُـرُ**

**دَعُـوا التَّخَـبُّطَ فِـي عَشْـواءَ مُظْلِمَـةٍ ... لَـمْ يَبْـدُ لا كوْكـبٌ فِيهـا وَلا قَمَـرُ**[4]

**الحَـقُّ أبْلَـجُ وَالأعْـلامُ وَاضِـحَةٌ ... لَـوْ آمَنَـتْ أنْفُـسُ الشَّـانِينَ أوْ نَظَـرُوا**[5]

ظلّ ديك الجن في أشعاره ذلك الشاعر الشيعي المثقف الذى لم يتخلّف عن جدل الرأى كما أنّه جنح إلى جدل العاطفة، فركّز في الأبيات المذكورة على إثبات أحقيّة الإمام عليّ (ع) واستعان بالشواهد التاريخية التي قد رصدت شيئاً من تلك الأحقيّة، فتتكثّف المؤشرات الدالة عليها وتتآزر لإثبات هذه الأحقية للإمام (ع) وتستمر في القصيدة تساؤلات الشاعر وتتكثف تكثفاً متراسلاً على حين تغيب إجابات تلك التساؤلات لتصبح الأبيات مليئة بالحيرة والقلق والاندهاش. ومجيء هذا التساؤل والاندهاش على لسان الشاعر يوحي بقوة ما يحتويه الموقف من الدهشة.

---

١. الأفّاك: الكاذب. الأشر: البطر الشرير.

٢. يوم القليب: يريد به معركة بدر الكبرى. والقليب: هو قليب بدر الذي قذف فيه من قتل من قريش. الزور: الميل.

٣. يوم أحد: معركة أحد المشهورة. حنين: وهي واقعة حنين التي انتصر المسلمون فيها. سَلْع: اسم جبل.

٤. التخبّط في عشواء: السير على غير هدى.

٥. أبلج: مسفر، منير، واضح. الشّانين: جمع شانئ وهو المبغض، وقد خفّف الهمزة من الشانئين.

يبدو أنّ مخاطب الأبيات جماعة غير محددة ولكن واقع القصيدة ومناسبتها قد يكشفان هذا الإبهام، فيستطيع قارئ القصيدة أن يقول ـ باطمئنان ـ إن ذلك يعود على مغتصبي الخلافة، وهذا ما سيدركه كل من يعطي أدنى دقّة وملاحظة. ولا بدّ أن نعرف أنّ هذه المعاني ليست هجائية مباشرة لأنّ الشاعر لم يقرنها بالحقد والوتر إلّا أنّها مع ذلك تنطوي على أعمق معاني الهجاء.

وقد جاءت القصيدة بعيدة عن التكلّف والوعورة وهي خفيفة تحمل معناها مباشرة بذاتها، فهي ألفاظ غزلية أو فخرية أو هجائية وفقاً للموضوع الذي يتصدّى له. ففي بيتيْ الغزل ألمّ بالألفاظ التالية: «ربعاك ـ الشوق والفكر ـ دمعاً ـ فاض منتثراً ـ الحزن» وهي ألفاظ تحمل معنى المحبّة لآل البيت (ع). وفي مقام الفخر يتوسّل بـ «الحوض حوضهم ـ الجدّ جدّهم ـ بني التقوى ـ الأعلام والغرر ـ من رسا يوم أحد ـ مولاكم ذا ـ الحقّ أبلج». وأظهر ما يبدو ذلك في مقام الهجاء إذ جمع فيه الألفاظ المزرية بطبيعة دلالتها أمثال «مغائظ ـ لا درّ درّ الأعادي ـ القتل ـ هامات مفلّقة ـ الغواة ـ الأفّاك ـ الأشر ـ الشانين ـ لا تعقل الحمر ـ في أعناقهم زور».

وله قصيدة[١] أخرى طويلة تطرّق فيها إلى حادثة الطفّ وتناول من خلالها مسألة الخلافة من جديد وكرّر أحقيّة الإمام عليّ (ع) وأولاده بالخلافة.

اختلفت أساليب الشعراء الشعرية حول واقعة الطف، فبعضهم اتّبعوا طابعاً كلاسيكيّاً وجاء شعرهم على شكل رثاء حارّ شجيّ يثير المشاعر والأحاسيس، ويركّز على الجوانب العاطفية والروحية للتأثير الكبير. من أهمّ سمات هذا النّوع من الشعر هو الطابع القصصي. أما بعض آخر منهم يميلون إلى الابتعاد من البكاء الخالص أو العزاء المجرّد، بل ينظرون إلى تلك الحادثة من زاوية بعدها الحماسي والثوري، لتكون قدوةً يقلّدها آخرون في مقارعة الظلم والجور والدفاع عن الحقّ والعدالة والإنسانية والحرية. ومن سماته الأخرى استلهام دروس الالتزام والجهاد والتحرك السياسي منها. هذا ما نجده في شعر ديك الجنّ إذ استخدم حادثة

---

١. ديك الجن، الديوان، ص٨٦.

الطفّ لهجاء السلطتين الأموية والعباسية لأنّ الظروف السياسية السائدة تتطلّب من الشاعر أن يطبع شعره بالطابع الذي تحدّثنا عنه:

**يا عَينُ في كَربَلا مَقابِرُ قَد — تَرَكنَ قَلبِي مَقابِرَ الكُرَبِ**[١]

**مَقابِرٌ تَحتَها مَنابِرُ مِنْ — عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَمَنْظَرٍ عَجَبِ**

**مِنَ البَهالِيلِ آلِ فاطِمَةٍ — أَهْلِ المَعالِي وَالسَّادَةِ النُّجُبِ**[٢]

**كَمْ شَرِقَتْ مِنْهُمُ السُّيُوفُ وَكَمْ — رُوِّيَتِ الأَرضُ مِنْ دَمٍ سَرِبِ**

يصوّر الشاعر الأجواء التي خلقها الأمويون لآل البيت عليهم السّلام وقد بلغ في البيت الرابع تصعيداً للحادثة إذ استخدم العدوّ السيّوف وسالت دماء الشيعة وأئمتهم في حرب غير متساوية. كما أنّ الأبيات تعكس غياب الإنسانية من قبل الأمويين إذ تبرز المأساة وتتجلّى متمثّلةً في قاموسٍ ألفاظه هي: «مقابر الكرب، شرقت السّيوف، روّيت الأرض من دم سرب». وجدير بالذكر أنّ الحزن هو الطابع العام في الأبيات المذكورة كما يقول أحد الباحثين إنّه «غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة لكثرة من قتل منهم ولشدّة ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد».[٣]

برع ديك الجنّ من خلال أشعاره في تسجيل حادثة الطفّ وظلم الأمويين وبيان حبّه الشديد لآل الرسول(ص) وحزنه على مصائبهم واحتجاجه للحقوق التي سلبت منهم. اسمعه يقول:

**نَفْسِي فِداءٌ لَكم وَمَنْ لَكم — نَفْسِي وَأُمِّي وَأُسْرَتِي**

**لا تَبْعَدُوا يا بَنِي النَّبِيِّ عَلَى — أَنْ قَدْ بَعُدْتُم وَالدَّهرُ ذُو نُوَبِ**

**يا نَفْسُ لا تَسْأَمِي وَلا تَضِقِي — وَأَرْسَى عَلَى الخَطْبِ رَسْوَةَ الهُضُبِ**[٤]

١. الكرب: جمع كربة، الحزن والكآبة.

٢. البهاليل: جمع بهلول، السّيّد الجامع لكلّ خير. النّجب: جمع نجيب، الكريم الحسب.

٣. محمد حسين، *الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام*، ص٤٢.

٤. لاتَضِقِي: الصواب لاتَضيقي، فقد حذف الياء لإقامة الوزن. الخَطب: الشّأن والأمر صَغُرَ أم عَظُمَ. الهُضُب: جمع

**صُونِي شُعَاعَ الضَّمِيرِ وَأسْتَشْعِرِي　　　الصَّبْرَ وَحُسْنَ العَزَاءِ وَأحْتَسِبِي**[١]

فبعد أن أعلن الشاعر عن حبّه ومودّته لأهل البيت عليهم السّلام يخاطبهم ويدعوهم إزاء الخطوب والأحزان بالصّبر والجلد. وفي الأبيات التالية قارن الشاعر بين الأمويين وشيعة أهل البيت وأئمتهم:

**فَالخَلْقُ فِي الأرْضِ يَعْجَلُونَ وَمَوْ　　　لاكَ عَلَى تُؤَدٍ وَمُرْتَقَبِ**[٢]

**لابُدَّ أنْ يُحْشَرَ القَتِيلُ وَأنْ　　　يُسْألَ ذُو قَتْلِهِ عَنِ السَّبَبِ**

**فَالوَيْلُ وَالنَّارُ وَالثُّبُورُ لِمَنْ　　　قَدْ أسْلَمُوهُ لِلْجَمْرِ وَاللَّهَبِ**[٣]

يقول الشاعر إنّ الأمويين يعجلون في شؤونهم كما أنّهم يفرطون في ظلمهم وطغيانهم ضدّ الشيعة في حين أنّ أئمة الشيعة يتّسمون بالرّزانة والتّأني وهم دائماً تحت عيون السلطة الطاغية. أليس هذا هجاء سياسي؟ ثمّ أنحى ديك الجنّ باللوم والتهجّم على قاتلي الإمام الحسين عليه السّلام الذين خانوا بقتله عهد النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، إذ يقول: إنّ الإمام الحسين (ع) يحشر يوم القيامة، والأمويّون يسألون عن الجرائم التى ارتكبوها، وأخيراً يدعو عليهم بالهلاك والنّار من أجل تلك الجرائم البشعة.

وجد ديك الجن في رثاء الإمام الحسين (ع) مجالاً واسعاً لحمل الرؤية الإنسانية المليئة بالإشفاق والرحمة كما أنّه وجد فيه مجالاً خصباً لهجو السلطات الحاكمة، إذ يرى أنّ أئمة الشيعة أفضل الخلائق وهداة المجتمع في الظلمات، وساسة حوض النّبيّ(ص) يوم القيامة، وهم دائماً معرضون للقتل كما أنّ حقّهم في الخلافة قد سلب على أيدي أعدائهم.

**يَا صَفْوَةَ اللهِ فِي خَلائِقِهِ　　　وَأكْرَمَ الأعْجَمِينَ وَالعَرَبِ**

---

هَضبَة، الجبل المنبسط على الأرض ذو الجبل خُلِقَ من صخرة واحدة.

١. استشعر: لَبِسَ، والشّعار: القميص الذي يرتديه الإنسان على جسده مباشرة. احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتدّه ينوي به وجه الله.

٢. التُّؤدة والوئيد والتّودد: الرّزانة والتّأني. وتوأدت عليه الأرض: غيّبته وذهبت به.

٣. الثّبور: الهلاك والويل.

| | |
|---|---|
| أنـــــتُم بُــــدُورُ الهُـــدَى وَأنجُمُـــهُ | وَدَوْحَـــةُ المَكرُمـــاتِ وَالحَسَـــبِ |
| وَسَاسَـــةُ الحَـــوْضِ يَـــوْمَ لا نَهَـــلٌ | لِمُـــورِدِيكم مَـــوَارِدَ العَطَـــبِ[1] |
| فَكَـرْتُ فِـيكم وَفِـي المُصَـابِ فَمَـا أنْـ | ـــفَكَ فُـؤادِي يَعُـومُ فِـي عَجَـبِ |
| مَـــا زِلْـــتُم فِـــي الحَيـــاةِ بَيْـــنَهُمُ | بَـــيْنَ قَتِيـــلٍ وَبَـــيْنَ مُسْـــتَلَبِ |

ولاستيعاب جوانب الهجاء السياسي لابدّ لنا أن ندرس الظروف السياسية زمن الشاعر. يتّضح من دراسة حياة الشاعر أنّه كان معاصراً لسبعة من خلفاء بنى العباس، ولد أيّام خلافة المهدي ومات زمن خلافة المتوكل. لاشك أنّ الشاعر سمع منذ ترعرعه صدى ثورات الشيعة التى تزّعمها الموالون للشيعة كما أنّه سمع ورأى إسراف العباسيين في اضطهادهم وسفك دماء الشيعة ومواليهم إذ كانت سياسة الشّدة واتّخاذ مواقف عنيفة ضدّ الشيعة عاملاً رئيساً في بداية تلك الثورات، كما أنّ تلك السياسة كانت تقليديةً متوارثة عند الخلفاء العباسيين. كان شعراء الشيعة يتعرضون للملاحقة والمطاردة والاضطهاد سواء في الحكم الأُموي او الحكم العبّاسي كلّ من تتحدّث نفسه بالثورة ضدّ العباسيين كان السجن والتنكيل بانتظاره فلذلك كان طبيعيّاً أن يتّخذ كثير من شعراء الشيعة في هجائهم ونقدهم للأجواء السياسية طريق التعريض وعدم الصّراحة.

هذه المسألة تتضح بوضوح في الأبيات التي قدّمناها، لأنّ ديك الجنّ عندما يتكلّم عن أئمة الشيعة ويذكر مناقبهم ويراهم أفضل الخلق في العالم كأنّه يقول بصورة غير مباشرة إنّ العباسيين وخلفائهم ليسوا شيئاً في مقارنتهم بأئمة الشيعة، وقديماً رأى ابن الرشيق أنّ التعريض في الهجاء أبلغ من التصريح.

كانت مسألة الخلافة من الموضوعات الهامّة التي تطرّق ديك الجنّ إليها في قصيدته هذه ونراه قد خصّها بأكثر من عشرة أبيات كما يلي:

---

١. الحوض: مجتمع الماء. والمقصود هنا حوض النّبيّ (ص) الذي يسقى منه أمّته يوم القيامة. النّهل: أول الشّرب. العَطَب: الهلاك.

قَدْ كانَ فِي هَجْرِكم رِضَىً بِكُمُ ... وَكَم رِضَىً مُشْرَجٌ عَلَى غَضَبِ[١]

حتّى إذا أوْدَعَ النَّبِيُّ شَجاً ... قَيْدَ لَهَاةِ القَصَاقِصِ الحَرِبِ[٢]

مَغْ بَعِيدَينِ أحْرَزَا نَسَباً ... مَغْ بُعْدِ دارٍ عَنْ ذَلكَ النَّسَبِ

ما كانَ تَيْمٌ لِهَاشِمٍ بِأخٍ ... وَلا عَدِيٌّ لِأحْمَدٍ بِأبِ[٣]

لكنْ حَدِيثَا عَدَاوَةٍ وَقِلَىً ... تَهَوَّرَا فِي غَيابَةِ الشُّقُبِ[٤]

قَامَا بِدَعْوَى فِي الظُّلمِ غَالِيَةٍ ... وَحُجَّةٍ جَزْلَةٍ مِنَ الكَذِبِ[٥]

مِنْ ثَمَّ أوْصَى بِهِ نَبِيُّكُمُ ... نَصَّاً فَأبْدَى عَدَاوَةَ الكَلِبِ

لقد كانت هذه الأبيات الشعرية الغاضبة هجاء لاذعاً يقذف سيلاً من الحمم في وجه المغتصبين، فتحوّل أسلوبه إلى سهام قوية تسدّد إلى صدور الخصوم وتصبّ الويل وتندّد بالظلم والعسف والبعد عن وصايا الرسول الأعظم (ص).

فيشير ديك الجن في البيت الأول إلى هجر قريش لِبني هاشمٍ وكتابة الصّحيفة قائلاً إنّكم وإن كنتم مرتاحين لذلك الأمر إلّا أنّ السخط والامتعاض كانا وراءه.

كان يلحّ ديك الجنّ خلال الحكم العباسي على موضوع الغدير ليصحّح مبدأ النصّ في الخلافة، ومن هنا ينفعل انفعالاً شديداً عندما يرى اعتداء التاريخ على هذه الحقيقة. وإذا كان ديك الجن يوسّع هذا الأمر (الحديث عن حقّ الإمام عليّ) إلى عصر بني العباس فذلك لأنّه يراهم استمراراً للطواغيت. اسمعه يقول:

---

١. المشرَج: المشدود، المربوط. والبيت يشير إلى هجر قريش لِبني هاشمٍ وكتابة الصّحيفة.

٢. الشّجا: ما اعترض في الحلق من عظم وغيره. اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق.القصاقص: القويّ. الحَرِب: الشّجاع.

٣. تيم: هو تيم بنُ مرّة بن كعب بن لُؤَيٍّ رهط أبي بكر.عديّ: رهط عمر بن الخطاب.

٤. القِلى: البغض.الشُّقُب: المهاوي بين الجبال.

٥. الجزل: الكثير العظيم من كلّ شيء.

**وَمِـــنْ هُنَـــا انْبَـــرَى الزَّمـــانُ لَهُـــم بَغْـــدَ الْتِيـــاطٍ بِغَـــارِبٍ جَشِـــبِ**[1]

**لا تَسْـــلُقُونِي بِحَـــدِّ أَلْسُـــنِكم مـــا أَرَبُ الظَّـــالِمِينَ مِـــنْ أَرَبِـــي**[2]

لقد كتم الشاعر هنا المعنى الهجائي وأضمره من خلال المشاهد التي جسّدها فجاء غير مباشر إذ يقول إنّ الزمن انقلب عليهم وأظهر لهم وجهه الخشن بعد أن كان لهم، ثمّ يخاطب أعدائه قائلاً: لا تؤذوني بأقوالكم الباطلة لأنّ مذهبي غير مذهبكم.

من الأبيات السابقة يُلاحَظ أنّ الشاعر كان يتشيع لآل البيت عليهم السلام وكان منطق الظرف السياسي يحتم أن تظلّ هذه النزعة ضعيفة في العلن تناسقاً مع جانب السلب ومع ما كان يخطط لتصفية العلويين في بلاط المتوكل. ومن هنا هدم قبر الإمام الحسين (ع) ومنع الناس من زيارته.

إذا قدّر لنا أن نحلّل هذه القصيدة في حدود الدلالة الفنية نقول إنّها انطوت من الهجاء السياسي على المقدمات التالية:

أـ اعتمدت الألفاظ التي تنطوي على المعاني الهجائية بطبيعة لفظها وأدائها. من ذلك قوله: " مقابر الكرب ـ شرقت منهم السّيوف ـ دمٍ سرب ـ الويل ـ النّار ـ الثّبور ـ الجمر واللهب ـ قتيل ومستلب ـ مشرج على غضب ـ قيد لهاة قصاقص الحرب ـ حديثا عداوة وقلى ـ غيابة السقب ـ عداوة الكلب ـ غارب جشب ـ أرب الظالمين ".

إنّنا لو نظرنا في هذه الألفاظ وما لم نذكرها مجتمعة بذاتها غير مرتبطة في سياق العبارة أو القصيدة أو الموضوع لوجدنا أنّها تعبّر بذاتها عن نفس غاضبة ساخطة ائتلفت فيها ألفاظ السخط والهجو. إلّا أنّه ليس سخط الحقد والنقمة، بل سخط الحقّ على الباطل والصدق على الكذب والوفاء على الغدر.

---

١. انبرى لـ: تصدّى لـ. التياط: من التاط بقلبي: لصق به، أحببتُه. الغارب: ج غوارب، الكاهل أو بين الظهر أو السنام والعنق. جشب: غليظ.

٢. سلقه بالكلام: أذاه. ومنه: سلقه بألسنة حداد: بالغ في إذاه.

ب ـ تنطوي هذه الأبيات مجتمعة على تحليل عميق لنفسية الأمويين الذين جاروا في الأرض وقتلوا حفيد الرسول الأعظم (ص) ولا نتصوّر جناية أكبر من ذلك.

كان ديك الجن من شعراء الشيعة الذين ظلّ في شعره يحتك بالجانب الفكري والعاطفي من عقيدة الشيعة معاً. يتجلّى الجانب الفكري في دفاعه عن أحقية الإمام عليّ للخلافة. وفي الجانب العاطفي يظل رثاء الإمام الحسين عليه السّلام هو الموضوع الذي يستأثر باهتمامه.

كان ديك الجن قد حمل لواء المعارضة الشيعية للحكم القائم سواء كان أموياً أم عباسياً، وكان شعره مرآة صافية صادقة ينعكس عليها إيمانه وتقواه وانتصاره لمعتقدات فرقة الشيعة.

## هجاء ديك الجنّ السياسي المتعلق بالعصر العباسي

كان للشيعة في العصر العباسي شعراؤهم الذين آثروا أن يوجّهوا ولاءهم إلى الأئمة (ع) ويعبّرون عن آرائهم ونحوهم وانصرفوا عن الخلفاء العباسيين رغم أنّهم أصحاب الجاه والسلطان، وكان ديك الجنّ أشهرهم في العصر العباسي بعد دعبل الخزاعي والسيد الحميري.

كان ديك الجنّ مراقَباً من قبل السلطة العباسية، ذلك لأنّه كان يقف في صفوف المعارضة الشيعية المناصرة لآل البيت وحقّهم في الخلافة، وكان يمضُّه إحساس حادّ بالألم الغاضب بسبب إخفاق المعارضة المتوالي في الوصول إلى مواقع السّلطة واستعادة الحقوق المسلوبة.كان التّضاد بين التعبير عن رأيه والخوف من التعبير ينهكه ويضنيه:

**أبكيكمُ يا بَنِي التَّقْوَى وَأعْولُكم وَأشْرَبُ الصّبْرَ وَهُوَ الصّابُ وَالصّبرُ**

إنّه لا يستطيع إلّا الصّبر كما أنّه لا يستطيع التّصريح باسم أعدائهم فيكتفي بهذا الرمز المتسائل:

**وَا حَسْرَتَا مِنْ غَضَبِهِ وَسُكوتِهِ واحَسْرَتَا**
**طَالَتْ حَيَاةُ عَدُوِّهِ فَإلَى مَتَى وَإلَى مَتَى**

لقد كان ديك الجنّ كالمتنبّي في طموحاته الكبيرة، ولكنّه كان يقف في صفّ المعارضة

السياسية، وقد حرمه انتماؤه إلى الشيعة بلوغَ ما كان يريد كما حرمته نفسه الكبيرة التي لا ترى فوقها أحداً، الاتّصالَ بالسّلطة العباسية والتقلّب في مناصبها التي سبقه إليها جدّه رغبان.

كان هذا الشاعر من الناقمين على السلطة العباسية فلم يجد أمامه سبيلاً للمجاهرة بالعداء إلّا رثاء الإمام الحسين عليه السّلام ومديح أهل البيت عليهم السّلام الذين كانوا قذىً في أجفان العباسيين وشوكةً في جنوبهم.

لم يمدح أحداً من الخلفاء أو الولاة أو القادة أو حتى من له أدنى صلة بالبلاط العباسي ولم يبع شعره على السلاطين والامراء ولم يتزلف بشعره إلى أحد على غير عادة أغلب شعراء ذلك العصر، الذين كانوا يأتون من أقاصي البلاد فتمتلئ بهم مجالس الخلفاء والولاة وهم يتسابقون إلى اكتساب الجوائز والهبات، بل كان ديك الجنّ متعففاً عن قصد الملوك متفرداً في شعراء عصره حتى إنه لم يفارق الشام قاصداً خلفاء بني العباس ببغداد وكان يتشيّع تشيّعاً حسناً.

لم تكن لديك الجن علاقات واسعة برجالات عصره «لأنّه لم يبرح نواحي الشام قطّ ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد».[١] وأغلب الظنّ أنه قضى معظم أيّامه في مدينة حمص، فلم يدخل العراق قبلةَ الشعراء والعلماء في عصره ولم يفد على بلاطات خلفائه ووزرائه وأمرائه، لأنّه لم يكن شاعراً مدّاحاً مكتسباً بشعره، وفي ظنّي أنّ ما منعه من الانتجاع والتكسب بشعره أمران:

الأوّل: مذهبه السياسي المعارض لسلطة بني العباس فهو شيعيّ يدافع عن آل البيت ويهاجم أعدائهم. ونرى صاحب الأغاني يقول فيه: «كان يتشيع تشيعاً حسناً وله مراث كثيرة في الحسين بن عليّ عليهما السّلام».[٢]

الثاني: طبيعة تكوينه النفسي ومزاجه العفيف المترفع وتمرّده ورفضه لمجتمعه. لقد كان

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٤ ص٥٣.

٢. السابق، جـ ١٤ ص٥٣.

له من أنفته واعتداده بنفسه ما يمنعه من المديح وتلقي الهبات والمكافآت.

لقد نفينا عن الشاعر صفة المدّاح ولكنّ هذا لا يعني أنّه لم يمدح أحداً قطّ لقد مدح جعفراً وأحمد الهاشميين، ولكن هذا المديح لا يثبت عليه صفة التكسب وإن كان يستعين بهما أحياناً في حلّ أزماته المالية. لقد كانت علاقته بهما علاقة صداقة حميمة وكان دائم التردّد عليهما في سَلَمية موطن إقامتهما، لأنّهما كانا وجوه بني هاشم في بلاد الشام، وكان ديك الجن شيعياً متحزباً لآل البيت فكان مديحه لهما ضرباً من الموقف السياسي إنّه يمدح آل البيت جميعاً في شخصيهما.

أدّى فساد الحياة السياسية في العصر العباسي إلى ضعف الأثر الديني في النفوس، والحقيقة أنّ كثيراً من المسلمين بعدوا عن الدين القويم، ولا شك أنّ ضعف العقيدة الدينية كان له الأثر الأعظم في العصر العباسي حيث كثرت المظالم والمفاسد. فلا عجب إذن أن يهاجم ديك الجن الأمراء والحكام وأصحاب الزعامة والسياسة متهماً إيّاهم بتورّطهم في هذا الأمر، فلذلك نراه قد تطرّق إلى ذلك وجعل من هذه القضية موضوعاً رئيساً وهامّاً في هجائه السياسي وعمليته النقدية الإصلاحية ومضى ينتقد رجال الدين لأنّهم غفلوا عن أداء واجباتهم. له مقطوعة تناول فيها المسائل الدينية ورقّتها من خلال طابع ساخر:[1]

**خَلِّ بَيني وَبَينَ حُبِّ المُدَامِ ... وَأَغْنِنِي مِنْ مَسَائِلِ ابْنِ سَلّامِ**

**أَنَا مَالِي وَلِلصِّيامِ وَقَدْ حَا ... نَ عَلَى المُسْلِمِينَ شَهْرُ الصِّيامِ**

**تَارِكاً لِلْجِهَادِ وَالحَجِّ وَالعُمْـ ... ـرَةِ وَالحِلِّ رَاغِباً فِي الحَرَامِ**

**وَاسْقِنِي يَا أَخَا المُدَامَةِ كَأْساً ... مِنْكَ مَمْزُوجَةً بِمَاءِ الغَمَامِ**

**وَاقِفاً بَينَ فَتْكَةٍ وَمُجُونٍ ... رَاقِصاً فِي الصَّلاةِ خَلْفَ الإمَامِ**

**أَنَا لا أَطْلُبُ الحَلالَ لأَنِّي ... قَدْ وَجَدْتُ الحَرَامَ خَيْرَ طَعَامِ**

**قَدْ غَنِينَا بِالرَّطْلِ عَنْ كُلِّ حَقٍّ ... فَلِهَذا الشَّيطانُ يَرْعَى ذِمَامِي**

---

١. ديك الجن، الديوان، ص٢٣٣.

فسخرية ديك الجنّ ليست مثيرة للدهشة أو الغرابة بل أصبحت وسيلة جذب وإثارة، لأنّها تخرج الأمور عن الطبيعة المألوفة التي اعتادها النّاس. لاشك أنّ ما يظهر من الشاعر من استهتار ببعض القيم الدينية لا يعدّ موقفاً فكرياً منه بل هو امتداد لهجائه السياسي للسلطة الحاكمة التي سبّبت خفّة الروح الدينية في المجتمع.

هذه الأبيات التي قدمناها كأمثلة للهجاء السياسي تنبّهنا إلى ظاهرة جديدة في هجاء القرن الثاني وأوائل القرن الثالث وهى «اهتمام الشعراء بتركيز هجائهم على الانحراف الديني عند المهجوّ».[1] كان ديك الجن مخلصاً أشدّ الإخلاص لدينه وكان دائم الحرص على الحضّ على التمسك بدين الله لما فيه من فائدة ومتعة. فقد عبّر عن شعوره هذا تعبيراً عنيفاً فانتقد فساد عصره الديني أعنف نقد وصوّر ما شاع في عصره من ارتكاس الشؤون الدينية.

رغم المكانة العالية لشعراء الشيعة في عالم الأدب، ورغم نتاجاتهم الغزيرة، إلا إنهم لم يحظوا بالقسط العادل من الإهتمام. وكانت هناك محاولات لطمس معالم شخصياتهم الشعرية. ولعل من الاسباب الرئيسية وراء ذلك سيطرة الحسابات السياسية والطائفية على الدوافع الموضوعية، فلقد أرادت السلطة العباسية أن يظهر شعراء الشيعة الذين يتعارضون مع سياساتها المعادية للإسلام غير متدينين.

كان ديك الجنّ أحد أكبر شعراء العصر العباسي وكان ذا عزّة نفسٍ يناضل الظلم والطغيان. لقد عاش في عصر ثمانية من خلفاء بني العباس مثل المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. والملاحظة الهامّة في حياته هى أنّه لم يقترب من هؤلاء ولم يقل بيتاً واحداً في مديحهم.لم يمدحهم ولم يقبل ضيمهم وآثر الموت على الحياة المقرونة بالذلة والهوان. اسمعه يقول:[2]

**لا تَقِفْ لِلزَّمانِ فِي مَنْزِلِ الضَّيْـ ـمِ وَلا تَسْتَكِنْ لِرِقَّةِ حالِ**

---

١. هدارة، ص٤٢٦.

٢. ديک الجن، الديوان، ص ٢٠٧.

**وَإنْ خِفْتَ أنْ يُرَاهِقَكَ العُدْمُ فَعُذْ بِالمُثَقَّفَاتِ العَوالِي**
**وَأَهِنْ نَفْسَكَ الكرِيمَةَ لِلْمَوْتِ وَقَحِّمْ بِهِا عَلَى الأَهْوَالِ**
**فَلَعَمْرِي لَلْمَوْتُ أَزْيَنُ لِلْحَيِّ مِنَ الضُّرِّ ضَارِعَاً لِلرِّجَالِ**
**أيُّ مَاءٍ يَدُورُ فِي وَجْهِكَ الحُرِّ إذَا مَا امْتَهَنْتَهُ بِالسُّؤالِ**

خاطب الشاعر نفسه قائلاً: لا تستسلمى أمام الظلم، ولا تقبلي الضيم من أجل سوء الحال. وإذا خفتِ من سوء الحال فأقبلى على السيف والرمح. وهيّئي نفسك للموت وأدخلي مداخله الصعبة. ونراه يقسم بنفسه ويقول: إنّ الموت أحسن من حياة الذلّة. ولا يبقى لك ماء الوجه إذا استسلمت أمام الطغاة.

يعتقد الشاعر أنّ الانسان يجب أن يطلب من الله فقط:

**وأغِثْ وَاسْتَغِثْ بِرَبِّكَ فِي الأزلِ إذا جَلَّحَتْ صُرُوفُ اللَّيَالِي**

كان يهجو الحكام القاصرين والظالمين كما أنّه كان يسخر من الرعيّة التي كانت تحت سيطرتهم ويخاطبهم قائلاً:[١]

**الْكلْبُ فَوقَ أُناسٍ أنْتَ مَالِكهُم وَنِعْمَةُ أنْتَ فِيهَا عِنْدَنَا نِقَمُ**
**وَإنَّ دَهْرَاً عَلَوْتَ النَّاسَ كلَّهُم فِيهِ فَبِالجَهْلِ وَالخِذْلانِ مُتَّهَمُ**

يقول: إنّ أناساً أنت تحكمهم أذلّ من الكلب والذي تعطيه أنت ليس نعمة بل هو النقمة والبؤس. وإنّ العصر الذي حكمت الناس فيه متهم بالجهل والرذالة، وإذا لم يكن الأمر هكذا فأنت لم تستطع أن تحكمهم.

ونراه يهجو أهل الحمص برمّتهم قائلاً:[٢]

**سَمِعُوا الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ تَوالى فَتَفرَّقُوا شِيَعَاً وَقَالُوا لا لا**
**ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى الصَّلاةِ إمامُهُم فَتَحَزَّبُوا وَرَمَى الرِّجالُ رِجالا**

---

١. السابق، ص٢٢٣.

٢. السابق، ص١٩٠.

**يـا آلَ حِمْـصَ تَوَقَّعُـوا مِـنْ عَارِهـا خِزْيَـا يَحُـلُّ عَلَـيكم وَبَـالا**
**شَـاهَتْ وُجُـوهُكم وُجُوهـاً طَالَمـا رَغِمَـتْ مَعَاطِسُـها وَسَـاءَتْ حَـالا**
**إنْ يُـثْنَ مَـنْ صَـلّى عَلَيْـهِ كرَامَـةً فَاللـهُ قَـدْ صَـلّى عَلَيْـهِ تَعَـالَى**

ولا نرتاب في أنّ بعض هذه الأبيات كان يردّدها النّاس في مدينة الشاعر أيّام حياة الشاعر وبعد موته، فكلّ بيت منها يثير ويحمّس.

## قيمة شعره

إنّ ديك الجنّ واحد من الشعراء الكبار في العصر العباسي الأول وكان يعدّ أكبر شاعر شيعيّ في الشام في تلك الفترة وهو «شاعر مجيد يذهب مذهب أبي تمام والشّاميين في شعره».[1] وقد أجاد في فنون الشعر إجادةً بحيث عدّ مفلّقاً في المحدثين.[2]

وعلى الرغم من تباين مذهب الشاعر السياسي مع أكثر شعراء عصره لم يتخلّف عن موكب الشعر والشعراء بل كان «ندّاً لكبار شعراء زمانه مثل أبي نواس ودعبل الخزاعى، كما كان أستاذاً لكبار شعراء العربية من أمثال أبي تمام والمتنبي والوأواء الدمشقي».[3]

قيل إنّ دعبلاً الخزاعي «وفد على حمص وقصد إلى دار ديك الجن يبغى لقاءه، ولكن ديك الجن لم يرد أن يواجهه خوفاً منه تماماً مثلما فعل مع أبي نواس، وهنا يقول دعبل: ما له يستتر عنّا وهو أشعر الجنّ والإنس».[4]

---

١. أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٤ ص ٥١.
٢. انظر: الثعالبي، ص٦٩.
٣. الشكعة، ص ٥٨٠.
٤. السابق، ٥٨١.

# الفصل السادس: دراسة فنية لشعر الهجاء السياسي

## صياغة الأشعار الهجائية السياسية

اتّخذ شعر الهجاء السياسي في العصر العباسي الأول عند شعراء الشيعة الثلاثة الذين تحدّثنا عنهم في الفصول السابقة ـ في معظمه ـ القطع الشعرية والأبيات المحدودة شكلاً تعبيرياً له، فجاءت أشعارهم الهجائية بشكل مقطوعات قصيرة محددة الأبيات لا تتجاوز العشرة، وأحياناً نراهم وخاصّة دعبل الخزاعي ربّما اكتفى ببيتين اثنين أوثلاثة ليبرز مشاعره الغاضبة ويظهر نقده وسخطه حيال مهجوّه بشكلٍ لاذعٍ ومركزٍ. ويبدو أنّ نظم الهجاء بشكل مقطوعات قصيرة ظاهرة فنيّة عامّة تُلمَح عند أغلب شعراء الهجاء «لأنّ الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورةً ليبلغ الشاعر بأبياته القليلة التي يركز فيها على معان محددة ليصل إلى ما يرجوه من سرعة إيلام المهجوّ، وما يتمنّاه من سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس».[١]

فالإقبال على المقطوعات القصيرة بدت رغبة لدى هؤلاء الشعراء الثلاثة في هجوهم، لأنّ القارئ يمكن له حفظها بسهولة كما أنّها أسرع شيوعاً وانتشاراً على لسان الشّعب، وكلّما تناقلها الشّعب فيما بينهم تصبح أكثر إيذاءً وأشدّ إيلاماً على المهجوّ. هذا ما سعى إليه شعراء الشيعة الثلاثة في العصر العباسي الأول.

يكاد يتّفق النقّاد والشعراء على أفضلية مقطوعات قصيرةٍ على مقطوعات طويلة في فنّ الهجاء لأنّ «قصره أوكد لذيوعه وخطورته، وثقل موقعه على المهجوّ».[٢] نرى كثيراً من القدماء

---

١. هدارة، ٤٢١.

٢. محمد حسين، *الهجاء والهجاؤون في عصر صدر الإسلام*، ص١٠٢.

يفضّلون المقطوعات الهجائية القصيرة؛ وقد سئل ابن الزِّبَعري[١] «أنك تقصِّر أشعارك فقال: لأنّ القصار أولج في المسامع وأجول في المحافل».[٢]

وسئل الحطيئة: «ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ قال: لأنّها في الآذان أولج وفي الأفواه أعلق».[٣] وقيل لعقيل بن علّفة[٤]: «لم لا تطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق».[٥]

وقد أيّد ظاهرة المقطوعات الهجائية القصيرة، وأكد شدّة تأثيرها في النفس وجهات نظر كثير من الشعراء والنّقاد رغم انقسام الشعراء إزاء المقطوعات إلى قسمين: «قسم كان يفضّل القصيدة القصيرة في أغراض الشعر جميعها، وآخر كان يفضّلها في الهجاء فقط».[٦]

يتّضح مما ذكرنا أنّ هؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا يدركون أهميّة الإيجاز والاختصار في الهجاء، فهو أسرع انتشاراً، فضلاً عن التشهير بالمهجوّ وتشويه سمعته بين الشّعب. إذ يتحقق ذلك بالألفاظ الموجزة والمعاني المركزة التي يستطيع الهجّاء من خلالها تحطيم خصمه وإسكاته لما له من وقعٍ شديد في النفس.

ظلّ الاعتماد على المقطوعات الهجائية القصيرة ظاهرة فنيّة بارزة يلحظها الدارس عند غالبية الهجّائين خلال فترة سلطة العباسيين، وعند غيرهم من شعراء العصور السابقة، وهو ما أشار إليه أحد الدارسين بقوله: «إنّ الشعراء مالوا منذ اوائل القرن الأول الهجري إلى

---

١ . هو عبدالله بن الزبعري بن سعد بن سهم، من شعراء مكة الذين ناصبوا الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم العداء؛ توفّي سنة ١٥هـ (انظر: ابن سلام ١:٢٣٣).

٢. الحُصري، جـ ٢ ص٦٣٩؛ وابن رشيق، جـ ١ ص١٨٧.

٣. أبوهلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة ٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٧٩.

٤. هو عقيل بن علفة بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عطفان يكنّى أبا الوليد توفي سنة ١٠٠هـ (الآمدي ٢٠٨).

٥. السابق، ص١٧٩.

٦. بكار، ص٣٢١.

المقطوعات الهجائية لأنّها أسرع ردّاً وأبعد تأثيراً وأسهل ذيوعاً. فكثيرٌ من المناسبات والظروف الطارئة تستدعي قصير الهجاء».[١]

## الظواهر الفنية في القصائد والمقطوعات الهجائية

وهناك ظواهر فنية يلمحها الدارس في تلك المقطوعات الهجائية تميّزت بها واعتبرت من السّمات والخصائص التي يجب ذكرها.

## وحدة الموضوع

تميّزت المقطوعات الهجائية عند شعراء الشيعة الثلاثة خاصّة دعبلاً بمحدودية أبياتها، مما أعطاها وحدة الموضوع والمشاعر التي عبّر عنها الشاعر، ونحن نلمح هذه الظاهرة في كثير من المقطوعات الهجائية. فعلى الرغم من قلّة أبياتها «فهي حافلة بالعاطفة الفياضة والمشاعر المتأججة، لأنّها دفقات شعورية قوية الانفعال، شديدة التأثير. فكلّما كانت القصيدة أقرب إلى القصر، أو إلى شكل المقطوعة زادت حدّتها الشعورية والفنية معاً».[٢]

لمّا كان شعر الهجاء السياسي مقطوعات قصيرة فقد تحققت فيها الوحدة الفنية إلى حدٍّ بعيد فالموضوع واحد والمعاني من وادٍ واحد، وقد برزت تلك الوحدة الموضوعية في تحلّل شعراء الشيعة الهجّائين في هذا العصر من البدايات التقليدية التي نهجها سابقوهم في قصائدهم، فأعطتهم الحرية الكاملة في التعبير عن مواقفهم. وبدا للباحث أنّ هذه الظاهرة اقتصرت على نماذج الهجاء السياسي والاجتماعي، ففي تلك المقطوعات الهجائية غلبت الوحدة الموضوعية، والعاطفة الواحدة على أشعارهم لقلّتها ومحدودية قضاياها.

كثيراً ما يذهب دعبل في نقده للخلفاء والولاة والقوّاد والقضاة العاملين في السلطة العباسية هذا المذهب، ومن الشّواهد التي تمثّل تلك الظاهرة هجاؤه للمعتصم:[٣]

---

١. التميمي، قحطان رشيد. اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار الميسرة، بيروت، د.ت، ص٣٣٠.

٢. القط، ص١٣٣.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٠٧.

بَغْـــدادُ دارَ الملُـــوك كانَـــتْ حَتّـــى دَهَاهـــا الّـــذِي دَهَاهـــا
مـــا غـــابَ عَنْهـــا سُـــرورُ مُلْـــكٍ عَـــاد إلـــى بَلْـــدَةٍ سِـــواها
لَـــيسَ سُـــرُورٌ بِسُـــرَّ مَـــنْ رَأى بَـــلْ هـــيَ بُـــؤسٌ لِمَـــنْ يَرَاهـــا
عَجّـــلَ رَبّـــي لَهـــا خَرابَـــاً بِـــرَغْمِ أنْـــفِ الّـــذي أبْتَنَاهـــا

ولعلّ أجمل الشواهد التي يُتَمَثَّل بها للوحدة الموضوعية في نطاق الهجاء السياسي أبيات لديك الجنّ ينتقد الأوضاع الدينية السائدة في المجتمع العباسي ومدينة حمص خاصّةً:[1]

أنَـــا مَـــالي وَلِلصِّـــيامِ وَقَـــدْ حـــا نَ عَلَـــى المُسْـــلِمينَ شَـــهْرُ الصِّـــيامِ
تَاركـــاً لِلجِهـــادِ وَالحَـــجِّ وَالعُمْـــ ـــرَةِ وَالحِـــلِّ رَاغِبـــاً فِـــي الحَـــرَامِ
وَاقِفَـــاً بَـــينَ فَتْكَـــةٍ وَمُجُـــونٍ رَاقِصـــاً فِـــي الصَّـــلاةِ خَلْـــفَ الإمـــامِ
أنَـــا لاأطْلُـــبُ الحَـــلالَ لِأنّـــي قَـــدْ وَجَـــدْتُ الحَـــرَامَ خَيْـــرَ طَعـــامِ

وهذا هو السيد الحميري يهجو الخوارج:[2]

خَـــوَارِجُ فَـــارِقُوهُ بِنَهْـــرَوَانَ عَلَـــى تَحْكيمِـــهِ الحَسَـــنِ الجَمِيـــلِ
عَلَـــى تَحْكيمِـــهِ فَعَمُـــوا وَصَـــمُّوا كتَـــابَ اللـــهِ فِـــي فَـــمِ جِبرَئِيـــلِ
فَمَـــالوا جَانِبَـــاً وَبَغَـــوا عَلَيـــهِ فَمَـــا مَـــالُوا هُنَـــاك إلَـــى مُمِيـــلِ
فَتَـــاهَ القَـــومُ فِـــي ظُلْـــمٍ حَيَـــارَى عُمَـــاةً يَعْمَهـــونَ بِـــلَا دَليـــلِ
فَضَـــلُّوا كالسَّـــوائِمِ يَـــوْمَ عِيـــدٍ تُنَحَّـــرُ بِالغَـــدَاةِ وَبِالأصِـــيلِ
كَـــأنَّ الطّيـــرَ حَـــوْلَهُم نَصَـــارَى عُكوفـــاً حَـــوْلَ صُـــلْبَانِ الأبِيـــلِ

إذا دقّقنا في تلك النماذج من المقطوعات الهجائية نجدها بعيدةً عن التعقيد، تبدو فيها بساطة التعبير والعفوية التي لا تكلّف فيها، ويدور موضوعها حول فكرة واحدة، وتلك خصائص تساعد على سهولة حفظها وسرعة انتشارها. وهذا ما سعى إليه شعراء الشيعة الهجاؤون

---

١. ديك الجن، الديوان، ص٢٣٣.

٢. الحميري، الديوان، ص١٦٣.

ليضمنوا لمقطوعاتهم الهجائية السيرورة والتعلّق بالأفواه.

## الصورة القصصية

وأحياناً نرى شعراء الشيعة الثلاثة يعتمدون في قصائدهم ومقطوعاتهم الهجائية على أسلوب قصصي، ولم يكن توظيف الصورة القصصية في هجائهم إلّا بقصد تحطيم مهجوّيهم ونقد شؤونهم السياسية والاجتماعية، ولما في هذا الأسلوب من اتّساع لتفصيل الكلام. هذا هو دعبل الخزاعي يستعين بهذا التقنية الفنية ونراه يتولّى «نقل ما يجرى بمفرده، ولا تخرج لغة الخطاب من زمامه، وهذا أسلوب تسجيلي تصويري».[1] اسمعه يقول في هجاء ابن عمران من ولاة السلطة العباسية:[2]

| | |
|---|---|
| **أَتَيتُ ابنَ عِمْرَانَ فِي حَاجَةٍ** | **هُوَيِّنَةِ الخَطْبِ فَالتَاثَهَا** |
| **تَظَلُّ جِيَادِي عَلَى بَابِهِ** | **تُرُوثُ وَتَأْكُلُ أَرْوَاثَهَا** |
| **غَوَارِثَ تَشْكُو إلَىَ الخَلَا** | **أَطَالَ ابنُ عِمْرانَ إغْرَاثَهَا** |

ويلاحق دعبل في سخريته ابن عمران بأنّه لايترك أملاً يتحقق عنده، وإن كان سهلاً هيّناً، فمن يقصده في أمرٍ ما، يظل واقفاً على بابه زمناً طويلاً، يعانى من شدة الجوع والعطش. وأشد من هذا معاناة جواده الذي يضطر إلى أكل روثه، طلباً للحياة، بعد أن حُرِم الطعام. ونرى الشاعر هنا يستخدم بعض عناصر فنّ القصّة في شعره مثل الحدث والشخصيّات وترتيب المناظر المتتالية حتى يشكل صورة تنمّ عن حساسية فنيّة مرهفة، إذ يفصل الشاعر بين عناصر الصّورة، وينسّق بين الخطوط حتى تبدو مجموعة الصور في النّهاية كأنّها لوحة مركبة من صور مرتبةٍ منطقيّاً، تعتمد اللاحقة فيها على السابقة.

وأحياناً نرى الشاعر الشيعي يعتمد على مجرّد السّرد القصصي دون أن يكون هناك حوار في حكايته القصصية بصورة متسلسلة، وفي هذا الأسلوب يكثر الشاعر من أحداث القصّة

---

١. عويضة، ص١٥٨.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٥٦.

ليجعلها تقترب من مسامع القارئ ولتكون أشدّ إيذاءً واحتقاراً للمهجوّ. هذا الأمر يتجلّى في هجاء السيد الحميري لعائشة فنراه يهجوها ببيتين اثنين:[١]

**جاءَتْ مَعَ الأشْقَيْنِ فِي هَوْدَجٍ تُزْجِي إلَى البَصْرةِ أجْنَادَهَا**

**كأنَّهَا فِي فِعْلِهَا هِرَّةٌ تُرِيدُ أنْ تأكُلَ أوْلادَهَا**

فالصورة التى رسمها الشاعر لمهجوّتها مزرية فقد جعلها قائدةً تسوق جنودها إلى ساحة الحرب، وجعل جنودها من الأشقياء لأنّ الحرب تنتهي بموتهم فشبّه عائشة قائدتهم بهرّةٍ وذهب إلى أبعد من ذلك في تحقيرها والإزراء بها حين جعلها تريد أن تأكل أولادها. يبدو أنّ الحميري سلك ضرب التندر والسخرية إذ نجده يسخر من مهجوته بأسلوب يثير الضحك. وتمتاز هذه الصورة التي رسمها الشاعر بكثرة الصور إذ تتلاحق الصور فيها كما أنّنا نلمس صورة قصصية إذ استخدم بعض عناصر القصّة في المقطوعة المذكورة مثل الحدث والشخصيّات والمناظر المتتالية بحيث تتألف من مجموعها صورة تنمّ عن حساسية فنيّة مرهفة، واستطاع الشاعر أن ينسّق بين الصور حتى تبدو مجموعة الصور في النّهاية كأنّها لوحة مركبة. وأجمل من ذلك الموقف، الأبيات التالية في هجاء عائشة حيث يقول الشاعر:[٢]

**أَلَمْ يَعْهَدْ إلَيْكَ اللهُ أنْ لا تُرَىْ أبَداً مِنَ المُتَبَرِّجِينا**

**وَأَنْ تُرْخِي الحِجَابَ وَأنْ تَقَرِّي وَلا تَتَبَرَّجِي للنَّاظِرِينا**

**وَقَالَ لَكِ النَّبِيُّ أيا حُمَيرا سَيُبْدَي مِنْكِ فِعلُ الحَاسِدِينا**

**وَقَالَ سَتُنْبِحِينَ كِلابَ قَوْمٍ مِنَ الأعْرَابِ وَالمُتَعَرِّبِينا**

**وَقَالَ سَتَرْكبِينَ عَلَى خِدَبٍّ يُسَمَّى عَسْكراً فَتُقَاتِلِينا**

فالشاعر سرد تلك الحادثة في ثوب قصصي ساخر عبّر من خلالها عن سخطه وحرص على فضيحة مهجوّه مضمّناً أبياته روح الانتقام والتشفّي. وهذا يتّضح من تركيز الشاعر على

---

١. الحميري، الديوان، ص٧٩.

٢. الحميري، الديوان، ص٢٠٢.

فعل "قال" إذ كرّره ثلاث مرّات متوالياً في بداية الأبيات الأخيرة.

## الطابع الساخر

تعدّ السخرية الهجائية من السّمات البارزة في صياغة القصائد والمقطوعات الهجائية في هجاء شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول، وقد اعتمدت في بنائها على الفكاهة والتّهكم والتهديد، وهذه الأمور تثير الضحك. يبدو أن الباعث وراء هذا الأسلوب «هو الرغبة في نقد العيوب الجسدية والنفسية والاجتماعية والسياسية، بهدف الإصلاح وتقويم الاعوجاج. ولا سبيل أجدى من الفكاهة المتهكمة في علاج الانحرافات والعادات السيئة والأخلاق الرديئة».[١] ولمّا جاء العصر العباسي طفر الهجاء طفرة قويّة أدنته من الفكاهة وقربته من أدبها ولا غرابة في ذلك ولا بدع.[٢]

كانت السخرية أداةً بأيدي شعراء الشيعة في هذا العصر بغرض إثارة الضحك والاستهزاء بالمهجوّين، وقد توسّل الشعراء بكافة الوسائل لتحقيق السخرية التهكمية، وعبّروا عنها في صورٍ مختلفة. ولابدّ أن نذكر أنّ شعراء الشيعة الثلاثة وإن استخدموا في كثير من الأحيان السخريةَ إلّا أنّ الضحك لم يكن الغرض الرئيس لهم بل كانوا يرمون من خلال ذلك إلى نيل غرضهم الأصلي يعني هجو خصوم الشيعة ومحاولة انتشاره في الأوساط الأدبية وبين النّاس في المجتمع العباسي.

من أساليب السخرية التي بنى عليها الشعراء مقطوعاتهم الهجائية، ميلهم إلى تشويه صورة المهجوّ من خلال تصوير عيوبه وإظهارها بطريقةٍ غير طريفة، وإبرازها في صورةٍ شاذّة، مضخمة أمام الناظرين، تثير التهكم والضحك. وأفضل نموذج على ذلك هجاء دعبل لأحمد بن أبي خالد لمّا ولى الوزارة في أيّام المأمون وهو لايخلو من السخرية في تشكيله حين يقول

---

١. قزيحة، ص٢٨٣.

٢. انظر: أبوعيسى، ص١٧٠.

مستخدماً التشبيه والكناية وترسيم الصور الكاريكاتيرية:[١]

**كـــأنَّ أبَـــا خَالِـــدٍ مَـــزأةٌ    إذَا بَـــاتَ مُتَّخِمـــاً قاعِـــدا**

**يَضِـــيقُ بِـــأَوْلادِهِ بَطْنُـــهُ    فَيَخْـــرَاهُمُ وَاحِـــداً واحِـــدَا**

**فَقَـــدْ مَـــلأَ الأَرْضَ مِـــنْ سَـــلْحِهِ    خَنَـــافِسَ لاتُشْـــبِهُ الوَالِـــدا**

شبّه الشاعر الوزير بمرأةٍ أصابتها التخمة من كثرة الأكل وهي تضيق ببطنها من كثرة الأولاد فتسلحهم واحداً بعد الآخر ثمّ شبّه الأولاد بالخنافس وهم لايشبهون أباهم. ولا شك أنّ تشبيه الأولاد بالسلح والخنافس تشبيه ساخر وفي نفس الوقت لاذع «ولقد أوقع دعبل بمهجوه ونال منه وأضحك الآخرين عليه ووضع تلك المضامين في صورة جديدة وبطريقة مبتكرة، وضع دعبل السمّ في قالب من الحلوى، فسما بالصورة شكلاً ومعنى وهدفاً وبرزت حاملة طابع مبدعها في سهولة لفظها وشعبية معناها وخفة وزنها».[٢]

وتكون السخرية الهجائية من خلال المقارنة والمفاضلة بين شخصين تنتهي المقارنة بترجيح كفّة أحدهما على الآخر، كما في قول دعبل الخزاعي حين هجا هارون الرشيد:[٣]

**قَبْـرانِ فـي طُـوسَ خَيـرُ النَّـاسِ كلِّهِـم    وَقَبْـــرُ شَـــرِّهِم هَـــذا مِـــنَ العِبَـــرِ**

**مـا يَنْفَـعُ الـرِّجْسَ مِـنْ قُـربِ الزَّكِـيِّ وَلا    عَـــــلى الزَّكِيِّ بِقُربِ الرِّجْـــسِ مِنْ**

**هَيهَـاتَ كُـلُّ أمْـرِئٍ رَهْـنٌ بِمـا كَسَـبَتْ    لَــهُ يَــداه فَخُــذْ مــا شِــئتَ أوْ فَــذَرِ**

فالشاعر هجا هارون الرشيد هجاءً لاذعاً حين قارن بينه وبين الأمام الثامن (ع) وتبرز المقارنة إيذاءً وإيلاماً شديداً بالمهجو، وقد عدّ أسلوب الهجاء بالموازنة والمفاضلة عند القدماء من أشدّ الهجاء وأطلقوا عليه الهجاء المقذع.[٤]

لجأ الحميري في تصوير عيوب القضاة في السلطة العباسية ومفاسدهم إلى استعمال لغة

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٧٣.

٢. عويضة، ص١٦٧.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٩٨.

٤. انظر: ابن رشيق، جـ ٢ ص١٧٠.

العامة في شعره، حيث صور فساد أجهزة الحكم وعدم جدارة أحد قضاتها لتولى منصب القضاء بأسلوب يميل إلى السخرية والتهكم. ونلمس ذلك الأسلوب في هجائه لسوّار القاضي عندما وجّه الأبيات التالية إلى المنصور الخليفة العباسي في أسلوب ساخر يكشف عن فساده:[١]

يَا أمِينَ اللهِ يَا مَنْـ ... ـصُورُ يَا خَيْرَ الوُلاةِ
إنَّ سَوَّارَ بنَ عَبْدِالـ ... ـلّهِ مِنْ شَرِّ القُضَاةِ
إنَّ سَوَّاراً لَأَعْمَى ... مِنْ ذَوِي جَهْرٍ جُنَاةِ
نَعْثَلِيٌّ جَمَلِيُّ ... لَكُم غَيرُ مُوَاتِ
جَدُّهُ سَارِقُ عَنْزٍ ... فَجْرَةٌ مِنْ فَجَرَاتِ
لِرَسُولِ اللهِ وَالـ ... ـقَاذِفُهُ بِالمُنكرَاتِ
وَالَّذِي كَانَ يُنَادِي ... مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ
يَا هَنَاةُ أخْرُجْ إلَيْنَا ... إنَّنَا أهْلُ هَنَاتِ
سَنَّ فِينَا سُنَناً ... كَانَتْ مَوارِيثَ الطُّغَاةِ
فَهَجَوْنَاهُ وَمَنْ نَهْجُو ... يُصَبْ بِالفَاقِرَاتِ
مَدْحُنَا المَدْحُ وَمَنْ نَـ ... ـمِ يُصَبْ بِالزَّفَرَاتِ
فَأكْفِنِيهِ لا كَفَاهُ الـ ... ـلّهُ شَرَّ الطَّارِقَاتِ

## المفارقة اللفظية

ومن الظواهر الهامّة التي لفتت انتباه الدارس أنّ بعض شعراء الشيعة مال في هجائه السياسي إلى ما يسمّيه النقاد المحدثون بـ «المفارقة»؛ والمفارقة «لعبة لغوية ماهرة وذكيّة بين طرفين، صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدّم فيه صانع المفارقة بطريقة تستثير القارئ، وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي».[٢] ولم يكن الهدف من ذلك إلا الرغبة في الازدراء بالمهجو

---

١. الحميري، الديوان، ص ٦٠.

٢. عبدالرحمن، ص ٦١.

وإبراز معاني النقص فيه .وقد استخدم دعبل الخزاعي تلك الظاهرة في بناء مقطوعة له عندما استغلّ اسم هارون الرشيد:[١]

**وَعاشَـتْ بَنـو العبّـاسِ فـي الـدّينِ عَيْثَـةً تَحَكَّـمَ فيـه ظـالمٌ وظَنـينُ**

**وَسَـمُّوا رَشِـيداً لَـيسَ فِـيهِم لِرُشْـدِهِ وَهـا ذَاك مَـأمُونٌ وَذاك أمِـينُ**

**فَمَـا قُبِلَـتْ بالرُّشْـدِ مِـنهُم رِعايَـةٌ وَلا لِـوَلِيَّ بِالأمانَـةِ دِيـنُ**

**رَشِـيدُهُم غَـاوٍ وَ لِهـذَا رَزايـا دُونَ ذلـك مُجُـونُ**

يرى دعبل أنّ تسمية هارون أو تلقيبه بالرشيد لم يكن في الواقع من أجل الرشد فيه بل هو غاوٍ ضلّ عن الطريق السّويّ. والمفارقة كما يعرّفها بعض النّقاد لعبة لغوية ماهرة وذكيّة بين طرفين، صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدّم فيه صانع المفارقة النصّ بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي.[٢] وأحياناً نرى ديك الجنّ يعتمد عليها في هجائه كما يبدو في البيت التالي:[٣]

**فَقُـلْ لابـنِ سَـعْدٍ أبْعَـدَ اللـهُ سَـعْدَهُ سَـتَلْقَى عَـذَابَ النّـارِ وَاللَّعَنـاتِ**

## الإيجاز والتكثيف

من أهمّ الخصائص التي تميّزت بها المقطوعات الهجائية عند شعراء الشيعة الثلاث هو التركيز والإيجاز، فقد أظهر هؤلاء الشعراء في هجائهم السياسي مقدرة فائقة وبراعة لغوية ممتازة في إيصال أفكارهم إلى المخاطب، والتعبير عن مراميهم، وبلوغ مقاصدهم ببيتين أو ثلاثة أبيات، وهذا هو حدّ الإيجاز كما قال ابن الأثير «حدّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه».[٤] وهذا القصر والإيجاز يتناسب مع المعاني نفسها لأنّها لا تتسع للقصائد الطويلة.

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٨٩.

٢. انظر: عبدالرحمن، ص٦١.

٣. ديك الجن، الديوان، ص١٥٠.

٤. ابن الأثير، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، جـ ٢ ص٧٤.

وكان النقّاد القدامى يعجبون بالإيجاز في الهجاء إعجاباً حيث جعلوا قلّة الألفاظ تجمّل معانيه، لأنّها تؤدى الغرض منه كغيره من أغراض الشعر الأخرى كما ذكر صاحب كتاب نقد الشعر: «ومن الهجاء ما تجمل المعاني كما يفعل في المدح، فيكون ذلك حسناً إذا أصيب به الغرض المقصود مع الإيجاز في اللفظ».[١]

تمّثل المقطوعات الهجائية عند شعراء الشيعة هذا الاتّجاه أحياناً كثيرة، ومن شواهدها قول دعبل الخزاعي في هجاء المعتصم:[٢]

**قَدْ قُلْتُ إذْ غَيَّبُوهُ وَانْصَرَفُوا ... فِي شَرِّ قَبْرٍ لِشَرِّ مَدْفُونِ**

**إذْهَبْ إلَى النَارِ وَ العَذابِ فَمَا ... خِلْتُكَ إلّا مِنَ الشَّيَاطينِ**

**مَا زِلْتَ حَتّى عَقَدْتَ بَيْعَةَ مَنْ ... أضَرَّ بِالمُسْلِمينَ وَالدِّينِ**

وأحياناً نرى دعبلاً الخزاعي يعتمد في مقطوعاته الهجائية على التكثيف إذ يترك القارئ والنصّ معاً حتّى يتمّ المراد من البيت. ونجد هذا الأمر في هجاء المتوكل عندما قال:[٣]

**وَلَسْتُ بِقائِلٍ قَذعاً وَلكِنْ ... لِأمْرٍ مَا تَعَبَّدَكَ العَبِيدُ**

رسم دعبل صورة بسيطة في هجاء الخليفة واعتبره رغم موته صورةً للطاغية المستبدّ الشرير وطلب له العذاب في نار جهنّمَ التي يستحقّها الشياطين والطغاة والظالمون.

وأحياناً لجأ بعض الشعراء في مقطوعاتهم الهجائية إلى إيصال رسالة من خلال نقدهم الاجتماعي لبعض خلفاء بني العباس، وكشف تصرفاتهم وفضحها أمام الناس بصورةٍ موجزةٍ. للسيّد الحميري مقطوعة قصيرة تناول فيها سوّاراً القاضي بالنقد وخاطب فيها أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي:[٤]

**لا تَسْتَعِنْ بِخَبِيثِ الرَّأيِ ذِي صَلَفٍ ... جَمِّ العُيُوبِ عَظِيمِ الكِبرِ جَبَّارِ**

---

١. قدامة، ص١١٥.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٩٩.

٣. السابق، ص١٧١.

٤. الحميري، الديوان، ص ١٧١.

**تُضْحِي الخُصُومُ لَدَيْهِ مِنْ تَجَبُّرِهِ  لايَرْفَعُونَ إلَيْهِ لَحْظَ أَبْصَارِ**

**تِيهاً وَكِبْراً وَلَوْلا مَا رَفَعْتَ لَهُ  مِنْ ضَبْعِهِ كَانَ عَيْنَ الجَائِعِ العَارِي**

فالشاعر نفى الصّلاح عن القاضي ووصفه بخباثة الرأى ويرى أنّه كثير العيب، متكبّرٌ مستبدّ. ونموذج آخر ما قاله ديك الجنّ في هجاء أهل حمص:[١]

**سَمِعُوا الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ تَوَالى  فَتَفَرَّقُوا شِيَعاً وَقَالُوا لا لا**

**ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى الصَّلاةِ إمامُهُم  فَتَحَزَّبُوا وَرَمَى الرِّجالُ رِجالا**

**يا آلَ حِمْصَ تَوَقَّعُوا مِنْ عَارِها  خِزْيَاً يَحُلُّ عَلَيْكم وَوَبَالا**

**شَاهَتْ وُجُوهُكم وُجُوهاً طَالَما  رَغِمَتْ مَعَاطِسُها وَسَاءَتْ حَالا**

**إنْ يُثْنَ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةً  فَاللهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ تَعَالَى**

وعلى الرّغم من أنّ غالبية الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول اتخذ شكل مقطوعات قصيرة ـ كما ذكر سابقاً ـ إلا أنّ هذا لا يعني أنّ شعر الهجاء السياسي عند الشيعة يخلو من القصائد الطويلة، فإنّنا نجد أحياناً قصائد طوالاً خاصّةً عند ديك الجنّ عندما يتحدّث الشاعر عن أحقيّة الإمام عليّ عليه السّلام أو عندما يتناول حادثة الطفّ، لكن عددها قليل إذا ما قورن بما نظم هؤلاء الشعراء من مقطوعات قصيرة. وعند النظر في بنائها يُلمَح فيها ظاهرتان: الأولى تخلصها من قيود القصيدة القديمة التي يتشكل هيكلها من مطلع ومقدمة ومدخل وخاتمة. وثانيهما: تركيزها على فكرة واحدة وموضوع واحد. وتلك سمة تتقاطع فيها المقطوعات القصيرة، غير أنها تزيد على المقطوعة بكثرة تفصيلاتها في استقصاء المعنى، وهو الأسلوب الذي حاول الشاعر من ورائه أن يبلغ غرضه، وأن يشفى غليله من مهجوّه.

ومن القصائد التي تمثّل هذا الاتجاه قصيدة لديك الجنّ تناول فيها مسألة غدير خمّ واغتصاب الخلافة من يدي صاحبها الحقيقي ومطلعها:

---

١. ديك الجن، الديوان، ص ١٩٠.

**يـــا عَـــيْنُ لا لِلْغَضَـــا وَلا الكُتُـــبِ بُكـــا الرَّزَايـــا سِـــوَى بُكـــا الطَّـــرَبِ**

وملخص القول أنّ صياغة القصيدة والمقطوعة الهجائية وبنيتها في شعر شعراء الشيعة وخاصةً هؤلاء الذين درسنا شعرهم هنا جاءت على صورتين:

الأولى: المقطوعات القصيرة وهى الغالبة على هجاء الشعراء السياسي خاصّة عند دعبل الخزاعي وأحياناً كثيرة عند السّيّد الحميري.

الثانية: القصيدة الطويلة وهى قليلة خاصّة عند ديك الجنّ الذي استخدمها عندما تحدّث عن مسألة الغدير وحادثة الطفّ وهما موضوعان يتطلّبان بعض التفاصيل لبلوغ المقصد. وأحياناً ورد الهجاء السياسي في ثنايا أغراض عدّة كقصائد المديح وقصائد الرثاء والتعريض بالعدوّ، وهذا أمر نراه بكثرة عند ديك الجنّ الحمصي.

## الأسلوب واللغة

إنّ المراد من الأسلوب هو الطريقة التي يختارها الشاعر والكاتب للتعبير عن عواطفه ومشاعره، وانتقاء الألفاظ والعبارات الملائمة لها لتأدية معانيه. من القدماء من عرّفه بأنّه «الضرب من النظم والطريقة فيه».[١] ومن المعاصرين من يرى أنّ «الأسلوب هو الرجل».[٢] فالأسلوب طريقة الأديب والشاعر الخاصّة في التعبير عن فكرته الشخصية بما لايمكن تشكيلها في قالب أسلوب أديب وشاعر آخر. إذن لكلّ شاعر أسلوب في اختيار ألفاظه وتأليف الكلام والفكرة والصورة.[٣] ومن هنا كان الأسلوب نتيجة لعوامل خفيّة وظاهرة خلقت في الشعراء حالات ومشاعر دفعتهم إلى اتباع طرق معيّنة للوصول إلى أغراضهم، فالأسلوب الذي يناسب الرثاء وما يتطلّبه من ألفاظ شاجية مبكية يختلف عن أسلوب المدح والفخر اللذين يتطلّبان ألفاظاً جزلة، وكذلك الغزل الذي يتطلّب الألفاظ الرقيقة واللطيفة، وينطبق الاختلاف

---

١. الجرجاني، ص٣٦١.

٢. الشايب، أحمد. *أصول النقد الأدبي*، ص٢٥٨.

٣. انظر: أمين، أحمد. *النقد الأدبي*، ج ١ ص٧٤.

على بقية أغراض الشعر الأخرى.

واعتباراً لما ذكرنا نقول إنّ أساليب شعراء الشيعة في العصر العباسي تتفاوت معاً خاصّة أساليب الشعراء الثلاثة أعني دعبلاً والسيّد الحميري وديك الجنّ. من الأساليب الهامّة التي مال إليها الهجاء السياسي في شعر شعراء الشيعة خاصّة في القرن الثاني هو الأسلوب الشعبي الذي كان ملائماً لطبيعة العصر. يعدّ أحد الباحثين ميل الهجاء نحو الشعبية تطوراً جديداً في الأدب حيث يقول: «ومن التطورات الجديدة التي نلاحظها أيضاً على فن الهجاء في القرن الثاني ميله إلى الشعبية في معانيه وفي أسلوبه، وهذه النقطة ترتبط بالناحية الأولى [كونه بصورة مقطوعة] لأنّ صوغ الهجاء في قالب شعبي يجعل معانيه قريبة من نفوس الجماهير مما يكفل له انتشاراً واسعاً».[١]

فغالبية الشعراء كانت من عامّة النّاس وأشعارهم كانت موجّهةً إلى عامّة النّاس لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية السائدة في العصر العباسي تارةً، والتندّر والسخرية تارةً أخرى، فلذلك كانت ألفاظهم منتقاة من لغة النّاس الدارجة والمحكية على ألسنتهم. انظر إلى دعبل الخزاعي:[٢]

**يَا مَعْشَرَ الأَجْنَادِ لاتَقْنَطُوا ... وَأرْضَوا بِمَا كَانَ وَلا تَسْخَطُوا**

**فَسَوْفَ تُعْطَوْنَ حُنَيْنِيَّةً ... يَلْتَذُّها الأمْرَدُ وَالأشْمَطُ**

**وَالمعْبَدِيّاتُ لِقُوّادِكم ... لا تَدْخُلُ الكِيسَ وَلاتُرْبَطُ**

**وَهَكَذا يَرْزُقُ أصْحَابَهُ ... خَلِيفَةٌ مُصْحَفُهُ البَرْبَطُ**

**قَدْ خَتَمَ الصَّك بِأرْزاقِكم ... وَصَحَّحَ العَزْمَ فَلَمْ تُغْمَطُوا**

**بَيْعَةُ ابْرَاهِيمَ مَشْؤُومَةٌ ... تُقْتَلُ فِيهَا الخَلْقُ أوْ تُقْحَطُ**

وهناك ظاهرة هامّة في الهجو السياسي عند شعراء الشيعة الثلاثة تسترعي انتباه الدّارس

---

١. هدارة، ص٤٢١.

٢. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢١٩.

لها هى ميل أساليبهم الهجائية إلى السهولة المتناهية، سواء أكان ذلك في ألفاظها أم في وضوح معانيها وقربها من المخاطب وتحررها من التعقيد والتكلّف، لأنّ غموض الأسلوب وصعوبة الألفاظ «تجعل السامع يحتاج إلى وقت وجهد للوصول إلى غرض الشاعر وتضيّع على الهاجي غرضه من الهجاء».[١] والنماذج الجيّدة كثيرة في هذه الدراسة منها القصيدة التالية لدعبل الخزاعي:

**يا أمّةَ السُّوءِ ما جَازَيتِ أحْمَدَ عَنْ ... حُسْنِ البَلاءِ عَلَى التَّنزِيلِ والسُّوَرِ**

**خَلَفْتُمُوهُ عَلَى الأبنَاءِ حِينَ مَضَى ... خِلافَةَ الذّئبِ فِي أبقَارِ ذِي بَقَرِ**

**وَلَيسَ حَيٌّ مِنَ الأحْياءِ نَعْلَمُهُ ... مِنْ ذِي يَمانٍ وَمِنْ بَكرٍ وَمِنْ مُضَرِ**

**إلّا وَهُم شُركاءُ فِي دِمائِهِمُ ... كما تَشارَك أيسارٌ عَلى جُزُرِ**

**قَتلاً وَأسراً وَتَحرِيقاً وَمَنْهَبَةً ... فِعْلَ الغُزَاةِ بِأرْضِ الرّومِ وَالخَزَرِ**

**أرَى أمَيّةَ مَعْذُورِينَ إنْ قَتَلُوا ... وَلا أرَى لِبَنِي العَبّاسِ مِنْ عُذُرِ**

**أبناءُ حَربٍ وَمَروانٍ وأسرَتُهُم ... بَنُو مُعَيطٍ وُلاةُ الحِقْدِ وَالوَغَرِ**

**أربِعْ بِطُوسٍ عَلى قَبرِ الزّكِي بِها ... إنْ كُنتَ تَرْبَعُ مِنْ دِينٍ عَلَى وَتَرِ**

**قَبرانِ فِي طُوسَ خَيرُ النّاسِ كلِّهِم ... وَقَبرُ شَرِّهِم هَذا مِنَ العِبَرِ**

**ما يَنْفَعُ الرِّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزّكِيّ وَلا ... عَلى الزّكِيِّ بِقُرْبِ الرِّجْسِ مِن**

**هَيهَاتَ كلُّ أمرِئٍ رَهنٌ بِما كَسَبَتْ ... لَهُ يَدَاه فَخُذْ ما شِئتَ أوْ فَذَرِ**

امتازت القصيدة بالبساطة والسّهولة والوضوح وخلت من التعقيد والتكلّف، ولم يكن هذا إلّا ليحقّق الشاعر غرضه من الهجاء وليقدر النّاس على حفظه بسهولة. ونلمح ذلك في كثير من القصائد والمقطوعات والأبيات التي عرضت في صفحات الدراسة السابقة. فعلى سبيل المثال نذكر ما قاله ديك الجنّ في هجاء الحكام والأوضاع الاجتماعية السائدة آنذاك:[٢]

---

١. بدوي، ص٢٥٦.

٢. ديك الجن، الديوان، ص٢٢٣.

**الكلْـبُ فَـوقَ أنـاسٍ أنـتَ مـالِكهُم وَنِعْمَـةُ أنْـتَ فِيهـا عِنْـدَنَا نِقَـمُ**

**وَإنَّ دَهْـراً عَلَـوْتَ النَّـاسَ كلَّهُـم فِيـهِ فَبِالجَهْـلِ وَالخِـذْلانِ مُـتَّهَمُ**

فنلحظ السهولة والوضوح في البيتين المذكورين حيث لا نجد ألفاظاً غريبة فيهما وكأنّه أراد أن يجعل شعره قريباً قرباً شديداً إلى عامّة الناس في زمانه.

## الاستلهام من التراث

يعدّ القرآن الكريم من أهمّ المصادر التى أقبل عليها شعراء الشيعة الثلاثة في تشكيل صورهم الهجائية الفنيّة، فاقتبسوا كلماته، واستلهموا عباراته، واستوحوا قصصه. على الرغم من سهولة وبساطة لغة الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة واقتراب أساليبها من لغة العامّة ومعانيهم المتداولة، فإنّ ذلك لم يمنعهم من الانفتاح على تراث الأمة وثقافتها المتنوعة وتوظيف ما لديهم من معارف في تصوير مهجوّيهم، فاستوحوا من نصوص القرآن ومعانيه ما يخدم دوافعهم الهجائية، ولعلّ السيّد الحميري ودعبلاً كانا أكثر تأثراً من ديك الجنّ بنصوص القرآن والتراث. اتّخذ استدعاء التراث عند دعبل اتجاهين:

ألف.الإتجاه الأول لفظيٌّ ومعنويٌّ، إذ يذكر ألفاظاً ويستحضر بعض المعاني، فنراه يستحضر أهل الكهف وكلبهم أثناء استهزائه بالمعتصم الخليفة الثامن العباسي:[١]

**مُلُوك بَنِي العَبَّاسِ فِي الكتْبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُم الكتْبُ**

**كذَلِك أهْلُ الكهْفِ فِي الكهْفِ سَبْعَةٌ كرامٌ إذَا عُدُّوا وَثامِنُهُم كلْبُ**

**وَإنّي لَأعلِي كلْبَهُم عَنك رِفْعَةً لِأنَّك ذُو ذَنْبٍ وَلَيسَ لَهُ ذَنْبُ**

**كأنّك إذْ مُلِّكتَنا لِشَقائِنا عَجُوزٌ عَلَيهَا التَّاجُ وَالعِقْدُ والإتْبُ**

ب. أمّا الاتجاه الثاني من استدعاء التراث الديني الذي جاء في إطار القصة القرآنية، فنرى دعبلاً يستعين بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسها، فولّى هارباً إلى الباب، فقدّ قميصه من دُبر، وأراد من هذه القصّة الطعن في رجولة بني فضل. اسمعه

---

١ دعبل الخزاعي، الديوان، ص١٠٢.

يقول:

**إذَا رَأَيْـــتَ بَنِــي وَهْـــبٍ بِمَنْزِلَـــةٍ ... لَـمْ تَـدْرِ أَيُّهُـم الأُنْثَـى مِـنَ الـذَّكرِ**

**قَمِـيصُ أُنْثَــاهُمْ يَنقَــدُّ مِـــنْ قُبُــلٍ ... وَقُمْــصُ ذُكْــرَانِهِم تَنْقَــدُّ مِــنْ دُبُــرِ**

**مُحَنَّكُــونَ عَــنِ الفَحْشَــاءِ فِــي صِـغَرٍ ... مُحَنَّكُــونَ عَــنِ الفَحْشَــاءِ فَــي كِبَــرِ**

**مُحَنَّكُـــونَ وَلَــمْ تُقْطَــعْ تَمَــائِمُهُم ... مَـــعَ الفَـــوَاطِمِ وَالـــدَّايَاتِ بِـــالكِبَرِ**

فلجأ دعبل هنا إلى نقل الأدوار ومبادلتها ، ففي العادة الرجل هو الطالب، والمرأة هي المطلوب، ولذلك فإن قميص الأنثى ينقد من دبر نتيجة التمنّع والإدبار لكنَّ دعبلاً نقل الأدوار ليؤكد ما ذهب إليه في البيت الأول.

وأحياناً نرى شعراء الشيعة يتصرّفون في لفظ الآيات القرآنية إمّا تقديماً أو تأخيراً، ولعلّ هذا الأسلوب أكثر الأساليب شيوعاً كما ورد في قول السيد الحميري:

**ثُــمَّ أَتَتْــهُ بَعْــدَ ذا عَزْمَــةٌ ... مِـــنْ رَبِّـــهِ لَـــيسَ لَهـــا مَـــدْفَعُ**

**بَلِّـــغْ وَإلّا لَـــمْ تَكُـــنْ مُبْلِغـــاً ... وَاللـــهُ مِـــنْهُم عاصِـــمٌ يَمْنَـــعُ**

**فَعِنْـــدَها قـــامَ النَّبِـــيُّ الَّـــذِي ... كـــانَ بِمـــا يُـــؤمَرُ بِـــهِ يَصْـــدَعُ**

فيشير الشاعر إلى الآية القرآنية التى نزلت بشأن الإمام عليّ (ع) ( يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْك مِنْ رَبِّك وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَك وَاللهُ يَعْصِمُك مِنَ النّاسِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافِرِينَ )[١] ففي البيت الثاني اقتباس واضح مع بعض التصرف.

إن الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة برز فيه التناص عبر مجالات عدة، من أبرزها التناص القرآني والتناص التاريخي، وقد كان أجلى هذه الأنواع التناص مع القرآن الكريم، وذلك لما تحتويه نصوصه من المعاني التي تتناسب مع الموقف الهجائي بصورة مباشرة. وقد تعددت أنماط ذلك التناص فهناك من يورد الآية القرآنية بنصها دون تحوير وهناك من يشير إليها بالمعنى أو اللفظ، وهناك من يقلد الصياغة القرآنية وغير ذلك من الأنماط الأخرى، ومن

---

١. المائدة، الآية ٦٧.

هذا التناص قول السيّد الحميري في عائشة:

وهناك مقطوعات هجائية أخرى في شعر السيّد الحميري استوحاها من التراث القرآني مثل قوله مخاطباً عائشة:

**أعائِشُ ما دعاك إلى قِتالِ الـ ـوَصِيِّ وما عَلَيهِ تَنْقِمينا**

**أَلَمْ يَعْهَدْ إلَيْكَ اللهُ أنْ لا تُرَىٰ أبَداً مِنَ المُتَبَرِّجينا**

**وَأَنْ تُرْخِي الحِجابَ وأنْ تَقَرِّي وَلا تَتَبَرَّجِي لِلنَّاظِرينا**

فالبيت الثاني والثالث متأثر بقوله تعالى (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ).[1]

وهذا هو ديك الجنّ الحمصي يهجو اولئك الذين اغتصبوا الخلافة من يد الإمام عليّ (ع) وجعلوه رابع الخلفاء. فيقول مخاطباً الإمام (ع):

**جَعَلُوك رَابِعَهُم أبا حَسَنٍ ظَلَمُوا وَرَبِّ الشَّفْعِ وَالوَتْرِ**

ويتجلّى استيعابه التراث الديني باستلهامه من القرآن الكريم إذ ضمّن المصرع الثاني الآية الثالثة من سورة الفجر حيث أقسم الله تعالى بـ(وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ).[2] وفي هذا التناص نلمح نقلا لبعض الآيات بنصها.

وأحياناً اتّكأ شعراء الشيعة في نطاق توظيفهم الموروث الأدبي على بعض أحاديث الرسول الأعظم (ص) وأفادوا منها في هجوهم لخصوم الشيعة ووضعوها في مكانها الملائم حيث يتطلّب موقفهم السياسي ضرورة الميل إليه، ومن شواهدها قول ديك الجنّ:

**وَتَشَعَّبَتْ طُرُقُ الضَّلالِ فَلَوْ لاكُمْ مَشَوْا بِالشِّرْكِ وَالكُفْرِ**

**أنتُم أدِلّاءُ الهُدَى وَبِكُم قَدْ سِيرَ فِي بَرٍّ وَفِي بَحْرِ**

**وَدَعائِمُ التَّقْوَى وَقادَتُها لِلفَوْزِ يَوْمَ الحَشْرِ وَالنَّشْرِ**

---

١. الأحزاب، الآية ٣٣.

٢. الفجر، الآية ٢.

وَالعَـارِفُو سِـيمَا الوُجُـوهِ عَلَـى الْـ ... أعْـرَافِ مَعْرِفَـةً بِـلا نُكْـرِ

وَمَقَاسِـمُ النِّيـرَانِ أنْـتَ لِمَـنْ ... أخَـذُوا العُهُـودَ بِعَـالَمِ الـذَّرِّ

فَتَقُـولُ يَـا نَـارُ أتْرُكِـي لِـي ذَا ... وَلِـذَا خُـذِي فَتَـدِينَ لِلْأمْـرِ

استمدّ الشاعر مادّته من التراث القرآني حيث أشار إلى الآية **(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفونَهُم بِسِيمَاهم)**[١] ويظهر الاستمداد من التراث من جديد في «مقاسم النّار» حيث يرى الشاعر أنّ الإمام عليّ عليه السّلام قسيم النّار إذ استمد مادته من الحديث النبوي «يا عليُّ أنتَ قَسيمُ الجَنّةِ وَالنّار وأنتَ تَقرَعُ بابَ الجَنَّةِ وَتُدخِلُها (أحِبّاءَك) بِغيرِ حسابٍ».[٢]

## الأوزان

استخدم شعراء الشيعة في هجائهم السياسي أوزاناً قصيرة ونظموا معظم قصائدهم ومقطوعاتهم المرتبطة على بحورها وكان الدافع الحقيقي لهذا الاتجاه محاولة إشاعة هذه الأشعار بين النّاس ليذيعوها فيما بينهم ويتناقلوها في مجالسهم وندواتهم، لأنّها لاتحمل بين طيّاتها وفي جوانبها إلّا آراء مذاهبهم ومعتقداتهم، وزرعها في النفوس والصدور الخالية من شوائب الأحقاد السياسية. لهذا مال الشعراء الشيعيون إلى البحور السريعة الإيقاع واستطاعوا بلاشك أن ينقلوا عن طريقها آراءهم ومعتقداتهم السياسية إلى الناس. ولنسمع شاعر الشيعة دعبلاً يردّ على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي بمقطوعة يتخذ من مجزوء الكامل بحراً لها، يقول:[٣]

قُـلْ لِـابْنِ خَائِنَـةِ البُعُـولِ ... وَابْـنِ الجَـوَادةِ وَالبَخِيـلِ

إنَّ المَذمَـةَ لِلْوَصِـيِّ ... هِـيَ المَذَمَّـةُ لِلرَّسُـولِ

أمَـوَدّةَ القُرْبَـى تُحَـا ... وِلُهَـا بِـذَمٍّ مُسْـتَحِيلِ

---

١. الأعراف، الآية ٤٨.

٢. حسيني مرعشي، ج ٢ ص١٧٢.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٢٦٢.

**أتـــــــذُمُّ أولادَ النَبـــــــــيِّ وأنـــــتَ مِـــنْ ولـــدِ النَفُـــولِ**

لاشك أنّ الشاعر استطاع الملاءمة بين بساطة لغة الشعر وهذا الإيقاع السريع لمجزوء الكامل ليجعل المضمون ينفذ بسرعة إلى العقول والقلوب. نلاحظ أنّ المقطوعة السابقة أقرب إلى الحديث العادي منها إلى الشعر واستخدامه الطباق في كلمتى: الجوادة والبخيل، كان عفو الخاطر. صحيح أنّه قدّم لنا صورة قائمة على الهجاء والتقريع لشخص مروان لكنّها تفتقد الصدق الفني الذي نراه عند بشّار بن برد أو أبي نواس ومسلم بن الوليد، ولم يقصد الشاعر فيها إلّا السبّ والهجاء وليس الإبداع في فن الهجاء. والشّواهد الشعرية على ذلك كثيرة من مثل قول السيّد الحميري في هجاء سوّار القاضي:

**يـــا أمِــينَ اللـــهِ يَـــا مَنْـــــــــــصُورُ يَـــا خَيْــرَ الـــوُلاةِ**

**إنَّ سَـــوَّارَ بْـــنَ عَبْدِالـــــــــــلّهِ مِـــنْ شَـــرِّ القُضَـــاةِ**

**إنَّ سَـــوَّاراً لَأَعْمَـــــى مِـــنْ ذَوِي جَهْـــرٍ جُنَـــاةِ**

**نَغْثَلَـــيُّ جَمَلِـــيُّ لَكُـــم غَيْـــرُ مُـــوَاتِ**

**جَـــدُّهُ سَـــارِقُ عَنْـــزٍ فَجْـــرَةٌ مِـــنْ فَجَـــرَاتِ**

**لِرَسُـــولِ اللـــهِ وَالـــــــــــقَاذِفُهُ بِـــالمُنكَرَاتِ**

**وَالَّـــذِي كَـــانَ يُنَـــادِي مِـــنْ وَرَاءِ الحُجُـــرَاتِ**

**يَـــا هَنَـــاةُ أخْـــرُجْ إِلَيْنَـــا إنَّنَـــا أهْـــلُ هَنَـــاتِ**

**سَـــنَّ فِينَـــا سُـــنَنَاً كانَـــتْ مَوارِيـــثَ الطُّغَـــاةِ**

**فَهَجَوْنَـــاهُ وَمَـــنْ نَهْجُـــو يُصَـــبْ بِالفَـــاقِراتِ**

**مَـــدْحُنَا المَـــدْحُ وَمَـــنْ نَـــزْمِ يُصَـــبْ بِـــالزَّفَراتِ**

**فَاْكفِنِيـــهِ لاكفَـــاهُ الـــــــــــلّهُ شَـــرَّ الطَارِقَـــاتِ**

ولعلّ ميل شعراء الشيعة في أساليبهم إلى الأوزان المجزوءة ساعد على سرعة انتشارها كما أنّه منحها طرافة الأسلوب وبساطة التعبير. ولها نماذج يمكن العودة إليها في هذه الدراسة

مثل القصيدة التالية لديك الجنّ الحمصي:[١]

شَرَفِي مُحَبَّةُ مَعْشَرٍ ... شَرُفُوا بِسُورَةِ "هَلْ أَتَى"

وَوِلَایَ فِيمَنْ فَتْكُهُ ... لِذَوِي الضَّلالَةِ أَخْبَتَا

وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي الهُدَى ... حَجَّ الغَوِيَّ وَأَسْكَتَا

فَلِفَتْكِهِ وَلِهَدْيِهِ ... سَمَّاهُ ذُوالعَرْشِ الفَتَى

ثَبَتَتْ إذا قَدَما سِوَا ... هُ فِي المَهَاوِي زَلَّتَا

لَمْ يَعْبُدِ الأَصْنَامَ قَطُّ ... وَلا أَرَابَ وَلا عَتَا

غَرَسَتْ يَدُ البَارِي لَهُ ... رَبْعَ الرَّشَادِ فَأَنْبَتَا

وَأَقَامَهُ صِنْوًا لِأَحْـ ... ـمَدَ دَوْحُهُ لَنْ يُنْحَتَا

صِنْوَانِ هَذَا مُنْذِرٌ ... وَافَى وَذَا هَادٍ أَتَى

يَهْدِي لِمَا أَوْفَى بِهِ ... حُكْمُ الكِتَابِ وَأَثْبَتَا

فَهُوَ القَرِينُ لَه وَمَا افْـ ... ـتَرَقَا بِصَيْفٍ أَوْ شِتَا

لكنَّما الأعْدَاءُ لَمْ ... يَدْعُوهُ أنْ يَتَلَفَّتَا

ثِقْلُ الهُدَى وَكِتَابُهُ ... بَعْدَ النَّبِيِّ تَشَتَّتَا

وَا حَسْرَتَا مِنْ غَصْبِهِ ... وَسُكُوتِهِ وَاحَسْرَتَا

طَالَتْ حَيَاةُ عَدُوِّهِ ... حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى

وقد شاركت القافية في هذا التلاؤم بين الشكل والمضمون سواء في التزام الشعراء السياسيين قافية واحدة في أشعارهم أم في استخدام بعضهم للمزدوج الذي بدأ يشيع في شعر القرن الثاني. والمزدوج هو تقفية المصراعين على قافية واحدة. نرى ديك الجن في مقطوعة يؤكد فيها ولائه للإمام (ع) ولآل البيت من بعده:

إنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ ... وَالخَيْرُ مَا قَالَ بِهِ الرَّسُولُ

---

١. الحميري، الديوان، ص٩٥.

**إنَّـــك مِنّـــي يـــا عَلـــيّ الأبـــيُّ بِحيــثُ مِـن موســاهُ هــارونُ النَّبــيّ**

**لكنَّـــــهُ لــــيسَ نَبيَّـــاً بَعــدِي فَأنـــتَ خَيـــرُ العـــالَمِينَ عِنـــدي**

**وَأنـــتَ منّـــي الـــزرّ مـــن قَميصِـــي وَمـــا لِمَـــنْ عَـــادَاك مِـــنْ مَحِيصِـــي**

ولا شك أنّ المزدوج يعطي الشاعر حريّة كبيرة في التعبير وخاصةً في الهجاء السياسي الذي يعبّر عن دقائق فكرية ومشكلات زمنية عويصة وشائكة.

## البديع وأثره في التشكيل الهجائي

أقبل شعراء الشيعة في معظم هجائهم السياسي على البساطة والتلقائية، ولم يؤثروا استخدام المحسنات البديعية، ولعلّ السبب يعود إلى الدوافع التي خرجت عنها أشعارهم. فالشعر الذي يهجو فيها الشاعر وينتقد واقعاً يصدر من نفسية غاضبة، كلّ اهتمامه وصول شعره إلى غرضه، فلذلك لم يهتمّوا بالمحسّنات.

وإذا كانت غالبية أساليب الهجاء عند هؤلاء الشعراء مطبوعة غير متكلّفة، فإنّ بعض نماذجه لا تخلو من التصنّع، فقد توسّلوا ببعض أنواع البديع في معرض ذمّهم وازدرائهم بمهجوّيهم. من تلك النماذج الطباق والتورية، اللذان نراهما في صورة فكهة ضاحكة رسمها دعبل لبني بسّام من خلال هجائه لهم:[١]

**يَـــا آلَ بَسَّـــامٍ فِـــي المَخَـــازِي وَعَابِســـي الوَجْـــهِ فِـــي السُّـــؤَالِ**

**حَواجِـــــبٌ كالجِبـــــالِ سُـــــودٌ إلَـــــى عَثَـــــانِينَ كالمَخَـــــالِي**

**وَأَوْجُـــــهٌ جَهْمَـــــةٌ غِـــــلَاظٌ عُطْـــــلٌ مِـــــنَ الحُسْـــــنِ وَالجَمَـــــالِ**

فأراد من «بسّام» معنى الضحك نظراً لإتيانه بكلمة «عابسي الوجه» في الشطر الثاني، كما أنّه طابق بين هاتين الكلمتين. والطباق عنصر أساسي في هجاء دعبل السياسي، لأنه يستخدم في سخريته بصفة خاصة عنصر التضاد استخداماً ظاهراً وواسعاً، ومنها قوله:

**الحَمْـــدُ لِلّـــهِ لا صَـــبْرٌ وَلا جَلَـــدٌ وَلا عَـــزاءٌ إذَا أهْـــلُ الـــبَلا رَقَـــدُوا**

---

١. دعبل الخزاعي، الديوان، ص ٢٧١.

**خَلِيفَـــةٌ مـــاتَ لَـــمْ يَحــزَنْ لَـــهُ أحَـدٌ وَآخَـــرُ قَـــامَ لَـــمْ يَفْـــرَحْ بِـــهِ أحَـدُ**

ومن أمثلة استخدامهم له قول السيّد الحميري في هجاءه الخليفة الأول: [1]

**أفِــي حُكــمِ مَــن هَــذَا فَنَسْــمَعُ حُكْمَــهُ لَقَــدْ صَــارَ عُــرْفُ الــدِّينِ مِــنْهُم إلَــى نُكــرِ**

وقد طابق ديك الجنّ بين النعمة والنقمة في خطابه لأحد عمّال العباسيين: [2]

**الْكَلْــبُ فَــوقَ أُنــاسٍ أنْــتَ مــالِكهُم وَنِعْمَـــةُ أنْــتَ فِيهــا عِنْــدَنَا نِقَــمُ**

فنحن نلاحظ في الشطر الثاني طباقاً إذ طابق الشاعر بين «عرف ونكر» وله أشدّ التأثير إذا لاحظنا الناحية الدينية.

ومن ألوان البديع الأخرى التي استخدمها شعراء الشيعة في هجوهم السياسي، ما يعرف بردّ العجز على الصدر، وهو ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في نصفه الأول، وما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه. ومنها ما يوافق آخر كلمة في البيت بعض ما فيه كقول دعبل: [3]

**بَغْــــدادُ دارَ الملُـــــوك كانَـــــتْ حَتَّــــى دَهَاهَــــا الّـــذِي دَهَاهَــــا**

ومنها ما يوافق آخر كلمة في البيت، أول كلمة في الشطر الأول: [4]

**وَقَطَّعُــــوا أرْحَامَـــــهُ بَعْـــدَهُ فَسَـــوفَ يُجْـــزَوْنَ بِمَـــا قَطَّعُـــوا**

**وَأزْمَعُــــوا غَــــدْرَاً بِمــــولاهُمُ تَبَّـــاً لِمَـــا كـــانُوا بِـــهِ أزْمَعُـــوا**

ونلاحظ نفس الشيء عند ديك الجنّ: [5]

**ثِقْــــلُ الهُــــدَى وَكِتَابُــــهُ بَعْــــدَ النَّبِــــيِّ تَشَــــتَّتَا**

**وَا حَسْــــرَتَا مِــــنْ غَصْــــبِهِ وَسُــــكوتِهِ وَاحَسْــــرَتَا**

وقد جاءت تلك المحسنات البديعية إمّا اللفظية وإمّا المعنوية قلّة قليلة عفو الخاطر، جادت

---

١. الحميري، الديوان، ص١١٣.

٢. ديك الجن، الديوان، ص٢٢٣.

٣. دعبل الخزاعي، الديوان، ص٣٠٧.

٤. الحميري، الديوان، ص١٢٩.

٥. ديك الجن، الديوان، ص٩٥.

بها قريحة الشاعر من غير تكلّف، وقد أسهمت في تشكيل الإيقاع الداخلي، وبناء الموسيقى الشعرية ممّا جعلها تثير انتباه القارئ.

سمات القصائد والمقطوعات الهجائية السياسية

تتسم قصائد ومقطوعات الهجاء السياسي بعدة سمات أهمّها:

أوّلها: أنّ الشاعر يوجّهها في العادة إلى الحكام والقادة والجماهير.

ثانيها: أنّ الشاعر يأتي بها غالباً بعد واقعة مؤلمة، وحادثة مأساوية.

ثالثها: أنّ الشاعر يعتمد في القصائد والمقطوعات المرتبطة بالهجاء السياسي على آليات المفارقة والسخرية والتهكم والتهديد أحياناً كثيرة، كما أنّه يعتمد على جماليات الخطابية والمباشرة.

رابعها: توصل القصيدة أو المقطوعة الهجائية الماضي بالحاضر، وتتناص مع التراث الديني والثقافي والأدبي عبر توظيف الشخصيات التراثية وغيرها من الآليات.

خامسها: لا تكون القصيدة أو المقطوعة في هذا النوع من الهجاء طويلة، بل يريد الشاعر فيها أن يصل إلى المعنى المراد من أقصر طريق محكى.

## المضامين المشتركة بين شعراء الشيعة الثلاثة

أ ـ يتّضح من دراسة شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين تحدّثنا عنهم أنّهم تعرّضوا في شعرهم التاريخي لفترة بعد الرسول الأعظم (ص) أكثر من تعرّضهم لآل أميّة والسلطة العباسية، كأنّهم رأوا أنّ الخلفاء بعد الرسول (ص) كانوا هم الذين بدؤوا بالظلم والانحراف عن جادة الصواب واغتصبوا حقّ الإمام (ع) المشروع في الخلافة ثمّ اتّبعهم بنو أميّة وفعلوا بالإمام الحسين عليه السّلام في واقعة الطفّ نظير ما فعله الخلفاء السابقون بالنسبة إلى أبيه الإمام عليّ (ع) فغصبوا حقّ الوالد والولد.

ب ـ لو تتبعنا الشعر الذي أثر عن هؤلاء الشعراء ودرسناه قصيدة قصيدة ومقطوعة مقطوعة نجد فيه تقريراً لمعتقد من معتقداتهم السياسية أو مبدأ من مبادئهم يقرّر رساليّتهم في إنقاذ

المجتمع ممّا يسود فيه من استبداد وفساد.

ج ـ من النقاط المشتركة في شعر هؤلاء الشعراء أنّهم بجانب هجاء السلطات الغاصبة ونقدها قاموا أحياناً كثيرة بالجدال والدفاع بالحجج والبراهين عن مذهبهم السياسي.

د ـ أحقيّة الإمام عليّ عليه السّلام بالخلافة تعدّ من المبادئ الهامّة التي نادى بها هؤلاء الشعراء وأعطوها قسماً كبيراً من شعرهم ودافعوا عنها دفاعاً رائعاً وبجانب ذلك حملوا على مغتصبيها وهجوهم هجاءً كان أحياناً لاذعاً كما نرى عند السيّد الحميري وكان أحياناً ممزوجاً بالسخرية كما نرى عند دعبل وأحياناً وكما كان عليه طابع مذهبي سياسي كما نرى ذلك عند ديك الجنّ.

ه ـ استغرقت حادثة الطفّ قسماً يعتنى به من شعر شعراء الشيعة. يتّضح من دراسة هذا الجانب من شعرهم أنّهم نظروا إلى هذه الواقعة كخطّ استمرار واقعة السقيفة وانزياح الخلافة من مسيرها الواقعي.

و ـ كان الحديث عن آل البيت عليهم السّلام وما جرت عليهم من مصائب ومقارنتهم بما يتمتّع به آل أميّة والعباسيين من الرخاء والأمن من المضامين المشتركة بين بعض الشعراء الشيعة وخاصّة دعبل الخزاعي والسيّد الحميري.

## المضامين المختلفة بين هؤلاء الشعراء

وبعد دراسة الهجاء السياسي عند ثلاثة من كبار شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول، تبدّى للدارس أنّه كان لديهم قواسم متباينة، لعلّ أهمّها ما تلي:

يتمركز الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي على الخلفاء العباسيين ومن يسير في ركب السلطة الحاكمة الفاسدة، إذ يرى السلطة العباسية استمراراً لخطّ الانحراف الذي استولى على شؤون المجتمع بعد الرسول الأعظم (ص).

ب ـ هجاء القوّاد والولاة والكتّاب يكاد ينحصر على دعبل الخزاعي لو استثنينا هجاء السيّد الحميري ليحيى بن أكثم. لأنّهم كانوا يسيرون في ركب السلطة الفاسدة ويساعدون الخطّ

الانحرافي عن أسس الإسلام القويمة.

ج ـ وجد السيّد الحميري في حادثة الغدير معيناً لا ينضب للهجوم على خصوم الشيعة، وهذه ميزة تختصّ له، كما أنّ تلك الحادثة وحادثة الطفّ تشكلان قسماً كبيراً من هجاء ديك الجنّ السياسي.

د ـ تتجلّى معارضة الأحزاب السياسية خاصّة الخوارج والأمويين في شعر السيّد الحميري أكثر من شعر الآخرين.

ه ـ إذا مال دعبل الخزاعي في هجائه السياسي إلى السخرية فنرى السيّد الحميري وديك الجنّ يميلان إلى الاحتجاج في جانب كبير من هجائهما السياسي وكأنّهما تأثّرا إلى حدّ بأسلوب الكميت بن زيد الأسدي شاعر الشيعة في العصر الأموي.

## تأثر شعراء الشيعة المعاصرين عن شعراء الشيعة الثلاثة

لعب شعراء الشيعة دوراً حاسماً في معارضة السلطات الحاكمة ومقارعتها في مختلف العصور والفترات. يشهد تاريخ الأدب العربي على ذلك الأمر بما روى من أشعار ملتهبة لأصحابها ينقدون فيها الحكومات الفاسدة ويستنهضون بالشعب للقيام بدور ناشط في مجريات شؤون المجتمع.

يلمع في العصر المعاصر أسماء شعراء من الشيعة لعبوا دوراً بنّاءً كما لعبه أسلافهم في العصور السابقة، وكان العراق موطن أكثر هؤلاء الشعراء الذين شاركوا في الحياة السياسية بحماسة كبيرة لتحرير الوطن من التبعية والأسر. كان محمد باقر الشبيبي أكبر هؤلاء الشعراء وأكثرهم اشتهاراً الذي وقف بين يدى الملك فيصل في حفل كبير إذ لم ينفك «يقول كلمته الصريحة الجريئة في جملة ما كان يلاحظ على الجهاز الحاكم من تفريط بحقوق الشعب والتصاق شديد بالمصالح الخاصّة».[١] اسمعه يخاطب نوّاب البرلمان:[٢]

---

١. صادق، ص٥٧٤.

٢. الهلالي، ص٧٨.

أنُوّابَنا قُربَ البَرلمان فَلا ... تَبقَ أصواتُكم هامِدَه

وَلا نَفعَ لِلشَّعبِ في مَجلِسٍ ... عَواصِفَ نُوّابِهِ راكِدَه

كأنّ انْتخاباتِنا أصبَحَتْ ... مَنافِعُها لَكم عائِدَه

أفِي الحَقِّ أنْ يُستَضامَ الضَّعيـ ... ـفُ جَهْراً وَأعْيُنكُمُ شاهِدَه

يُذادُ عَنِ العَدلِ قَسراً كما ... تُذادُ الجِياعُ عَنِ المائِدَه

فَرُحْنا غَداةَ أتانا الوَزيرُ ... وَرُوحُ السَّرورِ بِنا سائِدَه

وَقُلْنا سَيَشْمَلُنا عَفْوُهُ ... فَعادَ وَعُذنا بِلا فائِدَه

إنّ القضايا الكبرى التي مثّلت الموضوعات الرئيسة في دواوين قدماء شعراء الشيعة ظلّت تمثّله دواوين الشعر الشيعة الحديث إذ نجد بعض المعاصرين من شعراء الشيعة يركزون على الأصل الشيعيّ الكبير أى مسألة الغدير وضرورة امتداد النبوّة بالإمامة المنصوص عليها. يمثّل هذا الموضوع أبرز الموضوعات في دواوين الشعراء التقليديين من شعراء الشيعة. هذا هو عليّ الفرطوسي يقول في تلك الحادثة:[١]

عيدُ الغَديرِ وقَد أكبَرتُ مِن عظمٍ ... عيداً عَلى كلِّ عيدٍ فَضلُهُ سَبَقا

عيدٌ بِهِ أصْبَحَ الإسلامُ مُبتَهِجاً ... وَأصبَحَ الكفرُ مَحزُوناً بِهِ قَلِقا

اليَومَ أكمَلْتُ فِي نَصبِ الوَصِيِّ لَكم ... دينِي وَتَمَّتْ عَلَيكم نِعْمَتِي غَدِقا

يَومَ السَّقيفَةِ قَدْ أحْدَثَتْ مُبتَدِعاً ... فِي الدّينِ فَتْقاً لهذا اليَومِ ما رَتقا

سقيفَةٌ نَقضَتْ غَدْراً ضَغائِنها ... عقدَ الغَدِيرِ وَأخْفَتْ نورَهُ حَنقا

كانت حادثة الطفَ من وجهة نظر شعراء الشيعة شديدة الصّلة بمسألة الغدير، فانطلاقاً من هذا كانوا يلحّون في الحديث عنها وكانوا يحمّلون مغتصبي الخلافة في السقيفة مسؤولية الدماء التي أريقت في كربلاء. اسمع عبد الحسين الجواهري الذي انفعل بعاشوراء:[٢]

---

١. الفرطوسي، عبدالمنعم، الديوان، مطبعة الغرى الحديثة، النجف، ٢٠١٠م، ص٤٥.

٢. الخاقاني، علي. شعراء الغرى، قم، مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٨هـ ق، شعراء الغرى، جـ ٥ ص١٧٩.

**كيــفَ أسْــلُوهم وقَــدْ بَلَــغَ الــدّاءُ ... بِقَلْبِــي أنْ لــيسَ يَسْــلُو الــدّواءُ**

**أظْهَــرُوا لِلحُسَــينِ مــا قَــدْ أسَــرّوا ... لِأبيـــهِ الشَّـــحْناءَ وَالبَغْضـــاءَ**

**وَبِتلــكَ النّــارِ التــي لــيسَ يَخبُــو ... أحْرَقُــوا لابْنِهــا الحُسَــينِ الخَبــاءَ**

فنرى الشاعر يربط بين ما وقع في السقيفة وما وقع في كربلاء على معنى السبب والنتيجة. ونرى نفس الاتجاه عند شاعر آخر، ألا وهو السيّد رضا الهندي ربط بين السقيفة وحادثة الطفّ. أنصت إليه وهو يقول:[١]

**وَعُصْـبَةٌ جَحَـدُوا حَـقَّ الحُسـينِ كمـا ... مِـنْ قَبـلِ حَـقَّ أبيـهِ المُرتَضـى جَحَـدُوا**

ومع الجواهري والهندي كان السيّد صالح الحلّي هو الآخر ربط عاشوراء بالسّقيفة قائلاً:[٢]

**قَــدْ أقامَــتْ قَواعِــدَ الظّلــمِ تَــيمٌ ... وَيَزيــــدٌ عَــــلا عَليــــه بَنــــاهُ**

**إنَّ يَــومَ الحُســينِ مِــنْ ذلــكَ اليَــ ... ــومِ وَمِــن ذلــكَ الــبَلا بَلْــواهُ**

**هُــوَ فــي أسْــرَةٍ وَهــم فِــي ألــوفٍ ... تَتَــوالى كالسّــيلِ فِــي مَجــراهُ**

**سِــيمَ ضَــيماً وَكيــفَ يُعْطِــي قِيــاداً ... مِــن عَلــيٍّ وفــاطِمَ والــداهُ**

**لَسْــتُ أنســاهُ فِــي الطُّفــوفِ وَحِيــداً ... بَــينَ أعْدائِــهِ يُقاسِــي ظِمــاهُ**

**صــائمٌ لَــمْ يَــذُقْ مِــنَ المــاءِ حتّــى ... صــارَ مِــن فَــيضِ مِنحريــهِ رَواهُ**

إنَّ الصافي النجفي شاعر شيعيّ آخر حضر على مسرح الحوادث في المجتمع العراقي ورفع صوته على وجه الفئة الحاكمة مدافعاً عن حقوق الفلاحين ودعاهم إلى ردود فعل سلبيّة لما يقع عليهم من ظلم وهجر الأرض وتركها للعرى والجدب. اسمعه يقول:[٣]

**حَسِـبَ الـوُلاةُ الحـاكمُونَ عَلَـى القُـرى ... أنْ ثَـــمَّ أجْســـادٌ وَلا أرواحُ**

**كيــفَ التَّفــاهُم بَــينَ ذَينــك نــائحٌ ... يَشْــكو العَــذابَ وَســامِعٌ مُرْتــاحُ**

**قَــدْ أنكــرُوا البُــؤسَ الــذِي بِــك مُحْــدِقٌ ... أفَيُنْكــرونَ الحَــقَّ وَهــوَ صَــراحُ**

---

١. السابق، جـ ٤ ص٩٥.

٢. الخاقاني، البابليات، الطبعة ٢، بغداد، دار البيان، ١٩٧٥م، جـ ٣ ص١٦٩.

٣. الخاقاني، شعراء الغرى، جـ ٧ ص٤٤٨..

يـا غـارِسَ الشَّـجَرِ المُؤمَّـلِ نَفْعُـهُ    دَعْـهُ فَـإنَّ ثِمـارَهُ الأتْـراحُ
أقْلِعْـهُ فَـالثَّمَرُ اللّذِيـذُ مُحَـرَّمُ    لِلغارِسـينَ وَلِلقَـوِيِّ مُبـاحُ
تَرْتـاعُ مِـنْ مَـرْأى النَّخِيـلِ كأنَّمـا    سَـعَفُ النَّخِيـلِ أسِـنَّةٌ وَ صِـفاحُ

ونحن لم نتحدّث عن هؤلاء الشعراء ولم نذكر شعرهم إلّا أن نقول إنّ شعراء الشيعة في مختلف العصور ظلّوا في طليعة المناهضين للسلطات الفاسدة الطاغية، ولابدع إذا قلنا إنّهم قرأوا لأسلافهم الشيعيين وتأثروا بهم في جوانب كثيرة من شعرهم. ولعلّ المقارنة بين مضامينهم الشعرية تثبت صدق ما ذهبنا إليه، إذ الحديث عن السقيفة وحادثة الطفّ يكاد يكون في شعر أكثر شعراء الشيعة إمّا القدماء وإمّا المحدثين.

## النتائج

درسنا في الفصل الأول تاريخ السلطة العباسية السياسية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بصورةٍ موجزة، وتبدّى من خلال ذلك بعض حقائق أهمّها ما يأتي:

أ ـ إنّ ما ذكرته المصادر التاريخية من كيفيّة استيلاء العباسيين على الخلافة هو إلى الأسطورة أقرب منه إلى الحقيقة. فاستطاع هؤلاء بهذه الأسطورة أن يفسّروا حقّهم في الخلافة باعتقادهم، كما أنّهم استطاعوا أن يبرّروا ما ارتكبوه من الجرائم بحقّ العلويين وما قاموا به من إقصاءهم من حقّهم الشرعي.

ب ـ إنّ ما قام به العباسيون من كبت الاحتجاجات وقتل من كان له دور إيجابي في قيام الدولة العباسية أنّهم كانوا يريدون بذلك حكماً مطلقاً، ولم يكن ما ادّعوه من الدعوة إلى الرّضا من آل البيت (ع) إلّا تضليل الرأى العام.

وفي الفصل الثاني درسنا شعر الهجاء منذ البداية إلى العصر العباسي الأول وحصل لنا الأمور التالية:

أ ـ لم يعرف الأدب العربي في العصر الجاهلى هجاء سياسياً بالمعنى الصحيح لهذا المصطلح، لأنّ العرب لم يكوّنوا في تلك الفترة دولةً لها نظامها الخاصّ. وما يقال من شعر

الصّعاليك وما وصلنا من بلاط المناذرة والغساسنة وإن كان خروجاً على التقاليد المعروفة واحتجاجاً عليها إلّا أنّه لا يمثّل هجاءً سياسياً بل هو إلى الفخر والحماسة أقرب منها إلى الهجاء السياسي.

ب ـ تعود بواكير الهجاء السياسي إلى زمنٍ التحق الرسول الأعظم (ص) إلى الرفيق الأعلى فحدث شقاق كبير في المجتمع الإسلامى حول خلافة الأمّة بعد النّبيّ (ص).

ج ـ كان شعر الهجاء السياسي عند العرب وليد نشأة الأحزاب والفرق السياسية بعد وفاة الرسول الأعظم (ص) وحروب الإمام عليّ (ع) مع المعارضة فاتّسع نطاق هذا النوع من الشعر من حيث الكمّية وكان شعراء الشيعة في طليعة المعارضين إذ تناولوا الحكام بالنقد والهجاء ببعدهم عن الدعوة الإسلامية وبخروجهم على الشرع.

د ـ امتزج الهجاء السياسي في العصر الإسلامي بالهجاء الديني وكثيراً ما رأينا الشعراء المناوئين للأمويين وخاصّة الشيعة يهجونهم بتعطيل الأحكام الإلهية والخروج عن جادة الصّواب، وكان الكميت بن زيد الأسدي في طليعة شعراء الشيعة في ذلك العصر.

وبعد دراسة الهجاء السياسي في شعر السيّد الحميري في الفصل الثالث، حصلت النتائج التالية للباحث:

أ ـ إنّ الموضوع الذى استغرق كمّاً هائلاً من هجائه السياسي هو مسألة الغدير والدفاع عن أحقيّة الإمام علىّ (ع) للخلافة وهجاء أصحاب الأحزاب المناوئة للشيعة.

ب ـ كان الشاعر يعيش في العصر العباسي في حين أنّ أكثر شعره الهجائى السياسي موجّه إلى الخلفاء الراشدين وأعداء الشيعة في القرن الأول الهجري، وقلّما نرى عنده شيئاً في هجاء السلطة العباسية إلّا هجاء القاضي يحيى بن أكثم، وهذا باعتقادنا يعود إلى أنّ الشاعر يرى خلافة العباسيين نتيجة الانحراف الذى حدث في صدر الإسلام، وبهذا يهجو العباسيين بصورة تلويحية.

ج ـ طبع كثيرٌ من القصائد والمقطوعات الهجائية عند الحميري بطابع تقريريّ محض،

وهي تخلو في كثير من جوانبها من الجمال والعاطفة وتشبه الخطاب.

د ـ أخذ الهجاء السياسي عند السيّد الحميري صبغةً دينية أحياناً كثيرة، وهذه ميزة قلّما نراها عند شعراء الشيعة الآخرين في هذا العصر الذين تناولوا السلطة الحاكمة والسلطات الحاكمة قبلها بالنقد والتجريح. إذ تأثر في كثير من جوانبها بالقرآن والحديث الشريف، واستخدم الألفاظ والمعاني الدينية بكثرة.

كان دعبل أكبر شاعر شيعيّ في العصر العباسي الذي هجا السلطة العباسية. من خلال دراسة الهجاء السياسي في شعره اتّضحت للدّارس النقاط التالية:

أ ـ يتميّز الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعى بطابعه الساخر والسبب في ذلك يعود إلى ما تتمتع به السخرية من إمكانية السرعة في النفاذ إلى العقول والتأثر بها، لتنتشر وتتصل بالرأى العام وبأفكار الجماهير، وتصبح من المكونات الأساسية لتنبّه الشعب.

ب ـ كانت سخرية دعبل على تلقائيتها وبساطتها سخرية هادفة وأنه حقق عن طريقها أهدافاً اجتماعية وسياسية عامة، كما أنّه كان في هجائه السياسي جادّاً كلّ الجدّ ومعبّراً عن مواقفه وهواجسه خير تعبيرٍ، لأنّه كان ملتزماً بقضاياه وملتزماً مع ذاته.

ج ـ تفنّن دعبل في عرض القضايا المتعلقة بعصره، وساعده على ذلك ثقافته الدينية ومعرفته الاجتماعية، والوظيفية وشاعريته الممتازة التي مكنته من تنويع أساليبه الهجائية ما بين التهديد والتهكم، والصور الاستدلالية والسخرية وتوظيف التّراث والسّرد القصصي.

وبعد دراسة شعر ديک الجنّ في الفصل الخامس حصل لنا بعض النتائج:

أ ـ كان ديك الجن من شعراء الشيعة الذين ظلّوا في شعرهم يحتكون بالجانب الفكري والعاطفي من عقيدة الشيعة معاً. يتجلّى الجانب الفكري في دفاعه عن أحقية الإمام عليّ (ع) بالخلافة. وفي الجانب العاطفي يظل رثاء الإمام الحسين عليه السّلام هو الموضوع الذي يستأثر باهتمامه.

ب ـ كان تشيّع ديك الجنّ لآل الإمام على بن أبي طالب (ع) أكبر باعث دفعه إلى الهجو

السياسي إذ كان يرى أنّ آل البيت (ع) أحق بالخلافة، وقد صرح برأيه هذا في مواضع كثيرة من شعره، ونرجّح أن يكون هذا الأمر السبب الرئيس الذي أثار عليه سخط السلطة العباسية.

ج ـ إذا كنّا قد رأينا في دراستنا لشعر دعبل الخزاعي والسيّد الحميري أنّهما أفردا قصائد أو مقطوعات مستقلّة في هجاء الخلفاء والوزراء والكتّاب وكبار مسؤولي الدولة في السلطة العباسية، فإنّا لانرى ذلك عند ديك الجنّ الحمصي بحيث تكاد هذه الميزة تضمحلّ في شعره. والدارس لشعره لا يكاد يعثر على قصيدة أو مقطوعة استهدف الشاعر من وراءها هجاء السلطة العباسية، وليس معنى هذا أنّه اتّخذ سياسة عدم الانحياز إزاء مظالم العباسيين ولم يحاول تصوير انحرافاتهم، بل كان شاعرنا معارضاً لسياسة العباسيين من خلال مديحه لأهل البيت عليهم السّلام ورثائه لهم، هؤلاء الذين لم يألوا جهداً في نضال الظالمين.

د ـ اتّخذ ديك الجنّ من رثاء الإمام الحسين (ع) وآل البيت وما أصابهم عبر العصور المختلفة أداة للهجوم على خصوم الشيعة وخاصّة الأمويين والعباسيين الذين خلقوا مآسي كبيرة، وهذا أسلوب جديد لا يقلّ أهميّةً عن الهجاء المباشر السياسي

وأخيراً بعد دراسة الصور الفنية في شعر الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة الثلاثة حصلت النتائج التالية:

أ ـ اتخذ الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة الثلاثة القطع الشعرية والأبيات المحدودة شكلاً تعبيرياً له في معظم الأحيان. وكان هذا الأمر ظاهرة فنية بارزة عند هؤلاء الشعراء.

ب ـ يمتاز الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة بوحدته الموضوعية وميله إلى استخدام الصورة القصصية. كما أنّه يمتاز بطابعه الساخر واستلهامه من التراث الديني أحياناً كثيرة.

ج ـ خلوّ الهجاء السياسي من التصنع وإقبال شعراء الشيعة على البساطة والتلقائية ميزة هامة في أدب الشيعة في العصر العباسي الأول.

## الخاتمة:

الحمد لله الذي زيّن البشر بنعمة العقل، ومنّ عليهم بالعطاء، وكان خيرَ مُعين لهم على قضاء أمورهم، وبعد..

فقد تمّت بحمد الله هذه الدراسة وفحواها دراسة الهجاء السياسي في شعر شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول، السيّد الحميري، ودعبل الخزاعي، وديك الجنّ نموذجاً، وأهمّ النتائج التي تمّ التوصل إليها في هذه الدراسة ما يلي:

- بيّن شعر الهجاء السياسي عند شعراء الشيعة الثلاث جسامة الأحداث التي وقعت على ساحة المسلمين، فكان سجلّاً تاريخيّاً شهّر بالشخصيّات الانتهازية وفضح العملاء والمتآمرين على الأمة.
- الأسباب التي دفعت شعراء الشيعة إلى الهجاء السياسي كثيرة، منها الدفاع عن أحقّيّة أهل البيت (ع) للخلافة بعد الرسول الأعظم (ص) ومنها ما هو أهمّ وهو الانحراف السياسي والديني عن المبادئ التي رسمها صاحب الشريعة للمجتمع الإسلامي، ومنها التباين الطبقي في المجتمع العباسي، ومنها ما كان لأغراضٍ دينية عقائدية.
- إنّ الهجاء السياسي في شعر السيّد الحميري يتجلّى في الجانب الفكري من عقيدته وهو الذي يكاد يستغرق شعره، ونظنّ أنّ ذلك إنّما تمّ لما وقع في عصر الشاعر من تحدٍّ كبير من قبل السلطة الحاكمة يسرف في امتهان الرأى الشيعي.
- اتّخذ الهجاء السياسي عند دعبل الخزاعي طابعاً ساخراً في كثير من جوانبه، وكان ذلك سلاحاً بيده في مقاومة الظلم والجور، كما أنّه كان مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية والتمرّد على النظام السياسي في العصر العباسي الأول.
- ظلّ ديك الجنّ في شعره الهجائي السياسي يحتك بالجانب الفكري والعاطفي من عقيدة الشيعة معاً. يتجلّى الجانب الفكري في دفاعه عن أحقية الإمام عليّ (ع) بالخلافة. وفي الجانب العاطفي يظل رثاء الإمام الحسين عليه السّلام هو الموضوع الذي يستأثر

باهتمامه، إذ اتّخذ من رثاء الإمام الحسين (ع) وآل البيت وما أصابهم عبر العصور المختلفة أداة للهجوم على خصوم الشيعة وخاصّة الأمويين والعباسيين الذين خلقوا مآسي كبيرة، وهذا أسلوب جديد لا يقلّ أهميّةً عن الهجاء المباشر السياسي.

• لم يكن الهجاء السياسي موضوعاً مستقلاً بذاته في شعر ديك الجنّ، وإنّما جاء في ثنايا قصائد مديح أهل البيت عليهم السّلام ورثاءهم.

• وظّف شعراء الشيعة الثلاث الموروثات وتواصلوا بالتراث في أشعارهم الهجائية السياسية، حيث كان للموروث الديني نصيب كبير من حيث الاقتباس أو الحديث عن الأحداث التاريخية الإسلامية. هؤلاء جعلوها طريقاً إلى الهجاء السياسي لبيان ما كان عند مهجوّيهم من ضعف ونقائص.

• هناك مضامين مشتركة كثيرة وجدناها في شعر شعراءنا الثلاث أهمّها: الحديث عن مسألة الخلافة ومن يستحقّها، الدفاع عن أحقيّة الإمام عليّ عليه السّلام للخلافة، حادثة الطفّ ومصائب آل البيت عليهم السّلام، الجدال والدفاع بالحجج والبراهين عن مذهب الشيعة السياسي، وهجاء خصوم الشيعة من الأمويين والعباسيين.

• وفي الجانب الفنّي بدا أنّ المقطوعة القصيرة هي الشكل الغالب على بناء القصيدة الهجائية عند شعراء الشيعة الثلاث في العصر العباسي الأول. ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة شعر الهجاء الذي يميل إلى الإيجاز والتكثيف، وهو ما سعى إليه الشعراء لتحقيق مآربهم وتوصيل رسائلهم بأسرع وقت ممكن. أمّا ما ظهر من قصائد طويلة فنماذجها قليلة.

• الأسلوب العام لشعر الهجاء السياسي كان متّسماً بالسهولة والوضوح والابتعاد عن الألفاظ الغريبة المعقّدة، إذ اعتمد شعراء الشيعة الثلاث في هجوهم على البساطة والتلقائية واستخدام اللغة الشعبية السهلة القريبة من الأفهام، حيث خلت مقطوعاتهم وقصائدهم الهجائية من التصنع والغور في المحسنات البديعية.

• إنّ شعراء الشيعة المعاصرين قرأوا لأسلافهم الشيعيين وتأثروا بهم في جوانب كثيرة من

شعرهم، وثبت ذلك من خلال المقارنة بين مضامينهم الشعرية، إذ هجاء فساد السلطات الحاكمة والتركيز على حقّ الشيعة المغتصب، وحادثة الطفّ يكاد يكون في شعر أكثر شعراء الشيعة إمّا القدماء وإمّا المحدثين.

# فهرس الآيات القرآنية الكريمة

# فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة.
- إبراهيم حسن، حسن. ***تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافي والاجتماعى.*** ط١٤. بيروت: دار الجيل ـ القاهرة: المكتبة النهضة المصرية. ١٩٩٦م.
- الإبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح. ***المستطرف في كلّ فن مستظرف.*** بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.١٩٨٧م.
- ابن إبراهيم القندوزي، سليمان. ***ينابيع المودّة.*** ط١. قم: مطبعة بصيرت. ١٣٤٠ه.ش.
- ابن أبي الحديد، أبو حامد هبة الله بن محمد. ***شرح نهج البلاغة للإمام علي عليه السّلام.*** بيروت: دار الفكر العربي. ١٩٥٦م.
- ابن الأثير، أبوالحسن عليّ بن عبدالواحد. ***الكامل في التاريخ.*** بيروت: دار الفكر.١٩٧٨م.
- ابن الأثير، ضياء الدين الجزري نصرالله. ***المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.*** تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مصر: شركة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي.١٩٣٩م.
- ــــــــــــــــــــ . ***أسد الغابة في معرفة الصحابة.*** بيروت: دار الفكر. د.ت.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن. ***النجوم الزاهرة.*** وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر: المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة. ١٩٧٢م.
- ابن الجوزي، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد. ***المنتظم.*** دراسة وتحقيق محمد

عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا. راجعه وصححه نعيم رززور. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٩٢م.

- ابن خلدون، أحمد بن محمد. ***مقدمة ابن خلدون***. تحقيق الأستاذ درويش الجويدي. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية. ٢٠٠٥م.

- ———————. ***تاريخ ابن خلدون***. بيروت - لبنان: منشورات مؤسسة الأعلمي. ١٩٧١م.

- ابن خلكان، محمد بن أحمد. ***وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان***. ط ٤.تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ٢٠٠٥م.

- ابن رشيق، أبوعلى حسن القيرواني. ***العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده***. تحقيق عبد الحميد هنداوي. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية. ٢٠٠٤م.

- ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد الهاشميّ. ***الطبقات الكبرى. بيروت:*** دار صادر للطباعة والنّشر. ١٩٥٨م.

ابن سلام الجمحي، محمد. ***طبقات فحول الشعراء***. قرأه وشرحه أبو الفهر محمود محمد شاكر.٢ج. القاهرة: مطبعة المدني. د.ت.

- ابن شهر آشوب، محمد بن علي. ***معالم العلماء***. النجف: المطبعة الحيدرية. ١٨٦٠م.

- ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، محمد بن عليّ. ***الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية***. بيوت: دار صادر. ١٩٦٦م.

- ابن عبدالبرّ، يوسف بن عبدالله بن محمد. ***الاستيعاب في معرفة الصّحابة***. تحقيق عليّ محمد البجاوي. مكتبة نهضة مصر.دون سنة طبع.

- ابن عبد ربه. ***العقد الفريد***.تحقيق: محمد عبد القادر شاهين. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية. ٢٠٠٤م.

- ابن عساكر، عليّ بن الحسن. ***تاريخ مدينة دمشق***. تحقيق نشاط غزاري. بيروت: دار الفكر.

١٤٠٤هـ.ق.

- ابن فارس، أبوالحسين أحمد. ***معجم مقاييس اللغة.*** ط١ . تحقيق عبدالسلام هارون. بيروت: دار الجبل. ١٩٩١م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري. ***الإمامة والسياسة.*** تحقيق د. طه محمد الزيني. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنّشر.

- ــــــــــــــــ . ***عيون الأخبار.*** ٤ج. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. د.ت.

- ــــــــــــــــ . ***الشعر والشعراء.*** تحقيق أحمد محمد شاكر. مصر: دار المعارف. ١٩٦٦م.

- ابن قيس الرقيات، عبيدالله. ***ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات.*** شرح وتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم. بيروت: دار صادر.

- ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء الحافظ. ***البداية والنهاية.*** دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون. ط ١. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.١٩٨٥م.

- ابن محمد السبزواري، شيخ محمد. ***جامع الأخبار.*** ط ١. قم: مؤسسة آل البيت. ١٣٤٨ هـ.ش.

- ابن المعتز، عبدالله. ***طبقات الشعراء.*** تحقيق عبدالسّتار أحمد نوح. مصر: نشر دار المعارف. ١٩٥٦م.

- ابن منظور، جمال الدين مكرم. ***لسان العرب.*** ٨ج. نسقه وعلق عليه علي شيري. بيروت: دار إحياء التراث. ١٩٠٨م.

- ــــــــــــــــ . ***أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه.*** قدّم له وأشرف على تصحيحه وتقسيمه وتبويبه عمر أبو النصر. ط ٢. ١٩٦٩م.

- أبوحاتم، نبيل خليل. ***الفرق الإسلامية فكراً وشعراً.*** دار الثقافة، بيروت، د.ت.

- أبو حاقة، أحمد. ***الالتزام في الشعر العربي***. ط١. بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٧٩م.

- أبوسعدة، محمد. ***الخوارج في ميزان الفكر الإسلامى***. ط٢. كلية الآداب ـ جامعة حلوان. ١٩٩٨م.

أبو العتاهية. ***ديوان أبي العتاهية***. شرحه كرم البستاني. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر ـ دار بيروت للطباعة والنشر. د.ت.

أبو عيسى، فتحي محمد عوض. ***الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري***. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ١٩٧٠م.

- أبو الفرج الإصفهاني، ***الأغاني***. شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر. ط ١. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.١٩٨٦م.

- ـــــــــــ . ***مقاتل الطالبيين***. شرح وتحقيق السيّد أحمد صقر. ط ٢. بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. د.ت.

- إسماعيل بن محمد. ***ديوان السيد الحميري***. شرحه وضبطه وقدّم له ضياء حسين الأعلمي. بيروت ـ ط١. لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٩م.

- الأصمعي، عبد الملك بن قُريب. ***الاصمعيات***. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. ط ٧. القاهرة: دار المعارف. ١٩٩٢م.

- أعشى، ميمون بن قيس، **الديوان**. شرح وتعليق: الدكتور م. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، د.ت.

- أمين، أحمد. **النقد الأدبي**. ط ٣. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ١٩٦٣م.

- ـــــــــــ . **فجر الاسلام**. ط ١. دار الشروق. ٢٠٠٩م.

- ـــــــــــ . ***ضحى الإسلام***. قدم له وعلق عليه أحمد السيّد سيّد أحمد علي. مصر: المكتبة التوفيقية.

- ـــــــــــ . **فجر الإسلام**. ط١، دار الشروق، ٢٠٠٩م.

الأمين، محسن. ***أعيان الشيعة.*** حققه وأخرجه: حسن الأمين. بيروت: دار التعارف للمطبوعات.. ١٩٨٣م.

ـ الأميني، عبد الحسين أحمد. ***الغدير في الكتاب والسنة والأدب.*** ط٤. بيروت: دار الكتاب العربي. ١٩٧٧م.

ـ الأنطاكي، داود. ***تزيين الأسواق في أخبار العشاق.*** بيروت: دار ومكتبة الهلال. ١٩٨٦م.

ـ بدوي، أحمد أحمد. ***أسس النقد الأدبي عند العرب.القاهرة:*** ط٢. مكتبة نهضة مصر بالفجالة. ١٩٦٠م.

ـ بروكلمان، كارل. ***تاريخ الأدب العربي.*** ترجمة: محمود فهمي حجازي. القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب. ١٩٩٣م.

ـ البستاني، بطرس. ***أدباء العرب في الأعصر العباسية.*** بيروت ـ لبنان: دار الجيل. ١٩٧٩م.

ـ البستاني، محمود. ***تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي.*** ط١. مشهد ـ ايران: مؤسسة الطبع والنشر للآستانة الرضوية المقدسة. ١٤١٣ه.ق.

ـ بشار بن برد. ***ديوان بشار بن برد.*** تقديم وشرح وتكميل فضيلة الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. د.ت.

ـ بكار، يوسف حسين. ***بناء القصيدة العربية.*** القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر. ١٩٧٩م.

ـ البلاذري، أبوالحسن أحمد بن يحيى البلاذري. ***فتوح البلدان.*** عنى بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٨٣م.

ـ ــــــــــــ . ***أنساب الأشراف.*** تحقيق الدكتور محمد حميد الله. مصر: معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ـ دار المعارف. دون سنة طبع.

ـ بولارد، آرثر. ***موسوعة المصطلح النقدي.*** ٢ج.ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة، بيروت، ١٩٨٢م.

ـ البهبيتي، محمد نجيب. ***تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري.*** القاهرة: مكتبة دار الكتب المصرية. ١٩٥٠م.

- بيطار ،أمينة. ***تاريخ العصر العباسي***. دمشق: مطبعة جامعة دمشق. دون سنة طبع.

- التميمي، قحطان رشيد. ***اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري***. بيروت: دار الميسرة. د.ت.

- التيفاشي، أحمد بن يوسف. ***سرور النّفس بمدارك الحواس الخمس***. تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت: طبع المؤسسة العربية. ١٩٨٠م.

- الثعالبي، أبو منصور. ***ثمار القلوب في المضاف والمنسوب***. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. مصر: دار نهضة. ١٩٦٥م.

- ثعلب، أبوالعباس. ***قواعد الشعر***. حققه وقدم له وعلق عليه د. رمضان عبد التواب. القاهرة مكتبة الخانجي.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ***البيان والتبيين***. تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٦٠م.

- ـــــــــــــ . ***الحيوان***.٧ج. تحقيق الدكتور يحيى شامي.ط٢. بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال. ١٤١٢ه.

- الجرجاني، على بن عبدالعزيز. ***دلائل الإعجاز في المعاني***. تحقيق السيّد رشيد رضا. مصر: دار المنار. ط ٤. ١٣٦٨ه.ق.

- جعفر نور الدين، حسن. ***ديك الجن الحمصي عصره وحياته وفنونه الشعرية***. ط١. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية. ١٩٩٠م.

- الجهشيارى، أبوعبدالله محمد بن عبدوس بن عبدالله الجهشيارى. ***الوزراء والكتاب***. تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ١٩٣٨م.

- جيدة، عبدالحميد. ***قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعى وابن الرومى***، طرابلس ـ لبنان: منشورات دار الشمال للطباعة والنشر.١٩٨٥م.

ـ الحائري، السيّد محمد حسين. ***الإمامة الكبرى والخلافة العظمى. النجف:*** مطبعة النعمان.

ـ حاوي، إيليا. ***فنّ الهجاء وتطوره عند العرب.*** بيروت: دار الثقافة. ١٩٩٨م.

ـ حجاب، محمد نبيه. ***معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول.*** ط١.القاهرة: دار المعارف. ١٩٧٣م.

ـ حسين، طه. ***حديث الأربعاء.*** ط١٤. القاهرة: دار المعارف.

ـ ـــــــ . ***الفتنة الكبرى علي وبنوه.*** ط.١٢. القاهرة: دار المعارف.

ـ ـــــــ . ***تجديد ذكرى أبي العلاء.*** ط٤. القاهرة: دار المعارف. ١٩٥١م.

ـ الحسيني المرعشي الشوشتري، القاضي نورالله. ***إحقاق الحق.*** ط١. مطبعة مكتبة آية الله المرعشي. ١٣٤٥ه.ش.

ـ الحصري القيرواني، أبو إسحاق. ***زهر الآداب وثمر الألباب.*** ضبطه وشرحه الدكتور زكي مبارك. مصر. د.ت.

ـ الحموي، ياقوت أبوعبدالله. ***معجم البلدان.*** بيروت: دار صادر. د.ت.

ـ ـــــــــــــ . ***معجم الأباء.*** ط٣. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٨٠م.

ـ حُميدة، طه عبدالحسيب. ***أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني.*** القاهرة: مطبعة السعادة. ١٩٦٥م.

ـ الحوفي، أحمد محمد. ***أدب السياسة في العصر الأموي.*** ط٥. الفجالة ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة.

ـ الخاقاني، علي. ***شعراء الغرى.*** قم: افست. مكتبة آية الله المرعشي النجفي. ١٤٠٨ه.ق.

ـ ـــــــ . ***البابليات أو شعراء الحلّة.*** ط٢. بغداد: دار البيان. ١٩٧٥م.

ـ الخضري، محمد بك. ***محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.*** ط٧. بيروت ـ لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع. ٢٠٠٥م.

ـ الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن على البغدادي. ***تاريخ بغداد أو مدينة السّلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ***. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية. دون سنة طبع.

ـ خفاجي، محمد عبد المنعم. ***الآداب العربية في العصر العباسي الأول***. ط١. بيروت: دار الجيل. ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ دعبل بن عليّ الخزاعي. ***ديوان دعبل بن عليّ الخزاعي***. جمعه وقدّم له وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي. ط١. بيروت: دار الكتاب اللبناني. ١٩٧٢م.

ـ الدميرى، كمال الدين. **حياة الحيوان الكبرى**. ط٤. طهران ـ ايران: انتشارات ناصر خسرو. ١٣٧٣ ه.ش.

ـ الدوئلي، أبو الأسود. ***ديوان أبي الأسود الدوئلي***. تحقيق عبدالكريم الدّجيلي. بغداد ١٣٧٣هـ.

ـ الدوري، عبدالعزيز. ***النظم الإسلامية***. بغداد: مطبعة المعارف. ١٩٥٩م.

. الدهان، محمد سامي. ***الهجاء (فنون الأدب العربي)*** ط٣. القاهرة: دار المعارف.

ـ الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود. ***الأخبار الطوال***. تحقيق عبدالمنعم عامر. مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال. ط١. القاهرة: منشورات الشريف الرضي.طبع عيسى الباب الحلبى وشركاه. ١٩٦٠م.

ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. ***سير أعلام النبلاء***. تحقيق الدكتور بشّار غعواد معروف والدكتور محيي هلال السرحان.ط ٨. بيروت: مؤسسة الرسالة.١٩٩٢م.

ـ الراعي النميري. عبيد بن حصين. ***الديوان***. دراسة وتحقيق نوري حمودي القيسي. مطبعة المجمع العلمي العراقي. ١٩٨٠م.

ـ ***رسائل إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء***. (مؤلف مجهول) تقديم: عليوش عبود، وزارة الثقافة، الجزائر ٢٠٠٧م.

ـ الزركلي، خير الدين. ***الأعلام***. ط٤. بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٧٩م.

ـ زغلول، محمد سلام. ***الأدب في العصر العباسيين***. الإسكندرية: منشأة دار المعارف.

١٩٩٣م.

ـ زكريا، إبراهيم. ***سيكولوجية الفكاهة والضحك.*** القاهرة: دار مصر للطباعة.

ـ زيدان، جرجي. ***تاريخ التمدن الإسلامي.*** بيروت ـ لبنان: منشورات دار ومكتبة الحياة.

ـ سالم، السيّد عبدالعزيز. ***دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول.*** الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. ١٩٩٣م.

ـ سلطان اليوزبكي، توفيق. ***الوزارة نشأتها تطورها في الدولة العباسية.*** ط٢.طبع على نفقة مؤسسة دار الكتب للطبع والنشر. جامعة الموصل. ١٩٧٦م.

ـ سيد، أمير على. ***مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى.*** ترجمة رياض رأفت. القاهرة: مكتبة صقلية العربية. ١٩٣٨م.

ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر. ***تاريخ الخلفاء.*** حققه وقدّم له وخرج آياته الشيخ قاسم الشماعي والشيخ محمد العثماني. ط١. ١٩٨٦م.

ـ الشايب، أحمد. ***أصول النقد الأدبي.*** ط٨. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ١٩٧٣م.

ـ ـــــــــ . ***تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني.*** ط ٥. بيروت ـ لبنان: دار القلم. ١٩٧٦م.

ـ شرف، عبدالعزيز. ***الأدب الفكاهي.*** مكتبة ليدن، ١٩٩٢م.

ـ الشروانى، أحمد بن محمد. ***نفحة اليمن.*** النّاشر: حسين شرف ومحمد أمين الخانجى. طبع المطبعة الشرفية. ١٣٢٤هـ

ـ الشطي، عبد الفتاح عبد المحسن. ***شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي.***القاهرة: دار الطباعة والنشر. ١٩٩٨م.

ـ الشكعة، مصطفى. ***الشعر والشعراء في العصر العباسي.*** ط٦. بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٨٦م.

ـ الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم. ***الملل والنحل.*** تحقيق أمير مهنا وعلي فاعور. ط٣.

بيروت: دار المعرفة. د.ت.

- صادق، عبدالرضا. ***في أدب العراق الحديث دور الأدباء الشيعة***. مراجعة وتقديم حبيب صادق. ط١. بيروت: دار الفارابي. ٢٠٠٩م.

- صبحي الحسني، محمد. ***خليفة رسول الله***. ط١. بيروت: دار المحجة. ٢٠٠٦م.

- الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى.***أخبار البحتري***.دمشق: دار الفكر. ١٩٦٤م.

- ضيف، شوقي. **تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)**. ط٣. القاهرة: دار المعارف.

- ـــــــــ . **تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)** ط٨. القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٢م.

- ـــــــــ. ***فصول في الشعر ونقده***. القاهرة: دار المعارف. ١٩٧١م.

- الطّبرسى، أحمد بن على. ***الاحتجاج على أهل اللّجاج. النجف الأشرف:*** دار النّعمان. ١٩٦٥م.

- عاصي، عبدالهادي. ***المنهج السياسي عند الإمام علي عليه السلام***. تقديم سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله. ط١. بيروت: دار الأمير. ١٩٩٦م.

- عباس، إحسان. ***شعر الخوارج***. بيروت: دار الثقافة. ١٩٢٣م.

- عبدالرحمن، نصرت. ***في النقد الحديث***. ط ١. عمان: مكتبة الأقصى. ١٩٧٩م.

- عبد السلام بن رغبان. ***ديوان ديك الجن***. جمع وتحقيق مظهر الحجّي. دمشق: منشورات وزارة الثقافة. ١٩٨٧م.

- عجلان، عباس بيومى. ***الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية***. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. ١٩٨٥م.

- العسكرى، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل. ***الأوائل***. دمشق. وزارة الثقافة. ١٩٧٥م.

- ـــــــــــــــ . ***الصناعتين (الكتابة والشعر)***. تحقيق على محمد البجاوي. ط ٢. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي. ١٩٧١م.

- العشماوي، محمد زكي. **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.** دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.
- العقاد، عباس محمد. ***مراجعات في الآداب والفنون.*** بيروت: دار الكتاب العربي.١٩٦٦م.
- عطوان، حسين. ***شعراء الشعب في العصر العباسي الأول.*** عمان: منشورات مكتبة عمان. ١٩٧٠م.
- عطيّة، أحمد. ***سيكولوجية الضحک.*** بيروت: دار إحياء الكتب العربية. د.ت.
- علوش، مى. ***لآلي الشعر في الهجاء أجمل الأبيات وأشهرها.*** لبنان: دار المؤلف للنشر والطباعة والتوزيع.٢٠٠٣م.
- عمر، فاروق. ***بحوث في التاريخ العباسي.*** بيروت: دار القلم للطباعة. د.ت.
- عوض أبو عيسى، فتحى محمد. ***الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري.*** الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ١٩٧٠م.
- عويضة، كامل محمد محمد. **دعبل بن علي الخزاعي الصورة الفنية في شعره.** دار الكتب العلميّة للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.
- عيسى، رياض. الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتّى سقوط الدولة الأموية. ط ١. دمشق. ١٩٩٢م.
- ***العيون والحدائق في أخبار الحقائق.*** (مؤلف مجهول). بغداد: مكتبة المثنى. د.ت.
- غالب الطويل، محمد أمين. ***تاريخ العلويين.*** اللاذقية ـ سوريا: مطبعة الترقي. ١٩٢٤م.
- الفرطوسي، عبدالمنعم. ***الديوان.*** ٢ج. النجف: مطبعة الغرى الحديثة. ٢٠١٠م.
- فلهوزن، يوليوس. ***تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية.*** ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٨٦م.
- قاسم، عون الشريف. ***شعر البصرة في العصر الأموي. بيروت ـ لبنان:*** ط١. دار الثقافة. ١٩٧٢م.

ـ القاضي، النعمان. ***الفرق الإسلامية في الشعر الأموي***. مصر: دار المعارف. د.ت.

ـ قدامة، ابن جعفر. ***نقد الشعر***. تحقيق محمد عبدالمنعم الخفاجي. بيروت: دار الكتب العلمية. د.ت.

ـ قزيحة، رياض. الفكاهة والضحك في التراث المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي. ط١. صيدا ـ بيروت: المكتبة العصرية. ١٩٩٨م.

ـ القط، عبدالقادر. ***في الشعر الإسلامي والأموي***. بيروت: دار النهضة.١٩٨٧م.

ـ قيسي، نوري حمودي. ***شعراء أمويون***. العراق ـ جامعة الموصل: مؤسسة دار الكتب.١٩٧٦م.

ـ كاشف الغطاء، محمد حسين. ***أصل الشيعة وأصولها***. بيروت.د.ت.

ـ الكميت بن زيد الأسدي. ***شرح هاشميات الكميت ابن زيد الأسدي***. تحقيق داود سلّوم ونوري حمودي القيسي. ط٢. عالم الكتب مكتبة النهضة العربية. ١٩٨٦م.

ـ ـــــــــــــــــ ***ديوان الكميت بن زيد الأسدي***. جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي. بيروت: ط١. دار صادر. ٢٠٠٠م.

ـ الكندي، أبوعمرو محمد بن يوسف. ***الولاة***. تحقيق الدكتور حسين نصار. بيروت:دار صادر.١٩٥٩م.

ـ لويس، برنارد. ***أصول الإسماعيلية***. ترجمة عربية. بغداد. ١٩٤٧م.

ـ محمد، محمد حسين. **الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية**. ط٣. بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٧٠م.

ـ ـــــــــــــــــ . ***الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام***. الإسكندرية: المطبعة النموذجية. د.ت.

ـ مختار الليثي، سميرة. ***جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول***. بيروت: دار الجيل. د.ت.

ـ المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عمران. ***أخبار شعراء الشيعة***. ط٢. تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور الشيخ هادي الأميني. بيروت ـ لبنان: شركة الكتبي للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٩٣م.

- ــــــــــــــــــ . ***معجم الشعراء***. تحقيق فاروق اسليم. ط ١. بيروت: دار صادر. ٢٠٠٥م.

- المسعودى، على بن الحسين. ***التنبيه والإشراف***. بيروت: دار التراث. ١٩٦٨م.

- ــــــــــــــــــ . ***مروج الذهب ومعادن الجوهر***. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: دار المعرفة. د.ت.

- المطهري، مرتضى. ***الملحمة الحسينية***. ط١٤. طهران: انتشارات صدرا. ١٣٦٨ه.ش.

- المعاملي، شوقي محمد. ***الاتّجاه الساخر في أدب الشدياق***. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧م.

- المعرى، أبوالعلاء. **رسالة الغفران**. ط٦. تحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن. دار المعارف. ١٩٧٧م.

- معروف الحسني، هاشم. ***انتفاضات الشيعية عبر التاريخ***. بيروت: دار التعارف للمطبوعات. ١٩٩٠م.

- مغنية، حبيب. الشعر السياسي من وفاة الرسول (ص) إلى نهاية العصر الأموي. ط١. بيروت: دار ومكتبة الهلال. ٢٠٠٩م.

- المقدسي، محمد بن أحمد. ***أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم***. القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٥٩م.

- مفتاح، محمد. ***مدخل إلى قراءة النص الشعري*** (المفاهيم معالم). فصول، المجلد السادس عشر، العدد الأول، صيف ١٩٩٧م.

- موسى، حسين. **دعبل بن على الخزاعى**. ط١. الدار الإسلامية. ١٩٨٠م.

- النمري، المنصور. ***شعر منصور النمري***. جمعه وحققه الطيب العشاش. دمشق: دارالمعارف

للطباعة. ١٩٨١م.

- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى. ***فرق الشيعة.*** استانبول: مطبعة الدولة. ١٩٣١م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. ***نهاية الأرب في فنون الأدب.*** القاهرة: المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والنشر. د.ت.

- نيكلسون. رينولد. ***تاريخ العرب الأدبي.*** ترجمة د. صفاء خلوصي. بغداد: مطبعة المعارف. ١٩٦٩م.

- هدّارة، محمد مصطفى.***اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني.*** القاهرة: دار المعارف. ١٩٦٣م.

- الهلالي، عبدالرزاق. ***الشاعر الثائر محمد باقر الشبيبي.*** ط١. بغداد: مكتبة النهضة. ١٩٦٥م.

- همام بن غالب. ***شرح ديوان الفرزدق.*** ط ١. ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي.منشورات دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة. ١٩٨٣م.

- الهوال، حامد عبده. ***السخرية في أدب المازني.*** القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. ***تاريخ اليعقوبي.*** منشورات دار بيروت للطباعة والنشر. ١٩٨٠م.